معابر الثقافة الإسلامية إلى أوربا

للدكتور
محمود محمد رسلان
الأستاذ المساعد فى كلية أصول الدين - جامعة الأزهر
والأستاذ المشارك فى جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية الشريعة فرع الجنوب

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

المقدمة

اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونستهديك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولانكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجدو إليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملْحِقْ.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين البررة .

وبعد : فالحديث عن معابر الثقافة الإسلامية الى أوربا حديث شيق لجديته وأصالته وطرافته ، وكل مسلم يعتز بإسلامه يحب سماع الإسلام وسيرة رجاله الصادقين .

إن ماجاء فى هذه الدراسة حقائق استقيتها من بطون الكتب التى الفها علماء مخلصون حرصوا على إظهار الحقيقة ، وهكذا نجد على مر القرون منصفون للإسلام والمسلمين .

وهذا البحث جديد قديم فى مادته :

أما أنه جديد فلأنه يظهر عظمة الثقافة الإسلامية التى تُنُوسيت ووضع مكانها ثقافة أجنبية عن بيئة الإسلام والمسلمين ولأنه جديد ربما على أذهان كثير من المسلمين .

أما أنه قديم فلأننى أبعثه من مرقده الذى طال نومه فيه مستدلا بأقوال المؤرخين المنصفين سواء من الأجانب أو المسلمين .

لقد احتل - هذا الموضوع - كما قال العالم البروفسور إدوارد بروى (١) :
« ...... محلا مرموقا فى ثقافة رجل العصر » .

فكان لابد من إزاحة الستار عن هذه المعابر ليطالع المسلم عظمة المسلمين حينما كانوا متمسكين بدينهم الحنيف ، وهذه المعابر هى : الاندلس - صقلية - الشام - سوريا أو الحروب الصليبية .

ما كان الإسلام وان يكون سببا فى تكاسل المسلمين وتقاعسهم فى الحياة كما ادعى بعض الاجانب والمغرضين (٢) .

لقد كان المسلمون يمثلون امبراطورية تحمل أعظم حضارة وثقافة فى تلك المنطقة الشاسعة من المحيط الأطلسى الى أفغانستان (٣) .

لقد ظهرت أمة الإسلام على مسرح الحياة ظهورا أدهش العالم فى فتوتها، وعزمها الصادق ، وإخلاصها الذى فاق الأولين والآخرين من الأمم .

لقد كان لأمة الإسلام القدح المعلى فى نشر الثقافة الإسلامية فى أوربا فى العصور الوسطى ، وإنارة الطريق أمام الأوربيين ثم هم الآن قد أدهشوا العالم بما وصلوا اليه من حضارة مادية فنسوا الشعلة الإسلامية الأولى بل أطفأوها فى صدور أجيالهم حتى لا يشبوا على علم ومعرفة بشعلة الإسلام التى أنارت الطريق لهم ، فإذا كان المسلمون هم الذين وضعوا بذرة العالم والمعرفة فى أوربا فلماذا انحرف الأوربيون ؟

والجواب ذو شقين :

---

(١) راجع ص ٢٥٣ من هذا البحث .

(٢) انظر ص ٢١٣ من هذا البحث .

(٣) انظر ص ٣٢٥ من ذا البحث .

أ- مادى حضارى .   ب- روحى (لايعرف إلا عن طريق الوحى)

والإثنان جاء بهما القرآن الكريم مصدر الإسلام والمسلمين فى قوله عز شأنه: « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » (١) .

فاختار الأوربيون الجانب العلمى المادى : صناعة - زراعة - مبان - معدات حربية .. الخ وتركوا الجانب الروحى . فانحرفت بهم السبل وتفرقت .

ماذا كان سيصيب أوربا لو دخلها الإسلام وفتحها كما فتح الأندلس ، ولم تهزم جيوشه فى موقعة « بواتييه » ؟ ... إنقاذ أوربا من وصمة عار العصور الوسطى(٢) .

إن عملى فى هذا البحث ألخصه فى كلمات :

أ- ماقاله الاستاذ (كريستوفر داوس) :

« عن العرب أخذت التقاليد العلمية فى أوربا الحديثة وقد أسهم العرب فى توسيع آفاق الغربيين توسيعا لم يسبق له مثيل ، إذ بفضلم انتقلت إلى أوربا حضارات الصين ، والهند ، والفرس ، وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق الى أوربا ، لتكون شاهدة بما للإسلام من (عظمة علمية تربوية) ، وفضل على الانسان والانسانية » .

وخلق العرب فى نفوس الأوربيين : الوعى السياحى ، والملاحة عبر البحار ، والتأمل فى الأفلاك ، وعلموهم استعمال البوصلة وانشاء المراصد ، ولولا العرب لما كان (كبلر) ، (وكوبرنيك) ، بل لما كان (كولومبس) ، و(فاسكودى غاما) (٣) .

ب- قول حاجى خليفة فى « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون فى نظم التأليفه » :

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) انظر بقية الاجابة فى ص ٢٨٩ من هذا البحث

(٣) راجع ص ٤٨٤ من هذا البحث .

التأليف على سبعة أقسام وهى :

١- إما شئ لم يسبق إليه فيخترعه .

٢- أو شئ ناقص يتممه .

٣- أو شئ مغلق يشرحه .

٤- أو شئ طويل يختصره .

٥- أو شئ متفرق يجمعه .

٦- أو شئ مختلط يرتبه .

٧- أو شئ أخطأ فيه مصنفه فيصلحه (١) .

إننى فى هذا البحث جمعت ماتفرق ، وألفت بين النصوص الشاردة ، حتى وضعتها فى صورة أشعر بأنها حسنة وطيبة إن شاء الله تعالى ، تسر من يقرأها بعناية وحب .

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » (٢) .

د. محمود محمد رسلان
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر
والاستاذ المشارك :
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (الجنوب)

القاهرة المطرية فى ١ من ربيع الآخرة ١٤١٦ هـ . ٢٨ من أغسطس ١٩٩٥ م .

(١) نقلا عن د : عبد الوهاب ابراهيم فى كتابه : « كتابة البحث العلمى ص ٢٢ راجع : رسالة الجامعة العدد : ٥٦٣ [٢٣ ذو الحجة ١٤١٥هـ - ٢٢ مايو ١٩٩٥ م] مقال د/ ابو سريع بعنوان (لا أتاجر فى العلم وكتابى حسبة لله تعالى) ص ٥.

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

تمهيد

المعابر جمع معبر ، والمعبر بوزن المبضع ، مايعبر عليه من قيطرة ، أو سفينة وقال أبو عبيدة : هو المركب الذى يعبر فيه [1] ، وعبر النهر عبورا قطعه وجازه ، والكتاب تدبره فى نفسه ، ولم يرفع صوته بقراءته ، وعبر منه يعبره عبراً اعتبر ، ومنه قولهم : « اللهم اجعلنا ممن يعبَر الدنيا ولايعبرُها » أى ممن يعتبرها ولا يموت سريعا حتى يرضيك بالطاعة ، والعابر بمعنى الماضى الذى ينظر فى الكتاب فيعبره أى يعتبر بعضه ببعض حتى يقع فهمه عليه [2] .

وعِبر النهر وعُبْرُه : شطه وجانبه قال الشاعر :

وما الفرات إذا جادت غواربه .·. ترمى أواذيه العبرين بالزبد

تقول : جمل عُبْرُ أسفار ، وناقة عُبْرُ اسفار ، يستوى فيه الجمع والمؤنث وكذلك عبر أسفار بالكسر ، ورجل عابر سبيل .

وقال الاصمعى : عبرت الكتاب أعبره عبرا إذا تدبرته فى نفسك ، ولم ترفع به صوتك ، وقولهم : لغة عابرة أى جائزة [3] .

---

(١) محتار الصحاح مادة : عبر .

(٢) فاكهة البستان معجم لغوى للشيخ عبد الله البستانى اللبنانى ، المطبعة الامريكانية ، بيروت ١٩٣٠م ، مادة عبر .

(٣) الصحاح فى اللغة والعلوم معجم وسيط اعداد نديم مرعشلى ، وأسامه مرعشلى : مادة : عبر، دار الحضارة العربية ، بيروت ط الأولى ١٩٧٥ م .

والمعبر : ماعبر به النهر من فلك ، أو غيره ، والمعبر : الشط المهيأ للعبور ، قال الازهرى : والمعبرة سفينة يعبر عليها النهر ، وقال ابن شميل : عبرت متاعى أى باعدته .. ورجل عابر سبيل أى مار الطريق ، وعبر السبيل يعبرها عبورا شقها ، وهم عابرو سبيل ، وعبار سبيل وقوله سبحانه « ولاجنبا إلا عابرى سبيل » تفسيره : بأن يكون له حاجة فى المسجد ، وبيته بالبعد فيدخل المسجد ويخرج مسرعا .

والعبرة : العجب واعتبر منه تعجب ، وفى التزيل العزيز : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » (٤) ، أى تدبروا ، فيما نزل بقريظة ، والنضير فقايسوا فعالهم ، واتعظوا بالعذاب الذى نزل بهم ، وفى حديث أبى ذر فما كانت صحف موسى ؟ قال : كانت عبرا كلها ، والعبر جمع عبرة ، وهى كالموعظة ، مما يتعظ به الإنسان ، ويعمل به ، ويعتبر يستدل به على غيره ، والعبرة الاعتبار بما مضى .

أما الثقافة : فتطلق فى اللغة على عدة معان ، وهذه المعانى تفيد : الحذق ، والفطنة ، والذكاء يقال : ثقف الشئ إذا أدركه وحذقه ومهر فيه والثقيف هو الفطين.

وثقف الكلام : فهمه بسرعة ، ويوصف الرجل الذكى بأنه ثقف وتستعمل كلمة « ثقف » فى الحسيات ، يقال : تثقيف الرماح بمعنى تسويتها وتقويم اعوجاجها ، كما تستعمل فى المعنويات مثل تثقيف العقل وقد اتسع مفهوم هذه الكلمة فى العصر الحديث ، فاصبحت تستعمل فى معان مختلف لاتخرج عن المعنى الأصلى (٥) ، وإن كان مدلولها يتسع لما لايتسع له المعنى اللغوى .

---

(٤) الحشر : ٢ .

(٥) راجع للباحث : قبسات من الثقافة الإسلامية : المقدمة وانظر الثقافة الإسلامية لمجموعة من استاذة جامعة الكويت ، ومحاضرات فى الثقافة الإسلامية للاستاذ أحمد محمد جمال ص ١١ دار الفكر ومكتبة الثقافة .

ومن ثم نلاحظ ان الثقافة تطلق الآن ويراد بها : التراث الحضارى ، والفكرى بجميع جوانبه النظرية والعملية الذى تمتاز به الأمة .

والذى ينسب اليها ، وعلى الأمة ان تدرسه وان تتفهمه وان تنميه عن طريق جهدها الدائب والمستمر فى سبيل الوصول بهذا التراث الى المستوى الذى يليق بواقع الأمة والذى يعبر عن تطورها الحضارى ، ونموها الفكرى .

وبالاضافة الى كلمة «ثقافة» توجد كملة : « حضارة» ، وكلمة : « مدنية » ومن الصعب تحديد معانى هذه المصطلحات والتفريق بينها بشكل دقيق . فبعضهم : يطلق كلمة « الثقافة » على الجانب الروحى والمعنوى ، ويطلق كلمة « الحضارة » على الجانب المادى ، إلا أن مثل هذا التفريق يصطدم بالواقع الملموس لأن الحضارة المادية ، لا تنفصل عن الجانب المعنوى الذى يمثل التراث العلمى بقسميه النظرى والعملى .

وبعضهم يطلق المدنية على الجانب المادى والمظهرى من حيث الأنماط المعيشية التى تتصل بحياة المجتمعات ، « والثقافة » على الجانب المعنوى الذى يقابل الجانب المادى ، ويشمل كل مايتصل بالروح والفكر والعقل من حيث أسلوب الجماعة فى حياتها الروحية والفكرية والأدبية ، ويجعلون كلمة « الحضارة » شاملة لكل من المعنيين: المادى ، والمعنوى ، أى : شاملة لكل من المدنية والثقافة (١) .

وبالرغم من تعدد الآراء حول مفهوم هذه المصطلحات ، فمن المحتمل أن يصعب تحديد شكل دقيق المراد من هذه المصطلحات ، وكل ماتستطيع الوصول اليه

(١) راجع للدكتور عبد الكريم عثمان : الثقافة الإسلامية ص ١٧ ، نشر دار الارشاد ببيروت ، نقلا عن مبادئ الثقافة الإسلامية ص ١٣ .

هو ان كلمة « الحضارة والثقافة تدل على مجموعة ماخلفته الأمة من آثار حضارية ، وفكرية وفنيه وأدبية فى جميع المجالات المادية والمعنوية » (١) .

كما ان الثقافة تمثل التراث الفكرى الذى تتميز به الأمم عن بعضها ، وتختلف طبيعة هذه الثقافة وخصائصها بين مجتمع وأخر ، نظرا للارتباط الوثيق الذى يربط بين واقع الامة وتراثها الفكرى والحضارى ، وهذه الثقافة تنمو مع النمو الحضارى للأمة ومن ثم فإن ثقافة كل أمة تعبر عن مكانتها الحضارية التى وصلت اليها (٢) .

(١) انظر للدكتور محمد فاروق النبهان : مبادئ الثقافة الإسلامية ص ١٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ .

انتشار الثقافة الإسلامية وعبورها من الاندلس الى أوربا

انتشرت الثقافة الإسلامية فى العصر العباسى انتشار يدعو الى الاعجاب، بفضل الترجمة من اللغات الاجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية ، الى العربية ، ونضجت ملكات المسلمين أنفسهم من البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب ، وكثرة العمران واتساع أفق الفكر الإسلامى بارتحال المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولاغرو فقد كان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية ان نشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة ، وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ومن ثم ترى صدى هذه النهضة المباركة فى بلاد كل من السامانيين والغزنويين والبويهيين والحمدانيين فى الشرق ، وفى بلاد الطولونيين والإخشيديين والفاطميين فى مصر ، وفى بلاط الأمويين فى الاندلس (١) .

أضف الى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية والدينية .

وخير مثل لذلك مانشاهده من الآثار التى خلفها المعتزلة ودعاة الاسماعيلية من العلماء والمتصوفيين وغيرهم وكان للجدل والنقاش الذى قام بين هذه الفرق من ناحية، وبينها وبين العلماء من السنيين من ناحية أخرى ، أثر بعيد فى هذه النهضة العلمية

---

(١) تاريخ الإسلام .. جـ٣ ص ٣٣٢ .

التى يتميز بها هذا العصر ، وخاصة فى القرن الرابع الهجرى ، على الرغم مما أنتاب العالم الإسلامى بوجه عام من تفكك وانحلال ، وما اصاب الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، ولكن قيام هذه الدول ساعد على إزدياد الثروة وكثرة العمران ثم على ازدهار الدول نتيجة لذلك [1] .

يقول بن خلدون [2] « إن العلوم إنما تكثر بحيث يكثر العمران وتعظم الحضارة » « إن تعليم العلم من جملة الصنائع .. وإن الصنائع إنما تكثر فى الامصار، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لأنه أمر زائد على المعاش ، فمتى فضلت (زادت) أعمال أهل العمران عن معاشهم ، انصرف الى ماوراء المعاش من التصرف فى خاصية الإنسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدنة ، فلايجد فيها التعليم الذى هو صناعى ، لفقدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمناه ، ولابد له من الرحلة فى طلبه الى الامصار المستبحرة شأن الصنائع كلها ، واعتبر ماقررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الإسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا فى إصلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا (زادوا) على المتقدمين وفاقوا المتأخرين ، ولما تناقص عمرانها وابذعر (تفرق) سكانها ، أنطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم والتعليم ، وانتقل الى غيرها من أمصار الإسلام [3].

(١) المرجع السابق

(٢) ، (٣) المقدمة صص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

مراكز الثقافة الإسلامية

كانت فى العصر العباسى عدة مراكز للثقافة جذبت اليها رجال الادب منها :

١- أصبهان أو الرى حيث اقام بوجه عام الصاحب إسماعيل بن عباد الذى تقلد الوزارة لمؤيد الدولة بعد أبى الفتح بن العميد ، وكان بلاط بنى بويه هناك كعبة يؤمها العلماء ورجال الأدب .

٢- البلاط السامانى فى بخارى التى وصفها الثعالبى [١] فى هذه العبارة فقال:

« كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجتمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر ، حدثنى أبو جعفر محمد ابن موسى الموسوى قال : اتحذ أبو الحسن دعوة ببخارى فى أيام الأمير السعيد (نصر الثانى بن أحمد ٣٠١ - ٣٣٠هـ) جمع فيها أفاضل غربائها : كأبى الحسن اللحام ، وأبى محمد ابن مطران ، وأبى جعفر بن العباس بن الحسن ، وأبى محمد ابن أبى الثياب ، وأبى النصر الهرثمى ، وأبى نصر الظريفى ؟ ورجاء بن الوليد الاصبهانى ، وعلى بن هارون الشيبانى ، وأبى إسحاق الفارسى ، وأبى القاسم الدينورى ، وأبى على الزوزنى ، ومن ينخرط فى سلكهم ، فلما استقر بهم مجلس الانس ، أقبل بعضهم على بعض يتجاذبون أهداب المذاكرة ، ويتهادون ريحان المحاضرة ، ويفتقون توافق الادب [٢] ويتساقطون عقود الدر [٣] ، وينفثون فى عقد

(١) يتيمة الدهرى : جـ٤ ص ٩٥ .

(٢) ان يقتحمون أوعية الادب التى تشبه نوافج المسك .

(٣) يشبه مايجرى فى المجالس من حديث بمنشور الدر يتساقط من العقود .

السحر (1) . فقال لى أبى : يا ابنى ! هذا يوم مشهود مشهور ، فاجعله تاريخا لاجتماع اعلام الفضل وأفراد الوقت ، واذكره بعدى فى اعياد الدهر وأعيان العمر ، فما أراك ترى على مر السنين أمثال هؤلاء مجتمعين ، فكان الأمر على ماقال ولم تكتحل عينى بمثل ذلك المجمع » .

وكانت مكتبة نوح بن نصر السامانى – كما يقول ابن خلكان (٢) عديمة المثل ، فيها من كل فن من الكتب المشهورة بأيدى الناس وغيرها مما لايوجد فى سواها ولاسمع باسمه فضلا عن معرفته » .

٣– بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان الغربية من بحر قزوين ، وقد وضعه الثعالبى (جـ٤ ص ٥٦ – ٥٧) فى هذه العبارة فقال : « خاتم الملوك وغرة الزمان ، ينبوع العدل والإحسان ، ومن جمع الله له الى غرة الملك بسطة العلم ، وإلى فضل الحكمة نفاذ الحكم ، فأوصافه لا تدرك بالعبارات ولاتدخل تحت العرف والعادات ، وأن لى أن أعمل كتابا فى اخباره وسيره ، وذكر خصائصه ومآثره التى تفرد بها عن ملوك عصره ، فإنى أتوج هذا الكتاب بلمع من ثمار بلاغته التى هى أقل محاسنه ومآثره ، واكتب فصولا من عالى نثره مختتمة ببعض ماينسب اليه من شريف نظمه مما يجرى الأمثال من كلامه» .

كان شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان من بيت فارين القديم العريق فى الشرف ، وهو أحد البيوتات السبعة من آل ساسان فى بلاد فارس ، ويطلق مؤرخو العرب على أفراد هذه الاسرة « أهل البيوتات » ، ويرجع نسبه ، على ما ذكره البيرونى (٣) إلى قباذ والد أنو شروان أحد ملوك الساسانيين . ويقول ابن

(١) يشبه الكلام الجيد فى قوة تأثيره بالعقد التى يعقد الساحر وينفث فيها من فمه .

(٢) وفيات الاعيان جـ١ ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٢) الاثار الباقية ص ٢٩ .

اسفنديار فى كتابه (تاريخ طبرستان) إن من يرغب فى تقدير عظمته وأخلاقه فليقرأ ماقاله عنه أبو منصور الثعالبى [1] والعتبى [2] وقد جمع اليزدادى أقواله فى كتاب اسماه : « قرائن شمس المعالى وكلام البلاغة » وهى تدل على بلاغة قابوس فى اللغة والبلاغة وعلى شجاعته ومهارته ، ومعرفته باللغة وعلم الفلك والنجوم »، حتى أنه كتب فى الاسطرلاب رسالة أطراها أبو إسحاق الصابى . وكانت بينه وبين الصاحب ابن عباد مراسلات ، كما راسل أبا نصر العتبى مؤرخ حياة السلطان محمود الغزنوى[3] .

٤- بلاط خوارزم فى خيوة وخاصة بلاط خوارزم شاه مأمون الثانى بن مأمون الذى آلت بلاده الى حكم محمود الغزنوى [4] .

٥- بلاط السلطان محمود الغزنوى فى غزنة ؟ وقد تمتع بشهرة واسعة ونقل كثيرا من المؤلفات الى غزنة ، وكان من أحسن السلاطين ميلا الى الأدب ، على الرغم من أساءته لرجاله ، وقد أرسل الى مأمون كتابا مع أحد اشراف دولته ، واسمه حسين بن على بن ميكائيل ، يقول فيه : قد علمت ان ببلاد خوارزم شاة كثيرين من العلماء الذين نبغ كل منهم فى فنه ، مثل فلان وفلان ، وعليك ان ترسلهم إلى بلاطى ليكون لهم شرف المثول بين يدى ، وتقوى على الاستفادة من علمهم وحذقهم وأرجو من أمير خوارزم ان يسدى إلينا هذا الجميل ، وعلى الرغم من ان هذا الكتاب قد اخرج فى قالب الود ، انطوى فى الوقت نفسه على الترهيب والتحذير وصيغ فى صيغة الامر كما فهمه مأمون ، الذى لم ير بداً من أن يبعث فى طلب هؤلاء العلماء

(١) يتيمه الدهر جـ٤ ص ٥٦ – ٥٧ .

(٢) تاريخ اليمينى جـ٢ ص ١٤ – ١٧ ، ١٧٢ – ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه جـ٢ ص ١٧ – ٣٦ .

(٤) تاريخ الإسلام .. جـ٣ ص ٣٣٥ .

وينقل اليهم أوامر السلطان الغزنوى فى هذه الكلمات : السلطان قوى : ويملك جيشا من رجال الهند وخراسان الى بلاد العراق ، ولا استطيع ان أرد له طلبا أو أخالف له أمرا ، فما قولكم ؟ وقد مال ثلاثة من هؤلاء العلماء الى هذا الطلب ، إلا أن ابن سينا ، ومسيحى لم يميلا الى تحقيق هذه الرغبة وعولا على الهرب بعلم مأمون ، وهلك مسيحى تحت رمال الصحراء على أثر هبوب عاصفة ، ووصل ابن سينا الى أبيورد بعد ان صادف صعابا جمة ، ثم تابع السير الى طوس ، ثم الى نيسابور حتى وصل اخيرا الى جرجان ، ونزل ببلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير (١) .

ولكن فى العشرين سنة التى تخللت سنتى ٣٨٨هـ - (٩٩٧م) ، ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) مات الصاحب بن عباد سنة ٣٩٨هـ ، وزالت الدولة الساسانية سنة ٣٨٩هـ (٩٩٩م) ، واغتيل شمس المعالى على أيدى الثائرين من أشراف البلاد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) ، كما قتل مأمون الثانى على أيدى الثوار ، وضم السلطان محمود الغزنوى بلاده الى أملاكه فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) واستحوذ على رجال الادب فى بلاد منافسيه(٢) .

٦- بلاط الحمدانيين فى الموصل وفى حلب خاصة ، فقد كان حضرة سيف الدولة « مقصد الوفود وموسم الادباء وحلبة الشعراء ، ويقال انه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعراء ونجوم الدهر ، وكان أديبا شاعرا محبا لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به ، فلو أدرك ابن الرومى زمانه لما احتاج الى أن يقول :

---

(١) Browne , vol . 11 pp. 96 - 97 . ، نقلا عن تاريخ الإسلام : ٣ / ٣٣٦ .

(٢) تاريخ الإسلام : ٣ ٣٣٦ .

ذهب الذين تهزهم مدأحهم ... هز الكماة عوالى المرّان(١) .

٧- بلاط الطولونيين ، والاخشيديين ، والفاطميين فى مصر : اشتهر عصر الطولونيين بمصر بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين ، نذكر منهم على سبيل المثال : القاضى بكار بن قتيبة ، وأبا الفيض ذا النون المصرى المتصوف ، والربيع بن سليمان تليمذ الامام الشافعى ، وابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ وأول مؤرخى مصر الإسلامية وبلغ الادب بمصر فى عهد الطولونيين درجة عظيمة من التقدم ، فقد روى المقريزى (٢) عن القاضى أبى عمرو عثمان النابلسى ، الذى قال في كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » إنه رأى كتابا لا يقل حجمه عن أثنى عشر كراسة ، يحوى فهرسه شعراء ميدان ابن طولون ، فإذا كان أسماء الشعراء فى أثنتى عشرة كراسة فكم يكون عددهم ؟ وكم يكون مقدار شعرهم ومايكافئون به من الأموال ؟ (٣) .

وقد عاد للفسطاط رونقها وبهاؤها بعد تخريب مدينة القطائع على أثر زوال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ ، فنبغ فى عهد الإخشيديين كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخيين والشعراء ، وكان مسجدا عمرو وابن طولون من أهم مراكز الثقافة فى عهد الطولونيين والاخشيديين ، وبنت القاهرة الفسطاط والقطائع فى عهد الفاطميين ، وأصبحت مساجد عمرو ، وابن طولون ، والأزهر ، والحاكم مراكز هامة للثقافة ،

---

(١) المران الرماح ، والكماة جمع كى ، وهو البطل اللابس درعه وعالية الرمح مايركب فيه السنان وهو ضد سافلته ، والجمع العوالى .

يقول : ذهب الكرام الذين كان شعر الشعراء يطربهم فيهتزون له كما يهتز البطل عالية الرمح حين يختبره أى من الاريحية . الثعالبى : يتيمة الدهر جـ٢ ص ١١ .

(٢) خطط : ٣٢٦/١ .

(٣) حسن ابراهيم . المجمل فى التاريخ المصرى ص ١٥٢ .

ولاسيما بعد ان حول يعقوب ابن كلس الازهر فى سنة ٣٧٨ هـ الى جامعة تدرس فيها العلوم والآداب بعد ان كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية (١) .

وكذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشر الثقافة الشيعية خاصة ، والحقوا بها مكتبات تحتوى على مئات الألوف من المصنفات ، وروى المقريزى (٢) أنه كان فى القصر أربعون خزانة منها خزانة تحتوى على ١٨٠,٠٠٠ مجلد فى العلوم القديمة .

وقد اسس الخليفة الحاكم فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) ، « دار الحكمة » على مثال أكاديميات بغداد وقرطبة ، والحق بها مكتبة أطلق عليها « دار العلم » ، حوت مالم يجتمع مثله في مكتبة من المكتبات ، « وأجرى هذا الخليفة (ومن جاء بعده من الخلفاء) على موظفيها ومن بها من الفقهاء الارزاق السنية ، وجعل فيها مايحتاج اليه المطالعون والنساخ من الحبر والمحابر والاقلام والورق (٣) .

٨- بلاط الأمويين فى قرطبة : وكما نافس أمويو الاندلس العباسيين فى العراق والفاطميين فى المغرب ومصر ، نافست قرطبة بغداد والقاهرة ، وبخارى وغزنة وأصبهان وغيرها من أمهات المدن الإسلامية ، فأصبحت حاضرة الأندلس سوقا نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب ، وجذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا اليها

---

(١) تاريخ الإسلام .. جـ٣/ ٣٣٧ .

(٢) خطط : ٤٠٧/١.

(٣) المقريزى خطط جـ١ ص ٤٥٨ جـ٢ ص ٣٤٢ . ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢٧٣) أن الوزير أبا نصر شابور أردشيير أبتاع فى سنة ٣٨٢ هـ دار بالكرخ وعمرها ، وسماها دار العلم ووقفها على العلماء وأودع بها كثيرا من الكتب .

(٤) تاريخ الإسلام : ٣٣٧/٣ هامش : ٢ .

لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية ، ومن ثم ظهرت طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم (١) .

وقد زخرت مكتبة قرطبة بكثير من المصنفات فى مختلف العلوم والفنون ، فقد بذل الحكم المستنصر ، حتى قبل ان يجلس على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ جهودا بعيدة الأثر فى توجيه الدراسة الاندلسية فى ميدان العلوم والطب وكانت المكتبة التى أنشأها فى قصره بقرطبة ذات ثراء لايقارن ، إذ كانت تضم بين خزائنها أربعمائة الف مجلد فى وقت لم تعرف الطباعة ، وكانت الفهارس التى وضعت لها فى غاية الاختصار حتى إنها اكتفت بذكر اسماء الكتب ومؤلفيها فحسب.

وكانت هذه المكتبة تحتوى على أربعة وأربعين سجلا ، كل منها يقع فى خمسين ورقة ، وكانت هناك شبكة محكمة من الباحثين والسماسرة والناسخين يعملون لحساب ذلك الخليفة الأموى فى الاندلس . وقد انتشروا فى جمع انحاء العالم الإسلامى سعيا وراء المؤلفات .

وكان فى قرطبة نفسها عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين يعملون على انماء هذه المكتبة الفخمة وتجميلها (٢). وقد امتاز الحكم المستنصر بقراءة كثير من هذه الكتب والتعليق عليها (٣) .

---

(١) المرجع نفسه جـ٣ ص ٣٧٧ ، ٣٣٨ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

ذكرنا قول المقرى هذا بما رأيناه عياناً فى مكتبة العلامة المغفور له أحمد تيمور باشا ، فطالما ترددنا على خزانة كتبه بدار الكتب المصرية ، وكلما رأينا كتابا نفيسا أو مخطوطا نادرا منها وجدنا له عليه تعليقا واضافات تصحح ما وقع فيه من أخطاء ، هذا مع العناية بنظافة الكتب والمحافظة على مجلدها وورقها محافظة نادرة انظر تاريخ الإسلام .. جـ٣ ص ٣٣٨ هامش ١.

ولا عجب فى ذلك ، فقد كان الحكم ، كما يقول المقرى [1] غزير العلم واسع للاطلاع ذا معرفة بالاخبار والأنساب ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل مايكتب[2] .

ولم يكن اقتناء الكتب فى الاندلس مقصورا على الأمراء والخلفاء ، بل لقد قلد أشراف قرطبة ووجهاؤها خليفتهم وأخذوا فى تكوين مكتبات خاصة ، واعتبروا ذلك العلم مظهرا من مظاهر المباهاة والافتخار [3] .

كان طلاب العلم فى هذا العصر يجوبون البلاد سعيا الى موارد العلم والعرفان ، ثم يصنفون المصنفات التى هى أشبه بدوائر المعارف ، وقد قيل ان أبا القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى الذى ولد بطبرية فى سنة ٢٦٠هـ ، اختلف الى كثير من البلاد ثلاثا وثلاثين سنة سمع فيها من ألف شيخ كما أثر عن القاضى عبد الله محمد بن أحمد مولى عبد الرحمن الناصر الاندلسى أنه رحل من قرطبة وتنقل ببلاد الحجاز واليمن ومصر والشام وأخذ العلم على مائتين وثلاين شيخا ، ثم عاد الى الاندلس فى سنة ٣٤٥ هـ واتصل بالحكم المستنصر الذى ولاه قضاء استجة ثم قضاء ألمرية ، فبقى فيه حتي مات ، ومن هؤلاء العلماء الذين جابوا البلاد الإسلامية وتحملوا ألوان المشاق والحرمان فى سبيل اكتساب العلم ، أبو القاسم ابن الدباغ الذى نشأ بقرطبة وتلقى العلم على شيوخها ثم رحل الي بلاد الشرق الإسلامى سنة ٣٤٥ هـ وتنقل بين مصر والشام ، يأخذ العلم على كبار علمائها زهاء خمس عشرة سنة ، وقيل إن عدد شيوخه بلغ مائتين وستة وثلاين شيخاً [4] .

(١) المصدر نفسه جـ١ ص ٣١٨ .

(٢) بروفنسال : الشرق الإسلامى والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٠) ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) تاريخ الإسلام جـ٣ ص ٣٣٨ .

(٤) المرجع نفسه ص ٣٣٩ .

وقد أخذ المسلمون بحظ وافر من العلوم على اختلافها ، وميز علماؤهم بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم ، والعلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وأطلقوا على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية، ويطلق عليها أحيانا علوم العجم ، أو علوم الأوائل أو العلوم القديمة ، أو العلوم الدخيلة (١) .

وتشمل العلوم النقلية على : علم التفسير ، وعلم القرآءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية على : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا (٢) .

مما سبق يتضح لك عظمة الثقافة الإسلامية التى ملأت العقول وطوقت الخافقين فهما ووعيا ما كان لها أن تقبع فى موطنها الأصلى ، بل انها كانت ترسل الوفود تلو الوفود ، كما أنها انتقلت مع الفاتحين عبر الاندلس لتستقر فيها أكثر من ثمانية قرون ، ثم تنتقل منها الى أوربا التى بنت نهضتها على هذه الثقافة المباركة التى حملها رجال بررة ، فصاغت أوربا نفسها على هذه الثقافة صياغة جديدة ، ونقلتها من عصورها الوسطى المظلمة الى نور العلم والحضارة .

يقول أحد علماء الغرب ، وهو الاستاذ « كويلوبونج» أستاذ العلاقات الاجنبية بجامعة برنستون ، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية فى محاضرته التى ألقاها فى مؤتمر الثقافة الإسلامية الذى عقد برعاية « جامعة برنستون » ، و« مكتبة الكونفرس» فى واشنطن عام ١٩٥٣ تحت عنوان :

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

« أثر الإسلام الثقافى فى المسيحية » .

« وبعد : فهذا عرض تاريخى قصد به التذكير بالدَّين الثقافى الذى ندين به للإسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين - داخل هذه الألف السنة - نسافر الى العواصم الإسلامية ، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الانسانية .. ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدينا ماعلينا بربحه ، ولكن سنكون ، مسيحيين حقا ، إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا فى حب واعتراف بالجميل » (١) .

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٢٥٧ ، مجموعة محاضرات ألقيت في مؤتمر الثقافة الإسلامية فى واشنطن عام ١٩٥٣ . نقلا عن أحمد على الملا : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٨ .

مقدمة المعابر

من الواقع التاريخى أن احاديث ظهور الإسلام وانتشاره بالسرعة الفائقة التى انتشر بها فى الشرق والغرب ، وخلافته على دول عريقة فى المدنية والأدب ، قوية السلطان ، واقتران ذلك بالقوة المادية ، وسلطان الحكم والاستيلاء على البلاد التى جاءها ، وحصول ذلك على أيدى رجال لم يعرفوا من قبل بعلم ومدنية ، ولم يعرفوا بنظام حربى دقيق ، من شأنه أن يحمل المغلوبين وغير المغلوبين على التفكير فى الروح التى وصلت بهؤلاء الى ذلك المجد الحربى ، والمجد الروحى ، وإلى ذلك السلطان القاهر ، وفى الاسباب التى أثارت هذه الروح ، وفى معرفة ماجاء به القرآن الكريم ، وما جاء به من نزل عليه القرآن الكريم . ومعرفة ماتخلقوا به ، وما اتخذوه نظاما لهم فى حياتهم العامة ، والخاصة (١) .

سعى المسلمين الى آفاق المعرفة :

لم يكتف المسلمون بالقوة الروحية ، والمادية لديهم ، بل سعو إلى آفاق المعرفة يتلمسونها فى كل ناحية من الأرض ، ومن ثم قام خلفاؤهم من بعدهم على حياطة الحركة العلمية وشاركوا فيها ، واشترك فيها من تسلل من البيوت العريقة فى المجد ، ومن كان من الموالى وأشباه الموالى ، ثم ماتصف به الخلفاء الراشدون ، وأكثر الولاة فى عهدهم واتصف به غيرهم به ممن جاءوا بعدهم ، مما حبب الى الناس أرضهم وبلادهم ، وحبب اليهم حكمهم والاستظلال برايتهم ، وعلى ذلك يمكن القول مع الاطمئنان بأن هذا الاتصال أثر أثره ، وعمل عمله دون إقامة الشواهد والأدلة ، فإن هذا طبيعى يدركه كل من يراقب سير الوجود ، وسير العلم فى هذا الكون (٢) .

(١) أنظر للشيخ أمين الخولى رحمه الله تعالى : صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٧ مطبعة الأزهر ١٩٣٩ م .

(٢) انظر المرجع نفسه .

الاتصال المادى والمعنوى
بين الثقافة الإسلامية وأوربا

يتمثل هذا الاتصال فيما يلى :

أولاً : الاتصال المادى : الذى يظهر من :

أ- « الحروب بين الإسلام والمسيحية فى الشرق والغرب ، وتبادل الاسرى ، والفتح ، وبسط رواق الحكم والسلطان الإسلامى فى الغرب ، وغزو الفرنجة بلاد المسلمين واختلاط الجند فى الشرق والغرب ، واستعانة المسلمين بغيرهم فى مرافق الدولة ، واعمال الحكومة ، واستعانة غيرهم بهم فى ذلك ، والوفود التى تفد من الجانبين للصلح وتقرير العلاقات ، أو لرود البلاد ، والانتفاع بما فيها من مناخ وموارد ، وتبادل التجارات ، كل ذلك لايدع مجالا للشك فى هذا الاتصال المادى وقوته »(1) .

ثانيا : الاتصال المعنوى : ويتضح فيما يلى :

بعد مرور حقبة طويلة من الزمان ، كان الغرب فيها غارقا فى الأمية والجهالة، لكن حركة نقل المعارف الإسلامية وترجمتها ، وترجمة القرآن الكريم نفسه ، وتعلم اللغة العربية ، واللغة العبرية ، لأنهما لغتا العلم ، والواسطة لدراسة العلوم الإسلامية، وعناية الملوك والأمراء ، ورجال الدين بهذه الحركة ، والتأثر بأعلام العلماء

(1) المرجع السابق ص ٦ .

الإسلاميين، كالغزالى ، وابن رشد ، والحسن بن الهيثم وغيرهم [1] ، كان لها الأثر المعنوى الكبير فى هذا الاتصال المثمر فى حياة أوربا .

وكان أظهر هذا الاتصال المادى بين الدينين ، تلك المواجهة الحربية بين اخلاط أمم الشرق ، ومختلف عناصر الغرب ، المواجهة التى سعى فيها الشرق حينا الى الغرب ، والغرب أنا الى الشرق .

فمنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، خرج الإسلام يواجه المسيحية على شواطئ البحر الأبيض المختلفة ، فما زال حتى رده بحيرة اسلامية أو تكاد ، فاحتكم فى شواطئه الشرقية والشمالية والجنوبية ، والقى جرانه غربا بالاندلس ، واستقر فى تلك المواطن أزمنه تختلف طولا وقصرا ، توطن فى اسبانيا وجنوبى فرنسا ، وايطاليا ، وساد سائر جزر ذلك البحر ، وكثرت مناوشاته للقسطنطينية فى المشرق ، وامتد في فترات متقطعة الى غير ذلك من الغرب ، ففتح المسلمون نابولى، وجنوة [2] .

كذلك تغلب المسلمون على رومية فى القرن التاسع ، حتى استنقذها الباب (حنا) بوعدهم جزية كبيرة ، واستنجد عليهم ملكى فرنسا والمانيا ، هذا الى غارات لهم على مختلف المدن فى انحاء ايطاليا [3] . كما امتلكوا بعض شواطئ نهر الرون ووصلوا الى ليون [4] .

(١) انظر نفس المرجع .
(٢) ابن الأثير : الكامل : ٩٩/٨ .
(٣) سيديو : خلاصة تاريخ العرب : ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٤) رينو : كتاب غارات العرب على فرنسا ، ومن فرنسا الى سافاواى ، وبيمونت ، وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى ، حسب روايات المؤرخين المسلمين والمسيحيين. وهو أحد الكتابين اللذين ترجمهما الى العربية الأمير شكيب أرسلان ، ونشرا تحت اسم تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ٧٨ عربية.

وامتلكوا صخرة أفينيون [1] .

وأقاموا بها بضع سنوات ، وتلك الصخرة هى التى كانت فيما بعد مقر البابوية بضع عشرات من السنين فى القرن الرابع عشر ، وكانت منطقة «الألبيجوا»، التى تنسب اليها شيعة مسيحية شهيرة ، ميدان غاراتهم [2] ، وتوطنوا إقليم (سبتمانية) مما يلى جبال البرتات من جنوبى فرنسا ، وإذا ماخرجوا منه لم يلبثوا أن يعودوا اليه [3] .

وكذلك ظلوا فى بعض جهات جنوبى فرنسا من أواسط القرن الثامن الميلادى الى القرن العاشر على رأى بعض المؤرخين [4] .

واتصلت بذلك الفتح المنظم حركات جماعات إسلامية قوية استوطنت فراكسينت ، على حدود فرنسا وايطاليا ، ولبثت فى تلك المنطقة وماحواليها حتى القرن العاشر الميلادى ، واحتلت مضايق الألب بحيث وقعت طرق الاتصال بين فرنسا وايطاليا فى قبضتهم [5] ، بل عوهدوا على الاذن بالمرور منها معاهدات منظمة ، وهكذا اقاموا فى سافواى ، وجالوا فى جميع انحاء سويسرا بلا معارض [6] ، وانتهى بهم الأمر الى استيطان هذه المناطق من أوربا والاستقرار فيها ، فزرعوا

(١) رينو : المصدر السابق : ص ١٠٤ .

(٢) رينو : المرجع نفسه ٧٣ .

(٣) انظر سيديو : ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٤) رينو : المرجع نفسه من تعليق المؤلف ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٥) رينو : المرجع نفسه ص ١٦٧ ، وسيديو : المرجع نفسه ص ١٦٢ .

(٦) رينو : المرجع نفسه ص ١٧٦ ، وسيديو : المرجع نفسه ص ٦٢ .

وعمروا وتزوجوا ونسلوا (١) مما أدى الى نشر نصوص من كتاب الله تبارك وتعالى ، تبعها تعلم للغة العربية ، مع توضيح تعاليم الدين الإسلامى لكل راغب ومحب فيه ، جاء هذا بعد أن اطمئن أهل هذه المناطق إلى أدب الفاتحين ومسامحتهم وحفظهم لدينهم، وإقامة شعائرهم ووفائهم وحبهم للأمانة .

ظهور أمة الإسلام على مسرح الحياة العالمى :

ظهرت أمة الإسلام ظهورا أدهش العالم فى فتوتها وعزمها الصادق ، واخلاصها الذى فاق الأولين والآخرين من الأمم .

لقد أدهش العالم تفوقها الحربى ، وفهمها لحماية الأمم التى فتحوها بطرق نموذجية أثارت انتباه المؤرخين فى القديم والحديث ، واليك الأدلة والبراهين :

(١) فرديناند كلر : كتاب غارات العرب على سويرا فى اواسط القرن العاشر ، وهو الكتاب الثانى من الكتابين اللذين ترجمهما الأمير شكيب أرسلان تحت عنوان : « غزوات العرب فى فرنسا » ص ٢٥٨ ، وسيديو : الخلاصة ص ١٦٢ .

(٢) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ١٩ .

سفينة الصحراء

قالوا : إن اعظم سفن المسلمين هو « الجمل » .. إنه سفينة الصحراء العظيمة التى اعتادوا ركوبها ، فلم يمض وقت طويل حتى كانت أساطيلهم ، توجه أعنف الضربات إلى البحرية الرومانية ، وتحطم أساطيلها فى البحر الأبيض المتوسط الذى حولته الى بحيرة عربية « مسلمة » .

اتجاه أساطيل المسلمين :

كان لهذه الأساطيل اتجاهات ثلاثة رئيسية فى البحر الأبيض المتوسط :

(أ) الجزء الشرقى لحماية سورية والشام.

(ب) والجزء الأوسط لحماية مصر وافريقيا .

(جـ) والجزء الأوسط لحماية شمال أفريقية واسبانيا « الاندلس » وكان الهدف من هذه الاساطيل : تأمين الدعوة وحمايتها ، وتأمين خطوط القوات الإسلامية ، ومسار الأسطول التجارى الإسلامى الذى كان ينتقل بين ثغور البحر الأبيض ، ويعبره إلى المحيط الهندى ليتاجر مع الهند والصين وجنوب شرقى أسيا ، وكان كما هو شأنه دائما همزة الوصل بين الشرق والغرب [١] .

ومن ثم أقام الأسطول العربى أربع قواعد اساسية لقواته :

الأسطول الأول : مركزه سوريا ، **والأسطول الثانى** : ومركزه مصر ، **والأسطول الثالث** : ومركزه تونس ، **والاسطول الرابع** : ومركزه الاندلس وصقلية . وكانت كل قاعدة من هذه القواعد البحرية تساندها قوات برية ضخمة ترابط فى « الثغور» لحماية البلاد ، وإلى جانب ذلك مدرسة عسكرية بحرية لتخريج

(١) انظر للاستاذ سامى محمود : انتشار الإسلام والدعوة الاسلامية ص ٥٠ منشورات المكتبة العصرية ، بيروت صيدا ، بدون تاريخ .

العسكر والضباط ، والملاحين وتدريبهم على فنون القتال فى البحر وعلومه ودار الصناعة « ارسال » لصناعة السفن وحتى لا ننسى فان العرب هم الذين اخترعوا البوصلة ، وعلم الجبر والمثلثات والبارود ، وأول من رسم خريطة للعالم ، وحوض البحر الأبيض المتوسط وعلوم الفلك والحساب (١) .

لقد استطاع المسلمون الوصول الى درجة عالية فى علوم البحار خلال خمسين عاما فقط من بدء الدعوة إلى الإسلام وأن يجوبوا البحر الأبيض المتوسط أهم بحر فى زمنهم ومازال ، ويخضعوه لسلطانهم ، وبدأت أساطيلهم تتحرك منذ خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه لتنقض على جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ = ٦٤٨م ، وتوجه ضربة قاتلة الى الاسطول البيزنطى فى موقعة « ذات الصوارى» عام ٣١ هـ ، والحقيقة أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه هو أول مؤسس للأسطول الإسلامى ... وكان دائم الإلحاح على عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يسمح له بالغزو بحرا .. ولكن عمر رضى الله عنه بثاقب فكره كان يكره أن يقيم حائلا طبيعيا بين قوات المسلمين المتقدمة وقواعدهم المتمركزة فى المدينة خاصة فى بدء انتشار الإسلام(٢) .

إلا أن معاوية بن أبى سفيان كان لا يفتأ يلح على عمر يقول له : « يا أمير المؤمنين .. إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم ، وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص » .

لكن عمر رضى الله عنه يرفض طوال خلافته أن يعبر البحر بجنوده ومن ثم يحلو لبعض المؤرخين المبالغة في خوف عمر رضى الله عنه ، وعن طريقه يتهمون

(١) المرجع نفسه ص ٥٠ ، ٥١ ، وانظر وصف السفن واستعدادها الحربى فى ص ٥١ من هذا المرجع السابق .

(٢) المرجع نفسه ص ٥٢ .

العرب بالخوف والجبن من البحر ، لكن عمر رضى الله عنه ، يعلم قوة اساطيل الروم والبيزنطيين فى البحر وعراقتها الطويلة ، وكان يكره على الأمة الناشئة أن تصاب بضربة قاتلة تفتت عضدها .. ، وكانت لعمر رضى الله عنه تجربة فى ذلك عندما خرج واليه على البحرين : « العلاء بن الحضرمى » إلى فارس لمهاجمتها بدون إذن أمير المؤمنين عمر، وتحطم عدد كبير من سفن المسلمين ، وأرسل « عمر » سعد بن أبى وقاص لانقاذ المسلمين ، وولاه بدلا من « الحضرمى » على البحرين ، بالرغم من هذا ، فما كاد عمر رضى الله عنه ينتقل إلى جوار ربه سبحانه حتى جدد معاوية طلبه إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد ولايته ، وأذن له عثمان ، وتحركت قوات معاوية في ١٧٠٠ سفينة إلى قبرص ، فأخضعها سنة ٢٨ هـ ، واستمرت أساطيله تقوم بأكثر من خمسين غزوة فى الصيف والشتاء على جزر حوض البحر الأبيض ، وخاصة جزر اليونان .. ، وقد فرض معاوية الجزية على هذه الجزر حتى بلغت فى قبرص ٧٢٠٠ ذهبية ، وطلب اليهم معاوية تعهدا بضرورة أخطاره بأى تحركات للروم، أو أساطيلهم ضد القوات المسلمة (١) .

وقرر الرومان توجيه ضربه قاتله الى المسلمين ، ففى بداية سنة ٢٥هـ توجهت ٣٠٠ سفينة رومانية الى الاسكندرية فدخلتها حتى وصلت الى حصن بابليون ، وعلى الفور ارسل عثمان رضى الله عنه عمرو بن العاص الى مصر لخبرته بحرب الرومان، واستطاع رضى الله عنه أن يقهر الروم ، ويبيد حاميتها ، ويقتل قائدها « مانويل» ، كما استطاع معاوية أن يقهر قوات الغزو حتى غلبها ... لكن الامبراطور «كونستانس الثانى» يقرر القيام بحملة بحرية أخرى يقودها بنفسه للاستيلاء على مصر .. قلب العالم الإسلامى (٢) .

(١) المرجع نفسه ص ٥٣ .
(٢) المرجع نفسه .

والتقى الجمعان : سفن المسلمين ٣٠٠ سفينة والروم ١٧٠٠ سفينة ، عند مدينة « فوينكس » على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى يقول الطبرى المؤرخ : « إن الدم كان غالبا على البكاء» وقال مؤرخوهم إنها كانت « يرموكا» ثانية على الروم ، ففي اليرموك الأولى غلبهم المسلمون على البر .

يروى الطبرى المورخ قول أحد شهود العيان مايلى : «... فنظرنا الي مراكب مارأينا مثلها قط ، وكانت ٥٠٠ مركب وكانت الريح علينا .. وقلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الاعجل منا ، وإن شئتم فالبحر .. فاختاروا البحر ، فدنونا فربطنا السفن بعضها الى بعض .. وتقاتلنا أشد القتال .. وطوحت الأمواج جثث الرجال ركاما .. وتم النصر للمسلمين » .

ثم اندفعت البحرية الإسلامية الى شرق وقلبى وغرب البحر الأبيض فى محاولة لتأمين حدود بلاد الإسلام ... ووصل اهتمام المسلمين بالبحرية أن بنوا قاعدة بحيرية ضخمة فى قرطاجنة سنة ٨٦ هـ فى زمن عبد الملك بن مروان (١) .

تمكن المسلمون من غزو قبرص سنة ٢٨هـ بقيادة معاوية رضى الله عنه ، ثم عاد فغزاها سنة ٣٣هـ واحتلها باثنى عشر الف فارس .. وتكرر غزوها حتى تم الاستيلاء عليها فى عهد السلطان برسباى سلطان الجراكسة فى مصر سنة ١٤٢٦م، وكانت تدفع الجزية لمصر ، كما نجح المسلمون فى الاستيلاء على رودس عام ٦٤٨ م، ثم اعادها العثمانيون الى حوزتهم عام ١٥٢٢ م . بالاضافة إلى استيلائهم فيما بعد على جزر بحر ايجة وصقلية ، ومالطة ، وسردينا ، وكورسيكا ، وجزر البليار ، ثم استيلائهم على شواطئ : اليونان وايطاليا وغزو روما (٢) .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٥٤ .

(٢) انتشار الاسلام والدعوة الإسلامية ص ٥١ ، ٥٤ .

وباستيلائهم على مالطة وصقلية وجزر البليار .. امنوا حدودهم وطريق تجارتهم تماما مثلما فعلوا فى شرق البحر المتوسط عندما استولوا على قبرص وكريت وسالانيك[1] .

مراحل فتح جزيرة صقلية :

كانت جزيرة صقلية إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وكانت دائما موضع انظار المسلمين منذ القرن الأول الهجرى ، وان معاوية أرسل مجموعة من قواته يقودها « عبد الله بن قيس الفزارى» واستطاع ان يستولى عليها عام ٣٦ هـ ، وكان مما عاد به فى حملته « اصنام من ذهب وفضة » .

إلا أن أول غزو حقيقى كان فى القرن الثالث الهجرى حين استقل شمال افريقيا عن خلافة المشرق ، وكان للاغالبة فضل كبير فى أخضاع أجزاء كبيرة منها وتمكنوا من القضاء على الاسطول البيزنطى ..

وفى عهد الخليفة المأمون فتحها زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب سنة ٢١٢هـ، على أن اهتمام المسلمين بفتحها يرجع الى عهد معاوية رضى الله عنه ، كما تقدم ، لكن أقدام المسلمين لم تثبت فى هذه الجزيرة [2] .

ويقول النويرى [3] : إن محمد بن إدريس الانصارى فتحها فى أيام يزيد بن عبد الملك وغنم منها غنائم كثيرة .

ثم غزاها حبيب بن أبى عبيدة فى سنة ١٢٢ هـ ، واستولى على سرقوسة على الساحل الشرقى للجزيرة ، ثم عاد الى افريقية محملا بالغنائم .

(١) المرجع نفسه ص ٥٧ .
(٢) البلاذرى فتوح البلدان : ص ٢٤٤ .
(٣) المكتبة الصقلية : ٤٢٦/١ .

ثم غزاها عبد الرحمن فى سنة ١٣٠ هـ- غير أن أقدام المسلمين لم تكد تثبت إلا فى عهد الاغالبة (١) ، على يد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب أمـيـر افريقية ، حيث جهز جيشا وأسطولا قوامه مائة ألف مركب بقيادة اسد بن الفرات قاضى القيروان (٢) .

ثم تفرغ للاستيلاء على جزيرة صقلية محمد الأول من بنى الأغلب ، وأهتم بهذه الحرب ،اهتماما جعله فى مرتبة الجهاد ضد الروم ، فولى العباس بن الفضل الفرازى تتمه الفتح : ففتح بين سنتى ٢٣٧ ، ٢٤٧ هـ قصريانة المدينة التى بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة ، فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة، انتقل الملك الى قصريانة لحصانتها ففتحها العباس سنة ٢٣٧ هـ. وبنى بها مسجدا فى الحال ونصب فيها منبرا ، وخطب وصلى فيها الجمعة (٣) . كما استولوا على قطانية وسرقوسة (٤) .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى : ٢/٢١٨ .

(٢) المكتبة الصقلية : ٢/٤٢٧ - ٤٢٩ عن كتاب نهاية الأرب للنويرى .

(٣) أبو الفدا فى أخبار البشر : ٢/٣٨ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب : المكتبة الصقلية : ٢/٤٣١ - ٤٣٣ .

نشاط المسلمين الزراعى فى المغرب وصقلية

وأثناء وجود المسلمين فى المغرب وصقلية حاولوا زراعة بعض النباتات التى لاتنمو إلا فى البلاد الحارة كالتوابل والقطن وقصب السكر والتوت ولكن زراعة التوابل لم يقدر لها النجاح ، على حين نجحت زراعة القطن وقصب السكر والتوت فى بعض جهات الاندلس وصقلية (١) .

وقد أقام العرب المسلمون غربى مصر ، وفى بلاد الاندلس ، وصقلية دويلات تقوم بدور الوسيط فى تبادل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت قصور القيروان ، وقرطبة وبلرم فى حاجة الى منتجات أسيا (٢) .

وكانت تستخدم هذه الجزيرة كمنفى كما حدث للمنذر أمير الحيرة ، عندما ارتاب فى ولائه امبراطور الروم فنفاه الى جزيرة صقلية (٣) .

مكانة صقلية :

كانت جزيرة صقلية إحدى الاماكن التى يرحل اليها الأمراء والخلفاء للعلم ، ومن هؤلاء المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١ - ٣٦٥ هـ) الذى رحل اليها فى صباه فتعلم اللغة التليانية وهذه اللغة الصقلية كانت منتشرة فيها (٤) .

---

(١) نقلا عن تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : ٣٠٧/٢ .

(٢) المرجع نفسه : ٣١٣/٢ .

(٣) المرجع نفسه : ٤٣/١ .

(٤) المرجع نفسه : ١٤٧/٣ .

وقد امتد سلطان الفاطميين فى القسم الأول من عهد المستنصر بالله على بلاد : الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالى إفريقية وكان اسمه يذاع على جميع منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غربا الى البحر الأحمر شرقا ، وكذا فى صقلية واليمن والحجاز والموصل ، بل فى بغداد نفسها حاضرة العباسيين نحوا من سنة (١) .

استقرت أقدام العرب فى اسبانيا ، وفى صقلية ، وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، وحاولوا الاستقرار على سواحل هذا البحر فى ايطاليا وفرنسا ، واستطاعوا ان يؤسسوا إمارة مستقلة لهم على سواحل إقليم بروفانس الاسفل ، وزادت قوتهم بما كان يصل اليهم من الامدادات من بلاد الاندلس ، وافريقية ، وجزيرة صقلية ، وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غويمر جنوبى إقليم بروفانس وفى غابة فراكسينت Fraxinet . ومن ثم أطلق على هذه الدولة العربية الفراكسينية ، ولم يلبث هؤلاء العرب أن ألفوا سكنى الجبال والغابات ، والسير فى الادغال والاحراج ، ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين امراء الاقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم ضد بعض (٢) .

قصة البحرية الاسلامية :

إن قصة البحرية الإسلامية ومعاركها تفوق الخيال ، وقصة تطورها وتسليحها أغرب من الخيال ، ولم يكن يتصور أحد ان يصبح بحر الروم العريق بحيرة عربية (٣) وعلى حد تعبير العلامة ابن خلدون « فقد كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد

(١) المرجع نفسه : ٣/١٥٤ ، ١٥٥ .

(٢) المرجع نفسه : ٣/٢٤١ .

(٣) انتشار الإسلام والدعوة الإسلامية ص ٥٩ .

غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشئ من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكان لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه .. وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجوز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل ، لها من العدوة (١) الشمالية فتوقع بملوك الافرنج ، وتثخن فى ممالكهم » (٢) .

ومازال علماء التاريخ والحروب يدرسون سر انتشار الإسلام ومقدرته المدهشة على تحقيق هذه الانتصارات .. وهكذا أثبت قادة سفينة الصحراء أنهم قادرون أيضا على السيطرة على سفن المحيطات (٣) .. وصدق الله العظيم إذ يقول : «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » (٤) .

ثم جاء دور الغرب فى أعقاب ذلك توا ، فرمت أوربا الشرق بأفلاذ أكبادها فى الحروب الصليبية (١) التى دامت قرونا ، وأسس الصليبيون على الشواطى الشرقية للبحر الأبيض ، إمارات أوربية مسيحية ، واستولوا أحيانا على بيت المقدس، واتصلوا فى ذلك كله بقلب الشرق : من مصر وسوريا ، وأطراف العراق ، وآسيا الصغرى ، فعرف الغرب الشرق فى دياره ، بعدما قدم الشرق نفسه إلى الغرب فى داره .

هذه الحروب المتداولة ، وذاك الاستعمار من الشرق للغرب ، ومن الغرب للشرق، كل أولئك قد تهيأت به فرص عملية متنوعة (٥) للاتصال بين الثقافتين وإليك بعض الأمثلة :

---

(١) العدوة والعدوة بكسر العين وضمها : شاطئ الوادى .

(٢) المقدمة :

(٣) انتشار الإسلام والدعوة الإسلامية ص ٦٠ .

(٤) الج : ٤٠ .

(٥) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ١٩ .

نتيجة لهذه الحروب ، وتلك المصادمات المختلفة ، كانت تؤخذ الاسرى من الجانبين ، فيطول مقامهم أحيانا إلى أن يفدوا ، ويعودوا الى بلادهم ألسنة تعريف بما رأوا وسمعوا ، بل بما تأثروا به من المؤثرات الفكرية والدينية والعملية للأمم التى خالطوها . ولقد عرفت أوربا من هولاء الاسرى أسير قرصنة شهيرا ، هو الذى دعوه « ليون الافريقى » وما هو إلا أبو على الحسن بن محمد الوزان الغرناطى الفاسى ، الذى أسره القراصنة ، فى عودته من لدن السلطان سليم العثمانى ، وقد كان سفر لديه عن ملك فاس مهنئا له . بالتغلب على المماليك فى مصر والشام ، وفلسطين ، وبلاد العرب ، وأهداه القراصنة إلى البابا ليون العاشر فحبسه فى قلعة القديس أنجلو ، برومية ، سنة كاملة ، حتى تعلم المسيحية على يد ثلاثة أساقفة ، وعمد بعد ذلك فى كنيسة القديس بطرس ، بيد ليون العاشر نفسه ، الذى أعطاه اسمه « حنا ليون » .

ومن هنا عرف باسم (ليون الافريقى) ، وظل بإيطاليا عهدا عاد بعده الى افريقية وعاد الى إسلامه ، وهناك كتب الوزان كتبا كثيرة قيمة ، نذكر من بينها مما يعنينا : كتابه عن « القانون والعقيدة الإسلامية » [1] .

وكان أسر الوزان ، وحياته فى أوربا إبان ثورة الإصلاح بين سنة ١٥١٦ - ١٥٢٩ م . على أنى إنما ذكرته مثالا فحسب ، لبيان ماقد يكون من التأثر والتأثير الدينى بالاسرى ، والنازلين من أهل الدينيين فى الشرق والغرب ، لا لأنا ندعى له بنفسه أثرا خاصا فى حياة الإصلاح المسيحى [2] .

---

(١) دائرة المعارف الإيطالية الجديدة مادة : ليون ، وقد كتب الاستاذ أبو عبد الله المهدى بن الشيخ الحجوى الفاسى بحثا عن الوزان قدمه لمؤتمر المستشرقين بفاس سنة ١٩٩٣ م كما أفردت حياته بالمؤلفات فى الايطالية . نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٠ .

(٢) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ١٩ ، ٢٠ .

وما إن يتمادى الوقت حتى ترى الحرب نفسها أداه اتصال مباشر بين المسيحية بأهلها فى الغرب ، والإسلام بأهله فى تلك المناطق ، إذ نشهد صفوفا من المسيحيين يقاتلون تحت اللواء الإسلامى اما عن طريق جعل الاسرى المسيحيين وسبيهم جنودا ، وإما عن طريق تقديمهم الى تلك الخدمة عن طيب خاطر (١) ، فى جيوش المسلمين بالاندلس ، بل جيوشهم في بلاد الغرب أيضاً ، فيقول ابن خلدون فى المقدمة : إنه « نظرا لضرب المصاف وراء العساكر ، وتأكده في قتال الكر والفر، صار ملوك الغرب يتخذون طائفة من الافرنج فى جندهم ، واختصوابذلك ، لأن قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر (٢) » .

وقد تنتظم جيوش ملوك الفرنجة جندا من المسلمين : إما عن طريق الغلبة ، مثل مايروى من اتخاذ « رجار » ملك صقلية لجملة من العبيد المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، كما كان وزراؤه وحجابه الفتيان ، الذين له منهم جملة كبيرة منهم ، هم أهل دولته (٣) ، وإما على سبيل الاستعانة بهم ، كما يروى أن فردريك الثانى هوهنشتاوفن أمبراطور الدولة الرومانية الآتى ذكره قد اتخذ فى جيشه الجند المسلمين فكانت صفوف الجند فى الغرب مجالا لالتقاء أهل الثقافتين ومخالطتهما ، سواء فى ذلك الجيوش الإسلامية ، والجيوش المسيحية (٤) .

كما : نرى عددا من حكام قشتالة (٥) يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ،

(١) رينو : غارات العرب على فرنسا ص ٢١٢ .
(٢) المقدمة ص ٢٣٨ .
(٣) أبن جبير الرحلة ص ٣٠٨ . ط مصر .
(٤) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٠ ، ٢١ .
(٥) تقع شمالى اسبانيا فتحها موسى بن نصير ، وطارق بن زياد سنة ٩٦ هـ راجع د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : ٣٢٤/١ ط الثامنة ١٩٧٤ القاهرة .

ويستخدمون مهندسين مسلمين ، ويستمعون الى موسيقيين مسلمين ، ويستمتعون بخير ما فى الثقافة الإسلامية »(١) .

وفى تراث الإسلام (٢) أيضاً ما نصه : « على أن المغيرين النورمانديين والصقليين قد أحاطوا العلوم العربية برعايتهم وأخذوا بالعادات الإسلامية أخذا شاملا » كما نقرأ فى نفس المرجع (٣) هذه الجملة « إن الفونس السادس كان بلاطه مسيحيا اسما ، وأنه أعلن نفسه امبراطور العقيدتين » .

وروى الامير شكيب أرسلان فى تعليقاته على ترجمة كتابى : رينون وكللر ، وكرره فى ثلاثة مواضع ص ١٤١ ، ١٥٤ ، ١٧٤ ، وقال الاستاذ ابرنست باركر فى كتاب تراث الإسلام جـ١ ص ١٣٥ من الترجمة العربية الحديثة : « إن فردريك الثانى استخدم جيشا عربيا ضد البابا ، وفى الجزء الثانى من تراث الإسلام جـ٢ ص ٣٣ نقلا عن مدام ديفو نشير ذكر قلعة « لوسير التى اتخذ فيها فردريك الثانى مسلحة من الجنود العرب »(٤) .

وفى تاريخ العلاقة بين أهل الثقافتين : الإسلامية والمسيحية ، نلمح ضربا من الدعاية السياسية التى تمس النواحى الدينية ، إذ تروى الانباء عن تبادل المقاتلين نشرات للدعاية الموهنة للقوة المعنوية ، وردودا على تلك النشرات للغرض عينه ، ففى حروب نقفور فوقاس الثانى امبراطور بيزنطة مع المسلمين فى القرن الرابع الهجرى – ارسل الروم الى جيش المسلمين قصيدة عربية فى ٥٤ بيتا (٥) . يفخر فيها نقفور

(١) تراث الإسلام : ١/ ٨ من الترجمة العربية .

(٢) جـ ١ ص ٢٣٢ .

(٣) المرجع نفسه : ١/٥٤ .

(٤) نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢١ هامش ٢ .

(٥) منها نسخة خطية فى جزء كبير بمكتبة فينا ، تزيد أبياتا عما أورده صاحب طبقات الشافعية، ومعها رد الشيخ القفال ، كما ساقه صاحب الطبقات ، راجع صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٢ هامش : ٢ .

بماضى انتصاراته ، ويعلن عزمه على طرد العرب الى الحجاز ، ويعرض لنقد الحكومة الإسلامية إذ ذاك ، بتغلب الديلم عليها ، إلى نحو هذا من التوهين لنفسية غزاة المسلمين .

وقد تولى الرد الإسلامى على هذه القصيدة: الفقيه الشافعى العظيم محمد ابن على بن اسماعيل القفال الكبير الشاشى ، إذ كان بين جنود الجيش الإسلامى، فنظم قصيدة فى (٧٤) بيتا ، فيها الى جانب السياسة أمور دينية عن خطأ المسيحيين فى اعتقادهم ، واضطراب أناجيلهم وما إلى هذا [١] .

فمثل هذه الدعايات التى كان يقصد بها الفت في عضد الجيوش ، مما يقع بين المتقاتلين ، وليس من البعيد أن تكون قد تكررت على هذا الأسلوب الشعرى ، أو غيره بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق والغرب ، ومست قضايا وأصولا دينية ، إذ كانت الاعتبارات الدينية هى التى تسيطر على الحياة ، وتسود العواطف فى تلك الاعصر [٢] ، ومازالت حتى يوم الناس هذا .

كذلك نجد الاخبار عن مسجد إسلامى بالقسطنطينية يظهر ان المسلمين قد انشأوه فيها منذ عصر مبكر ، أيام ترددهم لغزوها فى القرن الأول الهجرى ، إذ يذكر ابن حزم فى رده على قصيدة نقفور السابقة مسجدا قديما أنشاه مسلمة بالقسطنطينية فيقول :

---

(١) تاج الدين السبكى : طبقات الشافعية الكبرى : ٢/١٧٩ ومابعدها ط مصر ، وفى ص ١٨٤ من هذا الجزء : أن ابن حزم الظاهرى قد أجاب عن هذ القصيدة النقفورية بقصيدة أخرى فى (١٣٧) بيتا ساقها السبكى أيضاً بعد ما قال : « وكأنه - ابن حزم - لم يبلغه جواب القفال ».

(٢) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٣ .

ومسلمة قد داسها بعد ذاكم .'. بجيش لهام كالليوث الضراغم .

وأخدمكم بالذل مسجدنا الذى .'. بنى فيكموا فى عصرنا المتقادم (١)

وغزو مسملة بن عبد الملك هذا كان فى أواخر القرن الأول الهجرى (٩٨ هـ - ٧١٦ م) (٢).

فلعل هذا المسجد ظل قائما بالقسطنطينية حتى كانت عمارته والعناية به ، مما يدخل فى تنظيم العلاقة بين المسلمين والروم الشرقيين إذ نقرأ أنه فى سنة ٤٤٠هـ - ١٠٤٨ م بعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك ، وهاداه وعمر مسجد القسطنطينية ، وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك (٣) .

وفى سنة ٥٨٦ هـ - ١١٩٠م . وافى كتاب ملك الروم بالقسطنطينية يخبر بوصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب و المؤذنون والقراء ، وان الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله تعالى (٤) .

ويظهر أن هذه النقطة الإسلامية لم تكن مسجدا فحسب ، بل كانت جالية إسلامية تنزل القسطنطينية قبل فتحها العثمانى ببضعة قرون (٥) ، إذ تجد أنه فى سنة ٥٩٢ هـ - ١١٩٥ م ، ورد كتاب ملك الروم يتضمن ان كلمة الروم قد اجتمعت عليه ، وأنه أحسن الى المسليمن ، وأمرهم بإقامة الجامع ، فاقيمت فيه يوم الجمعة

---

(١) السبكى: طبقات الشافعية : ١٨٥/٢ ط مصر .

(٢) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٣ .

(٣) تقى الدين المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : ٣٢/١ ط مصر سنة ١٩٣٤ م .

(٤) المرجع السابق : ١٠٤/١ ط مصر .

(٥) تم فتحها على يد محمد الخامس الخامس رحمه الله تعالى .

الصلاة مع الخطبة ، وأنه عمّر جانبا منه ، كان انهدم ، من ماله ، فتمكن من فى القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها (١) .

ولعل من المحتمل أن تكون هناك نقطا أخرى فى غير القسطنطينية من هذا القبيل ، كان لها نصيبها فى وصل الثقافة مابين المسلمين والمسيحيين على حد سواء.

نتج عن الصلاة السياسية والحربية تبادل الوفود بين الجيوش والحكومات لعقد الهدنة ، وتقرير الصلح ، وتوطيد العلاقات ، وفى هذه الوفود نرى نزوعا خاصا من المسلمين والمسحيين ، إلى أختيار رجال دينيين ، يصمدون للمناقشات والمجادلات الاعتقادية ، التى كانت تجرى عند التقابل ، حتى فى الحفل الرسمى الذى يقام لاستقبال السفير الوافد ، وشاهد هذا من الجانب الإسلامى ، مانراه فى اختيار مثل القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى (٤٠٣هـ) للسفارة بين المسليمن والروم الشرقيين(٢) .

ذكر ابن الاثير (٣) فى حوادث سنة ٣٧١ هـ أنه فيها أرسل عضد الدولة القاضى أبا بكر محمد بن الطيب الأشعرى المعروف بابن الباقلانى الى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه .

وإلى القارئ بعض ماوصلنا من مناقشات القاضى لرجال المسيحية من الروم:

دخل القصر يوما فرأى عند الامبراطور بعض مطارنته ورهبانه ، فقال له مستهزئا به : كيف أنت والأهل والأولاد ؟ فتعجب منه الامبراطور ، وقال له ذكر من

(١) راجع كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك : ١٢٩/١ ط مصر .
(٢) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٣) جـ ص

أرسلك فى كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أننا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد !! فقال القاضى أبو بكر : أنتم لاتنزهوا الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد ، وتنزهونهم ، فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله سبحانه وتعالى .

وقصد الأمبراطور يوما توبيخة فقال له أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فقال له القاضى أبو بكر : هما أثنتان ، قيل فيهما ماقيل زوج نبينا ﷺ ، ومريم بنت عمران ، فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وكل قد برأها الله مما رميت به .

وكان القاضى الباقلانى مبعوثا سياسيا ، سريع الخاطر لبقا ، رووا أنه فى هذه الرسالة عرف الإمبراطور خبره ، ومحله من العلم وموضعه ، فاعتقد ان القاضى لن يكفر له إذا دخل عليه ، كما رسم الرعية أن تقبل الأرض بين يديه ، فاحتالوا ذلك بأن جعلوا الاستقبال فى حجرة ، لها باب لطيف لا يمكن أحدا ان يدخل منه إلا راكعا ، وجعلوا السرير وراء هذا الباب ، ليدخل القاضى راكعا ، فيكون ذلك عوضا عن تكفيره ، فلما ذهب القاضى سار حتى وصل الى المكان ، فلما رآه فطن الى القصة ، فأدار ظهره وحنى رأسه راكعا ودخل من الباب ، وهو يمشى الى الخلف ، وقد استقبل الملك بظهره حتى صار بين يديه فرفع رأسه ونصب ظهره ، وأدار وجهه، وكذلك كان سريع الخاطر دينيا وعمليا ، رحمه الله تعالى (1) .

وفى الغرب كان « أوتون » ملك جرمانيا فى القرن العاشر ، يهتم باختيار عالما لاهوتيا يعتمد عليه فى المناقشة الدينية مع المسلمين ليوفده الى قرطبة ، فيقع

(1) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ط دمشق ، نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٥ هامش ١ .

اختياره على راهب من رهبان ديرجورز (Gors) اسمه (جان) عرف بضلاعته فى علم اللاهوت وقد حاول فى تلك الوفادة اقناع الخليفة (الناصر) الاندلسى باعتناق المسيحية . كما تشير الى ذلك الرواية الأوربية (١) .

كان من آثار الاتصال المادى بين الثقافتين ، أن الفتوحات الإسلامية إذا ما انحسرت عن الاقطار الغربية ، تترك جموعا تطويها اللجة الغامرة من الغلبة السياسية والحربية ، فتدخلها فى المسيحية الغربية ، عناصر تلقيح وطرق تعريف بالإسلام ، وهكذا كان الأمر عندما استردت جزر البحر الأبيض من المسلمين مثل قبرص ، وأقريطش ، ورودس وصقلية وغيرها من المناطق الإسلامية فى أوربا ، وإن كانت قبرص مقسمة بين اليونان وتركيا الان ، ولعل هذا يفسر الهجمات الشرشة اليوم على المسلمين فى دول أوربا وخاصة يوغسلافيا السابقة وفرنسا والمانيا .. الخ.

ومن صور الاقليات فى انحاء أوربا ، تلك الآثار الغربية المحفوظة ، ففى فرنسا كان من المسلمين فى القرن الثالث عشر الميلادى عدد يهتم به مجمع الاسقافة فى « طركونة » بأسبانيا سنة ١٢٣٩ م فيصدر أمرا باجبارهم على اتخاذ زى خاص بهم (٢) ، كما كان منهم أرقاء مستعبدون ، يفرون من عذاب ، الاضطهاد الى المسيحية ، يعتنقونها فيعذبون ليحال بينهم وبين اعتناق المسيحية ، أو يستمر إرهاقهم بعد اعتناقها بأشد مايمكن ، حتى أصدر البابا كليمنضوس الرابع سنة ١٢٦٦ م منشورا عنف به رئيس دير لتعذيبه رجلا مسلما غنيا كا قد تنصر ، فزعم هذا الرئيس أن تنصره غير حقيقى ، توصلا بذاك الى ضبط أملاكه ، وحرمان أولاده منها (٣) .

---

(١) رينو : المرجع السابق ص ١٧٧ من الترجمة العربية .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٢٧ .

(٣) رينو : المصدر نفسه ص ٢٢٨ من الترجمة العربية .

ويتحدث حتى اليوم عن أسر فى جنوب فرنسا لاتزال تحمل اسم « سارازان» ومن بين رجالها من له شأن علمى ، وما ذلك إلا أثر لما كان من علاقات دينية بين الفرنسيين والمسلمين يحدث ياقوت في معجم البلدان عن وجود مسلمين فى بلاد «هنجاريا » – المجر – التى يسميها « الهنكر» فى القرن الثالث عشر الميلادى فيقول : « .. وأما انا فإنى وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم : الباشغردية ، شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية فى مملكة أمة من الافرنج يقال لهم : « الهنكر » ونحن مسلمون رعية لملكهم ، فى طرف بلادهم نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد أن تكون بليدة ، إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شئ منها سورا خوفا من أن نعصى عليه ، ونحن فى وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا ، يعنى رومية ، والبابا رئيس الأفرنج ، وهو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين ، ينفذ أمره فى جميع مايتعلق بالدين فى جميعهم ، قال : وفى غربينا الاندلس ، وفى شرقينا بلاد الروم ، قسطنطينية ، وأعمالها ، قال ولساننا لسان الافرنج ، وزينا زيهم ، ونخدم معهم فى الجندية ، ونغزو معهم كل طائفة لأنهم لايقاتلون إلا مخالفى الإسلام ، فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم فى وسط بلاد الكفر ؟ فقال : سمعت جماعة من اسلافنا يتحدثون أنه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار – قلت وهو يذكر فى صدر المادة خبر بعثة الخليفة (المقتدر بالله) إلى ملك الصقالبة الذى كان قد اسلم هو وأهل بلاده ، ليفيض عليهم الخلع ويعلمهم الشرائع الإسلامية – وسكنوا بيننا ، وتلطفوا فى تعريفنا »[1] .

(١) ياقوت : معجم البلدان : ٢/٣٧ مادة : باشغرد .

مما سبق يتضح لنا تلك المظاهر المادية التى ترجع الى الحروب بين الشرق والغرب ، ومايتصل بها من وفادة ومراسلات ، وثم أعمال سلمية لها أهميتا فى مثل تلك الصلات بين الثقافتين ، فرجال الحكم أنفسهم حين لايحاربون ، تدفعهم مطالب الحياة الى توثيق الصلات بأسباب التودد المختلفة كتبادل الرسائل التى حوت الى اعتناق دين أحد الطرفين كما سنشير اليه فيما بعد ، ومنها مايتخطى دور الاختلاف الدينى ، ويهيئ التفاهم القريب ، كالمصاهرة ، ففى الشرق نجد الامبراطور كانتا كوزينو – الذى سنعرف أنه ترهب وترجم القرآن – يصهر الى السلطان العثمانى أورخان ، ويحمل اليه ابنته « تيودورة » التى تقيم على دينها فى قصره (١) .

وفى الغرب نجد نفرا من أولى الأمر فى الاندلس يتزوجون أميرات غربيات ، فقد تزوج عبد العزيز بن موس بن نصير أرملة الملك لذريق ، ويقال ان عبد العزيز سماها زهرة بنت عيسى يريد أنها وردة المسيحيين . وفى هذا الزواج نفسه ظاهرة واضحة للتأثير فقد ذكر ابن الأثير ان زوجة عبد العزيز حظيت عنده ، وغلبت عليه فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل زوجها لذريق ، فقال لها إن ذلك ليس فى ديننا ، فلم تزل به حتى أمر ففتح باب قصير لمجلسه الذى كان يجلس فيه ، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه فيصير كالراكع فرضيت به ، وصار كالسجود عندها ، فقالت له : الآن لحقت بالملوك ، وبقى أن أعمل لك تاجا مما عندى من الذهب واللؤلؤ ، فأبى فلم تزل به حتى فعل ، فانكشف ذلك للمسلمين ، فقيل تنصر ، وفطنوا للباب فثاروا عليه فقتلوه (٢) ، وهكذا توصلت هذه الزوجة النصرانية إلى هدفها بحيلة بارعة وصدق الله العظم إذ يقول :

(١) روبرتسون وليم : مقدمة تاريخ شارلمان ص ٣٧٤ من الترجمة العربية . نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٢٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل : ٨/٥ .

« إن كيدكن عظيم » [1] .

« ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » [2]

وكما تزوج زياد بن النابغة التميمى إحدى بنات ملوك الاندلس [3] ، وتزوج عثمان بن أبى نسعة ابنة دوق أكيتانة [4] ، وغيرهم . ومما لاريب أن مثل هذه الزوجات قد لعبن دورا هاما فى قلوب وعقول أزواجهن ، والتأثير عليهم بعيدا عن تعاليم الإسلام وجرهن الى التعاليم المسيحية .

وإذا سعى رجال السياسة بعضهم الى بعض ، فقد سعى مثل هذا السعى رجال الثقافتين أيضاً فى سلم أومايشبهه حينا ، بغية نشر الثقافة الدينية ، وكسب الاتباع ، وعندنا من هذا الاتصال بين علماء الثقافتين فى الشرق وتناقشهما لمحاولة ضم الفريق الآخر الى ثقافته .

وفى الغرب نفسه نجد السعى الحثيث الى التبشير الثقافى بين المسلمين ، فسان فرنشسكو رأس الرهبنة الفرنشيسكانية – ق ١٣ م – يرحل الى الشرق من أجل ذلك الغرض ، ويتقدم الى معسكر الملك الكامل الايوبى بدمياط سنة ١٢١٦م ليدعوه الى اعتناق المسيحية [5] .

---

(١) يوسف : ٢٨ .

(٢) ال عمران : ٧٣ .

(٣) أخبار مجموعة ط مدريد ص ٢٠ نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسحية ص ٣٠ .

(٤) محمد دياب بك : تاريخ العرب فى أسبانيا ص ٣٩ ، ١٧٦ . نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٠.

(٥) الكونت هنرى دى كاسترو : الإسلام : خواطر وسوانح ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

و« ريموند لول » تضطرم فى نفسه رغبة عنيفة حادة للتبشير بالمسيحية بين المسلمين ، ويرى ذلك أعظم غاية في حياته (١) . كما وجد من « بابات » رومية انفسهم من يشاركون فى هذه الدعوة بالمكاتبة ، فيرسل البابا بيو الثانى ، إلى السلطان محمد الفاتح عقب سقوط القسطنطينية فى يده رسالة يدعوه فيها الى اعتناق المسيحية ، ويناقش فيها تفاصيل فى الدينين الإسلام والمسيحية (٢) .

واليك رسالة من راهب فرنسى كنموذج ، الى المقتدر بالله صاحب سرقطة ، وجواب الفقيه القاضى الجليل الفاضل أبى الوليد الباجى عليها :

(١) فيور نتينو : مختصر تاريخ الفلسفة : ٣٠٥/١ ، والفرد وليام : تراث الإسلام ص ١٧٢ . نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣١ .

(٢) الكونت هنرى دى كاستري : الإسلام خواطر وسوانح ص ١٦٦ ، ١٦٧ . من الترجمة العربية .

رسالة الراهب من إفرنسة

إلى المقتدر بالله صاحب سرقسطة

١- « الى الصديق الحبيب الذى نؤمله أن يكون خليلا مُدانيا - المقتدر بالله على دولة هذه الدنيا ، الملك الشريف ، من الراهب أحقر الرهبان ، الراغب فى الانابة والإيمان بالمسيح يسوع بن الله سيدنا !

٢- « لما انتهى إلينا - أيها الأمير العزيز ! - أمرك الرفيع فى الدنيا وبصيرتك فى تبيين أحوالها المتغيرة رأينا أن نراسلك وندعوك لتؤثر المُلك الدائم على الملك الزائل الفانى .

وإنك قد رأيت كتابنا إليك الذى راجعت عليه مراجعة نبيلة ، على حسب نظر أهل الدنيا ، ولم تكن بحسب مطلوبنا من المراجعة الروحانية ، ولذلك تراخى زمانى بمراجعتك إذ توقعنا أن نتكلف تعبا لا نجتنى به ثمرة .

وحقا أن القادر على الكل الذى اصطفى أولياءه قبل خلق العالم ولم يسبق فى علمه هلاكهم قد أنار قلبك وأشعره للإيمان بالإلاه المسلم لك ، وهو الرحمان الرحيم الغفور الذى يهديك لمعرفته .

٣- « وليس يسعنا أن نتراخى عن الاجتهاد فى تتميم هذه المصلحة بجميل معونته لتشترك معنا فى ملكوته إن آثرت ذلك ! ولهذا الأمر ، أشخصنا إليك من إخواننا من يورد عليك كلاما إلاهيا - على مايوفقهم الله إليه - ويشرحون لديك حقيقة دين النصارى ويقررون عندك معرفة المسيح سيدنا الذى لا ينبغى لنا الإيمان بأحد سواه ولانرتجى النجاه إلا به ! فهو الإلاه الذى اتخذ حجابا على صورتنا لينقذنا بدمه الطاهر - من هلكة إبليس .

٤- « ولقد كنا - أيها الملك الشريف ! نورد كثيرا من هذا القول لولا مانتوقعه من تألك بسماعه ! وفى ذلك كله برهان الملة المسيحية وبيان جلالتها .

وإن الإحاطة بكنهها مما يعجز دونه إدراك الإنسان ! وملك الله - تعالى ! - أجل وأعظم من أن يدركه فهم الإنسان أو يصل اليه بعلم الكلام ، إلا أن من آيات الله القادر على كل شئ أن يشرح صدور الآدميين ويدخل روح العلم فى قلوبهم ليتمكن الإيمان فى نفوسهم .

٥- « ولما كانت الدنيا من قبل معمورة بالضلال والعالم مدنسا بعبادة الأوثان حسن عند الله القادر - فى آخر العهد - ان يعيد الزمان جديدا ويستدرك الصلاح الذى فات العالم فى آدم الوالد الأول ، وذلك أمر قد اهتدى اليه آباؤنا من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، والانبياء أفصحوا به من بعدهم ، وهو عهد من الله مؤكد قبل التورية وبعد تنزيل التورية أن يكون الالتحام المقدس معلوما ، وليس هذا مما تختص به مصاحفنا فقط ، بل هو منصوص فى مصاحف اليهود والمخالفين لنا ببيان واضح .

٦- « وإن الشيطان اللعين الذى عرض أهل هذه الدنيا للموت بحسده لآدم حاول تغيير هذه الملة المقدسة بعد إقبال الحواريين الذين هدوا أهل الأرض بالموعظة وبعد ظهور الشهداء الاصفياء على إبليس بالغلبة الذين هرقوا دماءهم فى أقطار الأرض فى ذات الله وفى سبيل شريعته المقدسة ، فلم يستطع أن يغرى أهل الدنيا ويحملهم على ضلالهم القديم من عبادة الأوثان ، فشبه على بنى إسماعيل فى أمر الرسول الذى اعترفوا له بالنبوة فساق بذلك أنفسا كثيرة الى عذاب الجحيم .

وقد كان - فيما سلف - من ذنوب إبليس وتضليله للعباد مايلقيه العذاب الأليم ، يوم القيامة ، من الله سيدنا يسوع المسيح ، وقد ضاعف تلك الذنوب بما أوبق فيه هذه الأمم العظيمة .

٧- « فاعتبر - ايها الملك الشريف ! - ولا تؤثر شيئا على نجاة نفسك يوم الحكم والجزاء ، فإنا مخلصون فى خدمة أمورك ومسارعون الى تفديتك بنفوسنا ، ومتى قبلت قولنا وعملت برأينا وتقررت عندنا إجابتك إلى ماندعوك اليه من قبول كلمة النجاة الدائمة التي نعرضها عليك لم نتوقف عنك [و] عن الإلتحاق بك .

فتأمل - أيها الحبيب - مايحق عليه تقديم العمل به والمسارعة اليه واغتبط بما يدين به إخواننا فى هذا القطر من الدعاء وبذل الصدقات الزاكية عنك ومامنهم أحد رآك ولا شاهدك وإنما يتبرع بذلك رغبة فى أن يهديك الله إلى مرضاته .

٨- « والسلام عليك - يأيها الحبيب ! - من سيدنا المسيح الذى أذهب الموت وقهر الشيطان ورحمة منه وبركة باستنقاذك من حبائل إبليس التى كنت فيها متورطا إلى الآن ، ونسأل الله الذى له القدرة والعظمة الذى من أجله خلق كل شئ ومن دونه لم يخلق شيئا أن يهديك ويثبت فى نفسك مادعوناك اليه وحضضناك عليه .

وإن لم يظهر لك - يا أيها الحبيب ! مراجعتنا بجوابك على ماتضمنه كتابك لآفات الكتب فلودع ذلك إخواننا هؤلاء وأطلعهم على سرك ومايتمثل فى نفسك .

ونحن نضرع الى سيدنا يسوع المسيح أن يتولى رعايتك ويتكفل سلامتك ويهديك الى دينه المقدس ويسعدك بالإيمان الصحيح به ! أمين ! سنة ٧٨٥م . » .

٩- جواب الفقيه القاضي الجليل الفاضل

أبي الوليد الباجي رحمة الله عليه ورضوانه علي هذه الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على محمد وعلى آله وسلم !
العزة لله والصلاة على رسوله !

« تصفحت أيها الراهب ! الكُتُب الوارد من قبلك ، وما متتَّ به من مودتك ، وأظهرته من نصيحتك ، وأبديته من طويتك ، فقبلنا مودتك ، لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملتك ، واتصل بنا من جميل إرادتك ، ونبهتنا لعمر الله ! بنصيحتك على مايلزمنا من ذلك لك ، ولولا ما كنا نعتقد من بعد مستقرك وتعذر وصول كتبنا إليك لكنا أحرياء أن نأتى من ذلك مايلزم ونسلك منه السبيل الأوجب ولكنت عندنا جديرا بعرض الحق عليك وإيصاله إليك ، فقد قرر لدينا من وصل من رسلك وأهل ملتك علينا ماتظهره من حرصك على الخير ورغبتك فى الحق ، مما قوى رجاءنا فى قبولك له وإقبالك عليه وأخذك به وإنابتك إليه .

١٠- « وقد كان ورد علينا قبل هذا كتابك واقترن به من دعوى حامله المحال الذى كان يجب أن لا يخاطب [به] من له أقل حس بالإحساس أو يختلج بخاطر من له أدنى فهم ، من إحياء أموات واعظم رفات .

فألنا القول وأوليناه الاعراض والصفح ، وجاوبناك جواب من يعتقد [حسب] ما ظهر منك وبلغنا عنك من خطرات الغفلة - أنك أرسلتها دون تأمل وأظهرتها دون تحصيل ولا تحقق ، مع ظنك أنه يجوز على ضعفاء المسلمين من ذلك مايجوز على جماعتكم من تجويز فعال وتصحيح ماهو في غاية الإبطال .

فقصدنا الرفق والتأنيس لك ، وكان ذلك أفضل ماروجع به من تُرجى عودته وتنتظر إنابته وفيئته ، فإنما يستعمل الإغلاظ لمن يتيقن عناده ويتبين إصراره ولم يرج انقياده ، ونحن نرجو أن نرفعك عن هذه المحطة ونخلصك من هذه الوصمة بفضل الله وعونه وتأييده ونصره ! .

١١- « ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك تعينت علينا مفاوضتك فيما رضيناه من مسئلتك ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك فى النصح الذى يجرى اليه أهل الفضل وأمرنا الله به على ألسنة الرسل ، وكففنا عن معارضتك على ما استقبحناه من خطابك وسخطناه من كتابك ، من سب الرسل الكرام والانبياء المعظمين عليهم السلام - وانحرافنا عن ذلك إلى ان نحذرك وننذرك فيما لم يبلغك علمه ولم يتحقق لديك حكمه ، ونبالغ فى الرفق بك والتبيين لك على منهج الخطب والرسائل ، لا على طريق البراهين والدلائل ، مساعدة لك على مذهبك فى كتابك وموافقة لك فى مقصدك، فعسى ان يكون أقرب الى استمالتك وأبلغ فى معارضتك ومعالجتك ! .

١٢- « وإنا لنربأ بمثلك ونرفع قدرك عما استفتحت به كتابك من أن عيسى عليه السلام ! ابن الله تعالى ، بل هو بشر مخلوق وعبد مربوب لا يعدو عن دلائل الحدوث من الحركة والسكون والزوال والانتقال والتغيير من حال الى حال واكل الطعام والموت الذى كتب على جميع الانام ، مما لا يصح على إلاه قديم ولايمكن عند ذى رأى سليم ، ولو جوزنا كونه عليه السلام مع هذه الصفات والأحوال المحدثات إلاها قديما لنفينا ان يكون العالم أو شيء مما فيه محدثا مخلوقا ، لأنه ليس فى شئ مما ذكرنا من البشر والعالم وما فيه من الحيوان والجماد من دلائل الحدوث غير مافى عيسى عليه السلام .

١٣- « وأن الله تعالى ! خلق عيسى عليه السلام من غير أب كما خلق أدم عليه السلام من تراب ، وقد حملت بعيسى أم ولم تحمل بأدم أنثى ولاذكر ، فإذا لم

يكن آدم إلاها وهو الاب الأول – بل هو مخلوق – فعيسى أولى أن لايكون إلاها وهو من ذرية آدم وولده، بل هو عبد مربوب ، وإن هذا لواضح لمن جهل معنى الحدوث ولم يميز الخالق من المخلوق ! وأما من نظر فى شئ من أبواب العلم وأيد باعتبار وفهم فعلامات الحدوث أوضح ودلائلها أصح من أن تخفى أو تشكل أو يمترى فى أمرها من له من العلم أدنى محل ».

١٤– « وقد ظهر على أيدى سائر الرسل عليهم السلام من الآيات الواضحة والمعجزات الباهرة مثل ماظهر على يدى عيسى عليه السلام ! وأكثر ، فلو جاز أن يدعى لعيسى عليه السلام بشئ مما ظهر على يديه من إحياء ميت وإبراء أكمه وأبرص بأنه ابن لله تعالى لجاز أن يدعى ذلك لإبراهيم ، لما ظهر على يديه من سلامته من النار بعد أن قذف فيها ، ولم ينج عيسى من عدد يسير من البشر راموا – بزعمكم – صلبه وقتله ، ولجاز أن يدعى ذلك لموسى عليه السلام ! لما ظهر على يديه من قلب العصا حية وفلق البحر ، ولجاز أن يدعى ذلك لمحمد ﷺ لما ظهر على يديه من انشقاق والقمر ونبع الماء من بين أصابعه وتسبيح الحصى فى يده (١) وحنين الجذع اليه ، وغير ذلك من الايات .

١٥– « لكن الآيات لاتقتضى تجويز المحال وإحالة الجائز الممكن ، وإذا كان ربنا تعالى ! قديما سبحانه أن يكون محدثا أو مخلوقا وكان من وجدت فيه دلائل الحدوث من الأكل والشرب والزوال والانتقاء لا يكون إلا مخلوقا مربوبا لم يدل إحياء الموتى على يديه أنه إلاه معبود ، وإنما يدل ظهور ذلك على يدى مدعى النبوة أنه نبى صادق لأن مافيه من صفات الحدوث لا تحيل كونه نبياً .

(١) وسماعه ﷺ هذا التسبيح .

« ١٦- ولو جاز أن يقال : أن عيس عليه السلام ! هو الخالق لما ظهر من ذلك على يده والمنفرد بفعله لجاز أن نقول : إن آدم وابراهيم وموسى ومحمدا ﷺ وسائر الانبياء عليهم السلام انفردوا بخلق ماظهر على أيديهم وإن جميعه من خلقهم وإنهم لذلك آلهة معبودون ! وذلك محال! فلا خالق إلا الله ولامعبود سواه ! وهؤلاء أنبياء مكرمون ورسل مؤيدون ، صدّقهم الله تعالى ! بما ظهر على أيديهم من المعجزات التى لايقدر عليها غيره ولايصح أن يخلقها سواه ! .

١٧- « وأمر الدنيا أحقر وشأنها أنفر وأنزر من أن يغتر بها ذو عقل أو يسكن الى غرورها ذو لب ، وإنما هى دار اختبار واعتبار وليست بدار جزاء ولا قرار ! فالسعيد من عمل فيها وتزود منها الى دار المقام الذى لاينفد والنعيم الذى لاينقضى بل يتأبد ، حيث ينفرد ربنا بالملك ويصير من أطاعه وأفرده بالعبادة وآمن برسله وكتبه إلى رضاه فى دار النعيم ويصير من أشرك به وكفر بشئ من كتبه أو أحد من رسله الى سخطه فى دار الجحيم !

ونرجو أن الله تعالى ينجيك بالإسلام ، منها ويبعدك ، بالانتقال الى دين محمد ﷺ عنها .

١٨- « وإن الله تعالى أنار قلوب جماعة المسلمين بالإسلام وعزنا به وأكرمنا باتباع محمد ﷺ ورضنا له وخصنا بالقرآن الكريم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » [1] . أفضل الكتب والخاتم لها والحاكم عليها والمصدق لها ، تضمن علم الأولين والاخرين ، وأنار قلوب المؤمنين بالحق المبين، نحمد الله على ماخصنا به وهدانا له « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » [2] .

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) جزء من الآية ٤٣ من سورة الاعراف .

ويلزمنا الاجتهاد فى النصح لك والرفق بك والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمة المكرمة ، ومن أهل هذه الملة المعظمة الناسخة لجميع الملل والحاكمة على سائر الفرق فتفوز برضى رب العالمين وتنجو من سخطه وتنال ثواب يوم الدين وتخلص من معرته وتسعد فى الدنيا بالكون من جملتنا وتحظى بالقرب من نفوسنا .

١٩- « وأما ملكوت رب العالمين فهو المنفرد به تعالى ! لاينبغى أن يشركه فيه طائع ولا عاص ولابر ولا فاجر ! وإن أردت بذلك أن يكون من أطاعك فى ملك الله تعالى ! فذلك حال من عصاه وحال أهل الدنيا والاخرة ، لايخرج أحد عن ملكه ولكنها الفاظ تستعملها فى غير مواضعها لأنك لاتعرف مقتضاها !

ولوددنا أن الله بفضله يسر لك الهجرة إلينا والمثول لدينا ، فتسمع الكلام على حقيقته فى معانى هذه الألفاظ ، ونقيم وجوهها واستعمالها على ترتيبها ، وتسمع الكلام الإلاهى على الحقيقة ، كلام رب العالمين تولى حفظه ربنا عز وجل ! وعمّر به السنتنا وقلوبنا ، فلا يمكن أحدا تغييره ولا تبديله ولا صرفه عن وجهه ولاتحريفه فلو قرع سمعك منه سورة واحدة أو آية كاملة لرجونا أن يكون ذلك مما ينور قلبك ويستولى على نفسك ويعود بك الى الدين الافضل والسبيل الأمثل ! « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين ! »[1] .

٢٠- « وقد ورد متحملا كتابك فما أورد إلا كلام البشر الذى جرت عادة أهل الضعف بايراده عند العجز والفشل والتبلد والخور ، ومع التحير والانقطاع والاضراب فى الدعاوى والاقوال ، وادعيا فى أول الأمر ، من المحال قريبا مما ادعى الوارد قبلهما مع تكذيبهما له فيما نقل عنك ، ثم آلت حالهما الى مثل ما آلت حاله اليه ومن تكذيب أنفسهما وتكذيب المعبر عنهما فيما نقل عنهما وترجمه من قولهما .

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

وعندنا من علم شريعتكم واختلاف اخباركم فى ملتكم وما تورده كل طائفة من شبهكم فى الاقانيم والاتحاد ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات أناجيلكم ما لو أبدينا اليهما اليسير منه لحيرهما وبهرهما وعلما ان عندنا ، من جملها وتفاصيلها ، ما لم ينته اليه أحد من أهل ملتكم ولا وصل الى تفريعه وتتبع معانيه أو لكم واخركم ، لكنا آثرنا الرفق بهما والاخفاء عليهما والتأنيس لهما والنا لهما القول وأبدينا اليهما نبذة خفيفة من الأمر مما لاتنفر منه نفوسنا ولا تتوجع من سماع خواطرهما آخذين فى ذلك بأدب الله تعالى فى أمتثالهما [لدينهما]

٢١- « وقد رأينا ما فى كتابك مما خالفت فيه جميع أهل ملتك ، فإنه ليس فى فرق النصارى من يقول إن المسيح لا ينبغى الإيمان بأحد سواه بل هو الإيمان بالاب عندكم واجب ، والاب لم يتخذ بالناسوت عندكم وإنما اتخذ به الإبن ، فمن لم يؤمن بغير الابن كفر بالاب ، وقد تقدم فى كتابك ان المسيح ابن الله وهذا نقض لقولك إنه لاينبغى الإيمان بغير المسيح الذى هو الأبن ! .

ولو تتبعنا ما فى كتابك من التناقض وفساد الوضع ومستحيل القول لما سلم منه إلا اليسير الحقير ، لكنا وفقنا الله واياك حملنا ذلك منك على ماعهدناه من أهل ملتك من قلة العلم والبعد عن مقاصد المناظرة وترك المدارسة والمحاورة مع تمويهات لاتصح وتلفيقات لا تثبت ولاتنصر ، وأرجو أن يوفقك الله بإرشادنا لك ، إلى ترك التمويه والتعلق بالمغالطة والكذب ويعوضك علم الحقائق وصحيح المقاصد وأدب المناظرة التى تفضى بك الى السبل اللائحة والحقائق الواضحة .

٢٢- « وقد جرى من كلام الواردين من أصحابك اللذين اخترتهما للنيابة عنك من هذا النحو ما اتبعاه بالتحير والتبلد والانكار له بعد الاقرار به .

ولوددنا أن تصير الينا فنبلغ الغرض من تعليمك ونتمكن من تفهيمك ونبين لك من تحقيق الكلام وتحريره وتفصيله وتوجيهه وترتيب الأدلة ومقتضاها وإحكام

البراهين ومنتهاها ما يزيل كل سخيفة من نفسك ويطهر من دنسها قلبك فتعاين الحق جليا واضحا والدين قويا لائحا .

٢٣- « على أن ملك الله تعالى أعظم من أن يحيط به فهم إنسان أو تستوعب صفاته بكلام أو بيان ! فمن عظمته تعالى وقدرته وعزته إنفراده عن الاشراك والانداد واستغناؤه عن الصاحبة والأولاد ! « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلاه إذا لذهب كل إلاه بما خلق ! »(١) . تفرد بالخلق والانشاء وكشف الضر والبلوى ، وبعث النبيين مبشرين ومنذرين فأخبروا عن ربنا بعظيم قدرته وعلو كلمته وإتمام مشيئة وبينوا شرائعه وأوضحوا براهينة وأمره ، كل ذلك بالكلام المبيين والمنهج القويم والأدلة التى تضطر من تأملها الى الحق وتنكب من خالفها الى الشرك ! ولولا الكلام ماعرف الجائز من المحال ولا تبين الهدى من الضلال !

وما من نحلة ولا ملة إلا وهى تزعم ان نفوسها نيرة بما تعلمه منشرحة بما تعتقده ، وكذلك تقول البراهمة الذين يكذبون الرسل والدهرية الذين يدعون الأزل والفلاسفة القائلون بقدم العالم والثنوية المثبتون لخلق النور والظلام ، فما أحد من هذه الفرق إلا وهو يدعى أن نفسه أسكن الى ماتعتقده وأوثق بما تنتحله وأنور بما يزعم أنه يعلمه من نفوس مثبتى الرسل ومتبعى الكتب .

٢٤- « لكن وضع الكلام ونشره وتمييزه ووصفه يعلى الحق ويثبته ويدحض الباطل ويمحقه ! وان الله تعالى جعل الدنيا دار تكليف وفتنه ومحنة ليبلونا أينا أحسن عملا ، وجعل الاخرة دار ثواب وعقاب ليثبت المؤمنين المحسنين ويعذب الكافرين المشركين ! وجعل من أسباب الفتنة إبليس اللعين وبعث النبيين يهدون الى

---

(١) جزء من الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

صراط مستقيم « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (١) فهدى بالنبيين من شاء بفضله وخذل بإبليس اللعين من شاء بعدله .

٢٥- « فأول الرسل الى أهل الأرض أبونا آدم على السلام دعا الى عبادة الله وحدة لاشريك له ولا ولدا وكذلك الرسل بعده ، كلما نسيت شريعة وتقادم عهدها بعث الله رسولا الى أهل الارض يجددها ويؤكدها الى أن بعث الله تعالى نبيا اسمه عيسى عليه السلام فدعا قومه الى عبادة ربه ومنشئه وخالقه ، فأمن به اليسير والعدد القليل الذين لم يطيقوا منعه ممن اراده من اعدائه الكافرين المكذبين لما جاء به من قبله ، حتى رفعه الله اليه واختار له ماليه « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (٢) وقد بذل دمه بزعمكم حرصا على استنقاذ الناس من الضلالة ، فما آمن به إلا العدد اليسير وقد آمن بغيره من الانبياء ممن لم يبلغ به هذا المبلغ أمثال من آمن بعيسى ، فما توفى موسى عليه السلام حتى أمن به العدد الكثير والجم الغفير ، ولا توفى محمد ﷺ حتى أمن به العدد العظيم الذى استحوذ به على البلاد وتغلب على الآفاق وأظهره الله على الدين كله « ولو كره المشركون » (٣) ثم استفتح بعده بإثر وفاته أصحابه بلاد الفرس ، على بعدها عن مكانه وتمكين سلطانها وعظم شأنها وقدرها ، واستفتحوا بلاد الشام وهى كانت افضل بلادكم ومكان شريعتكم واليها ينتهى حجكم وعبادتكم فما صار لمن تزعمون أنه إلاهكم ، مع بذل دمه و إلا أقل مما صار للمربوبين الأمين من النبيين ، مع إعزاز الله لهم وحمايته إياهم .

٢٦ - « ولو كان عيسى إلاها قادرا لما احتاج إلى ذلك ولخلقهم مؤمنين ! ولو شاء الله لا يعصى ماخلق الفتن ولا إبليس اللعين ، لكن الله تعالى ! خلق للجنة أهلاً

(١) جزء من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٢) جزء من الاية ١٥٧ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآية ٣٣ من سورة التوبة والآية ٩ من سورة الصف .

للجنة بتوفيق الله تعالى ! يعملون ، وخلق للنار أهلا للنار بخذلان الله يعملون ، لو علم الغيب عيسى عليه السلام لما بذل دمه طمعا فيما لم يتم له ولا حصل له منه شئ .

فاعتبر أيها الراهب ! ضعف ما أنت عليه وفضل ما ندعوك اليه ، فعسى أن يوفقك الله ويهديك فتصير بعلم الله بكونك من جملتنا وفيئتك إلى ملتنا ! فقد بلغنا من ارادتك للخير ورغبتك فيه وحرصك عليه ما حرصنا به على ارشادك وهدياتك ورجونا سرعة انقيادك وانابتك ! « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت » (١) .

٢٧- « ومن أغرب ماتأتون به قولكم : إنه بذل دمه في خلاص العباد ! وكيف يكون للرب دم ، والدم من الاجسام المحدثة المخلوقة ؟ ولو حددتم الكلام لزعمتم أنه دم الناسوت دون اللاهوت وللزمكم أن تقولوا إن المصلوب هو الناسوت دون ابن الله تعالى ، لكنكم حققتم أن إلاهكم صلب ومات ! وهذه صفة لا تصح إلا على محدث مخلوق ، لأن الحياة القديمة لا يصح عدمها ، ولئن جاز هذا عليه ليجوزن على أبيه بزعمكم لأنه على صفة ابنه ، بل هو عند جماعة منكم ! فكيف يكون إلاها قديما حيا قيما لم يزل من يجوز عليه الموت وعدمت حياته . وكيف لم يذهب عن نفسه الموت ولم يقدر على دفعه عنها ، وأذهبه بزعمكم على ماذكرته فى كتابك ؟ وأن جاز ان يموت ويكون مع ذلك إلاها فما نمنع ، علي هذا ، أن يكون كل من رأيناه أو سمعنا خبره - قديما لم يزالوا آلهة ، وأن كان لهم أب أو ماتوا وفنيت حياتهم وعدمت ! ، وهل يصح ان يبلغ هذا المبلغ من الجهل الواضح وتجويز قلب الحقائق ودعوى المحال إلا من سقطت مقالته واستحكمت جهالته وعميت بصيرته ؟ فكيف يكون من هذه حاله يدعو الي ماهو عليه ويندب اليه؟ وهل يمكن ان يكون فى المقالات المستحيلة أو المخايل المرذولة أشد فسادا من هذه التلفيقات التى تخجل من يوردها ولايكاد يصح تكليف من يجوزها ويعتقدها ؟.

(١) جزء من الآية ٨٨ من سورة هود .

٢٨- « وانى لاعتقد ان مثل هذا لايخفى عليك ، مع قلة المعرفة والبعد عن النظر فى الادلة ، لأن هذا ليس مما يدرك بدقيق النظر ولا يحتاج فيه الى تأمل ، بل هو مما تناله أوائل العقول أو يدركه - ببديهة - من له أدنى تحصيل ! وأظن أن الحامل لك على هذا أمرين :

* إما أنك لم تر من الشرائع غير ما قد نشأت عليه فاعتقدت أن سائر الشرائع تجرى هذا المجرى فى الاستحالة والفساد ، فرأيت أن تستمر على ماوجدت عليه سلفك ، إذ لم يظهر لك سبيل الى ما هو أفضل منه .

* أو رأيت أنك قد نلت بهذا المحال ، عند جهال أهل ملتك ، منزلة تكره أن تنحط عنها وتبعد منها اذا انتقلت الى الدين الصحيح ، لعلمك أنك لن تنال درجة أدونهم منزلة فى العلم ، فكيف بدرجة اعلامهم وأئمتهم ونوى التقدم منهم .

٢٩- « ومن طرويف ما تأتون به وتضحكون سامعه منكم قولكم « إن عيسى ابن الله » تعالى عن ذلك ﷻ وتقولن : « إنه من ولد داد » عليه السلام ! وهذا ثابت فى انجيلكم ومتلو من كتابكم ، وتزعمون أن جبريل إذ بشر مريم به قال لها : « إنه يكون عند الله عظيما ويكون [الله لـ] اسمه ناشرا ويدعى بابن الله ويورثه الله ملك أبيه داود » ولا تحملون ذلك على أن داود أبوه من قبل مريم لأنها لم تكن من ذرية داود ، وانما تحملون على أنه أبوه من قبل يوسف النجار الذى تزعمون انه كان زوجا لمريم ! فإذا كان عيسى من ولد دواد ، ودادو عبد مخلوق وجد بعد ان لم يكن ومات بعد أن حيى فكيف يكون عيسى الابن خالق داود أبيه وإلاهه ؟ وكيف يكون ابنا لداود المخلوق وابنا لله الخالق ؟ وهل هذا إلا جهل بمعرفة الإبن من الأب والقديم من المحدث والخالق من المخلوق ومن بلغ هذا الحد من الجهل لم يصح له اعتقاد شرع ، فكيف يدعو اليه ويتكلم عليه ولكن قلة التأمل ، مع حب الظهور ، يوجب التفرط ويورث التبلد والتحير! نسأل الله العصمة !.

٣٠- « وقد اختلفت فرقكم فى الاتحاد الذى سميتموه التحاما اختلافا لعله لم تبلغك ، ولو كنت لدينا لاريناك فى هذا من كلام متقدمى أهل ملتك ثم من تقريع المسلمين على ذلك وتتبع الحجج لهم وعليهم ما لم يبلغه قط أحد منهم ولأسمعناك ، من غرائبه وعجائبه وتلفيقاته وتناقضه وفضائحه واضطراب رواة الاناجيل ما يملأ سمعك ويطيش له لبك ! لكن الكتب لا يحتمل التطويل ، لا سيما لمن لم يرد التآليف وانما أراد التقريب وخاف تحير من ورد عليه الإكثار بالشرح والتفسير ، وما أحد من أهل الملل واتباع الرسل ، ممن تقدم عيسى عليه السلام ولا ممن تأخر عنه يقر بأنه وجد الإلتحام الذى تدعونه فى كتب ولا تنزيل ، ولا [فيما] أخبر به نبى ولا رسول !

٣١- « وقد انزل ربنا ، فى كتابه الكريم ، أن عيسى بشرّ بنبينا محمد ﷺ فإما ان يكون علم هذا عندكم وإلا فقد كتمه أحباركم ومحوه من أناجيلكم ، فقد قرأناها معربة وعلمنا من اختلافها واضطرابها ما دلنا على أنه قد دخلها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان .

ومن ذلك ما فى الانجيل من رواية مَتّى أن بين إبراهيم ويوسف الذى تزعمون أنه زوج مريم أثنتان وأربعون ولادة ، وفى رواية لوقا : بين ابراهيم والمسيح خمسة وخمسون رجلا ، ليس فيهم من أسماء الذين فى رواية متى إلا عدد يسير .

٣٢- « ولاتكاد هذه الروايات تتفق في شئ ، والايمان بها عندكم واجب على اختلافها لأن الانجيل كتابكم وأصل شرعكم فكيف يصح لكم الإيمان بما يختلف ولايتفق ويتباين ولايتعاضد ، وكتابنا المحفوظ يحفظه الصغير والكبير ، لا يمكن أحدا الزيادة فيه ولا النقصان ؟ والذى يقرأ به من في أبعد المشرق هو الذى يقرأ به من فى أبعد المغرب ، دون زيادة حرف ولا لفظة ولا اختلاف فى حركة ولانقطة ! .

وإنى لا عجب أيها الراهب على ماينقل إلينا من فضلك فى قومك وتقدمك عند أهل ملتك مما يبدو من فرط غفلتك وعدم معرفتك ، فيما تضمنه متابك من أن إبليس اللعين يقدر أن يضل من شاء الله أن يهديه الى الدين القويم ، مع قولنا وقولك فى كتابك : « إن الله على كل شئ قدير »(1) [و] فأى قدرة له إذا كان قد بذل دمه فى نقض ما شرعه إبليس وغيره من خلقه فلم يقدر على إصلاح ما أفسده ولا استرجاع ما أحدثه ولا تقويم ما عوجه ، وإبليس اللعين لم يبلغ ، فيما ناله من ذلك ، سفك دمه ولا تغيير حاله ولا تجسد لغيره جسده ولا انتقل إلى غير ما كان عليه ؟ إن هذا لما كان يجب ان لا يجوز على أقل تلاميذك وأصغر اتباعك مما كان يجب أن لايجوز على أضعف الناس علما وأقلهم فهما .

٣٣- « ولكن ليس هذا بأغرب من قولكم : « إن إبليس عرض لعيسى الإلاه بزعمكم ورقى به أعلى جبل وأراه زهرة الدنيا وقال له : إن عبدتنى ملكتك جميع هذا! فلما سمع بذلك المسيح من كيد إبليس اللعين عاذ من شره واستجار من فتنته بصيام أربعين يوما وأربعين ليلة ، فأمسك إبليس عنه » ، فهل لمن جوز هذا على ربه وأخبر به عنه مسكه أو بقيت بينه وبين التمسك بالحقائق والديانة نسبة ؟ أليس الإلاه هو الخالق لإبليس والقادر على هلاكه متى شاء ، والملك للأرض والسماوات وما بينهما دون شريك ولا تمييز ؟ فكيف يخاف من هذه صفته بعض من خلقه أن يفتنه ؟ أو كيف تحمل إبليس الأرض أو تظله السماء ، وهو يخاطب ربه ويدعوه الى عبادته ويعد أن يثيبه على ذلك ويملكه زينة الحياة الدنيا ، وهى ملكه ومن خلقه ، وربه يخاف فتنته ويستجير منه بالصيام . وكيف يقول : إنه يعاقبه فى الاخرة بالعذاب الأليم ونار الجحيم ، وهو لا يستطيع أن يخلص نفسه منه ومن فتنته فى الدنيا ؟ وهل قدرته فى الأخرة إلا كقدرته في الدنيا ! وكيف تزعم أنه سليم من حبائل إبليس وخدعه ، وهو

(1) جزء من عدة أيات قرآنية .

يخاف على نفسه ويحتاج الى من يسلمه منه، وهو القاهر والخالق لإبليس كيف شاء والمهلك له إذا شاء ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ! .

٣٤- « وان الله تعالى ! بلطفه وحكمته وعطفه ونعمته بعث محمداً ﷺ! فختم به الرسالة وأكمل به النبوة وجعله أخر المرسلين وبعثه الى جميع العالمين ففضله بهذه الدرجات الرفيعة وأبقى شريعته إلى يوم الدين وأكرمه بهذه المنة العظيمة ، بعثه على حين فترة من الرسل ودرس من السبل وجهل بالشرائع وبعد عن معرفة الأديان والمذاهب ، وقد دخل جميعها التبديل والتغيير ، وقد خالفت اليهود وسائر الملل عيسى بن مريم عليه السلام وردت ما جاء به وأنكرت مادعا اليه واختلفت النصارى بعده على فرق كلها قد ضلت عن السبيل المستقيم والمنهج القويم وأظهرت من الجهالات ماتحيله العقول ، وعبدت المجوس نيرانها والثنوية نورها وظلامها والعرب أصنامها وأوثانها وأدعوا لله الصاحبة والأولاد وجعلوا له الاشراك والانداد ، فابتعثه الله من خير الأمم وهم بنو اسماعيل عليه السلام ! ثم من خير بنى إسماعيل وهم قريش قطب العرب وافصحها ألسنا واخلصها عنصرا وارجحها فى معانى الدنيا عقولا وأثقبها إفهاما وأتمها دهاء وأعظمها غناء واكرمها أخلاقا وأجودها أكفا وأطيبها أعراقا فقام منفردا فيهم يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الأوثان ، فخالفه فى ذلك القريب والبعيد والعدو والصديق ، فأتاهم بالايات المعجزات التى لايصح فيها تمويه ولاتلبيس ولا تخييل ولا تحريف ، من انشقاق القمر بحضرة جميع من أمن به وكفر ، ممن غاب عنه ومن حضر ، ونبع الماء من بين أصابعه فى قدح صغير ، حتى توضأ منه العدد الكثير ، وتسبيح الحصى فى يده ، وحنين الجذع اليه ، وإطعام العدد الكثير من الطعام اليسير ، ورى الجيش العظيم من الماء القليل الذى لايكفى النفر اليسير ، وإبراء العيون بإمرار اليد عليها ، وغير ذلك من المعجزات التى لو شئنا أن نتتبعها لعظم بذلك الكتاب وخرجنا عما قصدنا من الاختصار ، و[قد] تتابع ذلك فى مقامات جمة بمعاينه جميع الأمة والاخبار بالغيوب على وجه يباين التكهن ، والاتيان

بقصص الماضين وذكر الانبياء المتقدمين على حقيقة ما كانوا عليه مما لا يبلغه من أفنى عمره فى تعليم ذلك ومدارسة أهل العلم به من غير أن يعلم بمدارسة كتاب ولا مذاكرة أصحاب ، وقد علم ان مثل هذا لايخفى لمن تناوله ، وإن رام ستره وكتمانه .

٣٥- « ثم أكرمه الله تعالى بالمعجز الذى فضله الله به على جميع النبيين والمرسلين وهو القرآن الذى هدى به الإنسن والجن أجمعين ، قال الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[1] ، فتحدى به العرب والعجم وجميع الأمم ، والعرب فى ذلك الوقت أهل فصاحة وبيان وتناه فى ذلك الشأن ، فلم يستطع أحد منهم أن يأتى بسورة من مثله مع ما اخرجهم اليه خلافهم له من سفك دمائهم وهتك أستارهم وأخذ أموالهم والاستيلاء على بلادهم وأحوالهم وخروجهم عن أوطانهم ومفارقتهم آباءهم وأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم ، وكان اتيانهم بسورة من مثله ، لو استطاعوا ذلك ، أسهل عليهم من تكليف الحرب والصبر على ألم الجرح ، فكيف بالصبر على جميع ماذكرناه ، مع انه نشأ معهم وبينهم ولم يتعلم ما لم يتعلموه ولا لقى من لم يلقوه ، ولو انفرد بالدرس دونهم والقراءة بينهم فقد قرأ غيره ودرس وعلم وتعلم وكتب ، والى زماننا هذا لم يستطع أحد ان يأتى بسورة من مثل سوره ولا بآية من آياته ! وهذه أعظم معجزة على يدى نبى لأن كل معجزة كانت قبله قد امتنعت مشاهدتها وانقضى وقتها ، وإنما ينقل الينا ذكرها ونخبر عنها والخبر يدخله الصدق والكذب ، ولولا ان محمدا ﷺ أعلمنا بصحتها ، وهو الصادق ، لما وقع لنا العلم بوجودها ، ومعجز القرآن باق بين أظهرنا ودائم عندنا لا ينقطع وقته ولا ينقضى الى ان يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، يدل فى كل وقت وأوان على صحة ما جاء به محمد ﷺ من شريعته التى اختارها له أفضل الشرائع وابينها حكمة وأوضحها

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

أحكاما واتمها قواما ، فأمرنا ﷺ بأن نؤمن بالله وحده لا شريك له ولاظهير ولا ند ولا صاحبة ولا ولد ، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله وأن المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله ، ونؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والثواب والعقاب وأن من آمن بمحمد ﷺ وبما جاء به فلابد له من الجنة وأن من كفر به أو بشئ مما جاء به فإنه مخلد فى النار ، وشرع لنا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج وجهاد من كفر وصلة الارحام ، ورغب في التواضع والعدل والاحسان والبذل والتساوى فى الحق وأداء الأمانة والصدق والتناصف والتعاطف والتعاون على البر والتقوى والاخذ بمحاسن الاخلاق فى السر والجهر والتزهد فى الدنيا والتنقل فيها والتجافى عنها والنبذ لها ، وحضنا على تعلم العلم وأوجبه علينا وندبنا اليه وإلى الارتحال فى طلبه والتتبع لدقيقه والاجتهاد في طلب صحيحة وتميزه من سقيمه والنظر فى أدلته ووضعها مواضعها ودفع الشبه المعترضه عليها والمعارضة لها ، وأعلمنا أن ذلك من أرفع أبواب شريعتنا وأفضل ما يصرف اليه همتهم أولو الفضل منا ونهانا عن المنكر والفحشاء واتباع الضلالة والأهواء والكبر والخيلاء والظلم والعدوان والكذب والبهتان ، وأخذ من ذلك كله فى خاصته بأبلغ غاية من اتعاب نفسه فى العبادة وتكلف منها مالم يستطع عليه غيره ممن عاصر وأتى بعده ، ووقايته لاصحابه بنفسه فى الحروب وأوقات الشدائد ، واجتناب كل مانهى عنه من المآثم وقبيح الأحوال ومذموم الخلال ، من حيث لوكان من أمة توارث [أهلها] الشرائع من أول الأزمان ثم لم يتنقلوا عنها ولاتبذلوا بها بل دونوا فيها الدواوين وصنفوا فيها التصانيف والتآليف وكثر فيها علماؤهم وأئمتهم وكثر الوارث لذلك عنهم ممن قطع عمره بقراءة ذلك ودرس كتبها وملازمة علمائها لقصر عما ظهر منه من صحيح الاحكام ورفيع الاحوال والاصابة فى الاقوال والافعال والتصرف والزى والاكل والشرب والجلوس والمشى والاخذ والاعطاء وجميع الحركات والسكنات واللحظات وذلك كله مما يشهد عنه من فهم معانيه وتأمل فى ذلك مقاصده وعرف وجه الصواب فيها

أنه من عند الله الذى يوفق أنبياءه ويرشد رسله وأولياءه ويشرع لهم الشرائع التى تشهد بصدقهم صحتها وتبين الحكمة فى تفاصيلها وجملها .

٣٦ – « وكان ﷺ مع ذلك متقللا من الدنيا مؤثرا غيره بها حين تعذرها ووقت الشح بيسيرها مطرحا لها معرضا عنها حين إقبالها ، مع عظيم ما فتح عليه منها وبسط له فيها يبثها فى أهل ملته والمستحق لها من غيرهم ، لم يمنعهم انحرافهم عنه وتكذيبهم له من ايتائهم العدل وانصافهم بالقول والفعل ، وكان حظه وحظ أهله وأقاربه من الدنيا ومافتح عليه منها أقل حظ ، لم يشبع هو وأهله من طعام ثلاثة أيام متوالية ولالبس ولا ألبسهم الا أخشن الثياب ولا سكن ولا أسكنهم إلا أدون المساكن .

لايدعى محالا ولا يقول إنه يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى ! فإن سئل عن غيره صرف علمه إلى الله تعالى ولايدعى أنه يغفر ذنب أحد من أمته ، فإن سئل الدعاء دعا للسائل بالمغفرة ، واعلمنا أنه لايغفر الذنوب إلا الله ولا يؤاخذ بها سواه ، يجالس العبد ويزور الضعيف ويرحم الصغير ويوقر الكبير .

٣٧ – « لو جاز عليه مع ذلك الكذب لجاز على موسى وعيسى وسائر الأنبياء ، فإنا لا نعلم صدقهم ولاميزنا ماجاؤونا به من الحق مما جاءنا به الكاذبون والمتخيلون من الباطل والكذب إلابما ظهر على أيديهم من الآيات البينات ، وما أتى به محمد ﷺ أبين وأوضح وأتم وأبلغ ، ولو جاز لكم أن تقولوا : إن ما أتى به محمد من جملة التخيل ، لجاز للدهرية والفلاسفة والبراهمة والثنوية الذين يكذبون الرسل أن يقولوا إن جميع ماجاء به موسى وعيسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ، من ذلك الباب وهو قولهم ، ولما كذبتهم آياتهم ومعجزاتهم ووجب عليهم تصديقهم لزمكم وجميع الأمم تصديق محمد عليه السلام فما جاء به أبين وأظهر وأعظم !

٣٨ - « وإنك - أيها الراهب الذى نحرص على تخليصك من الضلالة ! إن سمعت نصحنا لك وأطعتنا فيما به أمرناك وردت الاخرة فى جملتنا من اتباع محمد ﷺ ! النبى المكرم، فتسعد بشفاعته وتشرب من حوضه وتسكن الجنة معه !.

ونحن نسأل الله تعالى ! أن لا يعدل بنا عن الطريقة المثلى ولايصرفنا عن سبيل الهدى وأن يستنقذك من مكائد إبليس التى أنت فيها متورط وبحبائلها متعلق وبخدعها متحير ! من تمادى عليها نال الشقوة وطول الحسرة فى عرصة القيامة ويوم الندامة ، يوم لاينفع نصح ولايقبل عذر « ويوم يعض الظالم على يديه » . (١) «ويقول الكافر : ياليتنى كنت ترابا » . (٢) ولا مستقر يومئذ إلا الجنة أو النار ، فمن آمن وعمل صالحا فالجنة مأواه ، ومن جعل لله صاحبة أو ولدا فدرك النار مثواه »! أعاذنا الله منها وأماتنا على الإسلام المبعد عنها ! .

٣٩- « فلا يغرنك أيها الراهب ! حظوتك عند أهل ملتك ومكانتك فى مكانك واستجلاب نفوسهم واستمالة قلوبهم بألفاظ تزخرفها لا تعلم معانيها ولاتعرف حقيقة المراد بها ولامقتضى القول فيها ، من قولك : الجواب الروحانى والكلام الالاهى ، وما أشبه ذلك من الفاظ كثيرة سمعتها فنقلتها إلى غير موضوعها واستعملتها على غير وجهها ، فإنك لو سئلت عن مقتضى ذلك لأسلمك عدم معرفتك الى العى والحصر والعجز عن التقدم والتأخر فإن استعمالك لها على غير وجهها دليل على جهلك بها .

فإن قبلت نصحى وسمعت موعظتى أخرجناك بعون الله من ظلمة الجهل الى نور العلم ومن حيرة الشك الى تيقن الحق واريناك من طرق الإستدلال وتمييز البراهين والامثال مايشرح صدرك وينور قلبك وتعلم به الحقائق ومعانى هذه الالفاظ

(١) جزء من الآية ٢٧ من سورة الفرقان .

(٢) جزء من الآية ٤٠ من سورة النبأ .

التى أنت بها معجب ومخطئ فى ايرادها على غير وجهها وتتيقن أنها من أقل أبواب الكلام وأضعف مايتمسك به ذو الاحلام .

٤٠- « وإن أبيت إلا الإستكبار والعتو والاصرار والغلو والالحاد والطغيان والعناد والعصيان فإنك لن تعجز ربك ولن تنجو من ذنبك وذنوب من اتبعك وضل بك والكلام بغير علم فى الدين كذب وافك على رب العالمين ! « ومن أظلم ممن أفترى على الله كذبا أولئك يعرضون على بهم ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » (١) .

فلا تؤثر على خلاص نفسك وخلاص من تبعك شيئا من عرض الدنيا وزخرفها فإنك لا ينفعك جهل من اغتربك فيها يوم الورود على ربك ! .

٤١- « وقد أودعنا صاحبيك الواردين علينا سرا وجهرا وبدءا وعودا مانعتقده مما اعزنا الله به من الإسلام وخصنا به من بين الانام واكرمنا به من اتباع نبينا محمد ﷺ !.

و« [قل] يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ! » (٢) و« تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ! » (٣) .

---

(١) الاية ١٨ من سورة هود .

(٢) الاية ٦٤ من سورة ال عمران .

(٣) جزء من الآية ٦١ من سورة آل عمران .

والله نسأله ان يهديك ويهدى بك من قبلك فتفوز بأجورهم وتكون سببا الى استنقاذهم ! فأنت فيما بلغنا مُطاع فيهم « والسلام على من اتبع الهدى ! »[١] .

٤٢- « كمل جواب الفقيه الاجل القاضى الاعدل أبى الوليد الباجى رحمه الله وغفر له ونضر وجهه بمنه وكرمه وجوده ! إنه ذو رحمة واسعة ورب غفور ![٢] » .

فهذه أمثلة تصور لنا الرغبة القوية فى الدعاية المسيحية ، تلك الدعاية التى تقوم بلاشك على معرفة غير قليلة بالاسلام فى البيئة الغربية مما يحتاج اليها المتصدى للمناقشة والمفاضلة .

(١) جزء من الآية ٤٧ من سورة طه .
(٢) نقلا عن : قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامى (نصوص ودراسات) دكتور عبد المجيد تركى مدير بحوث فى المركز الوطنى للبحث العلمى بباريس . ط الأولى ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٨ م دار الغرب الإسلامى فى بيروت .لبنان .

رحلات اقتصادية
لمزيد التعارف بالإسلام

مما سبق يتضح الاتصال المادى المتمثل فى الحروب والاتصالات السلمية ، والحياة المدنية ، التى تسيرها الروابط الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية القاهرة ، وعلى هذا الاساس كانت للمسلمين الشرقيين والغربيين رحلاتهم الاقتصادية فى قلب أوربا ، وأقصى شمالها وغربها ، مما كانت تطول مدة سنين بحكم صعوبة طرق الاتصال والنقل وبطئها (١) .

ومن هذه الامثلة ماحوته كتب الجغرافيا العربية ، وكتب الرحلات ، ولهذه الصلات الاقتصادية المتبادلة أثرها فى المزيد من التعريف بالإسلام ومايدعو اليه ، وقد قام التجار بمثل هذا التعريف فى قلب افريقيا ، ومن ثم فإن رحلاتهم فى قلب أوربا كان لها أثر فعال فى التعريف بالاسلام ، وقد مهدت الحروب الصليبية منذ أول عهدها للاختلاط القوى والتعارف بينهما .

كما ان هناك رحلات أخرى لأغراض مختلفة من نزهة ، وتطبب ، واستفادة ، ووصف لما يشاهدونه فى الاقطار الإسلامية فى كتب رحلاتهم وأحاديثهم ، مما أدى الى التعريف أكثر وأكثر بثقافة الإسلام (٢) .

فتفاعل تلك العوامل مما يزيد التعريف الغربى بالكثير من تعاليمه وعقائده ، مما كان له الأثر بفعل النواميس الكونية فى حياة الغرب .

---

(١) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣١ .
(٢) انظر المرجع نفسه .

الاتصال المعنوى الثقافى

كانت الأمة الإسلامية (١) تجنح الى الاستقرار لتقوم بنصيبها فى خدمة المدنية الإنسانية شرقا وغربا ، خلال المدة من القرن الثامن الى الثالث عشر الميلادى، فى ذلك الوقت كانت الحياة الاجتماعية والعقلية ، بل الثقافية الدينية فى الغرب غافلة هامدة . كان فيه ماهو صورة أمة أو حكومة ، لكن لا أمة ولا حكومة (٢).

الأشراف فيه جهلاء ، أميون ، حتى ليوقعون الوثائق والقوانين المهمة بصورة صليب ، هى كل مايعرفون من أمر التوقيعات ، وحتى كان فى القرن التاسع الميلادى، رئيس المحكمة ، وأعظم قضاه الدولة أميا لا يكتب ، بل فى القرن الرابع عشر الميلادى كان رئيس الجيوش الفرنسية ، وأعظم رجال الدولة ، وأول أكابر عصره أميا (٣) .

---

(١) الوصف بالاسلامية هو الصحيح فى التاريخ إذ لايصدق وصفها بالعربية عهدا طويلا ، فقد كانت بعد وقت يسير من ظهور الإسلام ، وبفضل انتشاره ، وامتداد حركة الفتح مؤلفة من عناصر مختلفة يجمع الإسلام بينها .

(٢) اجيزو (M . Juzot) : التاريخ العام للحضارة فى أوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، وهو المترجم الى العربية تحت عنوان (التحفة الادبية في تاريخ تمدن الممالك الاورباوية) على يد الخواجة حنين نعمة الله خورى والمطبوع بالاسكندرية سنة ١٢٩٤هـ – ١٨٧٧م وجوستاف لوبون : تاريخ حضارة العرب ص ٦١٤ .

وروبرتسون وليم : كتاب تاريخ شارلكان المقدمة ص ٣١ ، ٣٢ ، ٢١٦ من الترجمة العربية ، وراجع صلة الاسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٣ هامش ٢ .

(٣) انظر نفس المراجع السابقة .

وكان الدين المسيحى قد صار الى بدع بربرية وأكثر رجاله جهلة ، لايستطيعون التوقيع على القوانين التى تصدرها المجامع ، والقلة المتعلمة منهم كانون يمضون وقتهم في الأديرة ، يمحون المؤلفات القديمة ليحصلوا على الأوراق اللازمة لنسخ الكتابات الدينية (1) .

دور الثقافة الإسلامية :

فى هذه الحال الآنف شرحها ، بدأ الاتصال المعنوى بين الإسلام والمسيحية، ذلك الاتصال الذى لانريد الافاضة فى وصفه بل نريد تناوله بقدر مابين طرائق نقل المعارف الدينية وأثرها فى الحياة المسيحية ، وفى العقلية المسيحية ، وصلة العقلية بالحياة الدينية ، وما الى ذلك مما هو طريق لبيان ما قصدنا اليه (2) من صلة الثقافة الإسلامية بأوربا .

استاذية العرب للغرب :

إذا كان يستكثر إطلاق القول بأستاذية العرب التامة للغرب فى كل شئ ، وأن العلماء المعروفين من جميع الأمم الى القرن الثالث عشر ، أو الخامش عشر إنما كان كل عملهم هو تقليد العرب (3) ، ومن ثم فلا مفر من القول بأن الثقافة الإسلامية قامت بدور المرشد الأمين، وأمدت متعلمى القرون الوسطى بمادة كثيرة لدراستهم (4).

(1) نفس المراجع السابقة .

(2) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٤ .

(3) فيبر : (Weper) : كتاب تاريخ العالم جـ١ فقرة ٤٤٤ ص ٨٠٦ ، وروبرتسون وليم : مصدر سابق ص ٢٩٩ ، وجوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٦١٨ . نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٤ .

(4) ر . وليم : مصدر سابق ص ٢٩٩ ، وجو يد ودى روجيرو : تاريخ الفلسفة المسيحية : جـ٣ ص ٥ ، والفريد جيوم تراث الإسلام ص ٢٤٣ من الأصل ، ٢٣٤ ج ١ من الترجمة العربية التى نشرتها حديثا لهذا الكتاب « لجنة الجامعيين لنشر العلم » .

« وأول ما بدأ ذلك الاتصال كان بالتعلم من مسلمى الشرق والغرب الذين كانت بلادهم معاهد يتثقف فيها الخاص والعام ، ومرجع المستفيدين من الغربيين ، الذين لهم عناية بالعلم ، وقد كانوا بادئ الأمر قليلين ثم تكاثروا بانتشار المعارف بينهم »[1] .

وإذا كان ثم شك هناك فى أن البابا سلفستر الثانى نفسه « سنة ٩٩٩م» قد تعلم على العرب فى بلادهم ، فلن يشك أبدا فى ان كثيرين غيره قد تعلموا فى هذه البلاد ، ثم تلا هذا الدور دور محاولة نقل المعارف الى انحاء أوروبا فكان الناقلون لهذه المعارف العجيبة ، المدهشة أبناء عصرهم ، يتهمون بالسحر [2] .

ثم نمت حركة هذا النقل فيما بعد حتى نجد قسطنطين الافريقى الملقب بمعلم الشرق والغرب ، فى القرن الحادى عشر الميلادى ، ذا نشاط عجيب فى ترجمة العلوم عن العربية [3] .

ويطّرد هذا النماء فنرى فى القرن الثانى عشر مثل يوحنا بن داود الاندلسى اليهودى ، وجيرار الكريمونى ، الذى يترجم وحده مالايقل عن (٧٤) أربعة وسبعين كتابا علميا من بين صغير وكبير [4] .

وأفلاطون التيفولى يترجم المعارف الإسلامية عن العربية والعبرية ، وأخرون غيرهم ، بل نرى للترجمة دوائر منظمة يؤيدها ملوك شهيرون فى نواح مختلفة من أوربا ففى صقلية ، ونابلى وطليطلة ، وقشتالة وفرنسا ، تقام تلك المعاهد ، ونرى

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٥ .

(٢) سديو : خلاصة تاريخ العرب ص ١٦٤ ، والخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٠٩ .

(٣) أرتورو كاستيليونى الأستاذ بجامعة بادونا : كاتب مادة قسطنطين الأفريقى في دائرة المعارف الإيطالية الجديدة نقلا عن صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٥ هامش ٢ .

(٤) كارلو الفونسو نللينو الاستاذ بجامعة روما وعضو المجمع الملكى للغة العربية : كاتب مادة : جيرارنو من دائرة المعارف الإيطالية الجديد . نقلا عن نفس المرجع السابق ص ٣٥ ، هامش ٣ .

ملوكا أقوياء ، يبذلون جاههم ومالهم لحماية تلك الحركة وزيادة نشاطها على نحو ما كان فى قصور ملوك الشرق المسلمين [١] .

ومن أكبر هؤلاء الملوك الغربيين وأجلهم : فردريك الثانى هو هنشتاوفن الألمانى أمبراطور الدولة الرومانية ، وحاكم صقلية ، والفونس الحكيم القشتالى ، فتحت إشرافهما اشتغل مترجمون من انحاء مختلفة فى أوربا ، وكان « سكوت ميخائيل الاسكتلندى » فى حاشية فردريك المذكور ، يشرف على الترجمة الجديدة لأرسطو ، وتفاسير فلسفته الإسلامية من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية [٢] مع آخرين من جنسيات مختلفة ، كما كان الحال كذلك تحت اشراف الفونس الحكيم فى القرن الثالث عشر نفسه .

واعاد الغرب تاريخ الملوك العلماء فى الأمة الإسلامية ، فكان الفونس الحكيم يصحح بنفسه مايترجم الى اللغة القشتالية [٣] (ومنفر يد) بن فردريك هوهنشتاوفن يترجم بنفسه [٤] .

ولا نملى للقلم فى وصف حركة هذا النقل بل نكتفى بالقول فى إجمال : إن الثقافة الإسلامية كانت منتشرة فى جميع أنحاء اوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى [٥] .

---

(١) صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ١٦ .

(٢) دائرة لمعارف الانجليزية مادة : سكون (Scot) .

(٣) ماريو كاسيلا : الاستاذ بجامعة فيرنه الايطالية . كاتب مادة « الفونس الحكيم » فى دائرة المعارف الإيطالية الجديدة .

(٤) مادة منفريد من الدائرة الإيطالية الجديدة .

(٥) فيورنتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة : ٢٧٧/١ ، وأن حركة الترجمة عن العربية فى أوربا خلال القرون الوسطى لتستحق الدراسة المفردة ، وبخاصة دراسة انتشار الثقافة الإسلامية في أوربا استيفاء لتاريخ الإسلام المشرف ، انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٦ هامش٤ .

تقسيم التاريخ الإنساني

اعتاد المؤرخون – تسيهلا للبحث ، ولاعتبارات أخرى كثيرة أن يقسموا مجرى التاريخ الانسانى الى ثلاثة اقسام لكل منها صفات معينة تتصف بها وهى :

١- العصور القديمة ،وتنتهى سنة ٤٧٦م.

٢- العصور الوسطى التى تبدأ من سنة ٤٧٦م ، وتنتهى ، إما سنة ١٤٥٣م سنة سقوط القسطنطينية ، أو سنة ١٤٩٢ سنة اكتشاف امريكا وسقوط غرناطة بيد الاسبان ، واخراج المسلمين من شبه جزيزة أيبيريا .

٣- العصور الحديثة التى تبدأ منذ ذلك التاريخ الى اليوم (١) .

فهل هذا التقسيم صحيح ؟ بمعنى هل يمكن القول بأن العصور إنهارت كلها دفعة واحدة فى يوم واحد عام ٤٧٦م ، وأنه فى ذلك اليوم بدأت العصور الوسطى التى لها صفات وسمات تخالف صفات العصور القديمة وقد تعاكسها ، مما لاريب أنه حدث تغيير كبير وبطئ فى سير الحضارة المتميزة ، وإلى ولادة العصور الوسيطة فى أوربا التى لهاصفات خاصة تختلف ، بل وتتناقض مع حضارة العصور القديمة (٢).

كذلك فإن ما ينطبق على أوربا قد لاينطبق على غيرها من المناطق ، فنحن العرب المسلمين يختلف تريخنا عن تاريخ أوربا اختلافا جذريا ، فالعصور الوسطى

(١) الدكتور محمد ماهر حمادة : المكتبات فى العالم: تاريخها وتطورها حتى مطلع القرن العشرين ص ١١٩ . دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠١هـ – ١٩٨١م الرياض .

(٢) المرجع نفسه .

توصف بأنها عصور مظلمة ساد فيها الجهل والفقر والمرض والظلم وسيطر فيها الاقطاع والتأخر والفوضى ، وتحكمت الكنيسه فى البلاد والعباد ، وسيطرت على الأبدان ، والعقول والنفوس ، فإذا كان هذا صحيحا بالنسبة لأوربا ، فهو غير صحيح كلية بالنسبة لنا نحن المسلمين . ذلك ان نفس العصور شاهدت ولادة أعظم الخلق ، وأيمن مولود هو محمد ﷺ ، وانبثاق نور الاسلام من شبه جزيرة العرب ، وانتشاره وبالتالى نشوء الثقافة الإسلامية وانتشارها فى بقاع كثيرة من أقطار الارض ، وزامل هذا ايضا العلم والفن والادب والمعارف المتنوعة ، وازدهار الثقافة الإسلامية ازدهارا رائعاً (١) .

ففى الوقت الذى كانت أوربا غارقة فى الجهالة والفوضى كانت البلاد الإسلامية تزهو بحضارتها وجامعاتها وعلومها وكتبها ومكتباتها ، ومن ثم فإذا وصفت العصور الوسطى أنها عصور مظلمة فإن ذلك صحيح بالنسبة لأوربا وحدها ، أما بالنسبة لنا نحن المسلمين فهى عصور زاهية راقية انتجت حضارة عظيمة ونشرت النور فى العالم ، فعصورهم المظلمة كانت هى عصورنا المضيئة ، وعصورهم المنيرة اليوم هى عصورنا المعتمة لسوء الحظ .. ففى نفس الوقت الذى بدأت أوربا تستيقظ من سباتها وتأخذ بأسباب الحضارة والثقافة والمدنية ، بدأ العالم الإسلامى فى التأخر والتمزق ، وسيطرت عليه روح الجهل والتعصب ويدخل فى عصوره المظلمة السوداء (٢) .

والأمل المرتقب فى عودة المسلمين إلى استرداد مجدهم العلمى الزاهر ، وليس هذا ببعيد على الله عز وجل .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٢٠ .

(٢) المرجع نفسه .

بدء انتشار الثقافة الإسلامية

عنى الدين الإسلامى بالعلم وتشجيعه والدعوة الى تحصيله . فقد حرص الرسول ﷺ على تعليم الصحابة الكتابة ، ففرض على كل أسير من أسرى بدر يجيد القراءة والكتابة ولايستطيع أن يفدى نفسه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين ، ثم حث الصحابة على تعلم اللغات حين بعث دعاته ورسله الى الملوك والأمراء فى خارج الجزيرة العربية ، فنصح زيد بن ثابت بأن يتعلم كتابة اليهود لأنه لا يأمن جانبهم(١).

ولم يختص النبى ﷺ الرجال بالعلم والتعليم ، بل كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفورا ، ولذلك قال ﷺ . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

وكان الرسول ﷺ يحث الرجال على أن يعلموا أهليهم وذويهم ، عن أبى بردة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مولاه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران » (٢).

وليس أدل على نصيب المرأة المسلمة من العلم من محاجة أحدى نساء المدينة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قام يخطب المسلمين ويحثهم على أن لايزيدوا فى مهور نسائهم عن مهور زوجات الرسول ﷺ ، إذ قالت له تلك المرأة : وماذا تقول

(١) صحيح البخارى جـ١ ص ٣٠ .

(١) دكتور : ابراهيم حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى جـ١ ص ٥٠٦ .

(٢) صحيح البخارى : ٣٠/١ .

فى قوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا »[١] فقال عمر أصابت امرأة وأخطأ عمر[٢] .

التعليم بالمناوبة :

وكان الصحابة أنفسهم مشغوفين بسماع الرسول ﷺ والأخذ عنه ، حتى كان الرجل اذا لم يستطع أن يذهب الى مجلسه أناب عنه صديقا له ثم يتعلم منه آخر النهار ماقال الرسول ﷺ .

قال عمر كنت أنا وجار لى من الانصار فى بنى أمية بن زيد - وهى من عوالى المدينة - وكنا نتناوب النزول الى الرسول الله ﷺ ، ينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره ، واذا نزل فعل مثل ذلك[٣] .

ولم ينفرد الرسول ﷺ وأصحابه ببث الدعوة وتعليم الناس فى المدينة ، بل كان يرسل دعاته ورسله الى الجهات النائية من شبه الجزيرة العربية ليعلموا الناس ويوضحوا لهم الطريق الى ربهم ويقرئوهم القرآن الكريم[٤] .

ويعتبر الفقهاء ان أوجب حقوق الامة على الخليفة : « نشر العلوم والشريعة ، وتعظيم العلم وأهله ، ورفع مناره ومحله ، ومخالطة العلماء الاعلام النصحاء لدين الإسلام ، ومشاورتهم فى موارد الاحكام ومصادر النقض والابرام[٥] » .

(١) النساء : ٢٠ .

(٢) تاريخ الإسلام .. جـ ١ ص ٥٠٦ .

(٣) البخارى : ٢٧/١ .

(٤) تاريخ الإسلام : ٥٠٧/١.

(٥) بدر الدين بن جماعة : تحرير الاحكام فى تدبير أهل الإسلام ، المجلد الرابع من مجلة Islanica جـ ١ ص ٢٦١ (١٩٣٤) نقلا عن تاريخ الإسلام جـ١ ص ٥٠٧ .

وقد القت أفكار الرسول ﷺ وتعاليمه بنورها فى تربه خصيبة فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدرا ، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة ، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ماروى عن النبى ﷺ من كلام ووصايا والامناء على تراث محمد ﷺ الأدبى . ولقد تألفت من هؤلاء جماعة الاسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوما طبقة الاجلاء من أوائل الفقهاء والاصوليين والمدحثين فى المجتمع الاسلامى (١) .

وقد استفاد كثير من الصحابة من صحبتهم للرسول ﷺ : فنبغ علىٌ فى القضاء حتى كان يقال اذا اشكل الامر : قضية ولا أبا حسن لها ، ونبغ معاذ بن جبل فى العلم بالحلال والحرام ، وزيد بن ثابت فى تقسيم المواريث والانصبة فى الغنائم وما إليها ، وأبى بن كعب فى قراءة القرآن ...

روى البخارى ان رسول الله ﷺ قال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وافرضهم زيد بن ثابت (أى أعملهم بعلم الفرائض وهى المواريث) وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » (٢) رضى الله عنه .

وقد تفرق هؤلاء العلماء من الصحابة فى الامصار الإسلامية ، فقاموا فيها بحركة علمية ، والتفت حولهم تلاميذ أخذوا العلم عنهم وأذاعوه بين الناس ، ولم يكن جميع هؤلاء من العرب بل كان بينهم كثير من الموالى .

---

(١) سيرة توماس أرنولد : الدعوة الى الإسلام ، ترجمة ص ٦٠ - ٦١ .
(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ ١ ٣٣ ص ٨٠ .

وكانت عناية المسلمين فى صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية ، وهى القرآن وتفسيره والحديث وروايته ، واستنباط الاحكام الفقهية والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل ومايعرض من أحداث . ولذلك نلاحظ ان العلوم المتصلة بالدين قد انتشرت فى عهد بنى أمية ، بخلاف ماكانت عليه الحال فى أيام العباسيين الذين اشتغلوا بالعلوم العقلية أيضاً كالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها (١) .

---

(١) تاريخ الإسلام .. جـ١ ص٥٠٨ .

المراحل التاريخية التى مرت بها الثقافة الإسلامية

للبحث عن حقيقة الثقافة الإسلامية لابد لنا ان نتعرض لتاريخها من حيث : نشأتها ، نموها ، المؤثرات التى ساعدت على هذا النمو ، ومن خلال هذا العرض الموجز لتاريخ الثقافة الإسلامية ، نستطيع ان نأخذ المامة موجزة عن ماهية هذه الثقافة ، ومكانتها بين الثقافات المختلفة (١) .

العرب قبل الإسلام :

سكن معظم العرب قبل الإسلام شبه الجزيرة العربية ، وهى إقليم فى الجنوب الغربى من اسيا تحدها من الشمال : بادية الشام ، ومن الشرق الخليج ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الاحمر ، وتضم شبه الجزيرة العربية عدة مناطق كالحجاز ، واليمن ، وعمان ، وحضر موت ، ونجد وظفار .

ويتألف سكان الجزيرة من قبائل متعددة ، بينها تنافس واختلاف ، يقام بينها الحروب والمعارك ، كما كانت تحكم هذه القبائل عادات وأعراف ، يدين لها الناس ، ويخضعون لأحكامها .. وقد اشتهر عرب الحجاز بالتجارة ، وهناك مدن قد شملها التمدن والحضارة مثل : إمارة الغساسنة ، والحيرة ، وكلتاهما كانتا متاخمتان للروم والفرس ، والغرض من إقامتهما دفع هجوم القبائل العربية على أطراف الدولتين فى ذلك الحين (٢) .

---

(١) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٥٠ .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية بتصرف واختصار ص ٢١ ، والتربية الإسلامية وفلاسفتها للاستاذ محمد عطية الابراشى ص ٦ .

ولم يتح للعرب فى الجاهلية الظروف الكافية للاتصال بأسباب الحضارة والثقافة والمعرفة فظلوا يعيشون ضمن مفاهيم محددة ، ولهذا وجدنا نفس هؤلاء ينطلقون بعد الإسلام كما تنطلق الشعب المتحضرة العريقة لبناء حضارة وارفة الظلال واسعة الآفاق تساقطت أمام زحفهم حضارات قائمة ، وتمزقت أمام مبادئهم الإسلامية رايات الضلال والشرك والانحلال .

وإذا كان المستشرق « أوليرى » يتهم العربى بالنظرة المادية الوضيعة ، والطمع والحسد ، وعدم الخضوع للسلطة ، فإن مثل هذه الصفات تحمل كثيرا من الظلم والمبالغة ومن الخطأ البين والفادح ، أن نقارن العرب الذين كانوا يعيشون عيشة البداوة فى العصر الجاهلى بالشعوب التى سبقتهم حضارة ، فإن مثل هذا القياس خاطئ كل الخطأ ، ولو أتيح لذلك الشعب من أسباب الحضارة ما أتيح لغيره، لما كان أقل منهم حضارة ووعيا ونضجا [1] .

ويكفى هذه الأمة شرفا أن اختارها الله عز وجل لتحمل رسالة الإسلام ، فكان الرسول الكريم ﷺ عربيا و وكانت لغة القرآن عربية ، وقد فضلها الله سبحانه بذلك على سائر أمم الأرض ، كما امتن عليهم سبحانه بقوله : « لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم » . [2] أى شرفكم .

ولو لم تكن تتمتع بما لا تتمتع به أمم أخرى من صفات طيبة لما أكرمها الله عز وجل بهذه الرسالة الخاتمة ولما جعل ارضها مهبط الوحى ومهد الرسالات يؤمها الناس من كل صوب وحدب ، يحجون الى بيت الله العتيق [3] ، يقول تبارك وتعالى : «وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها .. » [4] .

(١) راجع فجر الإسلام ص ٣٣ ، ومبادئ الثقافة الإسلامية ص ٢٢ .

(٢) الانبياء : ١٠.

(٣) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٢٣

(٤) الشورى : ٧ .

أثر الإسلام فى أمة العرب :

لقد صاغ الإسلام أمة العرب (صياغة جديدة فغير كثيرا من مفاهيمها وطبائعها ، ومثلها وقيمها وعاداتها وتطلعاتها ، فإذا بالامة العربية تتفجر طاقاتها التى كانت الصحراء المحرقة تمتصها ، وتتوجه نحو هدف عظيم ، وغاية نبيلة وقبل ان يرتد الطرف الى الشعوب المجاورة للجزيرة العربية التى فوجئت ، بالتغيير السريع الذى تم داخل الجزيرة العربية انطلقت هذه الأمة تحت راية العقيدة الجديدة التى آمنت بها تخترق الحدود المقفلة فى وجهها ، وتحطم الحواجز التى تفصل بينها وبين دولتى فارس والروم ، وقبل ان تصحوا هذه الدول من هول المفاجأة إذ بالرايات التى تعودت الانتكس أبدا تهوى سريعة مخضبة بالدماء ليدوس عليها أولئك الذين حملوا لواء الإسلام شاقين طريقهم عبر الوهاد والصحارى والانهار .

يعرضون مبادئهم التى دفعتهم لهذا الانطلاق ، وهى مبادئ انسانية تستهوى القلوب والنفوس ، فإذا بتلك الشعوب تتجاوب مع هذه الصيحات ، وترفع صوتها ، مؤيدة ، ومؤكدة ، ومناصرة ، تؤيد الحق وتناصره ، وتؤكد وقوفها الى جانبه ، وارتفعت رايات جديدة فوق ربوع الشام والعراق تؤكد إيمانها بمبادئ الحق والخير وانضمت مسيرة الى مسيرة لتواصل السير تحت راية دعوة الإسلام) (١)

تخبط المستشرقين فى شعب الجزيرة بعد الإسلام :

حار المستشرقون الحاقدون فى تفسير هذا الامتداد العظيم ، وهذا الفتح المبين فلم يجدوا تفسيرا مقنعا يرضون عنه ، فطفقوا يحللون الاسباب ، ويتخبطون فى الاوهام ، فتارة يقولون بأن السيف هو الذى أدى الى انتصار المسلمين ، وتارة يقولون : إن العرب قد خرجوا من الجزيرة يدفعهم الحرص على الغنائم المادية ،

(١) مبادئ الثقافة الإسلامية : ص ٢٤ .

ونسوا أو تناسوا الحقيقة الاساسية التى أدت لخروجهم من جزيرتهم وانتصارهم فى معاركهم .

فالسيف كان موجودا لدى العرب قبل الإسلام ، ولم يدفعهم فى يوم من الأيام لشن حرب خارج حدود الجزيرة ، والحرص على الغنائم أيضاً لايمكن أن يكون مبرراً للانتصار ، ولو كان وحده كافيا لانطلق العرب من زمن بعيد لتحقيق هذه الأمنية (١) .

لكن الحقيقة الغائبة عندهم أن الاسلام صاغ أمة العرب صياغة حديثة ، إذ اخرجها من حياة العزلة الفكرية حيث كانت الصحراء بشمسها المحرقة ، ومياهها القاحلة ، وصحاريها المتسعة ، تفرض عليهم الحياة ضمن هذا الاطار من التفكير الذى يقتصر على العشيرة والقبيلة وما يرتبط بها من صفات يعبرون عنها من خلال شعرهم ، فيمدحون ويفاخرون .

وكان المؤثر الأول لهذه الأمة هو : « القرآن الكريم » الذى كان محمد ﷺ يتلوه عليهم صباح مساءً ، فيفتح عيونهم وآذانهم وقلوبهم على مالم يسمعوا به من قبل من « عقيدة » تتلاءم مع طبيعة الفطرة الإنسانية ، يقودهم القرآن اليها بالحجة والبرهان والفكر والنظر والوجدان .

واستطاعت التعاليم الاسلامية ان تغير كثيرا من طبائع الشعب العربى وقيمه ومثله ، وقد بذل ﷺ جهدا دؤوبا خلال سنوات طوال لتغيير العقلية العربية التى كانت سائدة خلال العصر الجاهلى ، ليحل مكانها النظرة الإسلامية الواعية المتفتحة فى مجال العقيدة والعادات والسلوك ، فبعد ان كان العرب يعبدون الأوثان والاصنام إذا بهم ينتقلون الى عبادة الله وحده ، وبعد ان كانوا يخضعون لكثير من العادات

(١) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٢٥ .

السيئة فى حياتهم ، إذا بالإسلام يبطل كثيرا من هذه العادات ، ويخضعهم جميعا لعلاقات انسانية عادلة [1] .

مراحل تطور الثقافة الإسلامية :

مرت هذه الثقافة بمراحل متعددة أدت إلى تطورها حتى استوت على عودها، وآتت أكلها ، ومن هذه المراحل :

أولاً : الدين :

معنى كلمة « الدين » فى اللغة : هى بمعنى الخضوع والانقياد ، تقول دان له أى اطاعه وخضع له ، والدين لله أى الحكم له ، وتقول أيضاً : « دان به » ودان بالشئ أى اتخذه دينا ومذهبا ...

ومادة الكلمة تدل على « الخضوع والانقياد » وهى تشر الى العلاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ، ويخضع له ، وينقاد لأوامره واحكامه .

ويختلف التعريف الاصطلاحى للدين بين علماء كل دين ، وذلك لأن كل عالم يعرف الدين . بالطريقة التى تتناسب مع دينه ، وطبيعة نظرته لذلك الدين .

فعند علماء الإسلام أن الدين « وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم الى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل » . وهذا التعريف يشير الي ذلك الوضع الذى يرشد الناس الى الاعتقاد الصحيح ، والسلوك الحسن ، والمعاملة المستقيمة .

أما الدين لدى علماء الغرب فلهم تعريفات توضح مدلوله كما تظهر عنايتهم به.

(١) أنظر نفس المرجع ص ٢٦ .

قال روبرت سبنسر فى كتابه (المبادئ الأولية) عن الدين بأنه : « الإيمان بقوة لا يمكن تصور نهايتها الزمانية ولا المكانية ، هو العنصر الرئيسى فى الدين » .

وقال سيسرون : فى كتابه « عن القوانين » : « الدين هو الرباط الذى يصل الانسان بالله »

وقال الأب شاتل فى كتابه (قانون الانسانية) : « الدين هو مجموعة واجبات لمخلوق نحو الخالق : واجبات الانسان نحو الله ، وواجباته نحو الجماعة ، وواجباته نحو نفسه » .

وقال سلفان بيريسيه فى كتاب (العلم والديانات) : « الدين هو الجانب المثالى فى الحياة الانسانية » .

والعناية الكبيرة التى لقيتها الدراسات المعلقة بالدين تؤكد لنا ان الانسان البشرى يتطلع دائما الى البحث عن الحقيقة الغيبية التى تتعلق بالخالق والكون ، ولذلك يؤكد علماء الأديان أنه ليس هناك جماعة انسانية فى القديم ، أو الحديث لم تفكر فى حقيقة الانسان والوجود ، وتعليل ظواهر الكون [1] .

وقد اشار الاستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه « الله » إلى أصل العقيدة الالهية ، فبين ان الانسان قد ترقى فى عبادته ، كما ترقى فى علومه ، ولذلك : «ينبغى أن تكون محاولات الانسان فى سبيل الدين اشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات ، لأن حقيقة الكون أشق مطلبا ، وأطول طريقا من حقيقة هذه الاشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى » .

وإذا كان جهل الانسان قد أدى الى جهل كثير من الحقائق الصحيحة المتعلقة بالدين فإن هذا لايدل على بطلان فكرة التدين ، وذلك لأن الحقيقة الكبرى أكبر من

(١) انظر كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دار ص ٣ – ٣٦ . طبعه دار القلم الكويت .

أن تتجلى للناس كاملة فى عصر واحد ، كما ان جهل الناس بحقيقة الشمس وحركاتها وعوارضها وتفسير ذلك بطريقة خاطئة بالرغم من وضوح الشمس لم يؤد فى يوم من الأيام الى إنكار وجود الشمس نظرا لأن ذلك يعود الى جهل الانسان »[1] .

الغريزة الدينية مركوزة فى الانسان :

يعد الشعور الدينى غريزة فطرية لدى الإنسان ، منذ فجر الحياة حتى الان ومن ثم يتساءل عن سر الوجود فى العالم الذى يعيش فيه ، وعن الحياة ، وعن الموت .. والإنسان بطبيعته يتطلع إلى فكرة الإيمان ، لأنه يحس أن الإيمان يحقق له الاطمئنان النفسى الذى يحتاج إليه .. ، وإذا كان البعض ينكر حقيقة العقيدة ، ويتجاهل أهميتها ، فإن ذلك لا يؤدى الى رداءة العقيدة ، أو عدم جدواها ، وإنما يعود الى ضعف فى التكوين العقلى ، كالمعدة التى ترفض قبول الطعام الجيد ، بسبب ضعف فى المعدة .

يقول معجم « لاروس » للقرن العشرين :

« إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الاجناس البشرية ، حتى أشدها همجية وأقربها الى الحياة الحيوانية .. وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » .

ويقول هنرى برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

ويقول « أرنست رينان » فى تاريخ الأديان :

(١) راجع موسوعة العقاد الإسلامية المجلد الأول فى كتابه (الله) ص ٢٥ ، ٢٦ ، نشر دار الكويت العربى بيروت ، ومبادئ الثقافة الإسلامية ص ٨٨ ، ٨٩ .

« إن من الممكن أن يضمحل كل شئ نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل ان يمحى التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يريد أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية (١) .

ويقول الاستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه « الله » :

لقد « اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصيل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الانسان من أقدم أزمنة التاريخ ، ولكنهم لم يتفقوا على أصل العقيدة ، أو أصل الباعث عليها ، ولابد لها من باعث ، فلن يكون الوقوف على باعثها دليلا على بطلانها ، لأنها لا تأتى بغير باعث يؤدى اليها كائنا ما كان » (٢) .

ويقول شاشاوان : « مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر : علميا وصناعيا واقتصاديا واجتماعيا ، ومهما يكن اندفاعنا فى هذه الحركة العظيمة للحياة العملية ، والجهاد والتنافس فى سبيل معيشتنا ومعيشة ذوينا ، فإن عقلنا فى أوقات السكون والهدوء (عظاما كنا أو متواضعين ، خيارا كنا أو اشرارا) .

يعود الى التأمل فى هذه المسائل الأزلية : لم ، وكيف كان وجودنا ، ووجود هذا العالم ، وإلى التفكير فى العلل الأولى أو الثانية ، وفى حقوقنا وواجباتنا » (٣) .

مما سبق يؤكد أن العلوم التجريبية قد ولدت عند العلماء المختصين قناعة بأن العقل البشرى قاصر عن إدراك كل شئ ، وأنه لايسعه الا التسليم بأن وراء كل

---

(١) راجع للدكتور : محمد عبد الله دراز ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢) راجع كتاب (الله) ص ٢٧ من الموسوعة الاسلامية للعقاد .
(٣) الدين : الدكتور دراز ص ٨٢ ، ٨٣ .

معلوم مجهول ، ووراء كل مشاهد ماهو غيبى ، وأن ما استطاع العقل البشرى الوصول اليه حتى الان لا يمثل إلا جزءا يسيرا من الحقيقة (١) .

« أجل لقد أصبح العلم يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ، إلا الحس المجهز بأقوى المجاهر ، المزود بأدق المقاييس والموازين ، وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود، وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى فى القاعدة التى تقوم عليها الأديان . على أن هذا الضرب من التجارب العلمية .. رجعت بالعلم فى كلتا مرحلتيه من الغرور والكبرياء الى التواضع والاستسلام (٢) .

(١) راجع مبادئ الثقافة ص ٩١ .
(٢) الدين مرجع سابق ص ٩٠ .

ثانياً : أثر الدين فى الإنسان والثقافة :

مما ينبغى أن ينشغل به الإنسان أن الكون الذى نعيش فيه ، هو شكل من اشكال ذاتيتنا الداخلية وصور لتفكير الانسان ووعية ، حين يوجد فيه ، ومن ثم اختلف طابع الحضارات فيما بينهما ، تبعا لاختلاف الاجيال والأمم التى أسستها وتركتها وراءها : فى الثقافة والدين .

فالإنسان إذا هو محور الدائرة فى هذا الوجود ، به يتحرك ، ومن أجله يتحرك ، فهو يخضع له خضوعا كاملا كما أشارت إلى ذلك الآية القرآنية الكريمة : «وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١) .

يقول الدكتور عثمان أمين :

« والواقع أننا لانستطيع أن نبحث عن ثقافة أو حضارة بمعزل عن وعى الانسان وموقفه منهما ، إن الناطقية الانسانية هى مركز الكون كله ، والعالم الخارجى ، أو عالم الاعيان كما يقول المتكلمون الإسلاميون ، ولا يكون كذلك إلا بالقياس الى عالم الأذهان »(٢) .

وبما ان الانسان ليس مجرد نتيجة للتاريخ ، فإنه هو القوة المحركة للتاريخ(٣).

فما فى الكون من تطوير وتجديد أضيف اليه بعد خلق الله له ، إنما مصدره الانسان الذى أودع الله سبحانه فيه قوة العلم والادراك ، وبما ان الوجود الى جانب

---

(١) الجاثية : ١٣ .

(٢) الدين والحرية للدكتور إبراهيم هلال .

(٣) انظر مجلة المسلم المعاصر العدد الثالث ١٣٩٥ هـ ص ١٣ ، ١٤ ، والدكتور راشد البراوى فى التفسير القرآنى للتاريخ ، الفصل الثالث عشر دار النهضة العربية القاهرة : ١٩٧٣م.

دلالته على وجود الله سبحانه ، فهو بما اضيف الى وجوده من تطوير وتغيير صناعي، يدل على الانسان ، وعلى نوعية هذا الانسان .

دور الدين فى تأسيس الثقافة :

مما لاريب فيه أن الذى أخرج الانسان من بدائيته ، ووجهه الى تغير الكون وتطويره ، إنما هو الدين ، فان الله عز وجل حين خلق آدم عليه السلام عرفه بنفسه ، كما عرفه على الكون من حوله وعلمه اسماء جميع مافيه الدليل قول الله سبحانه :

« وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون »[1] .

فالله سبحانه : « بث فى آدم سر الاهتداء الى خصائص الاشياء ووسائل الانتفاع بها ، ونحسب ان ذلك هو معنى الاسماء فى قوله سبحانه : « وعلم آم الاسماء كلها » أى علمه حقائق مسمياتها ومالها من خصوصيات المنافع والمضار ، فإن اسم الشئ يقترن دائما فى الذهن بحالة من : صور ولون ، وأجزاء ، وبحالة من سائر المقومات والمزايا الحسية والمعنوية »[2] .

وقد حددت مدارك الانسان كما رأيناها فى تلك الكلية من قوله سبحانه «الاسماء كلها » فهى الكون كله : « ظاهرة وباطنه ، والظاهر منه هو الكائنات الطبيعية ، وماتتضمن من ثروات وطاقات ، ومالها من قوانين ومعطيات ،، معطيات فى شتى علوم الكون كالكيمياء والطب ، والاحياء ، والفلك ونحوها ، ومايستنبط من

(١) البقرة : ٣١ - ٣٣ .

(٢) البهى الخولى : آدم عليه السلام ص ١١٢ - ١١٤ . ط الثالثة - القاهرة .

ذلك ، ومن منافع وصناعات ووسائل للعمارة ،، والعقل يوجه لذلك خواصه التى نسميها الادراك الحسى ، أو العقل الطبيعى أو الرياضى » .

أما الباطن من الكون فهو ماندركه فيه من دلالة كائناته على الخالق :

« والعقل يوجه الى ذلك خاصية الخالقية التى تبصر في الكون أنه مخلوق ، فإذا استقرت على ذلك تكشفت للفكر معالم الصنع الدالة على صفات الصانع تعالى : صفات القدرة والعلم والحكمة والكرم والود والرحمة والبر ، ومعرفة الله هى حقيقة العلم[1] .

وفى الاسماء يقول الإمام الألوسى [2] رحمه الله : « والحق عندى هو أنها أسماء الاشياء علوية ، أو سفلية . جوهرية ، أو عرضية » ثم يشير الى مايشتمل عليه تعليم هذه الاسماء ، من قوى ومدارك عند الانسان فيقول :

« إن الله خلقه من قوى جثمانية مستعدا لإدراك أنواع المدركات ، والهمه معرفة : ذوات الأشياء واسمائها وخواصها ومعارفها ، وأصول العلم ، وقوانين الصناعات ، وتفاصيل آلاتها ، وكيفيات استعمالاتها » .

وهذا هو مايقتضيه منصب خلافة الانسان لله سبحانه فى الارض الذى اشار اليه القرآن الكريم حيث قال : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »[3] .

مما سبق يتضح لنا ان الدين هو اساس الثقافة والحضارة ، فهو الذى عرف الانسان بالله الخالق سبحانه ، وبالكون ووجهه للنظر فيه ، والتعرف عليه ، واستخراج

(١) آدم عليه السلام ص ١١٦ - ، ١١٧ .

(٢) روح المعانى : لمحمود شكرى الألوسى . ج ١ ص .

(٣) البقرة : ٣٠ .

مافيه من كنوز ومن ثروات والاستفادة مما فيه ، من قوى ومن طاقات ، يقول الله تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (١) .

ويقول جل ذكره : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداد وأنتم تعلمون » (٢) .

ويأمرنا بالسعى والبحث والتنقيب صراحة فيقول : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (٣) .

ثم يتحدث عما كمن فى الارض من قوى ، ومن طاقات وثروات وانها كلها جميعا أقوات كما تشير الى ذلك الاية الكريمة « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلو له اندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » (٤) .

ثم يتحدث فى ايات أخرى بأن هذه القوى والطاقات والاقوات ، وكل ما خبأته الارض فى باطنها ، أو حملته على ظهرها مسخرة لنا فيقول :

---

(١) ق : ٦- ١١ .
(٢) البقرة : ٢ – ٢٢ .
(٣) الملك : ١٥ .
(٤) فصلت : ٩ ، ١٠ .

« وسخر لكم ما فى السماوات ومافى الارض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »[1] .

ويقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم »[2] .

فكل هذه الايات تتحدث عن صلة الكون بالانسان وأن الكون ماخلق إلا لأجل الانسان كى يستعمره ويستغله ، ويظهر فيه من اسرار الوجود والعلم والحكمة ما أودعه الله فيه ، ووكل الى خليفته فى الارض (وهو الانسان) مهمة إظهار هذه الاسرار وهذا العلم والحكمة .

ويؤيد هذا ماتراه من السياق القرآنى الذى ربط بين هذه الاية الاخيرة ، وبين آيه استخلاف الله للانسان فى الارض فقد اثبتت الآية الثانية بعد الأولى مباشرة على هذا النحو : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شئ عليم ، وإذا قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون »[3] .

ثم تأتى بعد هاتين الآيتين : آيه تعليم الله عز وجل لآدم عليه السلام الاسماء دون الملائكة مما يقدم لنا هذه القضية ، أو هذا المفهوم المنطقى حسب هذا التسلسل: ان الله خلق الكون مزودا بوسائل الحياة ، أولا من أجل الانسان ، ثم خلق الانسان من أجل ان يكون خليفة الله على جزء من هذا الكون ، ثم علم الانسان وعرفه على هذا الكون وامره بعد ذلك فى آيات أخرى لتولى هذه الخلافة ، واظهار

(١) الجاثية : ١٣ .
(٢) البقرة : ٢٩ .
(٣) البقرة : ٣٠ .

آيات الله فى كونه ، وفى الانسان على قدر سواء كما قال سبحانه : « سنريهم آياتنا في الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد »[1] .

فمفهوم ذلك ان الله يبين لنا ببيان واضح مهمة الانسان فى الارض ، وان الكون ماخلق إلا لأجله ، فعليه أن يتقدم نحو مزاولة رسالته ، واظهار آيات الله ونعمه التى وعد بإظهارها فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وان الانسان بهذا إنما ينفذ أوامر الله ، ويسبح الله ويعبده ، وان عمله وإن كان فى رأى العين إنتاجا وعملا دنيويا ، إلا انه فى باطنه وواقعه عبادة وتسبيح ، لأنه سعى نحو إظهار كمالات الله سبحانه وإقامة دلائل وجوده .

فمزاولة الانسان لشئونه التى خلق لها على الارض ، تسبيح لله من جانبه ، إلى جانب تسبيح هذه المخلوقات والمكونات التى ظهر الكون بها في غاية الكمال فقد سبحت الله تبارك وتعالى هذه المخلوقات بشكلها وبوجودها ، أى أن وجودها فى نفسه و قد نزه الله سبحانه عن أن يترك الكون ناقصا ، أو فيه موضع لنقص كما قال سبحانه : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت »[2] .

فخلافة الانسان على هذا الكون هى مظهر ذلك الكمال ، والانسان مأمور من الله سبحانه بهذه الخلافة أى مأمور من الله سبحانه بإنعاش الثقافة والمدنية ، وخلق الحضارة ، ودفع حياة التطور ، والابتكار والاختراع ودفع عجلة العلوم الى الامام ومن ثم : فإن الدين اساس الثقافة والمدنية والحضارة وسر وجودهم ومبعث الحياة فيهم.

---

(١) فصلت : ٥٣ .

(٢) الملك ٣ .

ثالثاً : الحركة العلمية فى الجزيرة العربية :

بدأت الحركة العلمية في الجزيرة العربية ببزوغ فجر الإسلام ، ثم أخذت فى الانتشار رويدا رويدا ، ومن المعروف تاريخيا أن الامية كانت منتشرة في ربوع الجزيرة قبل الإسلام ، وكان عدد القراء ، والكتاب محدودا ، حتى يقال : إن عدد الكتاب من قريش لايتجاوز سبعة عشر كاتبا ، أما فى غير قريش فهو أقل[1] .

تشجيع الرسول ﷺ الناس على العلم :

حث النبى ﷺ المسلمين على العلم ، فكان المسلمون يجتمعون فى المسجد ، يتعلمون القرآن ويتدراسون أحكامه وحكمه ، وما اشتملت عليه من تعاليم ، سواء منها ماتعلق بقصص الانبياء السابقين والأمم السابقة ، أو مسائل العقيدة ، أو احكام تشريعية .

ولقد أمر ﷺ المتعلمين من أسرى غزوة بدر ، أن يعلموا عشرة من أبناء المسلمين مقابل إطلاق سراحهم ، وجعل التعليم مقابل الفدية فداء لنفسه من الاسر. وهذا ممايدل على حرص الرسول ﷺ على تعليم المسلمين واخراجهم من ظلمة الجهل الى نور العلم .

كانت هذه النواة التى غرسها ﷺ فى عقول اصحابه الكرام ، ثم نمت هذه النواة لان الذى غرسها مبارك الخطوات ميمون السريرة محمد ﷺ ، فقد حرص الصحابة على سقيها وتغذيتها بعد وفاته ﷺ ، فقد نبغ فيهم : الفقهاء ، والمفسرون ، والمحدثون ، والقضاة فى كثير من المسائل التى جدت على المجتمع الإسلامى ، فكانوا يتناقشون ، ويتناظرون وكل يدلى بحجته ودليله ، حتى بدأت الحركة العلمية فى الجزيرة .. تزدهر يوما بعد يوم وتتسع جوانبها ، وتتزايد آثارها ، حتى المساجد

(١) انظر مبادى الثقافة الإسلامية ص ٢٦ .

قد أصبحت دورا للعلم يتحلق فيها الناس حول العلماء يستمعون اليهم ، ويناقشونهم، ويأخذون عنهم .

وسرعان ما أنشئت المدارس العلمية فى معظم الامصار الإسلامية التى فتحها المسلمون ، وأصبحت تدين بالإسلام وأقبل الناس عليها يتعلمون العلوم المختلفة ، سواء كانت علوما دينية ، أو لغوية ، أو فلسفية ، أو غير ذلك (١) .

رابعاً : مظاهر الحركة العلمية فى صدر الإسلام :

ومن هذه المظاهر مايلى :

أ- مدرسة المصطفى ﷺ :

أعجوبه الزمن ، ومعجزة العالم ، ومفخرة الإسلام فى التربية والتزكية والتعليم والسمو حتى أن الله سبحانه وتعالى مدحها لنجاحها فقال :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢) .

كما بين القرآن الكريم أسباب نجاح هذه المدرسة ، وهو رحمة معلمها الأول ﷺ ورأفته والعزم والتشاور ، واللين والبشاشة فى الوجه فقال سبحانه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولوكنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »(٣) .

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) ال عمران : ١١٠.

(٣) آل عمران : ١٥٩ .

ب- أسس التعليم :

الرحمة ، الرفق ، التيسير ، والتبشير ، وقال ﷺ لأبى موسى ومعاذ رضى الله عنهما لما بعثهما الى اليمن :

« يسرا ولاتعسرا ، وعلما ولاتنفرا » (١) .

وقال ﷺ :

« علموا ولاتعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف » (٢) .

جـ- الكتاتيب :

تشير بعض الاحاديث والاثار الى أنه كان فى عهد الرسول ﷺ ، وخلفائه الراشدين كتاتيب منظمة يتعلم فيها أبناء المسلمين الفقراء والاغنياء على حد سواء ، وأن هناك من اتخذ التعليم مهنة وصناعة لها أصولها ومناهجها وآدابها ، فكان يقوم بها رجال أكفاء متخصصون فى طرائق التعليم ، وفى تهذيب الاخلاق ، والعناية بتنشئه أطفال المسليمن (٣) .

فقد روى محمد بن سحنون (٤) (ت ٢٥٦هـ) بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) البخارى فى الادب المفرد مع فتح البارى : ١٠ / ٥٢٤ .

(٢) الطيالسى فى مسنده راجع المقاصد الحسنة ص ٢٨٩ .

(٣) د. محمود عبد المولى فى القسم الدراسى لكتاب آداب المعلمين لمحمد سحنون ص ٩٢ .

(٤) آداب المعلمين لمحمد سحنون ص ٧٤ ، ومحمد بن سحنون هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى ، ولقب أبوه بالسحنون : لحدة ذكائه ، كان إماما ثقه ، عالما بالمذهب المالكى وبالآثار ، =

« أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالتسوية فقيرهم مع غنيهم ، وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » .

وروى أن النبى ﷺ قال :

« شرار أمتى معلموا صبيانهم أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المسكين »(١) .

=

جمع فنون العلم والف فى جميع العلوم ، وفى المغازى والسير .

* مولده : ولد بالقيروان سنة ٢٠٢ . هـ ، وتادب بابيه ، وتفقه عليه ، ثم رحل لأجل العلم حتي جمع فأوعى ، ثم الف مؤلفات كثيرة فى كثير من العلوم ت سنة ٢٥٦ هـ ، ودفن بالقيروان .

* راجع ترجمته فى الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب جـ ١ ص ١٦١ - ١٦٦ط القاهرة : ١٣٥١ هـ .

* والمدارك للقاضى عياض ط الجامعة التونسية سنة ١٩٦٨ م ص ١٧١ . والقسم الدراسى لآداب المعلمين ص ٣٩ - ٥٤ .

* من الف فى حقل مدرسة القرآن الأولى التى ذكرها الإمام ابن سحنون الف فيه الآجرى ت ٣٦٠هـ.

* والخوارزمى ت ٣٧٧ هـ .

* ثم ابن جزار القيروانى ت د٣٩٥ هـ ، فالف كتابه (سياسة الصبيان وتدبيرهم) قام بتحقيقه محمد الحبيب الهيلة ط الدار التونسية للنشر سنة ١٩٦٨ م .

* وأبو الحسن على بن محمد بن خلف القابينى ت سنة ٤٠٣ هـ ، فالف كتاب جمع فيه فأوعى فى أحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » . قام بتحقيقه ونشره د/ أحمد فؤاد الأهوانى ط دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٥ م .

* ثم الف فى هذا الحقل أبو عمر أحمد بن محمد بن محمد بن عفيفى ت سنة ٤٢٠ هـ كتابا اسماه : « آداب المعلمين » فى خمسة أجزاء .

* وراجع الفكر التربوى عند الامام الغزالى د/ عبد الغنى عبود ص ٣٥ .

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

وقال ﷺ :

« أدب الصبي ثلاث درر »[1] أي عصيات صغيرات .

وروى عن ابن مسعود انه قال : ثلاث لابد للناس منهم :

« فلابد للناس من أمير يحكم بينهم ، ولو لا ذلك لأكل بعضهم بعضا ، ولابد للناس من شراء المصاحف وبيعها ، ولولا ذلك لقل كتاب الله – أي قلت نسخه – ولابد للناس من معلم يعلم أولادهم ، ويأخذ على ذلك أجرا ، ولولا ذلك لكان الناس أميين[2] » .

روى الإمام محمد بن سحنون روايات عن انس تثبت ازدهار مدارس التعليم (الكتاتيب) فى عهد الخلفاء الراشدين ، منها أنه قيل لأنس بن مالك :

كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم ؟

قال أنس رضى الله عنه : « كان المؤدب له إجانة – أى اناء – وكل صبى يأتى كل يوم بنوبته ماء طاهرا فيصبونه فيها فيمحون به الواحهم ، قال انس : ثم يحفرون حفرة فى الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف »[3] .

فيفهم مما سبق ان الكتاتيب المنظمة بدأت مبكرة لتحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم العلوم في وقت مبكر جدا ، فقد كان في المدينة دار تسمى : (دار القرآن)

(١) المرجع نفسه ٧٧ .
(٢) المرجع نفسه : ٧٣ .
(٣) أداب المعلمين ص ٧٥ .

وأن بعض القراء كانو يسكنونها ليحفظوا أى كتاب الله تعالى ، ويجودوا قراءته ، ويقصدهم الناس اليها ، فيفيدون عما عندهم من علم كتاب الله تعالى ، وماحفظوا من حروفه وتلاوته (١) .

وقال المستشرق : « دبيس » فى دائرة المعارف الإسلامية :

« ويظهر أنه قد وجدت منذ فجر الإسلام أمكنة كانوا يجتمعون فيها لاستظهار القرآن ، وتدارسه ، ولاشك فى أن هذه المواضع كانت كالمدارس الأولية يتعلمون فيها مبادئ القراءة وأصول الكتابة العربية كما يحدثنا الواحدى ، ويذكر ان عبد الله بن أم مكتوم كان يسكن دار القراء بالمدينة » (٢) .

لقد كان دور الكتاتيب قبل الإسلام لتعليم القراءة والكتابة ، وبعد الإسلام قامت بتحفيظ الاطفال القرآن الكريم ، بالاضافة لتعليم النشأ القراءة والكتابة ، والدين الإسلامى ، والخط والحساب ، ومبادئ اللغة العربية ...

وكانت العناية بالخط واضحة ، لأنه فن من الفنون الجميلة .. فالكتاب إذن هو المعهد الأولى الذى يتعلم فيه أبناء المسلمين ثقافة الإسلام .

وكان أول المعلمين للخط من وادى القرى (٣) ، أقام بها وعاش فيها ، وعلم الراغبين من أهلها الخط .. وكان اللوح يستعمل فى الكتابة منذ زمن قديم ، فقد

---

(١) المصدر السابق ، وراجع كتاب التربية والتعليم فى الإسلام د. محمد أسعد طلس دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٥٧ م

(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالفرنسية : ١٢ / ٤٠ نقلا عن القسم الدراسى للدكتور محمود عبد المولى ص ٦٢ المقدمة من كتاب آداب المعلمين .

(٣) وادى القرى موضع بالقرب من المدينة المنورة على طريق الحجاج ، من جهة الشام .

قالت أم الدرداء رضى الله عنها : إنها قد كتبت على اللوح عبارات فى الحكمة ليحاكيها تلميذ كانت تعلمه القراءة والكتابة (١) .

وبعد معرفة القراءة والكتابة كان التلاميذ يقرؤن القرآن الكريم ويكتبون كل يوم قدرا منه فى الواحهم ويحفظون ما يكتبون ، وبهذه الوسيلة - كانوا يدربون على القراءة ويتعلمونها ، ويحفظون القرآن ويحسنون خطهم ..

قال الجاحظ فى رسالة المعلمين :

« .. ولو لا الكتاب (الكتابة) لاختلفت اخبار الماضيين ، وانقطعت آثار الغائبين... وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل فى نصابه ، ويقوم على اساسه بالكتاب (الكتابة) والحساب) (٢) .

وقال العالم الاندلسى أبو بكر بن العربى : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهى أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه الى المكتب ، فيتعلم الخط والحساب والعربية ، فإذا حذقها كلها ، أو حذق منها ماقدر له خرج الى المقرئ ، فلقنه كتاب الله ، فحفظ منه كل يوم ربع حزب ، أو نصفه أو حزبه » (٣) .

وقد ازداد عدد الكتاتيب وعدد المعلمين فى القرن الثانى الهجرى ، والقرون التى بعده حتى صار فى كل قرية كتاب أو أكثر .

---

(١) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٧٢ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق .

(٣) نقلا عن نفس المرجع ص ٧٢ .

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : كنت يتيما فى حجر أمى فدفعتنى فى الكتاب ، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد لطلب العلم والتوسع فى الثقافة الدينية(١) .

وقال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدفينا ، أى عظم بيننا قال جل شأنه : « كتاب انزلناه مبارك ليدبروا أياته » (٢) فالفرض الرئيسى من الايات والتفكير فى المعنى المراد من كل منها ، وتنفيذ ماجاء به القرآن الكريم من أحكام .

د- التعليم فى المساجد :

فى العصر الإسلامى الأول كان الصغار يجلسون مع الكبار فى حلقات المساجد للتعلم ، وممن تعلموا فى المسجد : على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وإن للتربية الإسلامية صله كبيرة بالمسجد ، فقد اتخذه المسلمون بيتا لعبادة الله سبحانه والتقرب اليه جل ذكره ، ومعهدا للثقافة الإسلامية ، والتربية الدينية تدرس فيه قواعد الإسلام وأحكام الدين ، كما جعل محكمة للقضاء العادل ، وميدانا لاجتماع الجيش الباسل، وبيتا لاستقبال السفراء ، ومركزا للحياة الروحية والاجتماعية والسياسية ، وقد أطلق على المسجد « بيت الله » فلا يحتاج أحد الى الاستئذان حينما يدخله للعبادة أو للدراسة أوغيرهما (١) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٣ .

(٢) ص : ٢٩ .

(٣) انظر التربية الإسلامية ص ٧٥ .

أول المساجد فى الإسلام :

هو مسجد قباء ، كانت تعقد فيه حلقات دينية ، وحينما دخل النبى ﷺ المدينة المنورة بنى مسجده بالمربد ، ليشجع المهاجرين والانصار على النشاط والسرعة فى العمل وكان من عادة الرسول ﷺ أن يجلس فى مسجده بالمدينة ليعلم أصحابه تعاليم الدين والدنيا معا ، وبانتشار الإسلام انتشرت المساجد فى البلاد الإسلامية ، وغصت بحلقات العلم والدرس (١) .

قال العبدرى فى كتابة المدخل جـ١ ص ٨٥ .

« أفضل مواضع التدريس هو المسجد ، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة ، أو تخمد به بدعة ، أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى ، والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافرا ، لأنه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم ، وعالمهم وجاهلهم » .

وحينما انتشر الإسلام كثرت المساجد ، وبنى المسلمون فى كل مكان حلوا به مسجدا وكان عمر رضى الله عن يأمر قواده بإنشاء المساجد ، فى جميع البلاد والمدن التى يفتحونها وفى القرن الثالث الهجرى امتلأت بغداد بالمساجد ، وكانت الحال كذلك فى مصر : .

أول جامع فى مصر هو جامع السادات ثم جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وقد بناه فى سنة ٢١هـ بأمر من الخليفة عمر رضى الله عنه بعد فتح أرض الكنانة (٢) ، وقد جدد هذا المسجد العتيق عدة مرات وافتتح للدراسة الدينية والخلقية سنة ٣٦ هـ .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) راجع للباحث الدعاة الأول فى أرض الكنانة المقدمة ورسالة الدكتوراة فصل « المساجد وأثرها فى الدعوة » .

وكان مسجد عمرو مركزا للثقافة ، ومحكمة للقضاء ، وكان به أكثر من أربعين حلقة دراسية للتعليم يؤمها الطلبة للدراسة والبحث .

وقد بين المقريزى فى خططه [1] بعض التفاصيل عن ثمانى حلقات كانت تدرس فيها العلوم المختلفة بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه نذكر منها .

أولاً : حلقة الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وقد نسبت اليه لأن الشافعى قام بالتدريس فيها سنة ١٨٢ هـ - وكانت تسمى بالزاوية ، ولها أرض موقوفة عليها بناحية سندبيس ، وكان أعيان الفقهاء وجلة العلماء يتولون التدريس فيها ، وكانت مملوءة بطلاب العلم والدين .

ثانياً : الزاوية الصاحبية وقد اعدها الصاحب محمد بن فخز الدين ، وعين لها اثنين من المدرسين : أحدهما شافعى لتدريس الفقه على مذهب الامام الشافعى ، والاخر مالكى لتدريس الفقه على مذهب الامام ملك رض الله عنه ، ووقف عليها وقفا خاصا بالزاوية .

ثالثاً : حلقة الامام الطبرى فإنه لما وفد محمد بن جرير الطبرى على مصر قام بالتدريس فى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وظهر فضله وعلمه فى تفسير القرآن الكريم ، وتدريس الحديث ، والفقه ، وعلمه بالفقه واللغه والنحو والشعر، وكان يملى على طلبته ما أرادوا من المباحث فى أى مادة من تلك المواد .

رابعاً : من الجوامع التى اشتهرت بالتدريس جامع أحمد بن طولون ، الذى تم بناؤه سنة ٢٥٦ هـ وقام الفقهاء والعلماء بالتعليم فيه ويروى السيوطى رحمه الله ،

(١) جـ١ /

إن دروسا مختلفة قد نظمت ورتبت فيه منها : التفسير ، والحديث ، والفقه على المذاهب الاربعة ، والقراءات والميقات والطب (١) .

أما أشهر الجوامع ودورها فهي كما يلي :

١- الجامع الأزهر :

انشاه جوهر الصقلي بالقاهرة في عهد المعز لدين الله الفاطمي ، شرع في بنائه يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ ٩٧٠ م وكمل بناؤه سنة ٣٦١ هـ ت سنة ٩٧٢ م وفي سنة ٧٦١ هـ في عصر الملك الناصر قلاوون أنشئ بالأزهر مكتب لتحفيظ القرآن لليتامى من أبناء المسلمين ، ورتب للفقراء من الطلبة طعام يطبخ لهم كل يوم ، ونظمت فيه دروس للفقهاء من الحنفية ، ووقفت عليه الأوقاف الكثيرة وفي سنة ٨١٨ هـ بلغ عدد طلبته ٧٥٠ طالبا من : مصريين ، ومغاربة، وزيالعة ، وعجم ، وكان لكل منهم رواق خاص يعرف بهم (٢) .

وكان الجامع الأزهري عامرا بتلاوة القرآن الكريم وتلقينه ودراسته ، والاشتغال بالتفسير والحديث ووعلوم الفقه والنحو والبلاغة .

وقد استمر الجامع الازهر يزداد شهرة في الافاق ، يقصده الطلبة من جميع البلاد الإسلامية لتعليم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية على أيدى جهابذة العلماء المتفرغيين للدراسة والتعليم ابتغاء مرضاة الله تعالى.. وازداد الاقبال عليه من

(١) حسن المحاضرة : ٢ / ١٣٨ .

(٢) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٧٨ .

المصـــريين ، وأهل الحـجـاز واليـمن والشـام والسـودان والمغـرب ، وبغـداد وتركـيـا وكردستان والسند والهند والعجم والافغان وجاوه (١) .

وتعد الدراسة فى الجامع الازهر امتداد للدراسة الدينية فى مسجد عمرو بن العاص رضى الله عنه .

وفى سنة ١٢٩٣ هـ ت ١٨٧٥م أحصى عدد العلمـاء والطلبة فى الأزهـر فكان عدد العلماء ٣٢٥ وعدد الطلبة ١٠٧٨٠ تقريبا (٢) .

وللأزهر عدة قوانين منها قانون سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م وفيه عد الجامع الأزهر المعهد الدينى للعالم الإسلامى الأكبر :

والغرض منه :

أ- القيـام على حـفظ الشـريعـة الغراء وعلى تعليم اللغـة العربيـة لغـة القرآن والدين .

ب- تخريج علمـاء يوكل اليهم تعليم هذه العلوم ، وتولى الوظائف الشرعية فى الدولة ..

ولم يكن فى الأزهر قديما شروط خاصة بالسن أو المؤهلات ، وهو حتى وقتنا هذا يعد جامعة من أقدم جامعات العالم ، ومن أولى الجامعات الإسلامية .

ويقـول الخطيب البـغـدادى : إن درسـا فى الطب كـان يلقى فى الأزهـر عند منتصف النهار من كل يوم (٣) .

---

(١) انظر المرجع نفسيه .
(٢) انظر المرجع نفيه ص ٧٩ .
(٣) عيون الانبياء لابن أبى أصيبعة : ٢ / ٢٠٧ .

وفى سنة : ١٩٦١ - ١٩٦٢ ت ١٣٨٠ - ١٣٨١ هـ صدر قانون بإنشاء الجامعة الأزهرية ، وبها كليات للطب والهندسة والزراعة والتجارة والعلوم والتربية وكلية البنات الإسلامية .

٢- جامع المنصور ببغداد :

شيده أبو جعفر المنصور ، وجدده هارون الرشيد ، وزاد فى مبانيه وأصلحه وكان قبلة أنظار الاساتذة والطلاب ، وله منزلة سامية فى نفوس العلماء والشعراء وقد قيل: إن الخطيب البغدادى حينما حج شرب من ماء زمزم ، وسأل الله تعالى أن يحقق له ثلاثة أمور : منها أن يعطى الفرصة فى أن يملى الحديث الشريف بجامع المنصور ، وكان الكسائى يجلس فى ذلك المسجد ليقرأ للطلبة علوم اللغة ، وكان أبوا العتاهية يملى شعره فيه [(١)] .

٣- الجامع الأموى بدمشق :

من عجائب الدنيا ، انفق الوليد بن عبد الملك على بنائه خراج المملكة - سبع سنوات - وظل العمل فى بنائه ثمانية أعوام . قيل إنه لو مكث الإنسان فيه مائة سنة لرأى فى كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل .

وصف ابن جبير له :

وصف ابن جبير للمسجد الأموى فى رحلته ، فبين أن فيه حلقات للتدريس للطلبة ، وللمالكية زاوية للتدريس يجتمع فيها طلبة المغاربة ومرافقة للغرباء كثيرة وواسعة ، وبه مدرسة للشافعية ، وفيه عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والبعد عن ازدحام الناس .

(١) انظر التربية الإسلامية .. ص ٨٢ .

وكان للخطيب البغدادى بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦ هـ ، وكان الناس يجتمعون اليه فى صباح كل يوم فيقرأ لهم دروسا فى الحديث .

ولم يكن التعليم فى المساجد والجوامع مقصورا على العلوم الدينية فحسب ، بل شمل فروعا كثيرة من العلوم : كالنحو ، والأدب والشعر والفلك والحساب ، وكانت أبوابها مفتوحة للجيمع من الراغبين فى الدين والعلم والدراسة فى متناول جميع الطبقات من الطلاب لا تقتضى مالا ولا جاها ، وكان لبعض الاساتذة رواتب معينة من الأوقاف ، وبعضهم يكسب معيشته بعرق جبينه ، ويقوم بالتدريس بالمجان ابتغاء مرضاة الله سبحانه وثوابه (١) .

فالمسجد أو الجامع لم يكن خاصا بالعبادة وحدها ، ولكنه أيضاً مكان للتربية والثقافة الإسلامية .

(١) انظر المرجع نفسه ص ٨٢ .

خامسا : دور الكتب والمكتبات فى تيسير وسائل الثقافة :

كان اهتمام المسلمين لانشاء دور الكتب والمكتبات أثر كبير في تيسير وسائل الثقافة والتعلم ، وتشجيع الطلاب على الاستمرار فى الدراسة والبحث العلمى .

وقد زودت المساجد والجوامع والمدارس ، ودور الحكمة بالمكتبات الكبيرة التي تحوى العديد من المراجع النادرة [١] .

وقد ذكر المقريزى [٢] أن المدرسة الفاضلية الحقت بها خزانة عظيمة للكتب بلغ عدد مابها ١٠٠,٠٠٠ كتاب فى عصر لم تخترع فيه المطابع والطباعة بعد .

وأشار ابن القفطى الى مكتبة بلغ عدد ماحوته من الكتب فى الهندسة وعلم الفك ٦٥٠٠ كتاب ، كما كان بها كرة أرضية لبطليموس ، وكرة أخرى لأبى الحسن الصوفى اشتريتا بمبلغ ٣٠٠٠ دينار ، وهذا دليل عملى على تشجيع الإسلام والمسلمين للعلم والبحث العلمى منذ قرون طويلة [٣] .

* خزانة الحكمة :

كانت مملوكة لعلى بن يحى بن المنجم فى قرية تسمى (كركر) قريبة من بغداد، فى قصر شيد فيه خزانة كتب عظيمة تسمى خزانة الحكمة ، يؤمها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ، ويتعلمون صنوف العلم ، وتقدم لهم الكتب للقراءة ، وينفق عليهم من مال على بن يحى [٤] ..

(١) انظر التربية الاسلامية وفلاسفتها ص ٩٦ .

(٢) جـ١ ص ٤٥٠ .

(٣) انظر التربية الاسلامية وفلاسفتها ص ٩٦ .

(٤) راجع المرجع نفسه ، ومن روائع حضارتنا الدكتور مصطفى السباعى . ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

كما ذكر ياقوت أنه كان فى مدينة واحدة من مدن خراسان عشر دور للكتب منظمة ، تشتمل إحداها على ١٢,٠٠٠ مجلد .

* خزانة الحكم الثانى : من اشهر دور الكتب فى الاندلس بلغ عدد ماكان بها من الكتب : ٤٠٠,٠٠٠ كتاب ، نعم لقد تنافس المسلمون بحماسة لانظير لها فى إنشاء دور عامة للكتب ، وقد اهتمت النساء أيضاً بحب اقتناء الكتب وجمعها ، ومن ثم فقد كانت المكتبات الإسلامية على ثلاثة اقسام :

أ- مكتبات عامة .

ب- مكتبات بين العامة والخاصة .

جـ- مكتبات خاصة .

أما المكتبات العامة ، فهى التي انشائتها الدولة بالمساجد والجوامع والمدارس، لتساعد فى دراسة العلوم والاداب والمعارف ومنها :

١- بيت الحكمة فى بغداد :

اسسه الخليفة هارون الرشيد ، وعنى به المأمون لحبه للعلوم والآداب . ولا غرو فقد كان واسع الثقافة ، قوى التفكير ، وحوت هذه المكتبة الكثير من الكتب والمخطوطات بلغات مختلفة منها الكتب القبطية ، واليونانية القديمة والهندية ، والفارسية والآرامية ، وقد ترجمت الى اللغة العربية .

ويعد بيت الحكمة أول مكتبة عامة لها شأن كبير فى العالم الإسلامى ، وأول جامعة اسلامية ، وأول مؤسسة دينية أدبية فلسفية .. ، وكان عصر المأمون أزهى

عصور الثقافة ، فقد كان مثقفا ثقافة عالية ، وأديبا واسع الاطلاع ، ذا ذوق أدبى نادر ، فمنحه كل عنايته ورعايته (١) .

٢- دار الحكمة بالقاهرة :

أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى فى يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ ، وكانت تلك الدار معهدا دراسيا عظيما للدراسة والتعليم والقراءة ، والاطلاع ونسخ الكتب ، حوت تلك الدار الكثير من الكتب النفيسه ، والمخطوطات النادرة فى الدين والعلوم ، والآداب ، وأمدها الحاكم بأمر الله بما يحتاج اليه الناسخون من : أقلام ، ومحابر ، وأوراق ، وجلس فيها : الفقهاء ، والقراء ، وعلماء النحو واللغة والأطباء وعلماء الفلك . ، واحتوت إحدى خزائنها على ١٨,٠٠٠ كتاب من العلوم القديمة (٢) .

ذكر المقريزى فى خططه (٣) .

أن دار الحكمة بالقاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت الستور على جميع أبوابها وممراتها ، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم كلفوا خدمتها .

٣- دار العلم أو خزانة الكتب لسابور :

أسسها أبو نصر سابور بن أردشير سنة ٣٨٣هـ ، وابتاع لها دارا بالكرخ ، وبناها أحسن بناء ، وسماها دار العلم ، ووقف عليها أوقافا للانفاق عليها ، وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان أنه كان بها ١٠,٤٠٠ مجلد فى العلوم المختلفة .

(١) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٩٧ - ٩٨ ، ومن روائع حضارتنا ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) انظر نفس المرجع ، ومن روائع حضارتنا ص ١٦٥ .

(٣) جـ ١ ص ٥٨ .

وكانت دار العلم مركزا ثقافيا للبحث والدراسة والطلاع ، والمناظرات ، والمحاورات والمجادلات ، يجتمع فيها الباحثون والمتناظرون والمحاضرون والعلماء والأدباء ، وكان الفيلسوف الكبير أبو العلاء المعرى لا يتركها ولا ينقطع عنها اذا ذهب الى بغداد .

وكان معظم العلماء والأدباء والفلاسفة يقفون ماعندهم من النسخ والكتب التى يملكونها ، أو يؤلفونها لدار العلم ببغداد (١) .

٤- مكتبات المدارس :

حينما دعت الحاجة الى انشاء المدارس الإسلامية في مصر وسوريا والعراق وخراسان وغيرها من ولايات الامبراطورية الاسلامية كان لدى كل مدرسة مكتبة مزودة بكثير من الكتب الكبيرة والصغيرة من مختلف العلوم ، واشهر المكتبات المدرسية :

أ- مكتبة المدرسية النظامية ببغداد التى أنشأها نظام الملك ، وزودها بكثير من الكتب الثمينة والمخطوطات النادرة ومنها كتاب .

« غريب الحديث » لإبراهيم الحرزمى فى عشر مجلدات ، وقد ظلت هذه المدرسة النظامية موضع عناية الخلفاء والعظماء (٢) .

ب- المكتبات التى كانت بين العامة والخاصة :

أما العامة : فقد كان ينشئها الخلفاء والأمراء والعلماء والاغنياء و كانت تشيد لها أبنية خاصة ، وكانت المكتبات العامة تكون ملكا للخلفاء والملوك ومنها مكتبة الناصر لدين الله ، ومكتبة المعتصم بالله ، ومكتبة الفاطميين التى أنشئوها بالقاهرة ،

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ٩٩ .

(٢) التربية الإسلامية ص ٩٩ .

ونافسوا بها خلفاء بغداد ، وجعلوها في القصر الفاطمي وكانت من عجائب الدنيا ، بما حوت من نفائس المصاحف والكتب ، بلغ مجموعها ، كما يروى كثير من المؤرخين مليوني كتاب ، وإن كان المقريزي يميل الى انها مليون وستمائة الف كتاب .

وتلك المكتبة الفريدة لم يكن في جميع البلاد الإسلامية دار كتب أعظم منها كانت غنية بعلوم الفقه ، واللغة ، والنحو والحديث والتاريخ ، وسير الملوك ، وعلم الفلك، والروحانيات والكيمياء[1] .

جـ- المكتبات الخاصة :

هنالك المكتبات الخاصة التي أنشأها العلماء والأثرياء لمطالعاتهم الخاصة ومنها :

١- مكتبة بني عمار في طرابلس : كانت آية في العظمة والضخامة بها مائة وثمانون ناسخا للكتب ، يتبادلون العمل ليل نهار ، وكان بنو عمار يحرصون على أن يزودوها بكل نادر وكل جديد من الكتب ، كما وظفوا اخصائيين وتجارا ليجوبوا البلاد . ويحرزوا لهم الكتب المفيدة من البلدان النائية ، والاقطار الاجنبية . حتى قيل إنها تحوي مليون كتاب [2] .

٢- مكتبة الفتح بن خاقان : تلك التي يتحدث عنها التاريخ باعجاب . توفي الفتح بن خاقان مقتولا سنة (٢٤٧) هـ ، عهد بها الى رجل من خيرة رجال عصره علما وأدبا وهو علي بن يحيى المنجم حتى جمع له فيها من كتب الحكمة مالم يجتمع في خزانة حكمة قط [3] .

---

(١) من روائع حضارتنا ص ١٦٥، والتربية الإسلامية ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) من روائع حضارتنا ص ١٦٦ .

(٣) انظر من روائع حضارتنا ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

٣- مكتبة ابن الخشاب : المتوفى فى عام (٥٦٧ هـ) كان من أعلم الناس بالنحو ، وكانت له معرفة فى التفسير والحديث والمنطق والفلسفة ، كا مولعا بالكتب الى حد الشره ... مما حمله على أنه إذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقه ، وقال إنه مقطوع ليأخذه بثمن بخس ، وإذا استعار من أحد كتابا وطالبه به قال : دخل بينى وبين الكتب فلا أقدر عليه (١) .

٤- مكتبة جمال الدين القفطى : المتوفى عام (٦٤٦) جمع فيها من الكتب مالا يوصف ، وقصدها طلاب العلم من الآفاق طمعا فى سخائه وكرمه ، وكان لايحب من الدنيا سوى الكتب ، فأوقف عليها نفسه ورفض أن يتزوج حتى لايشغله الأهل والأولاد عنها .

٥- مكتبة بنى جرادة العلماء فى حلب : كتب أحدهم (٢) وهو أبو الحسن بن أبى جرادة (٥٤٨) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة ، وخزانة لولده أبى البركات ، وخزانة لابنه عبد الله (٣) .

٦- مكتب الموفق بن المطران الدمشقى : (٥٨٧) كانت له همة عالية فى تحصيل الكتب ، ولمامات كان فى خزانته من الكتب الطبية وغيرها عشرة آلاف مجلد ، وكان فى خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبدا ويعطيهم رواتبهم وأرزاقهم (٤) .

وبعد : فلئن كانت النشوة تملأ قلوبنا ، والغبطة تملأ نفوسنا ، حين نتحدث عن انتشار المكتبات فى العالم الإسلامى فى عصور ثقافته وحضارته فإن الأسى

---

(١) انظر المرجع نفسه .

(٢) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ١٠٠ ، ومن روائع حضارتنا ص ١٦٧ .

(٣) انظر من روائع حضارتنا ص ١٦٧ .

(٤) انظر المرجع نفسه .

ليملأ قلوبنا حين نتذكر مصائر تلك المكتبات ، وماتعرضت له من بوار وحرائق وضياع، لايمكن أن تقدر خسارة العلم فيها أبداً [١] .

تقدير المسلمين للكتب والمكتبات :

تظهر أهمية هذا التقدير إذا علمنا أن الكتب فى العصور الإسلامية القديمة كانت غالية الثمن ، لأنها مخطوطات يكتبها الناسخون الذين يحسنون الكتابة باليد ، ويعرفون بالدقة فى النقل والأمانة فى العمل ، فكان لايقتنيها إلا الاغنياء القادرون على شرائها من المسلمين [٢] .

وكان المأمون يعطى حنين بن اسحاق من الذهب زنة ماينقله من الكتب الى اللغة العربية مثلا بمثل .. وكان الوراقون يقومون قبل اختراع الطباعة بنسخ الكتب ونقلها وبيعها لمن يريدها ، وكان الجاحظ يكترى حوانيت الوراقين ويبيت فيها للنظر والبحث والقراءة ، والاطلاع على مافيها من كتب متنوعة ، وكل الطلبة والعلماء يقبلون عليها كل الاقبال ، ويقرءون ويشتركون فى المناقشات وإنشاء الاشعار [٣] .

أثر حوانيت الوراقين :

كان لحوانيت الوراقين أثر علمى وأدبى ، وعقلى فيمن يتصل بهم من أسرهم وغيرها . ومن أمثلة تأثير البيئة العلمية والأدبية فى الأسرة ، زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق التاجر فى الكتب ، الذى كان يعيش فى وادى الحمى بالقرب من غرناطة ، فقد عرفتا بسعة الاطلاع ، والتبحر فى العلوم والآداب ، وكانتا على قدم المساواة مع الاساتذة والعلماء ، والأدباء فى ذلك العصر [٤] .

(١) انظر المرجع نفسه .

(٢) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ١٠٠ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠١ .

(٤) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ١٠١ .

ومن ثم فلم تكن الثقافة العلمية والأدبية والدينية مقصورة على الاساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات وحدهم ، بل كانت عامة بين المسلمين فقد انتقل النشاط العلمي والأدبي والثقافي من حوانيت بائعي الكتب إلى حوانيت البيع والشراء (1) .

فالثقافة بين المسلمين كانت عامة ، والعلم كان منتشرا ، وسوق الادب كانت رائجة ، وكان هناك علماء وأدباء ومثقفين بين العامة من المسلمين كالتجار وغيرهم ، وكان للكتب لدى المسلمين منزلة كبيرة وتقدير عظيم ، فقد حدث أن أرسل احد الخلفاء ليطلب عالما من العلماء ليسامره ويتحدث معه ، فلما جاء الخادم الى العالم وجده جالسا وحوله كثير من الكتب يقرؤها ويطلع عليها .

فقال له الخادم : إن أمير المؤمنين يستدعيك .

قال العالم قل له : عندى قوم من الحكماء أحادثهم . فاذا فرغت منهم حضرت اليه ، فلما عاد الخادم الى الخليفة ، وأخبره بذلك قال له : ويحك : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده ؟

قال الخادم : والله يا أمير المؤمنين ماكان عنده أحد .

قال الخليفة فأحضره الساعة كيف كان ، فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك ؟ قال العالم : يا أمير المؤمنين :

هم جلساء مانمل حديثهم .:. أمينون مأمونون غيبا ومشهداً

إذا ماخلونا كان خير حديثهم .:. معينا على نفى الهموم مؤيدا

يفيدوننا من علمهم علم مامضى .:. وعقلا وتأديبا ورأيا وسؤددا

(1) انظر المرجع نفسه ص ١٠٢ .

فلا ريبه تخشى ولا سوء عشرة .٠. ولا نتقى منهم لسانا ولايدا

فإن قلت : أموات فلست بكاذب .٠. وإن قلت : أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يشير بذلك الى الكتب فأعجب به ، ولم ينكر عليه تأخره (١) .

وقال الجاحظ فى تقدير ما فى الكتاب من العلوم والآداب والمعارف والآراء والتجارب والافكار :

« لا أعلم ماجاء فى حداثة سنه ، ولاقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع بين السير العجيبة والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة مايجمعه كتاب : ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته رغبا ، وإن شئت لزمك لزوم الظل ، وكان منك كما كان بعضك (٢) .

« والكتاب صامت ما اسكته ، وبليغ ما استنطقته ، مسامر لايبتديك فى حال شغلك ، ويدعوك فى أوقات نشاطك ، ولايحوجك الى التجمل له والتذمم منه ، وهو جليس لا يطريك ، وصديق لا يغريك ، ورفيق لا يملك ، ولا يخدعك بالنفاق ، ولا يحتال له بالكذب » (٣) .

كان المسلمون فى العصور الذهبية للإسلام مثقفين يعنون عناية كبيرة بدور الكتب العامة فى : القاهرة ، وبغداد وقرطبة ، وشيراز ، وغيرها من البلاد الإسلامية، وكان فى تلك الدور حجر للاطلاع ، وحجر للنسخ ، وقاعات للمحاضرات ، وحلقة للدراسة ، وحجرات لتجديد نشاط القراء ، كما اثثت تلك الحجرات بأثاثات فخم

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٠٣ . ، ومن روائع حضارتنا ص ١٦٢ .

(٢) المحاسن والاضداد ص ٥ .

(٣) الحيوان : ١ / ٥٠ ، ٥١ .

مريح، وفرشت أرضها بالسجاجيد والبسط والحصر ، ووضعت على الابواب والنوافذ ستائر جميلة ، وكانت الكتب فى المكتبات الاسلامية توزع فى الحجرات على حسب موضوعاتها [1] .

وكان أمناء المكتبات يختارون من العلماء والادباء ، والمؤلفين المشهورين والاساتذة المثقفين ، الذين يستطيعون دراسة الكتب والحكم عليها مثل : سهل بن هارون ، وابن مسكويه ، وأبى يوسف الاسفراييني .

وفى أرقى الدول المعاصرة الأن يعد أمين المكتبة مرجعا للطلاب والاساتذة ، كما كان أمناء المكتبات فى عصر الدولة العباسية [2] .

لقد كان الهدف من إقامة المدارس ، والمعاهد العلمية ، وتأليف الكتب وإقامة المكتبات ، لينتشر العلم بين الناس ، وخصوصا فى ذلك الزمن الذى لم توجد فيه الطباعة الموجودة الأن ومن ثم كان ثمن الكتاب باهظا يتعذر على طالب العلم ، أو العالم الفقير شراؤه ، ومن هنا كان قيام المكتبات فى مجتمعنا الماضى منبعثا عن عاطفة انسانية ، وعن نزعة علمية فى وقت واحد [3] .

(١) التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ١٠٥ .
(٢) انظر التربية الاسلامية وفلاسفتها ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٣) انظر : من روائع حضارتنا ص ١٦١ .

سادسا : مصير تلك المكتبات :

لم يحظ المسلمون طويلا بالتمتع بما أقاموا من مكتبات وما ألفه علماؤهم من كتب ومطولات ، فقد فاجأهم الهمج والغوغاء ، وخربوا تلك المكتبات لجهلهم بالعلوم والآداب .

لقد أصيبت تلك المكتبات فقضى على ملايين الكتب منها بحيث فقدها العالم الى الابد ، وهى أثمن ماخلفه الفكر الانسانى فى التاريخ لقد كان الاثر السئ على تلك المكتبات على يد غزاة همج ، لايقدرون علما ، ولا أدبا فجاءت :

أ- نكبة التتار :

حين افتتحوا بغداد ، فأصابت هذه المكتبات قبل ان تصيب أى شئ غيرها ، والتتار الهمج قذفوا بما وجدوا فى دور الكتب العامة فى نهر دجلة حتى فاض النهر بالكتب الملقاة فيه ، فكان الفارس يعبر عليها من ضفة الى ضفة ، وظل ماء النهر اسود داكنا أشهرا طويلة من تغيره بمداد الكتب التى القيت فيه (١) !!

ب- ونكبة الغزو الصليبى :

الذى أفقد ثقافتنا أعز المكتبات التى كانت فى طرابلس ، والمعرة ، والقدس ، وغزة ، وعسقلان وغيرها من المدن التى خربها الصليبيون ، وحسبنا ان نعلم ان بعض المؤرخين قدر ما اتلفه الصليبيون فى طرابلس وحدها بثلاثة ملايين مجلد (٢) .

جـ- نكبة استيلاء الاسبان المسيحيين على الاندلس :

افقدت ثقافتنا تلك المكتبات العظيمة التى يتحدث عنها التاريخ بذهول ، فقد احترقت كلها بفعل المتدينين المتعصبين ، حتى أنه قد أحرق فى يوم واحد فى ميدان

(١) انظر من روائع حضارتنا ص ١٦٨ .

(٢) انظر نفس المرجع .

غراناطة ماقدره بعض المؤرخين بمليون كتاب [1] .

د- نكبات الفتن الداخلية :

فقد كانت نهاية مكتبة الخلفاء الفاطميين التى سبق الحديث عنها ، أن اعتدى عليها الغوغاء من المماليك الاتراك ، فاشعلوا فيها النار ، واقتسم العبيد جلود كتبها فاتخذوها نعالا يلبسونها ، والقى منها عدد كبير فى النيل ، وحمل بعضها الى سائر الاقطار ، وبقى منها ماسفت عليه الرياح فصار تلالا يعرف بتلال الكتب [2] .

هـ- خزانة الصوفية :

كانت مكتبة عظيمة فى حلب ، لكنها نهبت ، ولم يبق فيها إلا القليل فى فتنة قامت بين السنة والشيعة فى أيام عاشوراء .

و- مكتبة الحاكم المستنصر فى الاندلس :

وقد ذهبت بها أيدى الفتن الداخلية حين دخل البربر قرطبة فقسموها ، فبيع كثير منها ، ونهب الباقى [3] .

ز- الهجوم على دار ابن العميد :

لقد هجم جنود من خراسان على دار ابن العميد وهى مكتبة خاصة به ، وسرقوا مافيها من أثاث وخزائن ، ومع ذلك لم يفكر إلا فى خزانة كتبه ، فقد كانت ثمينة بها كثير من الكتب العلمية والادبية ، والدينية تبلغ مائة جمل وزيادة ، فلما رأى ابن العميد ابن مسكوية خازن كتبه سأله عنها ، فأجاب : هى بحالها لم تمسها يد ؞

(١) انظر نفس المرجع .
(٢) انظر نفس المرجع .
(٣) انظر نفس المرجع .

فسرى عن ابن العميد ، وزال عنه الهم ، وقال لابن مسكويه : أشهد انك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض ، وأما هذه الخزانة فهى التى لاعوض لها (١) .

ح- أغرب النكبات :

ومما يثير الضحك ماتفعله الحماقة بالعلم وكتبه ، فقد كان للامير بن فاتك – من أمراء مصر فى القرن الخامس الهجرى – مكتبة ضخمة كان يجلس فيها اكثر أوقاته ولايفارقها ، وكانت له زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة ، ولكن داخلتها الغيرة من الكتب ، فلما توفى نهضت هى وجواريها الى خزائن كتبه وفى قلبها لوعة من الكتب ، لأنه كان يشتغل بها عنها ، فجعلت تبكيه وتندبه ، وفى أثناء ذلك ترمى بالكتب في بركة ماء كبيرة وسط الدار هى وجواريها ...

هكذا فعلت زوجة احنقها ولع زوجها بالكتب ، فانتقمت من الكتب بعد وفاته ، ولا يزال فى زوجاتنا حتى اليوم من يغرن من الكتب كما غارت تلك الزوجة الفاضلة (٢) .

وقديما كانت زوجة الامام الزهرى – رحمه الله تعالى – تقول له : حين تراه غارقا فى الكتب : « والله لهذه الكتب اشد على من ثلاث ضرائر » (٣) .

العلم شعار ثقافة الإسلام :

مما سبق يتضح لنا أهمية العلم فى عصور الإسلام الزاهرة ، وأهمية المسلمين بالتأليف وإقامة المكتبات العامة والخاصة ، لصبغ الحياة بصبغة الثقافة الإسلامية ، لكن القدر كان يخفى فى طياته أمورا أخرى ، فقد نكبت هذه المكتبات

---

(١) انظر التربية الإسلامية وفلاسفتها ص ١٠٠ .

(٢) انظر روائع حضارتنا ص ١٨٩ .

(٣) انظر نفس المرجع .

أما بالسلب والنهب ، وإما بالحريق ، وإما بالحقد والحسد كما سبق ، ومع ذلك فمازالت الثقافة الإسلامية معطاءة لماذا ؟ لأنها تعتمد على الكتاب والسنة ، فهى إذن ربانية الاساس والمورد ، وقد وضعت لبنتها الأولى فى أطهر بقع الأرض فى المساجد التي احتضنت هذه الثقافة ونشرتها هذه المساجد التى يقول فيها رب العالمين « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »[1] .

وهذه البيوت شهد الله عز وجل لمن عمرها بالايمان حيث قال :

« إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الأخر وأقام الصلاة وأت الزكاة ولم يخش إلا الله »[2] .

فإذا كان هذا حديث مكتبات المسلمين فى عصور حضارتهم وثقافتهم ، ونهاية ما وصلت اليه ، فماذا نقول ؟ نقول لئن كان الاعتراف للاعداء بالجميل صعبا على النفس ، فإن من الواجب أن نعترف أن دور الكتب فى أوربا حفظت لنا نحن المسلمين كثيرا من البقية الباقية من هذا التراث ، وان فيها من ذخائر المؤلفات العربية مالايوجد مثله فى العالم الإسلامى كله الآن[3] .

والأمل معقود على أثرياء المسلمين اليوم ان ينقلوا هذا التراث إلى أوطانهم لينتفع بها أبناء دينهم ووطنهم لتظل شاهدة على صدق حبهم ، ومشاركة فعالة فى إثراء الثقافة الإسلامية لتظل وضاءة الجبين بين الثقافات العالمية .

---

(١) النور : ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) التوبة : ١٨ .

(٣) انظر من روائع حضارتنا ص ١٦٩ .

(١) اشتغال الموالى بالعلم :

مما يسترعى نظر الباحث في تاريخ الثقافة الإسلامية ، أن السواد الاعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالى ، وخاصة الفرس ، وكانت اللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين إلى أن ازال المغول الخلافة العباسية من بغداد فى القرن السابع الهجرى ، وفى ذلك يقول ابن خلدون [١] عند كلامه على « أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم » :

« من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى في نسبته ، فهو أعجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربى ، والسبب فى ذلك ان الملة فى أولها لم يكن علم فيها ولاصناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وانما احكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يؤمئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولادفعوا إليه ولا دعتهم اليه حاجة ، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء ، أى الذين يقرءون الكتاب ، وليسوا أميين لمن أن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة ، بما كانوا عربا ، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء ، إشارة الى هذا ، فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله ، لأنهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح . قال ﷺ : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتتمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى » [٢] .

---

(١) مقدمة (طبعة كترمير Quatremere) س ٢٧٠ - ٢٧٤ .

(٢) متفق عليه .

فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فيما بعد ، احتيج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة اندراسه وضياعه . ثم احتيج الى معرفة الاسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الاسناد ومادونه ، ثم كثر استخراج احكام الوقائع من الكتاب والسنة ، وفسد مع ذلك اللسان ، فاحتيج الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم حضرية ، وبعد العرب عنها وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس .

فكان صاحب صناعة النحو سيبوية (والزجاج) والفارسى (٣٧٧هـ) من بعده والزجاج [١] (٣١١هـ) من بعدهما ، وكلهم عجم فى انسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى (النشأة والتربية) ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم [٢] .

وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ، لاتساع الفن بالعراق ومابعده ، وكان علماء اصول الفقه كلهم عجم كما نعرف ، وكذلك حملة علماء الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الاعاجم فظهر مصداق قوله ﷺ « لو تعلق العلم بأعناق السماء لناله قوم من فارس » [٣] .

وأما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة ، فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية ، وما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام

(١) كذا بالاصل ولعله يريد أن يقول : والزجاج من بعده والفارسى من بعدهما ، لأن الزجاج متقدم على أبى على الفارسى .

(٢) تاريخ الإسلام : جـ٢ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

(٣)

بالعلم والنظر فيه ، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع مايلحقهم من الانفة فى انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع ، والرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع والمهن ومايجرى اليهما ، ودفعوا ذلك الى من قام به من العجم والمولدين [1] ، ومازالوا يرون لهم حق القيام به فإنه دينهم وعلومهم ، ولا يحتقرون حامليها كل الاحتقار حتى إذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بماهم عليه من البعد عن نسبها ، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم ، مشغولون بمالا يجدى عليهم فى الملك والسياسة »[2] .

ويقول الاستاذ نيكلسون [3] « وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها ، أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد بدا ان الناس جميعا من الخليفة الى أقل افراد العامة شأنا ، غدوا فجأة طلابا للعلم أو على الأقل انصارا للأدب ، وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا الى موارد العلم والعرفان ليعودوا الى بلادهم كالنحل يحملون الشهد الى جموع التلاميذ المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل مابذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التى هى أشبه شئ بدوائر المعارف ، والتى كان لها أكبر الفضل فى ايصال هذه العلوم الحديثة الينابصورة لم تكن متوقعة من قبل » [4] .

هذا فى الشرق الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، أما فى الغرب فقد نافست قرطبة بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط ، فأصبحت حاضرة

(١)

(٢) نقلا عن تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٣) Lit Nist of the Arsles , p.281 . نقلا عن نفس المرجع .

(٤) نقلا عن تاريخ الإسلام .. جـ٢ ص ٣٢٢ .

الاندلس سوقا نافقة للعلم وكعبة لرجال الأدب ، حتى جذبت مساجدها الأوربيين الذين وفدوا اليها لارتشاف العلم من مناهلة والتزود من الثقافة الاسلامية ، ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والادباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم [1] .

كان عهد الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ) فترة هدوء سياسى لم يقع فيها من الأحداث السياسية مايستحق الذكر وقد ساعد ذلك الهدوء على خلق نهضة علمية ، ولاسيما فى عهد عبد الرحمن الأوسط الذى يعتبر عهده عهد يسر ورخاء وازدهار ثقافى ، وذلك عن طريق تأثير الشرق الاسلامى فى العصر العباسى [2] .

وكان عبد الرحمن الأوسط نصيرا للعلوم والفنون ، أولع بالفلك والتنجيم وأحاط نفسه بنخبة من علماء الفلك وأدر عليهم الأرزاق والمنح .

وقد بعث فى بداية عهده عباس بن نصيح الي الشرق الإسلامى لينقل اليه الكتب التى استحوذ عليها العباسيون ، وكان هذا الأمير الأموى مولعا بمطالعة كتب الطب والفلسفة القديمة [3] .

وانتقل كثير من التراث اليونانى والفارسى الى قرطبة بفضل جهود عبد الرحمن الأوسط وبذل الحكم المستنصر ، حتى قبل ان يجلس على عرش الخلافة الأموية سنة ٣٥٠ هـ جهودا بعيدة الاثر فى توجيه الدراسة الاندلسية فى ميدان العلوم الطب [4] .

(١) المرجع السابق ص ٣٢٢ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) بروفنسال : الشرق الاسلامى والحضارة العربية (تطوان ١٩٥٠) ص ١٨ ، ١٩ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسى : ٣٢٣/٢ .

تقسيم العلوم لدى المسلمين :

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم وبين العلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم ، ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحيانا علوم العجم أو العلوم القديمة(١) .

وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو واللغة والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والتاريخ أو الجغرافيا (٢) .

وفى العصر العباسى الأول أشتغل الناس بالعلوم الدينية ، وظهر المتكلمون ، وتكلم الناس فى مسألة خلق القرآن ، وتدخل المأمون فى ذلك ، فوجد مجالس للمناظرة بين العلماء فى حضرته ، ولهذا عاب الناس عليه تدخله فى الأمور الدينية ، كما عابوا عليه تفضيله على بن أبى طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وذهب بعض الى ان المأمون اراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلف بين المتناظرين فى المسائل الدينية ، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين ، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التى كانت مصدر ضعفهم ; وكان المأمون يميل الى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتمادا على العقل ، فقرب اتباع هذا المذهب اليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة (٣) .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه .

وفى هذا العصر ظهر نوعان من العلماء : الأول هم الذين يغلب على ثقافتهم النقل والاستيعاب ويسمون أهل علم ، والثانى هم الذين يغلب على ثقافتهم الابتداع والاستنباط ويسمون أهل عقل .

وقد ذكر أبن خلكان (١) أن الخليل بن أحمد اجتمع بأبن المقفع وتحدثا فى شتى المسائل ، فلما افترقا قيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ رأيت رجلا عقله أكثر من علمه .

وليس من شك فى أن ابن المقفع قد غلب على ثقافته النقل والترجمة والتأثر بآراء غيره من العلماء ، على حين قد غلب على ثقافة الخليل الابتكار الذى يتجلى من هذه الحقيقة ، وهى أنه أول من فرع قواعد النحو ، وأول من صنف المعاجم ، وأول من تكلم في علم العروض ، فالأول إذن ذو علم ، والثانى ذوى عقل (٢) .

(١) كتاب وفيات الاعيان جـ١ ص ١٧٣ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسى .. جـ٢ / ٣٢٤ .

مميزات الثقافة الإسلامية

من مميزات الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات الأخرى مايلى :

أ- شخصياتها المتفردة من حيث مصادرها ، ومقوماتها ، وخصائصها ، وأهدافها يدرك كل هذا من يتتبع هذه الثقافة هذا التميز الذى أعطى لثقافة الإسلام عمقا حضاريا أصيلا ، وطابعا انسانيا معتدلا ، ونظرة للوجود شاملة وكاملة .

ب-استفادة هذه الثقافة من التراث الحضارى الذى خلفته الأمم الأخرى فى المجالات العلمية ، حيث ترجمت كتب التراث الاغريقى والفارسى الى اللغة العربية فى عصر العباسيين ، لكن المسلمين لم يتوقفوا عند مرحلة الترجمة ، بل اضافوا الجديد من فكرهم وانتاجهم الى هذا التراث الحضارى ، فصححوا كثيرا من النظريات وعدلوا كثيرا من الآراء ، حتى استطاعوا ان ينتزعوا من مؤرخى الغرب اعترافا بعظمة التراث الإسلامى ، وبتميز ثقافته ودورها الكبير فى الحضار المعاصرة .

جـ- إنها .. استطاعت ان تؤثر تأثيرا فى جميع الشعوب حتى التى لم تخضع للدولة الإسلامية - كما سيأتى بيانه - بل إن الثقافة الإسلامية قد غطت على الثقافات الاصلية للشعوب التى انتشرت فوق ربوعها راية الإسلام ، ومن أعجب العجب أن يتم هذا التحول الفكرى العظيم بدون إكراه أو اجبار ، ومن ثم نجد كثيرا من المستشرقين يأخذهم العجب ، وتعقد السنتهم الدهشة حين يجدون أن ماعجز عنه الاغارقة والفرس والرومان عندما خضع لهم الشرق ، قد قدر عليه المسلمون (١) .

(١) مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٦٥ ، ٦٦ بتصرف .

د- من أقوال مؤرخي الغرب ماجاء على لسان الدكتور « غوستاف لوبون » عن هذه الظاهرة قوله : « ومن ذلك أن مصر التى كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم اذعانا للمؤثرات الأجنبية نسيت فى أقل من قرن واحد مر على افتتاح « عمرو بن العاص » لها ماضى حضارتها الذى دام نحو سبعة الاف سنة معتنقة دينا جديدا ولغة جديدة وفنا جديدا اعتناقا متينا دام بعد توارى الأمة التى حملتها عليه » .

ثم يقول :

« ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، وذلك أن جميع الأمم التى اتصل العرب بها اعتنقت حضارتهم ، ولو حينا من الزمن ، وأن العرب لما غابوا عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم كالترك والمغول .. تقاليدهم ، وبدوا للعالم ناشرين لنفوذهم .. أجل .. ماتت حضارة العرب منذ قرون ، ولكن العالم لا يعرف اليوم غير دين اتباع النبى ، ولغتهم فى البلاد الممتدة من المحيط الأطلنطى إلى السند ، ومن البحر المتوسط الى الصحراء »[1] .

هـ- إن الحضارة الإسلامية بفضل مصدرها الإلهى ، ومقوماتها الفكرية ، ونزعتها الانسانية ، وشمولها الثقافى وحيويتها النابضة ، ومنهجها العلمى ، قد استطاعت ان تمثل الأمل الذى كانت الشعوب تتطلع اليه ، ومن ثم ارتضت الشعوب المختلفة ذات الحضارات المتباينة أن تتخلى عن ثقافتها الأصلية وعقائدها السابقة ، وتدخل فى الاسلام فتكون عقيدته لها دينا ، وتكون تعاليمه لها شريعة ، وتكون لغة القرآن هى الغالبة على لغتها الاصلية .

واذا كان المسلمون قد نقلوا وترجموا كثيرا من التراث العلمى للأمم الأخرى كاليونان والفرس ، فإنهم لم يلبثوا أن اعتمدوا على انفسهم وعلى المناهج العلمية

(١) حضارة العرب ص ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

التى ابتكروها ، فافتتحوا المدارس والمعاهد والجامعات ، وألفوا الكتب والمراجع والابحاث ، وأقاموا المراصد والمشافى والمختبرات ، يدفعهم الى ذلك نشاط وثاب وهمة عالية ، لفتت الانظار اليهم ، وانتزعت الاعجاب بهم حتى لهج اعداؤهم بالاعتراف لهم بالفضل والسبق .

و- دأب بعض المؤرخين من المستشرقين الذين راعهم ماحققته الحضارة الإسلامية من اكتشافات علمية ، وابتكارات ومخترعات ، وما لقيته مؤلفاتهم من اهتمام لدى العلماء والمفكرين ، فطفقوا يوجهون النقد لمعالم الحضارة الإسلامية ، فلما لم يجدوا اذانا صاغية لهذا النقد الحاقد وجهوا اهتمامهم لتشويه معالم هذه الحضارة ، والتقليل من أهميتها عن طريق تضخيم الاثار التى تركتها الحضارات اليونانية والرومانية فى الحضارة الإسلامية ، لكنها ظلت محصورة فى حدود العقلية الحاقدة التى تخفى الحقيقة .

والى هذه الظاهرة اشار الاستاذ عادل زعيتر فى مقدمته التى قدم بها ترجمته لكتاب الدكتور غوستاف لوبون عن « حضارة العرب »(١) .

فقال : « كان من نتائج اضطراب الشرق والغرب منذ قرون مضت ، والقاء العرب الرعب فى قلوب الأوروبيين يشعرون بمذلة الخضوع للحضارة العربية التى لم يتحرروا من سلطانها الا منذ زمن قريب ، فأخذوا ينكرون فضل العرب على أوروبا وتمدينهم لها ، وأصبح هذا الانكار من تقاليد مؤرخى أوربا وكتابها الذين لم يقروا لغير اليونان والرومان بتمدينها ، وقد ساعدهم على هذا ماعليه العرب والمسلمون من التأخر فى الزمن الأخير فلم يشاؤا ان يروا للعرب رقيا تاريخيا أعظم مما هم عليه الان ، غير ناظرين إلى ان نجم حضارة العرب أفل منذ أجيال وانه لا يصح اتخاذ الحال دليلا على الماضى » .

(١) المرجع السابق ص ٥٦٤ .

مما سبق يتضح لنا أثر الإسلام الواضح فى بلاد العرب ، وأثر الدين في الانسان والثقافة ، وأن الحركة العلمية أخذت دورا هاما فى أمة الإسلام زمن الرسول ﷺ ، وفى الأزمنة التى جاءت بعده ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعيش فى القرون الوسطى (١) .

أما فى الإسلام فلم تقتصر الثقافة الإسلامية على المتعلق بالدراسات الشرعية فحسب ، وإنما جمعت بينها وبين جوانب أخرى تتعلق بالادب واللغة والفلسفة والتاريخ بالاضافة إلى الدراسات الاخرى المتعلقة بالفلك والرياضيات والطب والكيمياء.

لقد نشأت الحركة العلمية فى صدر الإسلام، وابتدأت منذ عصر الرسول ﷺ، ثم اتسع نطاقها فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وزاد نماؤها فى عصر الأمويين ، ثم تفجرت هذه الحركة بشكل كبير وواضح فى العصر العباسى ، وكانت المناظرات تقام فى أدق المسائل العلمية ، فالمساجد مليئة بالحلقات العلمية ، والمكتبات زاخرة بأمهات الكتب العربية والفارسية والهندية واليونانية ، ومجالس الخلفاء والوزراء حافلة بالعلماء والفلاسفة والأدباء ، وكل فرد يحس بأثر هذه النهضة العلمية الثقافية ، فأينما يممت وجهك ترى فى كل مكان يعج برجال العلم والأدب والفلسفة (٢) مما يدل دلالة واضحة ان الإسلام لايعادى العلم مطلقا كما يدعى المرجفون فى مقالتهم .

وثمة أكذوبة مصطنعة قد تكلفها الماديون الملاحدة ، أو العلمانيون الكذبة ، أو الموتورون والجهلة بين الدين أو العلم فقالوا : بوجوب الخيار فإما الدين وإما العلم !

---

(١) راجع ص ٧٧ عند تقسيم التاريخ الانسانى من هذا البحث .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٣٧ .

ذلك اختيار فاسد بكل المقاييس حقا ، ولاجرم أن هذا التفكير يبرهن على حقيقة الجهل المطبق الذى يركب مثل هذه الروؤس الفارغة التى لاتفهم عن الإسلام ومفاهيمه شيئا (١) .

إنه لا تخيير للمسلم بين الدين والعلم ، فإن مفهوم دين الإسلام كبير شامل يندرج فيه كل معانى الخير في هذه الحياة ومن جملتها العلم ، وعلى ذلك فإن أى تخيير من هذا القبيل لا يستند الى أساس صحيح ، فأى تخيير هذا الذى يكون بين الإسلام من جهة ، وبين اجزائه من جهة أخرى ؟ إن الإسلام يعتبر السعى لطلب العلم عبادة ان كان يبتغى به وجه الله تعالى (٢) .

أى تخيير للإنسان بين الإسلام والعلم مع أن المسلم يدرك تماما أنه بمزوالته للتعلم والتعليم إنما يمارس حقيقة من حقائق العبادة ، أو سببا من أسباب التقرب الى الله عز وجل .

وأكذوبة الاختيار بين العلم والدين إذا ما أمكن تحققها فى أديان أخرى قد خالطها التشويه أو التحريف ، أو هما معا ، فإنه من التعسف الجائر الصادق هذه الاكذوبة بالإسلام وهو دين العلم (٣) .

لقد ساهم المسلمون فى نشر الإسلام فى أرجاء العالم المعمور ، وكانوا سببا للتقدم والحضارة كما يقول الدكتور فيليب حتى :

ففى « خلال القسم الأول من القرون الوسطى لم يساهم أى شعب من شعوب الأرض بقدر ماسهم به المسلمون فى التقدم البشرى ، وظلت اللغة العربية لغة العلوم

(١) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية ص ٢٥ د/ أمير عبد العزيز .

(٢) انظر المرجع نفسه .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٦ .

والآداب والتقدم الفكرى لمدة قرون فى جميع انحاء العالم المتمدن أنذاك ، وكان من اثارها ايضا أنه فيما بين القرن التاسع ، والثانى عشر الميلادى (الثالث والسادس الهجرى) فاق ماكتب بالعربية عن الفلسفة ، والطب ، والتاريخ ، والألهيات ، والفلك والجغرافيا كل ماكتب بأى لسان آخر [1] » .

لقد كان اهتمام المسلمين جادا وصادقا بالعلوم الدينية والشرعية ، منذ صدر الإسلام الأول فقد عكف العلماء المسلمون على دراسة القرآن الكريم ، واستنباط الاحكام التى اشتمل عليها ، سواء ماتعلق منها بالعقيدة ، أو القصص أو التشريع ، ويعود سبب ذلك الى ان صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا يمثلون نواة الحركة العلمية قد انتقلوا من المدينة ، وتفرقوا فى الامصار ، والتف حولهم الناس يستفيدون من علمهم بالقرآن ، وتفسيرهم لأياته ، وبيانهم لأحكامه [2] .

وكان من ورائهم من التابعين يمثلون الطبقة الأولى من العلماء الذين ظهروا فى الامصار الاسلامية ، فكونوا مدارس فكرية ، واتجاهات علمية ، ومن أشهر هؤلاء :

سعيد بن المسيب ، وعلقمة ، وشريح ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسين بن يسار ، ومكحول بن عبد الله ، وعطاء بن رباح ، وقد تلقى هؤلاء العلم عن كبار الصحابة من أمثال : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، ثم نقلوا العلم إلى تلاميذهم من بعدهم [3] ، وهم أتباع التابعين .

ومن ثم بدأ النمو والانتشار فى كل جانب من الجوانب العلمية المختلفة ، وبالرغم من ارتباط العلوم المختلفة ببعضها، فإننا نلاحظ تقسيم العمل التخصصى ،

(١) نقلا عن معالم الثقافة الإسلامية ص ٢٩٤ .
(٢) انظر مبادئ الثقافة الاسلامية ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) انظر المرجع نفسه .

فبعض العلماء يشتغل بالتفسير : يجمع الروايات المروية عن رسول الله ﷺ ، والصحابة الكرام .

وآخر : يعكف على خدمة السنة : يرحل لأجلها ، ويجمعها من رواتها ، ويدقق فى اسانيدها وثالث : يتخصص فى الاحكام الفقهية ، ومايرتبط بها من قواعد وأصول ، ورابع تستهويه الناحية التاريخية ، فيدون سيرة الرسول ﷺ ، وسيرة خلفائه من بعده ، ويسرد أخبارهم ، واخبار الدولة الإسلامية فى عهدهم .

كذلك استطاع المسلمون ان يخوضوا فى جانب آخر كان مقصورا على الاغريق ، واليونان ألا وهو الجانب الفلسفى ، فسبروا غوره ، وردوا على الفلاسفة الغربيين ونقدوهم ، بل كفروهم بما سطروه بأيديهم فى كتبهم ، حتى تفوقوا عليهم ، بما حققوه من انصاف الحق والحقيقة وهذا الجانب الذى كان يمثله علماء الكلام .

كذلك نجد فى بداية العصر العباسى : ازدهار جوانب علمية جديدة كالترجمة بالاضافة الى ازدهار علوم أخرى جديدة : كعلم الفلك ، والطب ، والكيمياء ، حتى صارت بغداد فى عصر الخليفة المأمون خلية حية يزدحم فيها العلماء ، ويملؤون رحابها علما ومعرفة (١) .

الميادين الرئيسية للثقافة الإسلامية :

الأول : العلوم الدينية : تمثل هذه العلوم الميدان الهام الذى انصرف اليه العلماء نظرا للصلة الوثيقة بينه وبين القرآن ، لأنه أخذ المقام الأول في صدور ونفوس المسلمين فهو مصدر هدايتهم وتشريعهم ، وهو الذى يرتكز الإسلام عليه كما أنه دليل دعوتهم وحجة عقيدتهم الى الناس أجمعين .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٣٨ ، ٣٩ .

وهذه العلوم الدينية تنقسم الى :

أ- البحوث المتعلقة بالقرآن الكريم :

وقد تناولت هذه الدراسات القرآن من ناحية جمعه ، وأسباب نزوله ، وكيفية هذا النزول ، والوحى والاعجاز ، ويطلق على هذه الدراسات اسم : « علوم القرآن» .

كما تناولت هذه الدراسات النص القرآنى من جانب تفسيره ، وبيانه ، واستخراج الاحكام منه ، وهو مايطلق عليه « علم التفسير » .. وكل مفسر تناول القرآن من زاوية معينة ، وظهرت المؤلفات الكبيرة والمختصرة حول النص القرآنى الكريم ، فمنها من تناوله من جانب التفسير بالمأثور ، ومنها من تناول من زاوية فقهية، ومنها من تناوله من زاوية لغوية وبلاغية (١) .

ب- البحوث المتعلقة بالسنة الشريفة :

من حيث المروى عن الرسول الكريم من : الصحابة ، والتابعين ، ومن جاء من بعدهم ، ويرجع اهتمام هذه البحوث للسنة لأن الحديث يمثل المصدر الثانى للتشريع الإسلامى ، فالسنة مبينة وموضحة ومفسرة للقرآن الكريم الدليل :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانُزِّل اليهم » (٢) .

« وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (٣) .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٤) .

(١) المرجع نفسه : ٣٩ ، ٤٠ بتصرف واختصار .
(٢) النحل : ٤٤ .
(٣) الحشر : ٧ .
(٤) النساء : ٨٠ .

فالقرآن الكريم فى آياته المتعلقة بالاحكام لم يتعرض لجميع المسائل بالتفصيل ، ولكنه قد جاء على نحو من الايجاز الرائع مجانبة للتطويل الذى يشق معه حفظه وفهمه ، فكان بيانه للأحكام شاملا بحيث يرسم فى التشريع مبادئه الكبيرة العامة التى تتسم باليسر والشمول ، وهو فى ذلك كله قد جاء على أروع وأرصن وأعذب مايكون عليه الكلام من روعة الصياغة ومتانة الحبك والعبارة وعذوبة الكلمة والمقطع ، وبأسلوب باهر فذ تظله الشفافية ، ويجليه الاشراق ، فلا يمله سامع متدبر ولا يسأمه قارئ متبصر (١) .

وبما أن القرآن على هذه الشاكلة من الايجاز ، والاطلاق والعموم ، والاجمال ، فإن السنة تنبرى له بالتوضيح والبيان ، فتوضح مجمله ، وتفسر مبهمه ، كما تقيد بعض مافيه من إطلاق ، أو تخصص بعض ماجاء فيه من عموم .

وتأتى أهمية السنة فى انها خير مفسر ، وكاشف للقرآن بعد القرآن نفسه وهى الاجدر أن تكون الموضحة المبينة فى هذا المجال الذى كلف به النبى ﷺ (٢) .

وبعد هذا البيان الموجز يمكن القول أن القرآن لا يستغنى عن السنة ، لأن المسلمين لا يستطيعون الوقوف على معانى القرآن ومقاصده تماما بغير السنة الموضحة المفسرة .. فهى بذلك تبيان كاشف لأحكامه ومقاصده مما يعز على التفكير والاستنباط ، ذلك كبيان السنة للصلوات على اختلافها فى مواقيتها وركوعها وسجودها ، وكذلك بيانها للزكاة فى مقاديرها وأوقاتها ، ونصابها وتعيين ما يزكى منها ومالا يزكى وبيان أحكام الصوم مما لا يقع عليه نص فى القرآن ، وهى كذلك بيان لأحكام الطهارة والنجاسة حقيقة كانت أو معنوية ، وكذلك بيان لفريضة الحج

(١) انظر دراسات فى الثقافة الاسلامية مدخل الى الدين الاسلامى ص ٣٣ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٤ .

فى احكامه وتفصيلاته ، وبيان لاحكام الذبائح والصيد ، ومايؤكل ومالا يؤكل ، وكذلك أحكام الانكحة ، وانحلال الزواج كالطلاق والظهار واللعان ، وكذلك أحكام البيوع والجنايات كالقصاص والجروح ، [1] .

القرآن لايغنى عن السنة :

ولهذا جاء تشديد الرسول ﷺ فى النكير على أولئك الذين يزعمون أن القرآن يغنى عن السنة ، وأنه يجب الوقوف عند آياته فقط ، وأنه لا حاجة بنا إلى السنة ، وفى هذا جناية على القرآن والسنة معا ، فمن دعا الى ترك السنة اعتمادا على القرآن وكفى فإنه يلغى القرآن تدريجيا ، إذ كيف يفسر قول الله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » [2] .

« وما أتكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » [3] .

وقال ﷺ « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنى ، وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلال أستحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وأن ماحرم رسول الله ﷺ كما حرم الله » [4] .

وعنه ﷺ قوله : « ألا أنى أوتيت الكتاب ومثله معه » [5] .

يعنى بذلك السنة ، وفى حديث آخر أن النبى ﷺ قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على اريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندرى

(١) راجع كتاب الموافقات فى أصول الشريعة للإمام الشاطبى جـ٤ ص ٢٦ .

(٢) النحل : ٤٤ .

(٣) الحشر : ٧ .

(٤) أخرجه الترمذى : ١٠ / ١٣٣ .

(٥) أخرجه ابو داود فى سننه : ٤ / ٣٢٨ .

ماوجدنا فى كتاب الله اتبعناه »[1] .

وقد روى عن الصحابى الجليل عمران بن حصين أنه قال لرجل : إنك أمرؤ أحمق ؟ فى كتاب الله الظهر أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله مفسرا ؟ إن كتاب الله أبهم هذا وإن السنة تفسر ذلك[2] .

وقال الإمام أحمد رضى الله عنه : « إن السنة تفسر الكتاب وتبينه »[3] .

أولاً : تدوين السنة :

ومما تجدر الاشارة اليه ان علم الحديث لم يكن فى بداية أمره علما مستقلا متكاملا ، وإنما كان الناس يتناقلون الروايات المروية عن رسول الله ﷺ فى معرض بيانهم للقرآن ، أو فى معرض استدلالهم على حكم من الاحكام الشرعية[4] .

ولم يدون الحديث بشكل رسمى إلا فى بداية القرن الهجرى الثانى ، عندما أمر الخليفة الراشد « عمر بن عبد العزيز » وهو من التابعين بتدوين السنة إذ أرسل الى أبى بكربن حزم عامله وقاضيه على المدينة « انظر ماكان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء » وطلب منه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الانصارية (٩٨هـ) والقاسم بن محمد بن ابى بكر (١٠٦هـ) كما ارسل الى ولاة الامصار كلها ، وكبار علمائها يطلب منهم مثل هذا ، فقد أخرج أبو نعيم فى تاريخ اصبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب الى أهل الآفاق : انظروا

(١) سنن أبى داود : ٤/٣٢٩ .
(٢) الموافقات للإمام الشاطبى : ٤/٢٦ .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٤١ .

الى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه ، وبذلك نفذ عمر رغبة جده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، التى جاشت فى نفسه مدة من عدل عنها خوفا من ان تلتبس بالقرآن ، أو يصرف الناس اليها ..أما من دون ما عنده من الاحاديث فهو العلم الخفاق من اعلام السنة فى عصره فهو الامام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (١٢٤هـ) ، والذى كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن يذهبوا اليه لأنه لم يبق أحد أعلم بالسنة منه ، والذى ذكر الامام مسلم أن له تسعين حديثا لايرويها غيره ، وذكر كثير من أئمه العلم فى عصره أنه لولا أن الله سبحانه قيض الزهرى لضاعت كثير من السنن (١) ..

ثم شاع التدوين فى الجيل الذى يلى جيل الزهرى ، وكان أول من جمعه بمكة ابن جريج (-١٥٠هـ) وابن اسحاق (-١٥١هـ) وبالمدينة سعيد بن أبى عروبة (-١٥٦هـ) والربيع بن صبيح (-١٦٠هـ) والامام مالك (-١٧٩هـ) وبالبصرة حماد بن سلمة (-١٦٧هـ) وبالكوفة سفيان الثورى (-١٦١هـ) وبالشام أبو عمر الأوزاعى (-١٥٧هـ) وبواسط هشيم (-١٧٣هـ) وبخراسان عبد الله بن المبارك (-١٨١هـ) وباليمن معمر (-١٥٤هـ) وبالرى جرير بن عبد الحميد (-١٨٨هـ) وكذلك فعل سفيان بن عيينة (-١٩٨هـ) والليث بن سعد (-١٧٥هـ) وشعبة بن الحجاج (-١٦٠هـ) ، وهؤلاء جميعا كانوا فى عصر واحد ولايدرى أيهم سبق الى ذلك (٢) .

ثم جاء القرن الثالث ، فكان أزهى عصور السنة وأسعدها بأئمة الحديث ، وتآليفهم العظيمة الخالدة .. نذكر من هؤلاء الأئمة الذى أزدهى بهم هذا العصر .

---

(١) راجع للدكتور مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٠٤ ط الثانية ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠ م .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٥ .

عبد الله بن موسى العبسى الكوفى ، ومسدد البصرى ، وأسد بن موسى ، ونعيم بن حماد الخزاعى ، وكان التأليف على طريقة المسانيد ، وهو جمع مايروى عن الصحابى فى باب واحد رغم تعدد الموضوع .

ثم اقتفى أثرهم الحفاظ فصنف الامام احمد مصنفه المشهور .

وكذلك فعل اسحاق بن راهوية ، وعثمان بن أبى شيبة وغيره ، أما إمام المحدثين ودرة السنة فى عصره محمد بن اسماعيل البخارى (-٢٥٦هـ) فقد نحا منحى جديدا فى التأليف ، فاقتصر على الحديث الصحيح فقط دون ماعداه .. وتبعه فى طريقته معاصره وتلميذه الامام مسلم بن الحجاج القشيرى (-٢٦١هـ) فألف صحيحه المشهور ، وكان لهما فضل تمهيد الطريق أمام طالب الحديث ليصل الى الصحيح من غير بحث وسؤال ، وتبعهما بعد ذلك كثيرون فى التأليف من أهمهما :

سنن أبى داود (-٢٧٥هـ) والنسائى (-٣٠٣هـ) وجامع الترمذى (-٢٧٩هـ) وسنن ابن ماجة (-٢٧٣هـ) وقد جمع هؤلاء الأئمة فى مصنفاتهم كل مصنفات الأئمة السابقين ، إذ كانوا يروونها عنهم كما هى عادة المحدثين .

ثم جاء القرن الرابع ، فلم يزد رجاله على رجال القرن الثالث شيئا جديدا إلا قليلا ، ومن أشهر الأئمة فى هذا العصر :

الإمام سليمان بن أحمد الطبرانى (-٣٦٠هـ) ألف معاجمه الثلاثة :

أ- الكبير وهو مشتمل على خمسمائة وخمسة وعشرين الف حديث ، ذكر فيه الأحاديث بجمع مارواه كل صحابى على حدة ، ورتب فيه الصحابة على الحروف .

ب- الأوسط .

جـ- والاصغر ، ذكر فيهما الاحاديث بجمع مارواه كل شيخ من شيوخه على حدة ، ورتب فيهما شيوخه على الحروف أيضاً .

ومنهم الدار قطنى (–٣٨٥هـ) الف سننة المشهورة .

وابن حبان البستى (–٣٥٤هـ) وابن خزيمة (–٣١١هـ) والطحاوى[١] (–٣٢١هـ) . بهذا تم تدوين السنة وجمعها وتمييز صحيحها من غيره ، وهكذا قيض الله سبحانه لحديث رسول الله ﷺ الخلود ، لتظل السنة المصدر الثانى للتشريع .

ثانيا : علم مصطلح الحديث :

وبعد جهود عظيمة استطاع علماء الحديث ان يضعوا قواعد علم جديد سمى بعلم : « مصطلح الحديث » أو علم « أصول الحديث » أو « علم الرواية والرجال » [٢] وكان هذا من ثمار الحركة المباركة ، أن دونت القواعد الدقيقة التى وضعها العلماء أثناء حركة التدوين لمقاومة الوضع .

ثالثا : علم الجرح والتعديل :

أو علم ميزان الرجال ، وهو علم يبحث فيه عن أحوال الرواة ، وأمانتهم وثقتهم وعدالتهم ، وضبطهم ، أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أونسيان [٣] وهذا العلم لايعرف له مثيلا فى تاريخ الأمم الأخرى [٤] .

رابعاً : علوم الحديث : وتشمل سبعة وعشرون نوعا من العلوم [٥] .

خامسا : كتب فى الموضوعات والوضاعين [٦] .

---

(١) راجع السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٠٥ – ١٠٧ .

(٢) مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٤١ .

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع ص ١٠٩ ، أنظر نفس المرجع من ص ١١٣ – ١٢٠ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٠٩ .

(٦) المرجع نفسه من ص ١٢٠ – ١٢٣ .

جـ- البحوث المتعلقة بالتشريع :

يطلق عليها اسم « الفقه الاسلامى » وقد لقى هذا الجانب عناية فائقة من العلماء ، لأن الجانب التشريعى تناول الاحكام التى تنظم حياة الفرد والاسرة والمجتمع والدولة فى علاقاتهما الخاصة أو العامة ..

وقد ابتدأ الاهتمام بالجانب التشريعى بعد هجرة الرسول الكريم ﷺ الى المدينة حيث توافر المجتمع الإسلامى بكل مقوماته ، وفى المدينة ابتدأ نزول آيات الاحكام فى مجال الاسرة ، أو العلاقات المدنية ، أو العقوبات ، أو التنظيم المالى والسياسى ، أو القواعد الدولية التى تطبق فى حالتى السلم والحرب (١) .

ولقد ازدهرت البحوث الفقهية أيما ازدهار خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام الحنيف بفضل الاجتهاد الذى أولاه الفقهاء كل اهتمام ، فانبثق عنه علم جديد سمى : « بعلم أصول الفقه » وكانت مهمة هذا العلم هى ضبط القواعد التي ينبغى أن يسير عليها المجتهد ، لئلا يكون اجتهاده خاضعا للهوى ، فيضل الطريق والهدف معا ، وقد وضع الامام الشافعى المبادئ الاساسية لهذا العلم فى كتابه « الرسالة » .

ثم تطور هذا العلم ، ونما بعد ذلك حتى عد علما متكامل الاركان ، ثابت البنيان ، لابد لكل فقيه من ان يلم به ويعرف قواعده (٢) .

د- البحوث المتعلقة بالعقيدة :

حرص القرآن الكريم على تصحيح عقيدة الانسان ، وذلك عن طريق تحرير

(١) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٤٣ .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٤٣ .

العقل البشرى من رق التقليد والشرك والعقائد الباطلة [1] .... نعم لقد جاء القرآن لانتشال البشر من الضلال والضياع ، وأوضار الشرك والوثنية والظلام الى التوحيد الخالص المصفى ، والى عبادة الله سبحانه وحده دون سواه ، جاء ليسعد به الانسان، وليظل مرتاحا مطمئنا قرير العين على هذه الارض ، ولينجو من سخط الله وغضبه وعذابه يوم يقوم الاشهاد .. ويوم يقوم الناس لرب العالمين .. إن ماحققه الكتاب العزيز ، هذه التربية الاسلامية التى فعلت فعلها فى تهذيب النفس البشرية ، وفى تقويم السلوك لكى يستقيم ، وفى تنمية الاصالة الفطرية ومنها العقيدة [2] ، لينشأ قويا فى شتى المجالات والميادين .. والقرآن الكريم هو الأصل الاصيل الذى تدور فى فلكه تعاليم الإسلام سواء في ذلك الفروع والتفصيلات المستنبطة من آياته الشاملة ، أو المفاهيم والقيم والاخلاق على اختلاف اشكالها ومناحيها .. انه الينبوع الذى يسكب الخير والحق على الواقع كل ، وعلى الحياة كلها [3] .

العقيدة الصحيحة تتمثل فى التوحيد الخالص المصفى :

والتوحيد عند السلف نوعان :

الأول توحيد الربوبية ، وهو الاعتقاد الجازم بأن رب العالم وخالقه واحد وليس اثنين ، وهو الرب سبحانه الذى جبلت الفطر السليمة على الاقرار به والخضوع له والايمان بما له من الاسماء والصفات داخل في توحيد الربوبية .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) من (عقد) الحبل والبيع يعقده عقدا : أحكمه وشده ، وعقد الكلام عماه ، والعقود : من الاعداد أولها العشرة ، وآخرها التسعون والعقد : القلاد ، والعقيدة : ماعقد عليه القلب ، والمعتقد : مصدر ميمى بمعنى الاعتقاد ، ومايعتقده الانسان من أمور الدين ، دائرة المعارف القرن العشرين محمد فريد وجدى رحمه الله تعالى مادة : عقد .

(٣) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية : مدخل الى الدين الإسلامى ص ٣١ - ٣٣ .

الاخر : توحيد الألوهية ، ومعناه : أن يعبد الله وحده لايشرك بعبادته أحد من خلقه وبهذا النوع يتحقق معنى كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله »(١) .

وهذا النوع من التوحيد هو أسُّ العقيدة ، وهو دعوة كل رسول الى قومه من لدن آدم عليه السلام الى محمد ﷺ ، ومن أجل هذا التوحيد خلق الله الخلق ، وجعل الجنة والنار ، وفرق الناس الى شقى وسعيد ، ولا يقبل إيمان المرء إلا بالإقرار به قولا وعملا ، وهو يتضمن توحيد الربوبية (٢) .

وقد عنى القرآن بتقرير هذا النوع من التوحيد ، والبرهنة عليه بالادلة العقلية والبراهين الصحيحة ، مثل قول الله تعالى :

« أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون » (٣) .

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون » (٤) .

« أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزراعون » (٥)

« وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » (٦) .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للإمام القاضى على بن محمد بن أبى العز الدمشقى تحقيق وتعليق وتخريج وتقديم الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى ، شعيب الارنؤوط ، ص ٢١ مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الطور : ٣٥ .

(٤) الواقعة : ٥٧ .

(٥) الواقعة : ٦٣ . ٦٤ .

(٦) الزخرف : ٨٤ .

« ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض »(١) .

« وقال الله لاتتخذوا إلهين أثنين إنما هو إله واحد »(٢) .

لأن الشرك الذى وقع فى جميع الأمم كان فى هذا النوع ، فإن عامة مشركى الأمم كانوا مقرين بربوبيته سبحانه ، ولكنهم مع إقرارهم بربوبيته قد اشركوا بعبادته غيره (٣) ، ومشركوا العرب كانوا يؤمنون بالله سبحانه ، ولكنهم اشركوا بإيمانهم غيره الدليل :

« ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »(٤) .

إن منهج القرآن فى العقيدة يقوم على توجيه نظر الإنسان الى العوالم الحية المشاهدة التى تحيط به ، لينتقل بعد ذلك الي التفكير فيها ، والتأمل فى عظمتها ، ومن ثم يطرح القرآن أمام الانسان هذا التساؤل : « أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون »(٥) .

« أفرأيتم ماتحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون »(٦) .

---

(١) المؤمنون : ٩١ .
(٢) النحل : ٥١ .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢ .
(٤) الزمر : ٣ .
(٥) الطور : ٣٥ .
(٦) الواقعة : ٦٣ ، ٦٤ .

تؤدى العقيدة دورا بارزا فى تكوين شخصية الانسان ، فتدفعه إلى انواع من السلوك بقوة وعزم وتصميم ، نظرا لسطانها على عقل الانسان وإرادته ، وتطلق كلمة العقيدة على التصديق الناشئ عن إدراك شعورى ، أولا شعورى يقهر صاحبه على الاذعان لقضية ما ، لافرق فى ذلك بين ماكان راجعا الى وهم وظن ، أو ما كان راجعا الى دليل عقلى ، وهذا تعريف عام (١) .

---

(١) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ١٠٠ ، ويقول الشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى ملخصا عقائد الإسلام الاساسية فيما يلى :-

أولاً : وجود الله سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، وتفرده بالخلق ، والتدبير والتصرف ، وتنزهه عن المشاركة فى العزة والسلطان ، والمماثلة فى الذات والصفات وتفرده باستحقاق العبادة والتقديس ، والاتجاه اليه بالاستعانة والخضوع ، فلا خالق غيره ، ولا مدبر غيره ، ولا يماثله مما سواه شئ ، ولايشاركه فى سلطانه وعزته شئ ، ولا تخضع القلوب وتتجه الى شئ سواه :

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . سورة الأخلاص .

« قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من اسلم ولا تكونن من المشركين » . الانعام : ١٤ .

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ؟ » الانعام : ١٦٣- ١٦٥ .

ثانيا : إن الله سبحانه يصطفى من عباده من يشاء ويحمله رسالته - عن طريق ملائكته ووحيه الى خلقه - ثم يبعثه اليهم رسولا يبلغهم ، ويدعوهم الى الإيمان والعمل الصالح ومن هنا وجب الإيمان بجميع رسله الذين قصهم علينا من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ .

ثالثا : الايمان بالملائكة وهم « سفراء الله بين الله ورسله » وبالكتب « رسالات الله الى خلقه » .

رابعاً : الايمان بما تضمنته هذه الرسالات من يوم البعث والجزاء « الدار الآخرة » ومن أصول الشرائع والنظم التى ارتضاها الله لعبادة ، مما يناسب استعدادهم ، وتقضى به مصالحهم ، على الوجه الذى يكونن به مظهر حقا لعدله ورحمته ، وجلاله وحكمته ، راجع الإسلام : عقيدة وشريعة ص ١٧ ، ١٨ .

أما الخاص فيعرف عند الفلاسفة المسلمين والغربيين و وكل منهم يتكلم عن العقيدة حسب ما لديه من فهم للدين الذى يتولد عن مايعتقده

مفهوم العقيدة عند علماء الغرب :

عرفها الفيلسوف الفرنسى الشهير : غوستاف لوبون فى كتابه « الآراء والمعتقدات » بأنها : « إيمان ناشئ عن مصدر لا شعورى يكره الانسان على التصديق بقضية من القضايا من غير دليل » .

والمؤلف هنا يفرق بين العقيدة والمعرفة ، فالعقيدة فى رأيه إلهام لا شعورى ينشء بغير إرادة الانسان لأسباب خارجية ، خلاف العلم والمعرفة فإنه شعور عقلى ينشأ عن التأمل والتفكير .

وأحيانا تنشأ العقيدة فى النفس بدون دليل ، وبدون إرادة ، ثم يستعين الانسان بعقله على تأكيد صحتها بالاستدلال المنطقى والدليل العقلى ، وفى هذه الحالة تنتقل العقيدة من حالتها الطبيعية التي لاتعتمد على دليل الى عقيدة عقلية مستندة الى دليل (١) .

عوامل تكوين العقيدة لدى الأفراد والجماعات :

قال غوستاف لوبون : هناك عوامل تساهم فى تكوين العقيدة لدى الجماعات منها : .

أ- طبيعة الشعوب : وماتتميز به من طبائع وغرائز ، وتقاليد ، ومايتنقل الي الأمة من مشاعر وأفكار ، بالاضافة الى النظم الاجتماعية والسياسية المطبقة في مجتمع من المجتمعات ، وطبيعة التوجيه التربوى ، الذى تفرضه الانظمة

(٢) انظر لمحات فى وسائل التربية الإسلامية للدكتور محمد أمين المصرى ص ٨٦ ، طبع دار الكفر دمشق .

السياسية على ذلك المجتمع ، أما عوامل تكوين العقيدة لدى الافراد فتتمثل في :-

ب- الاخلاق الموروثة والمكتسبة ، والمثل العليا لهؤلاء الأفراد ، والمنافع والحاجات.

جـ- العوامل الخارجية المتمثلة في التلقين الناشئ عن تأثير المجتمع والبيئة ، والتوجيه الرسمي والفكري ، المتمثل في الكتب المنشورة ، والصحف ، والمجلات ، وغير ذلك من أسباب تساهم مساهمة فعالة في توجيه الاجيال المقبلة ، وتحدد لها منهجا في العقيدة والسلوك .

خصائص العقيدة عند « غوستاف لوبون »

أ- إنها غذاء ضروري لحياة الإنسان ولاستمراره في هذه الحياة ، والانسان يحتاج اليها كما يحتاج الى الطعام والشراب ، وإذا كان الطعام يمثل الغذاء المادي لجسم الانسان فإن العقيدة تمثل الغذاء الروحي والفكري الذي يحتاج اليه الكائن البشري ، لأنها تحقق له الهدوء النفسي والاستقرار الداخلي .

ب- إذا ضعفت العقيدة عند أحد الافراد ، فإنه يسعى نحو عقيدة جديدة تحل مكان الأولى فتحقق لهم ذلك الاشباع النفسي والفراغ الفكري .

جـ- إنها تملك قوة وسلطانا على الفكر والإرادة لدى الانسان فتدفعه نحو أنواع من السلوك الذي يتلاءم مع مقتضيات تلك العقيدة ، وكلما زاد إيمان الانسان بعقيدته ازداد اثر هذه العقيدة في سلوكه وتصرفاته وأعماله ، وكثيرا ما تدفعه الى كثير من الافعال الكبيرة والخطيرة تلبية لنداء العقيدة التي يؤمن بها ، واستجابة لمقتضياتها .

د- ان العقيدة الواحدة في الأمة الواحدة لها دور كبير في تأكيد وحدتها ، لأن الافراد الذين يؤمنون بعقيدة واحدة يحسون بنوع من الترابط والتقارب في

افكارهم وتصوراتهم ، وهذا التقارب يجذب افراد المجتمع الى بعضهم ليتكون منهم مجتمع قوى متماسك ينطلق من منطلقات واحدة ، ويهدف لأهداف واحدة (١) .

مفهوم العقيدة عند علماء المسلمين :

تفيد كلمة « العقيدة» فى اللغة على ما انعقد عليه القلب ، واستمسك به ، وتعذر تحويله عنه ، لا فرق فى ذلك بين ماكان راجعا الى تقليد أو وهم ، وما كان راجعا الى دليل عقلى ، وتستعمل ايضا فى اللغة بمعنى الاقتناء ، يقال : اعتقد ضيعة أو مالا : اقتناهما ، وعقد قلبه على الشئ : لزمه ، واعتقدت كذا أى عقدت عليه القلب والضمير.

وقد جاء تعريف الاعتقاد لدى علماء الكلام بأنه : « الايمان المطابق للواقع الثابت بدليل أو « الادراك الجازم المطابق للواقع الناشئ عن دليل » .

ويلاحظ من التعريف السابق ان العلماء المسلمين يعرفون الاعتقاد « بالادارك الجازم » الذى ينفى الوهم والشك والظن ، ويصفونه بأنه « مطابق للواقع » ليخرج بذلك الاعتقاد الباطل الذى يخالف الواقع ، كما يصفونه بأنه الاعتقاد الناشئ عن دليل ليخرج بذلك الايمان التقليدى الذى لايعتمد على دليل (٢) .

---

(١) انظر لمحات فى وسائل التربية الإسلامية ص ٨٦ ٩١ . مرجع سابق .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الاسلامية : ص ١٠٣ .

حكم المقلد :

ذكر العلماء آراء متعددة فى حكم التقليد فى الاعتقاد وهل جائز أم لا ؟

أ- فمنهم من أوجب التقليد فى الاعتقاد لئلا يكون البحث عن دليل مؤديا الى الضلال ، ولكن هذا الرأى مخالف لنصوص القرآن الصريحة التى تدعو الى النهى عن التقليد إلا إذا كانوا يقصدون البعد عن المناقشات ، والاستدلالات التى يستعملها علماء الكلام والفلسفة الذين يناقشون مسائل العقيدة ، ومايتعلق بها من مباحث عقلية محضة .

ب- ومنهم من أجاز التقليد ، وأجاز البحث عن الدليل ، لأن الغاية الاساسية هى الوصول الى الايمان الصحيح والقناعة الوجدانية ، فلو وصل الانسان الى هذه الغاية عن طريق التقليد جاز ذلك ، ولو أراد النظر والبحث جاز ذلك أيضا لحصول المقصود فى كلتا الحالتين (1) .

قال الامام الغزالى رحمه الله تعالى :

« إن الايمان نور يقذفه الله تعالى فى قلب عبده عطية وهدية من عنده ، تارة بتنبيه فى الباطن لا يمكن التعبير عنه ، وتارة بسبب رؤيا فى المنام ، وتارة مشاهدة حال رجل متدين ، وسراية نوره اليه عند صحبته ومجالسته ، وتارة بقرينة حال ..

والحق الصريح ان كل من اعتقد ماجاء به النبى ﷺ ، واشتمل عليه القرآن أعتقاد جازما فهو مؤمن ، وإن لم يعرف ادلته ، بل الايمان المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدا مشرف الزوال بأقل شبهة ، والايمان الراسخ إيمان العوام الحاصل على قلوبهم فى الصبا بتواتر السماع ، أو الحاصل بعد البلوغ بقرائن وأحوال لايمكن التعبير عنها » .

(1) انظر مبادئ الثقافة الاسلامية ص ١٠٣ .

جـ- ومهم من أجاز التقليد وأوجب النظر ، وبناء عليه صح إيمان المقلد ولكنه يأثم بترك النظر إذا كان من أهل النظر والقدرة عليه ، وحجتهم فى ذلك ان النظر هو الطريق الى الايمان الكامل ، فلو وصل الانســان الى الايمان الكامل بدون النظر ، فإن معرفته ناقصة وكان آثما .

د- ومنهم من جعل التقليد [1] باطلا والنظر واجبا ، وبناء عليه لايصح الإيمان

(١) التقليد لغة : وضع الشئ فى العنق محيطا به كالقلادة .

* واصطلاحا : اتباع من ليس قوله حجة فخرج بقولنا : من ليس قوله : اتباع النبى ﷺ ، واتباع اهل الاجماع ، واتباع الصحابى إذا قلنا ان قوله حجة فلا يسمى اتباع شئ من ذلك تقليدا لأنه اتباع للحجة لكن قد يسمى تقليدا على وجه المجاز والتوسع .

* مواضع التقليد :

الأول : أن يكون المقلد عاميا لايستطيع معرفة الحكم بنفسه ، ففرضه التقليد لقوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (الانبياء : ٧.) ويقلد أفضل من يجده علما وورعا فإن تساوى عنده اثنان خير بينهما .

الأخر: ان يقع للمجتهد حادثة تقتضى الفورية و ولايتمكن من النظر فيها فيجوز له التقليد حينئذ ، واشترط بعضهم لجواز التقليد ألا تكون المسالة من أصول الدين التى يجب اعتقادها ، لأن العقائد يجب الجزم فيها والتقليد إنما يفيد الظن فقط .

* والراجح أن ذلك ليس بشرط لعموم قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . والآية فى سياق إثبات الرسالة ، وهو من أصول الدين ، لأن العامى لايتمكن من معرفة الحق بادلته فإذا تعذر عليه معرفة الحق بنفسه لم يبق إلا التقليد لقوله سبحانه : « فاتقوا الله ماستطعتم » (التغابن : ١٦ .)

أنواع التقليد : عام وخاص :

١- **العام** : أن يلتزم مذهبا معينا يأخذ برخصه وعزائمه فى جميع أمور دينه ، وقد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من حكى وجوبه ، لتعذر الاجتهاد فى المتأخرين ، ومنهم من حكى تحريمه لما فيه من الالتزام المطلق لاتباع غير النبى ﷺ .

* قال شيخ الإسلام ابن تيميه ان فى القول بالوجوب طاعة غير النبى ﷺ فى كل أمره ونهيه وهو خلاف الاجماع وجوازه فيه مافيه .

=

إلا بناء على نظر ودليل ، لأن الله تعالى أمر بالعلم به ، ولايجعل هذا العلم إلابدليل يفيد اليقين والاطمئنان .

=

* وقال : من التزم بمذهب معين ثم فعل خلافه من غير تقليد لعالم آخر أفتاه ولا استدلال بدليل يقتضي خلاف ذلك ولا عذر شرعي يقتضي حل مافعله فهو متبع لهواه فاعل للمحرم بغير عذر شرعي وهذا منكر ، وأما إذا تبين له مايوجب رجحان قول على قول إما بالأدلة المفصلة ان كان يعرفها ويفهمها ، وإما بأن يرى أحد الرجلين أعلم بتلك المسألة من الاخر ، وهو أتقى لله فيما يقوله فيرجع عن قول الى قول لمثل هذا ، فهذا يجوز بل يجب ، وقد نص الامام أحمد رحمه الله تعالى على ذلك .

٢- والخاص : أن يأخذ بقول معين في قضية معينة ، فهذا جائز إذا عجز عن معرفة الحق بالاجتهاد سواء عجز عجزا حقيقا أو استطاع ذلك مع المشقة العظيمة .

هل تجوز فتوى المقلد ؟

* قال الله عز وجل : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » (الانبياء : ٧ .) وأهل الذكر هم أهل العلم والمقلد ليس من أهل العلم المتبوعين ، وإنما هو تابع لغيره .

* قال أبو عمر بن عبد البر وغيره أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودا من أهل العلم ، وأن العلم معرفة بدليله . قال ابن القيم : وهذا كما قال أبو عمر فإن الناس لا يختلفون في أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن دليل ، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد ثم حكى ابن القيم بعد ذلك في جواز الفتوى بالتقليد ثلاثة أقوال :

أحدها : لا تجوز الفتوى بالتقليد ، لأنه ليس بعلم ، والفتوى بغير علم لا تصح ، وهذا قول أكثر الأصحاب وجمهور الشافعية .

ثانيها : أن ذلك جائز فيما يتعلق بنفسه ، ولا يجوز أن يقلد فيما يفتى به غيره .

ثالثها : أن ذلك جائز عند الحاجة ، وعدم العالم المجتهد وهو أصح الأقوال وعليه العمل ، ١ . هـ والله اعلم .

* انظر للشيخ محمد بن صالح العثيمين : الأصول من علم الصول ص ٥٨ - ٦١ باختصار ، ط الرابعة ١٤١٢ هـ ، ط جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية .

ومن خلال هذا العرض لمفهوم العقيدة لدى علماء المسلمين نجد الفرق الواضح بين مفهوم العقيدة لدى « غوستاف لوبون » ومفهومها لدى علمائنا ، نجد ان غوستاف لوبون يقصر مفهوم العقيدة على الايمان الناشئ من غير دليل سواء كان مطابقا للواقع أو مخالفا له بخلاف مفهوم العلماء والمسلمين فإنهم يعرفون العقيدة بأنها الإدراك الجازم المطابق للواقع الثابت بالدليل ، واشتراط الدليل ينقل العقيدة من مفهومها الظنى الى مفهومها الجازم المؤكد ، فلو كانت العقيدة غير منبثقة عن دليل، ولم تكن مطابقة للواقع فلا تعتبر صحيحة .

ومن هذا المنطلق نشعر أن العقيدة فى نظر العلماء المسلمين تختلف فى مفهومها عن العقيدة فى نظر الفلاسفة الغربيين من حيث مطابقتها للواقع واعتمادها على الدليل ، ومن ثم نلاحظ ان القرآن يشير فى كثير من آياته الى ضرورة التفكر والنظر فى مخلوقات الله ، والاعتماد فى ذلك على العقل (١) .

قال سبحانه وتعالى :

« إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٢) .

وفى التنزيل العزيز أيضاً :

---

(١) انظر : مبادئ الثقافة الإسلامية ص ١٠٤ .
(٢) البقرة : ١٦٤ .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب »(١) .

وقال عز وجل :

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٢) .

(١) الزمر : ٢١ .
(٢) الحج : ٤٦ .

العلوم اللغوية

وكما اهتم فريق بالعلوم الدينية يبحثونها ويتعمقون فيها ، فإن هناك فريق أخر اهتم بالعلوم اللغوية ، والنحوية ، والأدبية .

وبما أن القرآن نزل باللغة العربية كما جاء فى قوله جل جلاله :

« إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[١] .

« وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد »[٢] .

« قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون »[٣] .

« كتاب فصلت أياته قرآنا عربيا لقوم يعملون »[٤] .

« وكذلك أوحينا اليك قرانا عربيا »[٥] .

« إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تتقون »[٦] .

« وهذا كتاب مصدق لسنان عربيا لينذر الذين ظلموا »[٧] .

---

(١) يوسف : ٢ .

(٢) طه : ١١٣ .

(٣) الزمر : ٢٨ .

(٤) فصلت : ٢ .

(٥) الشورى : ٧.

(٦) الزخرف : ٣ .

(٧) الاحقاف : ١٢ .

وحرص المسلمين على خدمة القرآن جعلهم يضعون القواعد التى تمنع اللحن فيه فكان « علم النحو »[1] .

ولما وردت فى القرآن والحديث ألفاظ لغوية ، اضطر العلماء لمعرفة معانى هذا الالفاظ ، ودلالاتها ، فرجعوا الى الشعر العربى [2] ، يحفظونه ويفهمونه ، ليساعدهم على فهم معانى القرن ، وليدلهم على الألفاظ المجملة فيه [3] . فكان تأليف المعاجم[4] .

ونزل القرآن مشتملا على قراءات متنوعة ، لم يكن من السهل معرفتها ، مالم تعرف اللهجات العربية ، ومن ثم بحثوا عن هذه اللهجات العربية كلهجة قريش ، ولهجة تميم ، لتساعدهم على معرفة القراءات القرنية [5] .

ومن خصائص القرآن « الاعجاز» ولايمكن تذوق هذا الاعجاز إلا بإبراز الجوانب البلاغية التى تساعد على إدراك « الاعجاز القرآنى » ومن ثم وضعوا « علم البلاغة »[6] .

---

(١) علم : يبحث عن أحوال اللفظ من حيث الاعراب والبناء .

(٢) قال ابن عباس رضى الله عنهما :

« الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى انزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه » .

وقال الثعلبى فى أول كتابه فقه اللغة :

« أما بعد فإن من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ ، ومن أحب النبى ﷺ العربى أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التى نزل بها افضل الكتب على أفضل العرب والعجم ، ومن أحب العربية « عنى بها وثابر عليها ، وصرف همته اليها » .

(٣) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٤٥ .

(٤) مثل : لسان العرب ، القاموس المحيط .

(٥) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٤٥ .

(٦) انظر ضحى الإسلام : للاستاذ أحمد أمين : ١/٣١١ط السابعة .

ولقد كانت اللغة العربية سليقة فطرية فى عرب الجزيرة العربية ، يستطيع العربى أن يتكلم بها بشكل صحيح وسليم دون خطأ أو لحن ، ثم بدأ اللحن ينتشر بين العرب بسبب خروج العرب من جزيرتهم ، واختلاط اللسان العربى بالعجمى ، ودخل العربية بعض التحريف فكان لابد من قواعد يستطيعون بها ضبط الكلمات لئلا يقعون فى الخطأ (١) .

والعلوم اللغوية تشتمل على :

أ- علم اللغة :

أخذ علماء اللغة على عاتقهم تدوين الكلمات التى يجمعون من سكان البادية بدون ترتيب ، حتى اذا توفر لديهم عدد كبير من هذه المفردات ، قاموا بتصنيفها وجمعها ، فنشأت « المعاجم اللغوية » ، ويقال ان أول منَ جمع اللغة وفق هذه الطريقة المعجمية هو « الخليل بن أحمد » .

ثم سار علماء اللغة الذين جاءوا من بعده على هذا المنهج ، حتى أصبحت المعاجم اللغوية متوفرة للجميع ، سهل الرجوع اليها ، والاستفادة منها (٢) .

ب- علم النحو :

نشأ فى البصرة والكوفة ، حيث كانتا مركز الاشعاع الفكرى والثقافى خلال القرن الأول الهجرى ، وانتشار اللحن فى الكثير من الامصار الإسلامية ، كان الدافع إلى تأليف هذا العلم ، وينسب علم النحو الى « أبى الأسود الدؤلى » الذى تلقى مبادئه عن « على بن أبى طالب » رضى الله عنه الذى علمه ان الكلام ينقسم الى : « اسم وفعل وحرف » (٣) .

---

(١) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ١٦ .

(٢) انظر ضحى الإسلام : ٢/٢٦١ - ٢٧١ .

(٣) انظر تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن : ٢/٣٣٨ .

واذا كان علم اللغة ينسب الى الخليل بن أحمد ، فإنه صاحب الفضل فى اختراع علم الموسيقى العربية المسمى « بعلم العروض » الذى اشتمل على قواعد الشعر وبحوره .

ثم اشتهر من النحاة عدد من العلماء النحويين الذين اسهموا إسهاما كبيرا فى خدمة هذا العلم منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وسيبويه ، والأخفش ، والكسائى وغيرهم[1] .

جـ- الأدب : لقى الجانب الأدبى اهتماما كبيرا من قبل العلماء خلال القرون الهجرية الأولى .. وقد حفلت مجالس الخلفاء بالأدباء والشعراء الذين كانوا يروون النوادر الأدبية والحكايات التى تسترعى الانتباه وتشد الاسماع .. وقد اشتهر عدد من الأدباء بكتابة النثر الأدبى منهم « ابن المقفع » الذى نقل كثير من كتب الأدب الفارسى الى اللغة العربية ، وهناك « الجاحظ » الذى امتاز بسهولة الأسلوب ، ويسره وخلوه من الغموض والتعقيد .

وهناك الشعراء الذين فاقوا الشعراء الجاهليين فى رقة اللفظ وعذوبة المعنى ، ومن أهمهم : أبو تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، والمتنبى ، وأبو النواس ، وأبو العتاهية .

ومما ساعد على تنشيط الحركة الأدبية خلال العصر العباسى اهتمام الخلفاء والأمراء بالأدب ومتابعتهم لأخبار الأدباء .. بالاضافة الى ظاهرة الامتزاج الثقافى التى تمت بين الأدب العربى ، والآداب الأخرى الاجنبية وخاصة الأدب الفارسى [2] .

(١) انظر ضحى الإسلام : ٢/ ٢٩٠ .
(٢) انظر تاريخ الإسلام : ٢/ ٣٤٠ - ٣٤٤ .

العلوم العقلية

ظهر الاهتمام بالعلوم العقلية عقب الامتزاج الحضارى الذى تم بين الحضارة الإسلامية الفتية ، والحضارات الأخرى التي كانت موجودة فى البلاد المفتوحة فى العراق وفارس والشام ، وحدث تزاوج وتلاقح بين هذه الثقافات المختلفة كان له الفضل فى اثراء الثقافة الإسلامية وإغنائها .

لكن الخطر الأكبر يكمن فى طغيان إحدى الثقافات الوافدة الأجنبية على الثقافة الأصلية ، وهنا تذوب الثقافة الاصلية أمام طغيان الثقافات الأخرى .

ومما ينبغى التنبيه اليه أن الثقافة الإسلامية قد طبعت الثقافات الأخرى بطابعها ، وأثرت فيها تأثيرا مباشرا ، حتى ذابت معالم الثقافات التى كانت موجودة فى البلاد التى فتحها المسلمون ، ليحل مكانها الفكر الإسلامى الأصيل المستمد من مصادرة المتميزه[1] .

وتشمتل العلوم العقلية على :

١- علم الكلام والفلسفة : [2]

وهو العلم الذى يتضمن مباحث العقيدة ، ومناقشاتها بالادلة العقلية والمنطقية ، والرد على المنحرفين والمبتدعين ، وقد نشأ هذا العلم فى البيئة الإسلامية نتيجة

(١) انظر مبادى الثقافة الإسلامية ص ٤٩ . ، ٥٠ .

(٢) انظر تاريخ الفكر العربى للدكتور عمر فروخ ص ٢٠٢ ومابعدها ط دار الملايين ، أما علم الكلام فهو : علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته ، وعن أحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام ، والقيد الأخير يخرج به العلم الإلهى للفلاسفة ، وسمى بالكلام لكثرة النزاع والكلام فيه ، انظر التعريفات للسيد الشريف ص ٩٨ ، والعلوم التى اشتغل بها =

الظروف السياسية والاجتماعية التى أوجبت على العلماء مناقشة بعض القضايا التى ترتبط بالعقيدة نقاشا معتمدا على العقل والمنطق .

ومن الجديدر بالذكر ان الجدل لم يكن منهجا منتشرا بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ إلا أننا نلاحظ نشأة هذا الجدل بعد معركة (حطين) عندما خرجت جماعة على « على بن أبى طالب » رضى الله عنه ، وسمت نفسها « بالخوارج » محتجة بذلك على مبدأ « التحكيم »، الذى رفع شعاره أصحاب معاوية رضى الله عنه.

وقد تمخض عن القضايا الكلامية اشغال الناس بمثل هذه المناقشات الجدلية عن العمل الجاد الذى ينفع الناس ، واعتقد ان من الضرورى عدم إحياء تلك القضايا من جديد .

فقد كانت قضايا علم الكلام ، والجدل الذى اثير حول هذه القضايا بين أهل السنة والمعتزلة ثم الاشاعرة ، والذين تبنوا أراء السنة ، واستخدموا في الاقناع المنهج الجدلى والمنطقى ليحاجوا به المعتزلة ، كان مقدمة لظهور اتجاهات فلسفية

= العباسيون ، ويقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقى أو جد لى ، وطى الأخص المعتقدات ، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم « المتكلمين » . انظر تاريخ الإسلام ... جـ٢ ص٣٣٥ .

* يقول الامام الغزالى : « وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة » المنقذ من الضلال ط دمشق ١٣٥٢ هـ٢ = ١٤٣٤ م ص ٧١ .

* أما الفلاسفة : فهم العلماء الذين خاضوا فى غمار ماوراء الطبيعة ، وبحثوا عن الإله والأفلاك ، والعقول للوصول الى حقائق الأشياء ، والفلاسفة القدماء قد أخطئوا فى أمور كثيرة كفرهم بها الإمام الغزالى بثلاثة منها ، وفسقهم بعشرين . راجع التعريفات للسيد الشريف ص ٦٠ ، وتهافت الفلاسفة تحقيق الدكتور سليمان دنيا ط دار المعارف ص ٧٦ ط الخامسة ، والمنقذ من الضلال ص ١٠٣ - ١٥٩ . دار الكتب الحديثة القاهرة .

قادها مفكرون مسلمون ، جمعوا بين الثقافة الإسلامية ، والثقافات الاجنبية التى ترجم جزء كبير منها الى اللغة العربية وبخاصة الفلسفة اليونانية ، والمنطق اليونانى الذى تسرب الي عقول الفلاسفة المسلمين من أمثال : الكندى ، والرازى والفارابى ، ولم تعد القضايا المطروحة على بساط المناقشة والجدل هي نفس القضايا التى كان يطرحها علماء الكلام ، وإنما تعدها الى قضايا فلسفية بحتة كنظرية المعرفة ، والفيض ، والنفس ، والعقل ، ويعد أبو نصر محمد بن محمد الفارابى المولود سنة ٢٦٠ هـ من أشهر الفلاسفة الذين درسوا الفلسفة اليونانية ، وشرحوا كثيرا من نظرياتها وأبانوا غموضها ، حتى سمى « بالمعلم الثانى » ، وقد ترك الفارابى آثاره واضحة فى الفكر الفلسفى فى الاسلام .

والى جانب الفارابى كان أبو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندى العربى المولود فى البصرة سنة ١٨٥ هـ، وهو أول من استحق لقب فيلسوف من المسلمين (١).

ومما تجدر الاشارة اليه عند الفلاسفة المسلمين ان الفلسفة كانت مرتبطة عندهم كل الارتباط بالعلوم الرياضية والطبيعية ،، فالكندى قد اشتهر بالرياضيات والهندسة والموسيقى والنجوم كما اشتهر الفارابى بالموسيقى والطب .

وفى الوقت الذى استعملت فيه المناقشات الجدلية بين علماء الكلام والفلاسفة وكانت تحمل فى طياتها صراعا دينيا وسياسيا اصبح يهدد الدولة الاسلامية ، والمجتمع الإسلامى ، والعقيدة الإسلامية الأصيلة ، ظهر حجة الإسلام « الامام أبو حامد الغزالى » المولود فى طوس سنة ٤٥٠ هـ ، وحمل السوط يلهب به ظهور الفلاسفة ، ويبين تهافت الأدلة التى اعتمدوا عليها ، وقصورها عن اقامة الادلة على آرائهم ، ولذلك كتب كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » ، وكان يعرض لأراء الفلاسفة

(١) مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٥٣ .

وأدلتهم ، ثم يحاول اقامة الدليل المنطقى والبرهان العقلى على بطلان تلك الآراء وتهافتها [1] .

لقد اراد الإمام الغزالى من وراء هجومه المركز ونقده العنيف لأراء الفلاسفة واستدلالاتهم ان يبين لعامة الناس الذين بهرتهم مناهج الفلاسفة المنطقية عن منهج الفكر الإسلامى الصحيح أن الفلاسفة يخطئون فى أدلتهم واستنتاجاتهم ويصيبون ، وأن أدلتهم فى كثير من المواطن قاصرة عن إقامة الادلة المقنعة بالبراهين الصحيحة [2] .

والسبب الذى جعل « الامام الغزالى » يحتل لقب حجة الإسلام ، ويذيع وسمه فى الامصار الإسلامية المتباعدة أنه استطاع ان يدافع عن العقيدة الاسلامية الصحيحة ، معتمدا فى ذلك على نفس المنهج الفلسفى والمنطقى الذى كان الفلاسفة يعتمدون عليه ، وإذا كان الفلاسفة يعتمدون على المقاييس المنطقية فى القضايا الدينية والدنيوية ، فإن « الغزالى » رفض ان تكون المقاييس المنطقية صحيحة فى الأمور الدينية وفى العقائد [3] .

ولو نظرنا فى تطور الحركات الفكرية فى التاريخ الإسلامى لوجدنا – فى كثير من الاحيان – انحرافا عن المنهج الاسلامى الصحيح بتأثير ظروف معينة تلعب دورا فى تغيير المسار الصحيح لهذه الأمة ، إلا أننا نلاحظ أنه سرعان مايهيئ الله لهذه الأمة من يقودها إلى الحق والصواب ، ويبعد عنها أخطار الانحراف والزلل [4] .

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٤ .

(٢) مبادئ الثقافة الاسلامية ص ٥٤ .

(٣) انظر تاريخ الفكر العربى للدكتور عمر فروخ ص ٥١٢ .

(٤) مبادئ الثقافة الاسلامية ص ٥٤ .

ومن ثم نخلص الى نتيجة هامة أن الثقافة الإسلامية ثقافة أصيلة .. كانت تمثل نتائج الحضارة الإسلامية ، وإذا كانت بعض المؤثرات الاجنبية والثقافات الغربية قد حاولت التأثير فى ملامح هذه الثقافة ، فإنه سرعان ماتتكشف الحقائق وتعود ثقافتنا الى منابعها الأصيلة التى اثرتها بالفكر الخلاق الولود .. وأعطتها طابعا حضاريا مميزا تتساقط أمام عظمتة جميع الثقافات الأخرى (١) .

علم الفلك والرياضيات :

لم تقتصر الثقافة الإسلامية على العلوم النظرية كالدين ، والأدب والفلسفة ، وإنما تناولت الجوانب العلمية التجريبية ، وأسهمت فيها اسهاما كبيرا ، وأسدت للحضارة الانسانية فكرا علميا ، وثروة من النظريات والآراء والافكار ، اعترف بقيمتها المؤرخون ، وأشادوا بدورها الفعال في تنمية الفكر العلمى الذى قاد المجتمع البشرى الى حضارته الحالية فنجد الدكتور فيليب حتى يقول :

ظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والتقدم الفكرى عدة قرون في جميع أنحاء العالم المتمدن آنذاك ، وكان آثارها أيضاً أنه فيما بين القرن التاسع والثانى عشر الميلادى والثالث والسادس الهجرى فاق ماكتب بالعربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والالهيات ،الفلك والجغرافيا كل ماكتب بأى لسان آخر (٢) .

وقال المسيو سيديو فى كتابه « تاريخ العرب » .

كان العرب وحدهم ممثلى الحضارة فى القرون الوسطى ، فدحروا توحش أوربا التى زلزلتها غارات أمم الشمال (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٥٥ .

(٢) نقلا عن نفس المرجع .

(٣) مجالى الاسلام للاستاذ حيدر بامات ص ١٢٢ ترجمة الاستاذ عادل زعيتر ط دار إحياء الكتب العربية القاهرة .

وقال أيضاً : إن ظاهرة مدرسة بغداد هى الروح العلمية السائدة لهذه الاعمال حقا ، فكانت مبادئ اساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم الى المجهول ، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة المعلومات الى العلل ، وعلى عدم التسليم بما لايستند الى التجربة ، وكان العرب فى القرن التاسع اصحابا لهذا المنهاج الخصيب ، فأضحى بعد زمن طويل أداة بيد المعاصرين للوصول الى أجمل اكتشافاتهم (١) .

وقال الاستاذ حيدر بامات :

تناولت مدرسة بغداد تقاليد الحضارة اليونانية التى قطعت بتخريب مدارس الاسكندرية ، وأثينة المشهورة ، فأغنى فكر القدماء ، واستقصى بحواصل جديدة مبتكرة ، وماتم من اكتشافات مهمة فى جميع حقول العلوم ضمن دوام الحضارة وتقدمها ، ولولا العمل الواسع الذى قام به المسلمون مواصلة للعلم اليونانى والرومانى وترقيته لتعذر ظهور عصر النهضة (٢) .

استطاع العلماء المسلمون النهوض (بعلم الفلك) فأنشأوا له المراصد ، والمدارس الفلكية فى عدد من المدن الاسلامية ، فى بغداد والقاهرة ، واستطاع العلماء دراسة حركة الشمس وانحرافها ، ورصد الاعتدال الشمسى ، والانحراف القمرى الثالث الذى يعتبر اكتشافا جديدا فى علم الفلك .

ومن علماء الفلك المشهورين المسلمين : « أبو عبد الله البتانى » ت سنة ٣١٧هـ والذى قام برصد الكواكب حتى اعتبر من بين الفلكيين العشرين الذين لهم شهرة عالمية فى هذا المجال ، وكان يقارن بينه وبين « بطليموس اليونانى » (٣) .

(١) المرجع نفسه ص ١٢١ ، ١٢٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٢٤ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

ومن اشتهر بالفلك والرياضيات من علماء المسلمين « الحسن بن الهيثم » ت في القاهرة سنة ٤٣٠ هـ ألف فى هذا المجال أكثر من ثمانين كتابا منها : مجموعة للأرصاد الفلكية ورسالة فى البصريات ، كما اشتملت كتبه ومقالاته على موضوعات كثيرة كالحساب والجبر والهندسة والجغرافيا والطب والصيدلة والمنطق والفلسفة .

وممن اشتهر بالرياضيات العالم المسلم (الخوازمى) ت سنة ٢٣٢ هـ فى بغداد وكان كتابه « الجبر والمقابلة » الذى شجعه على تأليفه الخليفة المأمون

وعلم الرياضيات هذا لقى اهتماما كبيرا من العلماء المسلمين ، وقد أضافوا اليه اضافات لا يمكن انكارها ، وينسب اليهم انهم اخترعوا علم الجبر وتطبيقه على الهندسة[١] .

يقول المسيو شال :

« وعلم المثلثات من العلوم الرياضية التى عنى بها كثيرا لما كان من تطبيقه على علم الفلك وعلم المثلثات مدين للعرب بما أدخلوا اليه من التحسينات الكثيرة التى اكتسب بها شكلا جديدا ، وصار صالحا لتطبيقات كان الاغارقة لايقدرون عليها إلا بشق الانفس »[٢] .

ويقول المسيو سيديو :

« زعم فى زمن غير قصير أن العرب لم يصنعوا غير استنساخ مؤلفات اليونان ، ولايؤيد مثل هذا الزعم فى الوقت الحاضر غير جاهل ضال ، فنشكر لمدرسة بغداد ماخلعته من شكل على علم المثلثات الكريمة فضلا عن حفظها لأهم مؤلفات علماء الاسكندرية »[٣] .

---

(١) انظر مبادئ الثقافة الاسلامية ص ٥٧ .

(٢) مجالى الإسلام للاستاذ حيدر بامات ص ١٣٦ .

(٣) المصدر نفسه .

مما سبق يتضح جهود علماء المسلمين فى الاكتشافات ، والنظريات المبتكرة التى لم يسبقوا إليها ، وكان لهم فضل السبق والريادة فى جعل علم الجبر علما متكاملا ، يعتمد على قواعد ونظريات لم تكن معروفة من قبل .

يقول « الدومييلى » فى كتابة « العلم عند العرب » .

« وربما كان « الخوارزمى » من أعظم الرياضيين بين العلماء العرب ، ولاريب أنه كان له فى هذا المجال أعظم تأثير ، أولا فى الشعوب الإسلامية ، ثم بعد ذلك فى الشعوب الغربية المسيحية ... وكتابه المشهور « المختصر في حساب الجبر والمقابلة» لم يؤد فقط الي وضع لفظ الجبر وإعطائه مدلوله الحالى ، بل إنه افتتح عصرا جديدا فى الرياضيات »[1] .

علم الكيمياء والفيزياء :

وإذا ما انتقلنا من الرياضيات الى الكيمياء والفيزياء لوجدنا لعلماء المسلمين مولفات عديدة فى هذين المجالين . تعتبر أول الدراسات العلمية فى هذا التخصص .

يقول أ . وهنبولد :

« يجب عد العرب مؤسسين حقيقين للعلوم الطبيعية » .

ويعتبر « المسيو شال » رسالة محمد بن الحسن بن الهيثم فى البصريات هى أهم المصادر التى يعتمد عليها ، ويرجع اليها و لأنها تشتمل على معلومات ونظريات صحيحة .

---

(١) العلم عند العرب للاستاذ الدومييلى ، وترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ص ١٥٤ . نشر دار القلم القاهرة ١٩٦٢ م .

ولقد حصل العالم المسلم محمد بن الحسن بن الهيثم الذى ولد فى البصرة سنة ٣٥٤ هـ على شهرة عظيمة بسبب كتبه ومقالاته فى الرياضيات والفلك والطبيعيات والبصريات والجبر والهندسة وفاقت شهرته بالدراسات التى قدمها عن «علم الضوء» والمعروف بالبصريات ، لأنه اعتمد على الاسلوب العلمى التجريبى ، فقدم دراسات قيمة وهامة ، اشتهر على إثرها »(١) .

وهذا احد علماء الإسلام المبرزين أنه « أبو بكر الرازى » المتوفى سنة ٣٢٠ هـ فى بغداد ، كان معروفا بالطب ، وله كتب قيمة فيه ، كما اشتهر بالكيمياء أيضاً ، وقد وصف فى كتابه « الحاوى » الطرق التى يصنع بها زيت الزاج ، وهو الحامض الكبريتى ، والكحول التى تستخرج عن طريق التقطير (٢) .

وكان العرب أول من استعمل طرق التصعيد ، والتبلور ، والتنويب ، والتخثير والتصفية ، لاستخراج المواد أو مزجها ، كما انهم عرفوا الكافور ، والكحول والمياه المقطرة والاشربة والمراهم والدهان (٣) .

يقول غوستاف لوبون :

« إن العرب هم أصحاب ذلك الاختراع العظيم الذى قلب نظام الحروب وهو

---

(١) وقد اشاد الاستاذ « الدوميلى » فى كتاب «العلم عند العرب » بكتاب « المناظر » لابن الهيثم الذى ترك اثارا كبيرة فى البحوث التى قدمها عدد من العلماء الغربيين ، وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية مرات متعددة انظر ص ٢٠٦ .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٦٠.

(٣) انظر مجالى الإسلام ص ١٤٣ .

بارود المدافع الذى يدفع القذائف ويفجرها ، كما أنهم طوروا طريقة صنع الورق بعد ان كانت صعبة معقدة »(١) .

علم الطب :

عنى العرب كثيرا بهذا العلم ، اكتشفوا النظريات وكتبوا المؤلفات التى ترجمت الى اللغات الأوربية ، ولقيت اهتماما كبيرا ، وظلت هى المصدر الرئيسى الذى يعتمد عليه لعدة قرون .. وزاد من فائدة هذه المؤلفات بعد ترجمتها الى اللغة اللاتينية. وظلت تدرس فى الجامعات الأوربية حتى منتصف القرن السادس عشر .

ومن أشهر علماء الطب من المسلمين هو « الرازى » لمتوفى سنة ٣٢٠ هـ ، وكان عالما بالكيمياء كما كان عالما بالفلسفة أيضاً ، واشهر كتبه كتاب « الحاوى » الذى جمع فيه صناعة الطب ، وكتاب « المنصورى » الذى اشتمل على مباحث عدة فى التشريع والامزجة والادوية والسموم والحمى والجراحة (٢) .

ويعد « ابن سينا » أبو على الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨ هـ من عباقرة الطب المسلمين الذين أضافوا اليه الكثير من الاكتشافات العلمية والدراسات القيمة ، والملاحظات الهامة التى لم يسبق اليها و وكتابه « القانون » من أهم الكتب العربية فى الطب واشهرها وقد اثار هذا الكتاب الاعجاب والتقدير فى جميع

(١) كانت الكتابة فى الماضى تكتب على « الرق » وقد اثبتت مخطوطة عثر عليها فى مكتبة الاسكوريال والمكتوبة فى سنة ١٠٠٩ م على ورق مصنوع من القطن ، وهى أقدم من جميع المخطوطات الموجودة فى أوربا ان العرب هم أول من أحل الورق مكان الرق ، وقد استطاع العرب أن يصنعوا الورق من القطن ، ومن الأسمال قبل ان تعرفه أوروبا بزمن طويل وكان الورق قبلها يصنع من الحرير . راجع حضارة العرب ص ٤٨٢ .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٦١ .

الأوساط العلمية الطبية قديما وحديثا ، لما اشتمل عليه من موضوعات هامة وآراء صائبة فى علم : وظائف الاعضاء ، وعلم الامراض وعلم المعالجة ، ومن ثم نقل هذا الكتاب الى أكثر لغات العالم ، وبقى مصدرا للعلوم الطبية فى جميع الجامعات الفرنسة والايطالية لمدة ستة قرون .

وكانت مؤلفات « ابن سينا والرازى » فى الطب أساس التدريس فى جامعة «لوفان» خلال القرن السابع عشر الميلادى ، ولم يتوقف تفسير كتب « ابن سينا » فى جامعة « مونبلييه » فى فرنسا الا منذ خمسين سنة [1] .

اعتراف الدكتور غوستاف لوبون : بتقدم الطب العربى حيث قال : « إن أهم تقدم للعرب فى عالم الطب هو ماكان فى الجراحة ، ووصف الامراض وانواع الادوية والصيدلة ، وظهرت للعرب عدة طرق يعود الطب الحديث الى بعضها بعد اهمالها قرونا كثيرة ، كاستعمال الماء البارد فى معالجة حمى التيفوئيد ..، والطب مدين للعرب بعقاقير كثيرة .. و وهو مدين لهم بفن الصيدلة ، وبكثير من المستحضرات التي لاتزال تستعمل كالأشربة واللعوق واللزقات والمراهم .. والطب مدين كذلك بطرق طريفة فى المداواة عاد اليها على أنها اكتشافات حديثة بعد ان نسيت زمنا طويلا .. وعلم الجراحة مدين للعرب أيضاً بكثير من مبتكراته الاساسية ، وظلت كتبهم فيه مرجعا للدراسة فى كليات الطب الى وقت قريب جداً [2] .

وبالاضافة الى ماسبق فإن العلماء المسلمين قد اعطوا عنايتهم الفائقة لدراسة طرق الوقاية من الأمراض قبل وقوعها عن طريق بعض الارشادات الصحية التى كانت تجمع فى كلمات موجزة يسهل حفظها وانتشارها ، كما لم ينس الطب

(١) انظر للدكتور غوستاف لوبون : حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ص ٤٨٨ ط مطبعة عيسى الحلبى القاهرة .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٩٤ .

الاسلامى دور المشافى فى العلاج من حيث توفير الشروط الصحية منها كالنظافة والهواء النقى ، ومن ثم يصفها « غوستاف لوبون » بقوله :

« ويظهر أن مشافى العرب التى أنشئت فيما مضى أفضل صحيا من مشافينا الحديثة » ، وكانت مشافى المسلمين كمشافى أوروبا فى الوقت الحاضر : ملاجئ للمرضى وأماكن لدراسة الطلاب ، وكان الطلاب يتلقون دروسهم فى فرش المرضى أكثر مما يتلقونها فى الكتب ، ولم تقلدهم جامعات أوربا فى القرون الوسطى إلا قليلا (١) .

وقد أنشأ المسلمون مشافى متخصصة لبعض الامراض كالامراض العقلية وغيرها ، كما أنهم انشئوا الجمعيات الخيرية لمساعدة المرضى من الفقراء ، أو المرضى الذين يعيشون فى المناطق النائية (٢) ، إنها إنسانية الإسلام التى تربى عليها علماؤه .

لقد أخذ العلماء الغربيون عن العلماء المسلمين كثيرا من علمهم وخبرتهم وأرائهم فى : التشخيص والتمييز بين الأمراض ، والجراحة ، وكيفية استعمال آلاتها والأدوية وطرق تركيبها ، والمشافى ومواصفات انشائها .

وفى الوقت الذى كانت أثارنا العلمية وكنوزنا الفكرية تترجم الى اللغات اللاتينية وتدرس فى الجامعات الأوربية ، ويعكف عليها الباحثون والعلماء ليستخرجوا منها ما اشتملت عليه من معارف ومبتكرات كان عالمنا الإسلامى يتراجع رويدا رويدا الى الوراء ، وتخفت شعله الحياة فيه حتى أخذه نوم عميق ، ولم يصح إلا بعد أن فاتته المسيرة التى كان يقودها ، وأصبح يسمع – والحيرة والذهول يملأن فكره –

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٤٩٣ .

(٢) انظر مبادئ الثقافة الاسلامية ص ٦٢ .

أخبار ماضية الذى أضاعه ، وتراثه الذى جهله ، وحضارته التى افتقدها ، والان يتطلع عالمنا الإسلامى إلى حضارة فيؤله ما أصابه من تمزق وتخلف وجهل ، إلا أن هذا الواقع المرير لا ينبغى أن يكون قدرا مفروضا نستسلم أمامه ، أو نهرب منه إلى عدو ماكر يتربص بنا الدوائر ، وإنما ينبغى أن نجابه هذا الواقع معتمدين على الله أولا ثم بسواعد شباب الإسلام ، فنؤدى العمل الجاد بإخلاص وإتقان ، والجهد الدؤوب البناء ، والبحث المبتكر الولود ، ولقد دمرت أمم فى الحرب العالمية الثانية ، ثم أصبحت اليوم كأغنى دول العالم ، لأن لها عزيمة من الفولاذ ، إنها أمة اليابان ، إننا فى حاجة الى عزيمة فولاذية تقودنا الى حيث يجب ان نكون كامة تحمل رسالة السماء الى الأرض لتنشر فيها مبادئ الحق والعدل والخير (١) . ومن سار على الدرب وصل .

---

(١) مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٦٣ . بتصرف واختصار .

الإسلام دين الله الخاتم

يشمل الأعمال الباطنة والظاهرة ، أما الباطنة فتصديق القلب ، والظاهرة أفعال الجوارح ، أو بعبارة أخرى هما العقيدة والشريعة ، وقد جمعهما حديث رسول الله ﷺ ، فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ كان بارزا يوماً للناس فأتاه جبريل عليه السلام ، وقال له : ما الايمان ؟

قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث .

فقال جبريل : ما الإسلام ؟

قال : أن تعبد الله ولاتشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال : ما الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : متى الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الأبل البهم فى البنيان . فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبى ﷺ « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب هذا وماتدرى نفس بأى أرض تموت » .

ثم أدبر ، فقال : ردوه ، لم يروا شيئا ، فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم »[1] .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الايمان باب سؤال جبريل : ١٩/١ ، ٢٠ ، ومعنى « اذا ولدت الأمة ربها » أى يعق الولد أمه فيتحكم فيها كأنه سيدها ، ومعنى « إذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان» ، أى سيطر أهل الفاقة على المدن ، وينشرون الإسلام فيها ، ويقيمون البنايات =

فهذا الحديث الشريف تضمن العقيدة كلها ، فكل ما سأل عنه جبريل كان العقيدة بصفائها ونقائها ، فليست العقيدة جزءا منه ، وإنما هى مجموع ماورد فى هذا الحديث .

يقول القاضى عياض اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلا ، ومن أعمال الجوارح ، ومن اخلاص السرائر ، والتحفظ من افات الاعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة اليه ومتشبعة منه [(1)] .

فما ورد فى هذا الحديث الشريف راجع إما الى العقيدة ، أو الى الشريعة ، أو إليهما معا ، ذلك أن الإمان بالله وملائكته و، وبلقائه وبرسله وبالبعث راجع الى العقيدة وعبادة الله وحده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاه ، وصوم رمضان راجع الى الشريعة ، والاحسان يكون فى العقيدة والشريعة معا ، ومن ثم هذا الحديث الذى ضم أركان الإسلام ينحصر فى العقيدة والشريعة .

أولا : العقيدة :

فهى من عقد القلب على علم بمعلوم عقدا قويا مؤكدا معتمدا على اليقين التام والتمكين الحق .

= الشاهقة ، وهو اشارة الى اتساع دين الإسلام لأن حملته هم الفقراء فى البداية .

* وقد ظهر جبريل عليه السلام بصورة دحية الكلبى رضى الله عنه وجلس أمام النبى ﷺ ، وسأله الأسئلة المذكورة . يقول ابن الصلاح : ما فى هذا الحديث بيان لأصل الايمان ، وهو التصديق الباطن وأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ، ثم اسم الايمان يتناول ما فسربه الاسلام وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن و اسم لاسلام يتناول أيضاً ما هو أصل الايمان وهو التصديق الباطن ، لأن الاستسلام لا يتم إلا به ، راجع عمدة القارى : ١/٢٧٩ ، ٢٩١ .

(١) عمدة القارى : ١/٢٩١ .

وأساس العقيدة : هو الايمان بوجود الله تعالى ، بل ان ذلك هو اساس الدين كله ، لأن الايمان الحق بالله يدفع الانسان الى التصديق بكل ما أخبر به ، وتنفيذ كل ما أرشد اليه من أمر ونهى .

ووجود الله تبارك وتعالى حقيقة قررها جمع من الحكماء فى القديم والحديث بأدلة الامكان ، والحدوث ، حتى مشركى العرب كانوا يعتقدون فى وجود الله سبحانه بدليل :

« مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »[1] .

واذا ما سئلوا عن بعض المخلوقات فإنهم يرجعونها الى الله تعالى :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله»[2].

«ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله»[3].

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم »[4] .

« ولئن سألتهم من خلقهم ليقولون الله فأنى يؤفكون »[5] .

ان الفطرة الانسانية ينطقها الله عز وجل بالحقيقة ، تشتشعر بها وتتيقنها .

---

(١) الزمر : ٣ .

(٢) العنكبوت : ٦١ .

(٣) العنكبوت : ٦٣ .

(٤) الزخرف : ٩ .

(٥) الزخرف : ٨٧ .

يقول الاستاذ محمد فريد وجدى :

« إن اعتقاد الافراد والنوع الانسانى بأسره فى الخالق اعتقادا اضطراريا قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الانسان بذاكراته فى تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يحدد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ، تلك العقيدة التى نشأت صامتة وصار لها أكبر الآثار فى حياته ، فقد حدثت هذه العقيدة فى أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا » (١) .

فمن ينظر فى تاريخ الرسالات يعلم أن الأمم والشعوب قد آمنت بوجود الله فطرة منها وما كان ضلالهم جميعا إلا فى اتخاذ معبودات مجسمة كالاحجار والبيوت والكواكب.

وإيمان الانسان بوجود الله إنما هو ناشئ من رؤيته للحياة من حوله الدليل : ماذكره الامام الرازى (٢) فى تفسيره قائلا :

أ- هجم بعض الناس على أبى حنيفة رحمة الله عليه يريدون قتله ، فقال لهم: أجيبونى عن مسألة ثم افعلوا معى ما شئتم فقالوا له : هات ، فقال ماتقولان فى رجل يقول لكم إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال : مملوءة من الاثقال ، وقد احتوشها فى لجة البحر الأمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا هذا شئ لا يقبلة العقل ، فقال أبو حنيفة ياسبحان الله إذا لم يجز فى سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ، ولامجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وسعة أطرافها ، وتباين اكنافها من غير صانع وحافظ ؟! فبكوا جميعا ، وتابوا وقالوا له : صدقت .

(١) دائرة معارف القرن العشرين : ١ / ٣١٤ .

(٢) مفاتيح الغيب : ١ / ٣١٤ .

ب- لما سئل الشافعي رحمه الله تعالى ما الدليل على وجود الله تعالى ؟

قال : ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم فقالوا : نعم فقال : تأكلها دودة القز فيخرج منه الابريس ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البعر ، وتأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذا ؟ مع أن الطبع واحد ؟! فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا . ا هـ .

والقرآن الكريم يذكر العديد من الآيات الكونية على وجود الخالق سبحانه وتعالى فيقول :

« إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » [1] .

ويقول سبحانه : « أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون » [2] .

ويقول سبحانه : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » [3] .

وإليك بعض الأدلة الكونية ، ليزداد المؤمن إيمانا :

يقول الاستاذ سعيد حوى [4] ، وهو يشير الى آيات الله في الكون :

---

(١) البقرة : ١٦٤ .

(٢) الطور : ٣٥ .

(٣) الطارق : ٥ - ٧ .

(٤) في كتابه : الله جل جلاله ص .

أ- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هى عليه بمقدار بضع أقدام لامتصت ثانى أكسيد الكربون والاكسجين ولما أمكن وجود الحياة .

ب- ولو كان الهواء أقل ارتفاع مما هو عليه فإن بعض الشهب التى تحترق بالملايين كل يوم فى الهواء الخارجى كانت تضرب فى جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وكان فى إمكانها ان تشعل كل شئ قابل للاحتراق .

جـ- ولو ان شمسنا أعطت نصف اشعاعها الحالى لكنا تجمدنا ، ولو أنها زدات بمقدار النصف لكنا رمادا منذ زمن بعيد .

د- ولولا المطر لكانت الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها .

هـ- ولولا الرياح ، والبحار والمحيطات لما كانت حياة .

و- ولولا ان الماء تبخر بشكل يخالف تبخر الملح لما كانت حياة .

ز- ولولا ان البخار أخف من الهواء لما كانت الحياة .

ح- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أماكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات .

ط- ولولا الجبال لتناثرت الأرض : ولما كان مثل هذه القشرة الصالحة للحياة .

وباختصار نقول : سواء أكان دليل [1] وجود الله سبحانه هو حدوث العالم ، أم إمكانه أم آيات الله فى الكون ، أم آياته فى القرآن الكريم ، فإن الايمان به فطرة مركوز فى الطبع يقر به العقل المجرد ويؤكده النظر السليم .

---

(١) يمكن اجمال الادلة التى اشرنا اليها فيما يلى :-

أ- دليل الحدوث يعتمد على أن العالم حادث ، وكل حادث له محدث ، والمحدث للعالم هو الله تعالى.

=

أولاً : الإيمان بوجود الله تعالى :

الايمان بوجود الله تعالى ، يستلزم التوحيد المطلق للألوهية والربوبية معا ذلك ان المشركين فضلوا توحيد الألوهية عن توحيد الربوبية ، فنراهم يسلمون بتوحيد الربوبية ، ويقرون بوجود الله خالقا مالكا رازقا كما يقول الله سبحانه :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (١) . ويقول سبحانه : « قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون » (٢) .

ومع هذا الاقرار نجد المشركين يتخذون الاصنام ويعبدونها من دون الله فيعددون بذلك الألوهية ، ثم يقولون : « مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » (٣) .

=

ب- دليل الامكان : يقوم على أن العالم ممكن ، وكل ممكن يعتمد في ايجاده على واجب وواجب الوجود هو الله تعالى .

جـ- دليل الدقة : يعتمد على أن كل ما فى الكون دقيق فى صنعه ، وهذا يدل على أن له صانعا ، ويستحيل أن توجوه الصدفة ، وهذا الصناع هو الله سبحانه وتعالى .

د- دليل الغاية : ويقوم هذا الدليل على أن كل المخلوقات وجدت لهدف وغاية وذلك لا يكون إلا من خالق عالم قادر مريد هو الله تعالى .

هـ- دليل العناية يقوم هذا الدليل على أن العناية التامة أحاطت بالانسان حيث خلقت أجزاء جسمه المختلفة : كل لوظيفته ، وسخرت له كل ما فى الكون ، وهذه عناية من الله تعالى تدفع إلى الأيمان به .

* والدليلان الأولان هما أدلة المتكلمين والفلاسفة ، والأدلة الثلاثة مستنبطة من النظر فى آيات الكون وآيات القران الكريم ، وقد اشار اليها ابن رشد فى مناهج الادلة » .

(١) لقمان : ٢٥ .

(٢) المؤمنون : ٨٨ ، ٨٩.

(٣) الزمر : ٣.

وهذا هو الشرك الذى يجب ان تبرأ منه عقيدة المسلم ، وهو نفس الشرك الذى هدمته رسالات السماء كلها ، يقول سبحانه « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون» (١) .

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية بالضرورة ، لأن الاقرار بقدرة الله ومالكيته وعلمه ، ونعمه على خلقه يستوجب أن يعبد وحده شكرا على نعمه ، واستزادة من عطاياه ، وطلبا لتزكية النفس ، لأن العبادة تكون لذلك ، وذلك لايقدر عليه غير الله تعالى ، أما الاتجاه بها الى من لايملك ، ولايقدر فهو عبث يأباه العقل السليم وتنكره الاعمال الهادفة ولذلك يخاطب القرآن الناس بهذه الحقيقة فيقول سبحانه وتعالى :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٢) .

والايمان بوجود الله يستلزم – كذلك – أن يكون وحده حاكما فأمره الأمر ونهيه النهى ، لأن ترك أمر الله الى أمر سواه ، أو فعل مانهى عنه بأمر سواه نوع من العبادة لسواه ، وبذلك يكون الشرك، يروى الترمذى عن عدى بن حاتم أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ قوله تعالى :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » (٣) فقال له إنا لسنا نعبدهم ، فقال أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ماحرم الله فتحلونه؟ فقلت : بلى ، قال : فتلك عبادتهم إياهم » (٤) .

(١) الانبياء : ٢٥ .

(٢) الحج : ٧٣ .

(٣) التوبة : ٣١ .

(٤) الدكتور يوسف القرضاوى : العبادة فى الاسلام ص ٨١ .

وقد وصل الاسلام فى تنزيه التوحيد من كل شائبة الى حد جعله يأمر الناس بعدم اتخاذ المقابر مساجد وبترك الحلف بغير الله ، والنهى عن الذبح بغير اسم الله، ويأمر بعدم إطراء الانسان ، أو تعظيمه أو التوجه اليه ، ليكون التعظيم كله لله والاتجاه كله له ، فهو سبحانه المستحق لكل ذلك .

والتوحيد الحق يستلزم – ايضاً – كمالا مطلقا للواحد الاحد سبحانه وتعالى ، وعلى المعتقد أن يؤمن بذلك، وينزه الذات العلية عن كل نقص ، ويثبت لها كل كمال ، ولايسمى الله إلا بالاسماء الحسنى الواردة في النصوص الثابته من قرآن وسنة .

وعلى المسلم أن يرمز الى هذا الايمان اليقينى بـ« شهادة أن لا إله إلا الله » ، والشهادة تعنى العلم والإعلام والاخبار بالاعتقاد الثابت فى القلب ، وهذه الشهادة مستلزمة لكل ماذكرنا من لوازم توحيد الله تعالى .

ثانيا : الايمان بالرسل :

هذا هو الجانب الثانى من العقيدة ، وهى الايمان بالرسل الذين اصطفاهم الله سبحانه وأرسلهم الى الناس لرسم طريق السعادة ، وهداية البشر على وفق شريعة الله ، وهؤلاء الرسل بدأوا بآدم عليه السلام ، وختموا بسيدنا محمد ﷺ فهم عديدون، منهم من قصه الله في القرآن الكريم ، ومنهم من لم يقصصه ، والواجب ان يؤمن المسلم إجمالا بأن رسل الله عديدون ، ويؤمن تفصيلا بمن ورد ذكرهم فى القرآن الكريم (١) ، ويؤمن بأن رسل الله متمتعون بكل كمال يليق بهم .

---

(١) جمعهم بعضهم فى هذه الأبيات

حتم على ذى التكليف معرفة ... بأنبياء على الترتيب قد ذكروا .
فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشرو يبقى سبعة وهموا :
إدريس هود شعيب صالح ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا .

والايمان بالانبياء مستنتج للايمان بالرسل .

وسيدنا محمد ﷺ هو خاتم الانبياء والرسل ، وقد ثبتت رسالته بالمعجزات التى تحدى بها ، منها : انشقاق القمر ، وحنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتسبيح الحصا فى يده وسماعه هذا التسبيح ﷺ ، والاخبار بالغيبيات عن طريق أمين الوحى جبريل على السلام [1] إلا أن المعجزة الكبرى ، والمفخرة العظمى إنما هى : القرآن الكريم ، الذى تحدى به الانس والجن على حد سواء ، فعجزوا ، والعرب أصحاب البلاغة والفصاحة طالبهم الاتيان بمثله ، أو بعشر سور منه ، أو باقصر سورة من مثله فعجزوا .

أهمية ثبوت نبوة محمد ﷺ :

تتضح هذه الأهمية فيا يلى :

أ- إن ثبوت نبوة محمد ﷺ إثبات لمن سبقه من الرسل .

ب- إن الإيمان بهم دافع لثبوت نبوته ، ﷺ فهم بشروا [2] به ، وهو الذى أوحى الله سبحانه اليه بقصصهم الصادقة كما أخبر القرآن الكريم الذى نزل عليه ، فقرأها الناس ، وعلموا حال الامم السابقة مع أنبيائهم ، ولولا ذلك لاستمر قصص كثير من الانبياء فى بطون التاريخ .

جـ- إن الايمان بنبوة محمد ﷺ يستلزم طاعته فيما أمر به ، أو نهى عنه لديل: « من يطع الرسول فقد اطاع الله » [3] .

(١) راجع دلائل النبوة الحسية فى شمائل الرسول ﷺ للإمام أبى الفداء اسماعيل بن كثير : ١٧٤/١ ومابعدها تحقيق طه عبد الروف سعد . ط الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ط حسان القاهر .

(٢) راجع البشارة به ﷺ فى التوارة والانجيل والزبور فى شمائل الرسول ﷺ : ١٤٢/١ - ١٤٨ .

(٣) النساء : ٨٠ .

د- إن رسالته ﷺ لم تجئ لمجرد الرواية والتاريخ ، وإنما جاءت لإصلاح العالم بأسره ، ومحاربة الفساد ، ووضع أساس الحضارة القائمة على العدل والحق والحرية والمساواة بدليل : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »(١) .

هـ- لم تأت رسالة محمد ﷺ لأمة بعينها ، أو لزمان بعينه ، فلم يكن ثمت نص من قرآن أو سنة يفيد هذا المعنى ، وإنما جاءت رسالته شاملة لسائر الناس جميعا ، ومستمرة على الزمن كله ، وإلى أن يرث الله الارض ومن عليها إنه نبى الانسانية ورسول العناية الإلهية ﷺ بدليل :-

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا »(٢) .

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا »(٣) .

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا »(٤) .

ومن ثم كان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التى خلدت ذكر محمد ﷺ ، واتخذه المسلمون أساس تشريعهم ، وأساس هدايتهم ومعرفتهم بالخالق الأعظم تبارك وتعالى .

ز- إن القرآن الكريم هو المدد وحبل الله المتين ، والمحفوظ بإرادة الله العلى الكبير ، يوجه المؤمنين الى ضرورة طاعة رسوله ﷺ ، فيقول سبحانه :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا »(٥) .

(١) الحديد : ٢٥ .
(٢) الاعراف : ١٥٨ .
(٣) الفرقان : ١ .
(٤) سبأ : ٢٨ .
(٥) الحشر : ٧ .

ح- إن الايمان بالنبى ﷺ يستلزم - كذلك - ان تتعلق القلوب والعقول به حبا، واعجابا فهو : « أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (١) .

وهو : « بالمؤمنين رءوف رحيم » (٢) .

وهذا الحب يقتضى احترام سنته وتطبيقها ، وعدم معارضتها بآراء سقيمة فاسدة لأنه « لاينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى » (٣) .

ويقتضى من المسلمين كثرة الصلاة والسلام عليه لأمر الله عز وجل فقال :

« يا أيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » (٤) .

ويلزمهم الخشوع عندذكره ، وعند زيارة قبره الشريف ، والوفاء الدائم له ، وعدم ايذائه بالمعصية ، ويعد لفظ « وأشهد أن محمدا رسول الله » إقرار واعتراف برسالته ﷺ ، وهذه الجملة تأتى مع جملة « اشهد ان لا إله إلا الله » ، ويطلق كثير من العلماء على هاتين الجملتين بشهادة التوحيد .

ثالثا : الإيمان بالكتب السماوية السابقة :

الجانب الثالث من جوانب العقيدة الإسلامية : الايمان الصادق بالكتب السماوية السابقة التى أنزلها الله عز وجل على رسله مشتملة أوامره ونواهيه ، وهذا الايمان نابع من قول الله عز وجل :

(١) الاحزاب : ٦ .
(٢) التوبة : ١٢٨ .
(٣) النجم : ٣ ، ٤ .
(٤) الاجزاب : ٥٦ .

« يا أيها الذين أمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا »(١) .

وقوله سبحانه :

« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله »(٢) .

ليس معنى هذا أن المسلم يؤمن بالكتب التى حرفت وغيرت وبدلت ؟ كلا ، وإنما الايمان بهذه الكتب قبل تبديلها وتحريفها ، وهذا يحتاج من المسلم فهم آيات القرآن التى أثبتت تحريف الكتب السابقة يقول عز من قائل :

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه »(٣) .

« يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به »(٤) .

« يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولن إن أوتيتم هذا فخذوه »(٥) .

« وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه »(٦) .

رابعاً : الإيمان بالملائكة :

الجانب الرابع من جوانب العقيدة الاسلامية بالملائكة : وهو مخلوقون من النور ، قادرون على التشكل بالاشكال الحسنة ، وهم عباد لله مكرمون ،

(١) النساء : ١٣٦ .
(٢) البقرة : ٢٨٥ .
(٣) النساء : ٤٦ .
(٤) المائدة : ١٣ .
(٥) المائدة : ٤١ .
(٦) البقرة : ٧٥ .

لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، وهم ليسوا أناسا كالناس الذين يتصفون بالغرائز والشهوات والضعف ، ولكنهم صنف فريد من خلق الله العابد المطهر الذى يقطع الدهر فى عبادة الله والانشغال بذكره وتسبيحه .. يقطعون أجزاء الدهر والزمان ركعا سجدا لاينامون ، ولا يسأمون ، والملائكة جزء رئيسى من عالم الغيب الذى لايدركه حس البشر القاصر ، وهم من جملة الحقائق التى تملأ هذا الكون الكبير الحافل (١) بالخلائق الغيبية .

والملائكة تنوط بهم وظائف متعددة فمنهم حملة العرش : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (٢) ، ومنهم رسل الوحى : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » (٣) .

ومنهم الكتبة : « مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (٤) .

ومنهم الحفظة : « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين » (٥) .

« له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (٦) .

ومنهم الموكلون بقبض الأرواح ، ورئيسهم عزرائيل عليه السلام .

ومنهم الموكلون بالأرزاق وورئيسهم ميكائيل عليه السلام .

ومنهم الموكلون بالجنة ، ورئيسهم رضوان عليه السلام .

---

(١) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية : مدخل الى الدين الإسلامى ص ٩ .
(٢) الحاقة : ١٧ .
(٣) البقرة : ٩٧ .
(٤) ق : ١٨ .
(٥) الانفطار : ١٠ .
(٦) الرعد : ١١ .

ومنهم الموكلون بالنار ، ورئيسهم مالك عليه السلام .

« ونادوا : يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون »[1] .

وعلى المسلمين جميعا ان يصدقوا بكل أنواع الملائكة ، إن ذكروا بأنواعهم ، وبأشخاص الملائكة إن ذكروا بأشخاصهم ، وأن يصدقوا بسائر الاوصاف الخاصة بهم ، والتى وردت الأدلة الشرعية بها .

خامساً : الإيمان باليوم الآخر :

الجانب الخامس من جوانب العقيدة الايمان باليوم الآخر : وهو يوم القيامة ، وهو من أهم أركان العقيدة ، وأخطرها ، لأنه أمر غيبى لا يصدق به إلا المؤمنون الذى مدحهم الله سبحانه بقوله :

« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة »[2] .

وقد ركز القرآن والسنة عليه أشد تركيز نظرا لأهميته وعلو شأنه ، وبالغ أثره فى حياة الفرد والمجتمع ، ولا يكتمل الايمان إلا إذا اقترن بالتصديق الجازم بيوم القيامة ، وهو يوم رهيب جلل يشهد انقلابا هائلا شاملا مروعا يهتزله الكون كله يقول مالك الملك :

« يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار »[3] .

« يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »[4] .

---

(١) الزخرف : ٧٧ .

(٢) البقرة : ٣ .

(٣) ابراهيم : ٤٨ .

(٤) الانبياء : ١٠٤ .

واليك هذا النداء الرعيب الرهيب الذى خاطب الله سبحانه الخلق جميعا ليستعدوا له وليعموا له ألف حساب :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »(1) .

ففى هذا اليوم تصاب المخلوقات برجة عارمة تدكها دكا ، وتقرعها قوارع الزلزلة العاتية المدمرة التى تأتى على مافى المخلوقات من قوانين ونواميس (2) .

فمن أراد أن يرى يوم القيامة أمامه فليقرأ سور : إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت ، وإذا السماء انشقت ، والسماء ذات البروج .

إنه إذا يوم عسير على الكافرين غير يسير و ترتاع منه البشرية وتذهل من شدة الخطب وهول المفاجأة ، ولقد جاء الايات ترسم صوره وتقربها الى الاذهان .

يقول الواحد القهار : « ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد »(3) .

وقوله سبحانه فى نفس السورة : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج »(4) .

---

(1) الحج : ١ ، ٢ .

(2) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية .. ص ٨٠ بتصرف .

(3) ق : ٢٠ - ٢٢ .

(4) ق : ٤١ ، ٤٢ .

وقوله سبحانه « إن يوم الفصل كان ميقاتا ، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ، وفتحت السماء فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا ، إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا »(١) .

لقد جاءت العبارات القرآنية فى تسمية معنى اليوم الآخر على خير وأروع مايكون التعبير لتصل الى صميم القلب والوجدان فجاءت الالفاظ فخمة ضخمة مخيفة منها :

الطامة ، الحاقة ، الصاخة ، الرجفة ، الزلزلة ، الواقعة ، القارعة ، الغاشية يوم الدين ، يوم التلاق يوم التناد ، يوم التغابن ، ولهذه المسميات مدلولاتها التى تدل عليها ، والتى يستشفه كل ذى لب وعقل فيستعد له .

إن يوم الدين له وقفات ومعابر لابد من مرور كل إنسان فيها وعليها من هذه الوقفات :

أ- يوم البعث :

وفيه إحياء الله عز وجل الموتى لينال كل منهم مايستحق من عذاب ، أو نعيم أى ويدخل فى الايمان باليوم الاخر : الايمان بالبعث والنشور ، والأدلة في هذه الموضوع متوفرة من الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقوله سبحانه : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »(٢) .

(١) النبأ : ١٧ - ٢٢ .
(٢) البقرة :

وقوله سبحانه : « وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا . قل كونوا حجارة أو حديدا أوخلقا مما يكبر فى صدروكم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثم إلا قليلا » (١) .

وقوله سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (٢) .

إلى غير ذلك من الآيات التى فصلت القول فى هذا الموضوع تفصيلا فليرجع اليها فى كتاب الله عز وجل من شاء ، وقد جمعت فى كتاب معارج القبول (٣) .

أما السنة ، فقد وردت أحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا منها :

ما أخرجه الإمام البخارى رحمه الله تعالى قال : « حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال الله كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لى كفوا أحد » (٤) .

---

(١) الاسراء : ٤٩ – ٥٢ .

(٢) المؤمنون : ١٢ – ١٦ .

(٣) بشرح سلم الوصول إلى علم الاصول فى التوحيد تأليف الشيخ حافظ بن أحمد حكمى جـ٢ ص ١٤٧ – ١٥٦.

(٤) اتحاف السادة المتقين : ٤٤٨/١٠ ، والطبرانى : ١٠ / ٣٧٦ .

وقال الامام أحمد رحمه الله تعالى فى مسنده : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حريز ، حدثنى عبد الرحمن ابن ميسرة عن جبيرة بن نفير عن بشر بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ « بصق يوما فى كفه فوضع عليها إصبعه ، قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : بنى آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة »[1] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد و حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات عن هشيم ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« إن العاص بن وائل أخذ عظما من البطحاء ففته بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، يميتك الله ، ثم يحيك ، ثم يدخلك جهنم »[2] ، ثم نزلت الآيات :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون »[3] .

---

(١) ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هارون عن حريز بن عثمان به ، نقلا عن معارج القبول جـ٢ ص ١٥٦ .

(٢) العاص بن وائل السهمى : ابن كثير : ٥ / ٦٣١ .

(٣) يسن : ٧٨ - ٨٣ .

والمتدبر لهذه الآيات من أواخر سورة يس ، ومن قبلها أيات سورة الاسراء المتقدمة أنفا يلاحظ مايلى :-

أولا قال المنكرون : « أإذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعثون خلقا جديدا » فقيل لهم فى جواب هذا السؤال : إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ، ولا رب فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت ، كالحجارة والحديد وماهو أكبر فى صدوركم من ذلك ؟! فإن قلتم : كنا خلقا على هذه الصفة التى لاتقبل البقاء ، فما الذى يحول بين خالقكم ومنشئكم ، وبين إعادتكم خلقا جديدا ؟!.

وللحجة تقرير أخر وهو : لو كنتم من حجارة أو حديد ، أوخلق أكبر منهما ، فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل نواتكم ، وينقلها من حال الى حال ، ومن يقدر على التصرف فى هذه الاجسام ، مع شدتها وصلابتها بالافناء والاحالة ، فما الذي يعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالا أخر هو : « من يعيدنا » إذا استحالت جسومنا وفنيت ؟ فكانت الاجابة « قل الذى فطركم أول مرة » ، فلما أخذتهم الحجة ، ولزمهم حكمها ، انتقلوا الى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع ، وهو قولهم : « متى هو » ؟ فأجيبوا بقوله : « عسى أن يكون قريبا » (١) .

ثانيا : يلاحظ فى آيات أواخر سورة يس مايلى :

قال الله عز وجل : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه .. » الى أخر السورة ، فلو ذهب أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان ، أن يأتى بأحسن من هذه الحجة ، أو بمثلها ، فى الفاظ تشابه هذه الألفاظ فى الايجاز ووضع الادلة ، وصحة البرهان لما قدر ، فإن الله عز وجل افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد ، أقتضى جوابا ،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية الامام القاضى على أبو العز الدمشقى تحقيق وتعليق وتقديم الدكتور : عبد الله بن عبد المحسن التركى وشعيب الارنؤوط جـ١ ص ٥٩٣ ط الثانية ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م .

فكان فى قوله : « ونسى خلقه » ماوفى بالجواب ، وأقام الحجة ، وزال الشبهة ، ولمزيد من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها قال سبحانه :

« قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » فاحتج بالإبداء على الاعادة ، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم علما ضروريا أن من قدر على هذه ، قدر على هذه ، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز ، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه ، وعلمه بتفاصيل خلقه اتبعه بقوله : « وهو بكل خلق عليم » ، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ، ومواده وصورته ، فكذلك الثانى ، فإذا كان تمام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه أن يحى العظام وهى رميم ؟ .

ثالثا : جاء تأكيد الله عز وجل الامر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد أخر يقول : العظام إذا صارت رميما ، عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارة رطبة بما يدل على أمر البعث ، فقيل الدليل والجواب معا ، فقال : « الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » .

فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة ، من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة ، فالذى يخرج الشئ من ضده ، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ، ولا تستعصى عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه ، من إحياء العظام وهى رميم (١) .

رابعاً : يأتى التأكيد بأخذ الدلالة من الشئ الأجل الأعظم ، على الايسر الاصغر ، فإن كل عاقل متدبر ، يعلم ان من قدر على العظيم الجليل ، فهو علي

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٩٤ .

مادونه بكثير أقدر وأقدر ، فمن قدر علي حمل قنطار ، فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا فقال سبحانه : « أوليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم »(١) .

فأخبر سبحانه أن الذى أبدع السماوات والأرض ، على جلالتهما وعظم شأنهما، وكبر جسمهما وسعتهما ، وعجيب خلقهما ، أقدر على أن يحى عظاما قد صارت رميما ، فيردها الى حالتها الاولى (٢) .

قال سبحانه فى موضع آخر :

« لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون »(٣) .

منكرو البعث :

بالرغم من وضوح الأدلة على وقوع البعث إلا أن هناك من الناس من أنكره ، وهم أصناف أربعة :

الصنف الأول : أنكروا المبدأ والمعاد ، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها ، وليس لها رب يتصرف فيها ، إنما هى أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية (٤) .

الصنف الثانى : من الدهرية طائفة يقال لها الدورية ، وهم منكرون للخالق سبحانه وتعالى ، ويعتقدون أن في كل ستة وثلاثين الف سنة يعود كل شئ الى ماكان

(١) يس : ٨١ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٩٥ .

(٣) غافر : ٥٧ .

(٤) معارج القبول جـ ٢ ص ١٦٧ .

عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا فى المعقول وكذبوا المنقول ، قبحهم الله تعالى . وهاتان الطائفتان يعمهم قول الله عز وجل : « وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر » (١) .

ولهذا عن السلف الصالح فيها تفسيران :

أ- فى معنى قولهم : « نموت ونحيا » أى يموت الاباء ويحيى الأبناءُ هكذا أبدا ، وهو قول الطائفة الأول .

ب- المعنى الثانى أنهم عنوا كونهم يموتون ، ويحيون هم أنفسهم ، ويتكرر ذلك منهم أبدا ولا حساب ولا جزاء ، بل ولا موجد ولا معدم ولا محاسب ولا مجازى ، وهذا قول الدورية (٢) .

الصنف الثالث : الدهرية من مشركى العرب ومن وافقهم ، وهم مقرون بالبداءة ، وان الله تعالى ربهم وخالقهم « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » (٣) ، ومع هذا قالوا : « إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » (٤) . فاقروا بالبداءة والمبدئ ، وانكروا البعث والمعاد ، وهم المذكورون فى حديث أبى هريرة الصحيح السابق وهو : « وأما تكذيبه أياى فقوله لن يعدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته » (٥) .

الصنف الرابع : ملاحدة الجهمية ومن وافقهم ، أقروا بمعاد ليس على مافى القرآن ولا فيما أخبرت به الرسل عن الله تبارك وتعالى ، بل زعموا أن هذا

(١) الجاثية : ٢٤ .
(٢) معارج القبول : ٢ / ١٦٧ .
(٣) الزخروف : ٨٧ .
(٤) الدخان : ٣٥ .
(٥) انظر ص

العالم يعدم عدما محضا ، وليس المعاد هو بل عالم آخر غيره ، فحينئذ تكون الأرض التى تحدث أخبارها ، وتخبر بما عمل عليها من خير وشر ليست هى هذه ، وتكون الاجساد التى تعذب وتجازى و وتشهد على من عمل بها المعاصى ليست هى التى أعيدت بل هى غيرها ، والأبدان التى تنعم فى الجنة وتثاب ليست هى التى عملت الطاعة ، ولا أنها تحولت من حال إلى حال ، بل هي غيرها تبتدأ ابتداء محضنا ومن ثم أنكروا الأبدان وزعموا أن المعاد بداءة أخرى (١) !!

وترد السنة المطهرة على هؤلاء المنكرين ، بعد ذكر أدلة وجوب البعث من القران الكريم :

أ- مارواه ابن جرير الطبرى رحمه الله تعالى ، عن أبى أيوب الانصارى رضى الله عنه أن حبرا من اليهود سأل النبى ﷺ فقال : أرأيت إذ يقول الله تعالى فى كتابه : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال « أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه (٢) .

فى الصحيحين عن أبن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل من الاحبار الى رسول الله ﷺ . فقال : يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع فيقول إنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » الآية (٣) .

(١) معارج القبول : ٢ / ١٦٨ .

(٢) رواه ابن أبى حاتم .

(٣) فتح البارى : ٣٧٢/١١ ، ١٣ /٣٩٣ ، والدر المنثور للسيوطى ص ٣٣٥ ، وصحيح مسلم فى صفات المنافقين : ٢٣ ، والبخارى ١٥٨/٦ .

وفى رواية ثالثة للإمام أحمد والترمذى رحمهما الله تعالى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى الماء على ذه ؟ واشار بالسبابة ، والارض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ، كل ذلك ويشير بأصابعه ، قال : فأنزل الله عز وجل : « وما قدروا الله حق قدره » الآية (١) .

وهذه أدلة في غاية الدلالة والوضوح على وقوع البعث .

والحشر : (٢) وهو سوق الناس إلى مكان الحساب .

الحساب : هو إحدى المراحل التى يمر بها الانسان يوم القيامة ، وهو توقيف الناس على أعمالهم وأقوالهم ومعتقداتهم ، وفى الحساب يكون الميزان ، والصحف ، والشهود ، ومن توابعه تكون الشفاعة العظمى .

ويقصد بالحساب ، أن يوقف الانسان على كل ما قدمت يداه . بدليل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٣) .

وقوله سبحانه : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (٤) .

والحساب نوعان : يسير وعسير .

أما اليسير : فإن سيئات العبد فى ميزان الله تعالى يسيرة، فيسترها الله

---

(١) الدر المنثور : ٧ / ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) فى اللغة .

(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٤) الاسراء : ١٣ ، ١٤ .

عز وجل ، ولا يطلع عليها أحد غيره ، ثم يتغمده بواسع رحمته ، فيكون من الفائزين قال سبحانه : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب الى أهله مسرورا »(١) .

وأما العسير من الحساب . فهو اقتراف العبد من الذنوب والخطايا ماتخف به موازينه ، فيكون من الأذلين الهلكى المجرمين ، فيتلقى كتابه بشماله ، ومن وراء ظهره ، يقول الله عز وجل : « وأما من أوتى كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا ، إنه كان فى أهله مسرورا ، إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا »(٢) .

ذلكم هو الحساب الذى يمر به الإنسان ليلقى مصيره ، إما إلى الجنة ، وأما الى النار(٣) .

ويقدم القرآن صورة حية أمام المسلمين ليعرفوا مصيرهم فى نهاية المطاف «يوم يقوم الناس لرب العالمين »(٤) .

يقول جل ذكره :

« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملا ق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه ، ياليتها

(١) الانشقاق : ٧ - ٩ .
(٢) الانشقاق : ١٠ - ١٤ .
(٣) انظر : دراسات فى الثقافة الإسلامية .. ص ١٣٧ .
(٤) المطففين : ٦ .

كانت القاضية ، ما أغنى عن ماليه . هلك عنى سلطانية خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه»(1).

الصراط : وهو جسر مضروب على ظهر جهنم يمر به الأولون ، والآخرون كل بحسب عمله ، فمنهم من يمر عليه كلمح البصر ، ومنهم من يمر به كالبرق ، ومنهم من يمر عليه كالجواد ، ومنهم من يجوز عليه زحفا ، وهكذا .

فمن الذى ينجو وهو مار على جهنم ؟ والله تعالى يقول : «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » (2) .

وقال الله سبحانه : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير » (3) .

روى الامام أحمد عن كثير بن زياد البرسانى عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود « وإن منكم الا واردها » - فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا يدخلونها جميعا ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله رضى الله عنه فقلت له : إنا اختلفنا فى الورود فقال : يردونها جميعا ، وقال سليمان بن مرة :

(1) الحاقة : ١٨ - ٣١ .
(2) مريم : ٧١ ، ٧٢ .
(3) الحديد : ١٢ - ١٥ .

يدخلونها جميعا ، وأهوى بأصبعيه الى أذنيه وقال : صُمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها : فتكون على المؤمن برداً وسلاما كما كانت على ابراهيم حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ، « ثم ينجى الله الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » (١) .

وروى الطبراني عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة باسمائهم سترا منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله تعالى يعطى كل مؤمن نورا وكل منافق نورا ، فإذا استوا على الصراط سلب الله تعالى نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون ربنا أتمم لنا نورنا ، فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا » (٢) .

يفهم هذا من قول الله عز وجل : « يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شئ قدير » (٣) .

الحوض : لكل نبى حوض يرده أتباعه المؤمنون الطائعون وحوض النبى ﷺ أكبر الأحواض وأعظمها .

ومما تجدر الاشارة اليه أن ليوم القيامة علامات تسبقه ، وهى قسمان : صغرى وكبرى وبيان ذلك وتوضيحه كتب التوحيد .

---

(١) نقلا عن معارج القبول : ٢/٢٢٩ . والموضوع له عدة روايات ، كلها تؤكد الورود ، راجع صفحات : ٢٢٣٠ - ٢٣٢ من نفس المرجع .

(٢) ابن كثير : ٤ / ٥٥٤ . وراجع معارج القبول : ٢ / ٢٣٢ .

(٣) التحريم : ٨ .

القضاء والقدر :

ذلكم هو الركن السادس من أركان العقيدة الإسلامية دليله : ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه باسناده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس الى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام ان تشهد أن لا إله إلا الله ، وان محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا » قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الايمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الأخر ، وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره » قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الاحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » [1] .

وأخرج الإمام مسلم بسنده عن طاوس أنه قال : أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : « كل شىء بقدر » ، قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله ﷺ : « كل شئ بقدر ، حتى العجز ، والكيس » [2] ، أو «الكيس والعجز » .

مفهوم كل من القضاء والقدر :

هل هما متغايران ؟ أم أنهما اسمان لمسمى واحد ، بحيث يكون كل منهما مرادف للآخر فى المعنى والمفهوم ؟ والذى يظهر من البحث والتنقيب أنهما متغايرات وإليك البيان :

(١) أخرجه الامام مسلم : ١ / ٢٩ .

(٢) رواه الامام مسلم فى القدر : ٨ ، ومسند الامام أحمد : ٢ / ١١٠ ، وكنز العمال : ٢٠٥١٠ ، وفتح البارى ٣٤٢/٩ .

فالمقصود بالقدر : هو علم الله الأزلى بوقوع الاشياء والحوداث من قبل ان تقع ، فهو سبحانه عالم بكل ما سيكون من قبل ان يكون ، وعلمه بذلك كله قديم بمعنى الأزلية التي لايحدها زمان . وعلى ذلك يقول سبحانه وتعالى : « ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماوات والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير » (١) .

وقوله سبحانه : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (٢) .

فالله سبحانه عليم بأجزاء الكون وحوادثه ، فلا يند عن علمه وإحاطته شئ ، وإن كان مثقال ذرة أو أصغر . كل ما هو كائن فى زمن المستقبل ، مهما امتد الزمان وطال فإن الله به عليم .

وعلم الله تعالى ليس كمثله علم . فإن علم الخلائق محدث ومحدود ، أما علمه سبحانه فقديم أزلى مطلق لايتحدد بزمان أو مكان . ذلك هو المفهوم الأولى لحقيقة القدر (٣) .

والايات التالية تعطينا مفهوما شاملا للقدر :

قال سبحانه : « إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا » (٤) .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٥) .

---

(١) الحج : ٧٠
(٢) الحديد : ٢٢ .
(٣) انظر دراسات في الثقافة الإسلامية .. ص ١٥٢ .
(٤) الطلاق : ٣ .
(٥) يس : ٣٩ .

« وخلق كل شئ فقدره تقديرا » (١) .

« والله يقدر الليل والنهار » (٢) .

« وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ، ومانتزله إلا بقدر معلوم» (٣) .

يفهم من هذه النصوص الكريمة : أن الكون بكل مافيه من خلائق وكائنات وحوادث ، قد جاء منظما على أكمل مايكون عليه النظام من اتساق وانضباط وتكامل، وليس الكون بمحتوياته بمنشقا عن إرادة الله وتقديره ، وإنما كله مشدود لسنن الله فى الكون والحياة فلا يرتد أو يتخلف ، ولا يتحول أو يند (٤) .

وهذان المفهومان لحقيقة القدر متكاملان بحيث يستقيم أحدهما بالاخر :

فالمفهوم الأول : أن الله علم بالاشياء ، والحوادث فى الارض من قبل أن تقع ، فكل شئ ، أو حادث إنما هو مسبوق بعلم الله القديم .

والمفهوم الثانى هو : إن كل شئ منظم تنظيما دقيقا يسير داخل نظام كونى متسق شامل جاء كما شاء له الله مقدرا تقديرا (٥) .

أما القضاء :

فهو تعلق إرادة الله سبحانه بالاشياء عند إيجادها ، وذلك الذى يمكن الاطمئنان اليه والتعويل عليه ، مع أن هذا التعريف قد قيل فى القدر كما ذهب إليه

(١) الفرقان : ٢ .

(٢) المزمل : ٢ .

(٣) الحجر : ٢١ .

(٤) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية .. ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٥٤.

بعض أهل العلم ، وبذلك فإن قضاء الله سبحانه هو أن تتعلق إرادته بالافعال والاشياء عند تحققها ، وذلك أمر مسبوق بإرادته المتعلقة بتلك الامور منذ الأزل (١) .

وبعبارة أخرى : فإن القدر متعلق بتقدير الله سبحانه للأفعال ، والاشياء جميعا في الازل وهو تقرير منوط بعلم الله تعالى القديم ، أما القضاء فهو متعلق بتحقيق الله تعالى للأفعال والاشياء كما علم وأراد ، ومن ثم فإن القدر علم وارادة ازليان ، والقضاء بمثابة تحقيق لعلم الله سابق وتنفيذ لارادة قديمة .

ومن هذه الايات الكريمة التالية يمكننا استخلاص مفهوم القضاء .

يقول الله عز وجل : « ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » (٢) .

« إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٣) .

« فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » (٤) .

« وقضى الامر والى الله ترجع الامور » (٥) .

فهذه طائفة من النصوص الكريمة تدل على مفهوم القضاء ، الذى يعد تنفيذا لإرادة الله سبحانه الأزلية على وفق ماقدر وأراد .

والذى يفهم من أدلة القضاء والقدر كذلك أن القدر : هو السنن التى سنها الله لهذا الكون والنظام الذى سلكه به ، والقوانين الطبيعية التي سيره عليها ، وأن كل

(١) تقرير على متن الاربعين النووية للشيخ هاشم الزرقاوى ص ١٦ .
(٢) الانفال : ٤٢ .
(٣) يونس : ٩٣ .
(٤) غافر : ٧٨.
(٥) البقرة : ٢١٠ .

مافيه قد خلق بمقادير معينة ونسب محددة ، فما من موجود إلا وقدر قبل ايجاده مقداره وعدد ذراته ، وكمية العناصر التى يتألف منها ونوعها ، ومايعرض له من امتزاج بغيره ، وانفصال عنه ، ومايناله من حركة وسكون ، كل ذلك محدد منذ الأزل [1] .

ويمكن ضرب مثال للفرق بين القدر والقضاء « ولله المثل الأعلى » .

العمارات التى تقام تعلق عليها لوحة كتب عليها : « إن التصميم للمهندس الفلانى ، والتنفيذ للمقاول الفلانى » . فعمل المهندس رسم الخريطة وتعيين علو البناء، وسمك الجدار ، وما يوضع فيها من الحديد ، والاسمنت والحجر ، ونسبة كل منها ، وما يكون فيها من أبواب ونوافذ يقدر ذلك ويحدده ، هذا مثال : القدر .

والمقاول ينفذ ماقدره المهندس ، وهذا مثال القضاء ، وكلاهما لله سبحانه وحده :

وكما يمكن للمهندس أن يبدل – اذا أراد – فى بعض تفصيلات التصميم ، فالله سبحانه من رحمته جعل الدعاء والصدقة سببا فى رفع بعض ماكان مقدرا قدرها وحده ورفعها بالدعاء وحده [2] .

ولو كان كل مايفعل العبد مجبرا عليه من الأزل ، لا يبدل ولا يعدل ، وليس له اختيار فيه لم يكن هناك من فائدة لبعثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام، وجهاد الكفار ولا للدعاء الذى قال فيه رب العالمين : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » [3].

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام للشيخ على الطنطاوى ص ١٣١ ، ط الثالثة عشر . ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة

(٢) المرجع نفيسه ص ١٣٢ .

(٣) الفرقان : ٧٧ .

وقد دعا الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، والخلفاء الراشدون ، وصلحاء كل أمة ، طالبين من الله سبحانه دفع الشر ، وجلب الخير (١) .

هذا معنى القدر بوجه عام ، وهو يشمل كل موجود أوجده الله سبحانه ، قدر الله مقاديره وأحواله وعلم ماسيكون له ومايكون منه ، ومن جملة مخلوقات الله الانسان(٢) .

مكانة القدر :

لما كان القدر هو التقدير المطابق للعلم ، فإنه يتضمن أصولا عظيمة :

الأول : أنه عالم بالامور المقدرة قبل كونها ، فيثبت علمه القديم ، وفى ذلك الرد على من ينكر علمه القديم .

الثانى : إن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ، ومقاديرها هى صفاتها المعينة المختصة بها ، فإن الله قد جعل لكل شئ قدرا ، قال تعالى : « وخلق كل شئ فقدره تقديرا » (٣) .

فالخلق يتضمن التقدير : تقدير الشى فى نفسه ، بأن يجعل له قدر ، وتقديره قبل وجوده ، فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذى يخصه فى كميته وكيفيته ، كان ذلك أبلغ فى العلم بالأمور الجزئية ، خلافا لمن انكر ذلك ، وقال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات ! فبالقدر يتضمن العلم القديم ، والعلم بالجزئيات معا .

الثالث : إنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارا

---

(١) المرجع نفسه هامش ٦٣ ص ١٣٢ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) الفرقان : ٢ .

مفصلا و فيقتضى انه يمكن أن يعلم العباد الامور قبل وجودها علما مفصلا ، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك ، فكيف لايعلمه هو ؟!

الرابع : أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله ، مُحدث له بمشيئته وارادته ، ليس لازما لذاته .

الخامس : أنه يدل على حدوث هذا المقدور ، وأنه كان بعد ذلك أن لم يكن ، فإنه يقدره ثم يخلقه (١) .

احتجاج فاسد بالقدر :

يتذرع بعض الكفرة والعصاة بالقدر ليصبغوا كفرهم وعصيانهم بالشرعية ، كما يحلو للبعض القول : هل عملت السوء بمشيئة الله أم لا ؟ هل كنت استطيع ألا أعمله ؟ وهل خلقت أنا عملى ؟ وذلك كله بحث عقيم ، لأن الخالق لا يقاس على المخلوقين ، والعقل لا يحكم على الله سبحانه وصفاته .

والله عز وجل لا يسأل عما يفعل ، وإنما يسألنا عن أفعالنا ، والله عادل لاشك فى عدله ، وخير لنا أن ننظر الى أنفسنا ، وأن نحسن استعمال عقولنا ، ونعمل على توجيه ارادتنا الى الخير (٢) ، ومن العصاة من يحتج لعصيانه بالقدر ، تقول للزانى : لم زنيت ؟ فيقول : لأنه قدر على ! وهى حجة واهية مردودة عليه من وجهين :

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ٢٥٩ .

(٢) تعريف عام بدين الإسلام ص ١٣٩ .

الأول : لأن الحساب والعقاب يكون على العمل ، وعلى الدوافع اليه والبواعث عليه ، وهذا الزانى لم يطلع على اللوح المحفوظ ، وانما يبحث عن وسيلة يبرر بها معصيته ، وهو فى الحقيقة ذهب وراء شهوته ، وطلبا للذة العاجلة ، واستجابة لنداء الشيطان .

وقد احتج المشركون بمثل هذه الحجة يقول الله عز وجل :

« سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون »[1] .

فكان رد الله عليهم : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ »[2] . أى : من أين عرفتم قبل ان تشركوا ان الشرك مقدر عليكم ؟ وهل جربتم الإيمان فوجدتم بأنه ممتنع عليكم ؟

الوجه الآخر : أنه لوكان المحتج بالقدر صادقا ، لرضى بكل مايقدره الله عليه من فقر ومرض وجوع ، وفقد حبيب ، أوذهاب مال الى غير ذلك ، والمشاهد أنه لايرضى بذلك وهو مقدر عليه ، ولايسكن اليه ، بل إنه يعمل لجمع المال ، ودفع المرض وإذهاب الجوع ، ويشتد المه لفقد الحبيب ، وذهاب المال ، فلماذا سخر قواه كلها ، واستعمل عواطفه لجلب لذة الدنيا ، ودرء الالم فيها ، ولم يسخر عقله لقمع الشهوة ، ومنع النفس من الحرام الذى ترغب فيه وهو يعلم ما فى عقبه من العذاب[3] ؟! .

(١) الانعام : ١٤٨ .
(٢) الانعام : ١٤٨ .
(٣) تعريف عام بدين الإسلام : ص ١٤٠ .

فالقدر يؤمن به ولا يحتج به ، بل العبد مأمور أن يرجع الى القدر عند المصائب ، ويستغفر الله عند الذنوب والمعايب وفي نسخة – المصايب – كما جاء في قوله سبحانه : « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك » (١) .

ومن ثم حج آدم موسى عليهما السلام ، لما لام موسى آدم لأجل المصيبة التي حصلت له بأكله من الشجرة ، فذكر له آدم : « أن هذا كان مكتوبا قبل ان أخلق » فحج آدم موسى (٢) .

كما قال رب العزة : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولافي انفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » (٣) .

وقال سبحانه : « ما أصاب من مصيبه إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٤) .

قال بعض السلف : « هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ، ويسلم » (٥) .

فهذا هو وجه احتجاج آدم بالقدر ، ومعاذ الله أن يحتج آدم أو من هو دونه من المؤمنين على المعاصي بالقدر ، فإنه لو ساغ هذا لساغ أن يحتج إبليس ومن اتبعه من الجن والانس بذلك ، واحتج به أيضاً كل من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ،

(١) غافر : ٥٥ .

(٢) راجع صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء باب وفاة موسى : ٤٤١/٦ برقم ٣٤٠٩ ، وصحيح مسلم : كتاب القدر باب حجاج آدم موسى عليهما السلام : ٢٠٤٢/٤ – ٢٠٤٤ برقم ٢٦٥٢ .

(٣) الحديد : ٢٢ .

(٤) التغابن : ١١ .

(٥) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره : ٢٨ / ٨٠ عن علقمه .

وسائر أهل الكفر والفسوق والعصيان ولم يعاقب ربنا أحدا ، وهذا مما يعلم فساده بالاضرار شرعا وعقلا [1] .

ولو كان الاحتجاج بالقدر مقبولا لم يمكن للناس أن يعيشوا ، إذا كان لكل من اعتدى عليهم ان يحتج بذلك ، فيقبلوا عذره ، ولا يعاقبوه ، ولا يمكن لاثنين من أهل هذا القول أن يعيشا ، إذ لكل منهما أن يقتل الاخر ، ويفسد جميع أموره محتجا على ذلك بالقدر [2] .

مواقفنا ومواقف السلف أمام عقيدة القدر :

يتهم خصوم [3] الإسلام المسلمين اليوم بالتواكل والتكاسل ، والسبب فى ذلك الإسلام الذى جمدهم بعقيدة القضاء والقدر .

وهذا افتراء على حقيقة الاسلام ، لأن القدر فى اللغة : معناه : جعل الشئ بمقياس مخصوص ، أو وزن محدد ، أو وجه معين يجرى على سنة معلومة ، يقول جل ذكره :

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض » [4] .

---

(١) راجع اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة اصحاب الجحيم لشيخ الإسلام أحمد بن تيميه رحمه الله ٨٤٨/٢ تحقيق وتعليق د/ ناصر بن عبد الكريم العقل .

(٢) انظر المرجع السابق : ٨٤٩/٢ .

(٣) منهم : مسيو : هانوتو وزير خارجية فرنسا (منذ نصف قرن) ومقاله فى مجلة (الجرنال) الفرنسية راجع « الإسلام بين العلم والمدنية » للإمام الشيخ محمد عبده ص ٧٥ . والمسيو كيمون فى كتابة : « باثولوجيا الإسلام» . وواشنجتون ارفنج مؤرخ حياة الرسول ﷺ.

(٤) المؤمنون : ١٨ .

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وماتزداد وكل شئ عنده بمقدار »[1] .

أى أن لكل شئ من مخلوقات الله عز وجل سننا ونواميس ومقادير منظمة ، وباعتبار الانسان جزءا من الوجود فلابد أن ينطبق عليه النظام الذى اقتضته كلمه الله وتقديره : « من أى شئ خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره »[2] .

وجاء فى القرآن الكريم عند تقدير الزمن : « والله يقدر الليل والنهار »[3] .

وجاء فيه على التعميم قوله تعالى : « وخلق كل شئ فقدره تقديرا »[4] .

ومن ثم فإن عقيدة القدر فى القرآن الكريم ، إنما تعلم المسلمين أن لهذا الكون نظاما محكما دقيقا ، وسننا مطردة ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات ، وأنه لا يوجد فى كون الله تعالى خلل ولا مصادفات[5] .

قد يكون فى هذه التهمة بعض الحق ويرجع السبب فيها سوء فهم كثير من المتأخرين لعقيدة القدر . فلقد اتخذها كثير من المسلمين الجاهلين حجة لارتكاب المعاصى ، وسبب للكسل والخمول ، مع أن سلفنا الصالح قد اتخذوا منها دفعا الى العمل والجهاد[6] .

(١) الرعد : ٨ .

(٢) عبس : ١٨ ، ١٩ .

(٣) المزمل : ٣٠ .

(٤) الفرقان : ٢ .

(٥) انظر الإسلام فى قفص الاتهام : شوقى أبو خليل ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . دار الفكر ، دمشق ، ط الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م .

(٦) انظر تعريف عام بدين الإسلام ص ١٤٠ .

سمعنا وقرأنا : أن الرزق مقسوم ، « ماكان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك » ، فظن قوم ان مقتضى ذلك ترك الكسب ، وإهمال السعى، وأن نقعد بلا عمل ، وأن نسافر بلا مال ولا استعداد ، لكن السلف فهموا غير مافهمنا فهموا منه أن عليهم أن يعملوا كل مافى وسعهم ، وان يبذلوا كل مافى طاقتهم لجمع المال من حلال ، وفى نهاية المطاف رضوا بما جاءهم ، من الله فلا سخط ، ولاتذمر (١) .

وسمعنا أن الاجل محتوم ، فاتخذنا ذلك سببا لإهمال التوقى ، والاحتياط ، وإضاعة المسؤليات ، والخلط بين الجريمة المتعمدة وبين القدر الذى وقع بلا جرم ، فيسرع السائق حتى إذا اصطدم قال : إنه القدر ، ويهمل التلميذ ، فإذا رسب احتج بالقدر ، لكن أجدادنا لما سمعوا أن الاجل محتوم قالوا : لا يموت أحد قبل موعده ، ولو خاض اللهب ، وتلقى بصدره الرماح ، ولا يتأخر عن موعده ولو اعتصم فى حصن له سبعة أسوار ، فلنعمل لما يرضى الله ، نجاهد بأنفسنا فى سبيل الله ، لا نخشى الموت لأن الموت محتوم ، له موعد لايسبقه ولا يتأخر عنه ، ولنجاهد بألسنتنا فى انكار المنكر ، ومواجهة الجور بكلمة الحق ، فأقبلوا لايخشون فى الحق أحدا ، ولا يخشون أحدا إلا الله تعالى (٢) .

وفهمنا أن كل شئ مقدر ، وأهملنا دراسة سنن الله تعالى فى الكون ، وقوانين الطبيعة التى جعلها ربنا سببا للنفع والضرر ، وكان علماؤنا يعرفونها ويستفيدون منها، وينشرونها على الناس ، ولما تركنا دراسة أسرار الله سبحانه فى الكون هبطنا

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٤١ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٤١ بتصريف ، وانظر : الإسلام فى قفص الاتهام ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

من الذروة الى السفح ، لقد كان أجدادنا بالإيمان سادة الدنيا وقادتها وأساتذتها ، فصرنا المسودين المقودين وفتحوا بسيف الحق ثلث العالم المتحضر حينذاك ، وفتح عدونا اليوم بسيف الباطل قلب بلادنا [1] .

إن القرآن الكريم يثبت فى مواضع كثيرة اختيار الانسان ومسئوليته ..ليس الجمود والتواكل كما يدعى المسيو هانوتو – فإرادة الانسان وعمله هما مصدر مثوبته وعقابه .

« من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد » [2] .

أما إذا كان القدر يعنى الاستسلام للنوازل ، كما ذكر المؤرخ الجبرتى الذى عاصر حملة نابليون على مصر ، وأن الفرنسيين أوهموا المصريين أن احتلال مصر قدر ، ومثل هذا فعله الفرنسيون فى الجزائر ، بحيث أوهموا الناس ان عليهم تحمل القدر والاستسلام له ، « أن الله مع الصابرين » [1] فهذا قدر وجبر عليهم.

وهو فى الحقيقة تخدير لعقول المسلمين ، ودعوة لهم الى الذلة والخزى ، فإن كانت النوازل قدرا فيجب ان ندفعها بقدر ، أما دفع المسلمون قدر الطاعون بقدر الحجر الصحى ، وقدر حصار المدينة المنورة بقدر حفر الخندق ، وقدر تعنت المشركين بقدر معركة بدر .

الجوع قدر والطعام قدر ، فدفع قدر الجوع بقدر الطعام ، مجئ نابليون ،

(١) انظر تعريف عام بدين الإسلام ص ١٤١ ، بتصريف .

(٢) فصلت : ٤٦ .

(٣) البقرة : ١٥٣ .

وكل محتل غاصب قدر ، وحرب هؤلاء واخراجهم من البلاد قدر ، فندفع قدر الاستعمار بقدر الجهاد ، شرب الخمر قدر ، وجلد عمر رضى الله عنه لشاربه قدر ، أما قال للشارب هذه قدر هذه [1] .

لكن من أين جاءت كلمة « جبر – وقدر ؟

من مصادر ثلاثة :

١- **من مصدر يهودى :** فهناك فرقة من اليهود مرضت بمرض الجبر المطلق واسمها الفريسيون .

٢- **ومن مصدر هندى صينى فارسى :** فالبرهمية والبوذية والمزدكية تبرر القدر ، وترضى به ، ومن ثم وجدنا ان « جهم بن صفوان» أحد اركان الجبرية قد وجد فى خراسان انصارا له .

٣- **ومن مصدر يونانى :** فقد أقر اليونانيون الجبر ، حتى أن سواد الناس فى بلاد الاغريق يسلموا تسليما مطلقا ان الحرب اليونانية الطروادية « جبر وقدر » من الآلهة [2] .

فائدة الايمان بالقدر :

تتلخص هذه الفائدة :

أ- بما يحصل به من الرضا الذى يوصل الى الراحة التى توصل الى الاطمئنان لأن نصف الأمراض من الحزن ، ومن النكد والارق ، وقد قيل « الهم نصف الهزم » .

---

(١) انظر الإسلام فى قفص الاتهام ص ٢٤٠ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ٢٤١ .

كما أن أمراض القلب وتصلب الشرايين من الهم والحزن والكدر والخوف ... والايمان بالقدر يذهب هذا كله « لكى لا تأسوا على مافاتكم » ، « احرص على ماينفعك واعمل وأحسن واستعن بالله ولاتعجز ، وأن اصابك شئ فقل قدر الله وماشاء فعل ، ولا تقل لو . فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

ب- المؤمن بالقدر يقول عند المصيبة : يارب أخذت ولدى وأبقيت إيمانى ، أخذت زوجتى وبقيت أنت لى .. فإذا رأى الله من عبده هذا جعل له من ضيقه فرجا ، فإن حدثت خسارة لا راد لها ، فتلك مصيبة ، وأن رافقها الحزن تصبح مصيبتين : خسارة وحزن ، ففائدة الايمان بالقدر هنا ليرضى الانسان بمصيبة واحدة نزلت ، وليسعى إلى ماهو آت بأمل جديد : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »[1] .

فالدعوة الى العمل من أسس العقيدة ، بل هى مما يفتخر به المؤمن يوم تسود وجوه وتبض وجوه[2] .

جـ- الايمان بالقدر دعوة صريحة الى الحركة والعمل ، ونبذ التواكل والكسل، فالرزق وإن وجد إلا أنه لا يأتى إلا بالعمل والجهد وهذا مبدأ الإسلام ودعوته .

الدليل : ما خاطب الله عز وجل به مريم عليها السلام وهى فى أضعف حالة ، ألا وهى ساعة المخاض والولادة ، فهو سبحانه لم يبعث اليها برزقها ويطلب منها ان تتناوله ، وإنما خاطبها بقوله سبحانه : « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا »[3] ، ولو كانت دعوة القرآن دعوة الى الاتكال لبعث الله إليها رزقها ، مما يقمع اراء المتهمين للإسلام بأنه سبب تواكل المسلمين وتكاسلهم .

---

(١) التوبة : ١٠٦ .

(٢) انظر : الإسلام فى قفص الاتهام ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) مريم : ٢٥ .

د- ومن فائدة الايمان بالقدر ، البحث فى نظام الكائنات ، والتعرف على سنن الله فى المخلوقات ، وطلب الاشياء من اسبابها ، فالمرض قدر ، والبحث فى اللقاح والدواء قدر يدفع القدر الأول ، الكهرباء قدر ، واستخدامها لطرد الظلام ، وتشغيل المعمل قدر .. فالقدر يوافق العمل ، ولايمنع من الفكر والبحث بل يحث عليهما (١) .

هـ- ويوم أن يفهم المسلم المعاصر فائدة القدر كما فهمه السلف ، الذين انقادوا للاحكام ، وفقهوها ، ثم استسلموا للاقدار استسلام المؤمن بالقدر عند نزوله، فكانت عقيدة القدر عندهم قوة دافعة الى الامام : جهاد ، فتوح ، استشهاد ، علم ، وتأليف ، واكتشاف . (٢) فسيصل إلى ماوصلوا إليه .

المسلمون اليوم فى حاجة ضروية الى من يفهمهم معنى القضاء والقدر حق معناه ، أن يفهموا أن للقدر وقتا كما ان لصلاة العشاء وقتا معينا ، لايجوز تأديتها قبله .

أما سبب تأخر المسلمين دينا ، فلأن الايمان فقد من القلوب وصار وراثيا ، كابن الطيب الذى ادعى انه طبيب بعد وفاة والده دون أن يتعلم أو يدرس الطب ، فالعلم والايمان لا يورثان (٣) .

إن الإسلام بحاجة ماسة الى من يبينه فى النفوس ، والذى يبينه إنما هو الشيخ الوارث صاحب العقل الحكيم ، والسعة فى العلم فى الطلاع ، ليزكى النفس والروح معا .

(١) انظر الإسلام فى قفص الاتهام ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ بتصريف .
(٢) انظر المرجع نفسه ص ٢٤٣ بتصرف .
(٣) انظر المرجع نفسه .

إن صفة مثل هذا الشيخ المعلم ، أنه يصنع الانسان العظيم ، فيجعل الصعلوك بطلا ، يدبر عقله أمة ... ويجعل الامة حية فى أخلاقها ووحدتها ورخائها ، يجعلها عظيمة فى العلوم كلها .. وان كان البحر شق لموسى عليه السلام فهو يشق بحور العلوم كلها للعالم أجمع (١) .

فإذا وجد هذا المربى طرد الخرافات ، والتواكل من النفوس ، وبعث العلم والتقدم والعمل مع الاعتماد على الله عز وجل ، فيصير العربى المسلم اليوم همه العالم أجمع ولو بقى المسلمون كاؤلئك المسلمين لصنعوا الطائرات قبل أوربا ، ولا كتشفوا القمر وغزوا الفضاء .

رب ميت قد ثار بالعلم حيا ومبقى قد مات جهلا وغيا

فاقتنوا العلم كى تنالوا خلود لا تعدوا الحياة بالجهل شيا

هذه نظرة الإسلام الحنيف الى القدر ، فلا دعوة الى استسلام ولا تواكل ولا خنوع ، لأنها هذه كلها بعيدة .. عن روح الإسلام ، التى نفخها الله سبحانه فى المؤمن الحق (٢) .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٢٤٤ بتصرف .

(٢) انظر المرجع نفسه بتصرف ص ٢٤٤ .

ثانيا : مفهوم الشريعة

إن القرآن : الذى هو الأصل الجامع لحقيقة الإسلام أرشد الى ان الإسلام عقيدة وشريعة ، وسبق بيان العقائد وكانت فى حكمه الحد الفاصل بين الإسلام والكفر (١) .

تعريف الشريعة : هى الطريقة الموضوعة للسير عليها ، والمراد بها التكاليف الظاهرة التى تؤدى بالجوارح .

أنواع التكاليف : التكاليف لها أنواع متعددة ، وأعظمها العبادات التى رسم الله حدودها ، وبين دقائقها كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وتلك فروض عينية واجبة الأداء على كل فرد يأثم بتركها ، ويثاب على فعلها (٢) .

وهناك فروض الكفاية : كالجهاد ، والعلم ، وأعمال الصناعة ، والزراعة وغيرها ، وهى واجبة على الاجمال ، لكن إن أداها البعض سقط الطلب عن الباقين، أما ان تركها الجميع ، فقد أثموا جميعا .

أهمية الشريعة فى الإسلام : أنها نظمت سائر علاقات البشر بالله وجعلتها أسسا لكافة العلاقات البشرية إن الانسان هو وحده ، أو فى أسرة ، أو فى جماعة ، أو وطن ، وهو حاكم أو محكوم ، وهو طفل أو كبير ، وهو ذكر أو أنثى ، هذا الانسان

---

(١) انظر للشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى الاسلام عقيدة وشريعة ص ٧٣ .

(٢) راجع تفصيل هذه العبادات فى كتب الفقه .

تحيطه نظم الشريعة ، راسمة له المنهج السوى ، وطريق النجاة فى الدنيا والاخرة[1].

والشريعة لاتنفك عن العقيدة ، لأنهما متلازمان ، ومن ثم فمن آمن بالشريعة ، وأنكر العقيدة فهو كافر ، ومن آمن بالعقيدة وأهمل الشريعة فهو غير سالك طريق الناجيين عند الله سبحانه .

إن العقيدة ثابتة بالأدلة القطعية ، وأيضاً كل ما حدد من عبادات الشريعة وماثبت بدليل قطعى لا تغيير فيه ، أما ماعدا العقيدة ، والعبادات فإن الشريعة قد وضعت له الاصول الثابتة والكليات العامة ، وتركت فروع التطبيق للناس ، لأن هذه الفروع تختلف باختلاف الزمان والمكان وترسمها المدارس الفقهية المختلفة .

يتضمن الجانب التشريعى لرسالة الإسلام ، كل ماشرعه الله سبحانه وتعالى من أحكام ومبادئ ، وكلف المسلمين بها ، سواء فى علاقتهم بالله تقربا اليه سبحانه وتعالى ، أو فى علاقتهم مع بعضهم البعض ، أو مع غيرهم من الناس ، وهذه الاحكام والمبادئ تنقسم الى قسمين هامين :

---

(١) ويقول الشيخ محمود شلتوت : والشريعة هى النظم التى شرعها الله سبحانه ، أو شرع أصولها ليأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه ، وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم ، وعلاقته بأخيه المسلم ، وسبيلها تبادل المحبة والتناصر على الدوام والاحكام الخاصة بتكوين الاسرة والميراث .

* وعلاقته بأخيه الانسان وسبيلها : التعاون فى تقدم الحياة ، والسلم العام .

* وعلاقته بالكون : وسبيلها حرية البحث والنظر فى الكائنات واستخدام آثارها فى رقى الانسان.

* وعلاقته بالحياة : وسبيلها التمتع بلذائذ الحياة الحلال دون إسراف أو تقشف ، راجع الإسلام عقيدة وشريعة ص ١٠ هوامش من ٢ – ٦ .

القسم الأول : ويتضمن الاحكام المرتبطة بالعبادات وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج ومايلحق بها ، وهذه العبادات الأربع فرضت على المسلمين للتقرب بها الى ربهم ، ولكى تكون عنوانا على صدقهم فى الايمان به ، ومراقبته ، والتوجه اليه ، واستحضار عظمته .

ونظراً الى أن المقصود من هذه العبادات الاربع مضموم الى الاقرار بوحدانية الله سبحانه ورسالة محمد ﷺ هو تطهير القلب ، وتزكية النفس وقوة مراقبة الله ، التى تبعث على امتثال أوامره والمحافظة على شرائعه فى جميع نواحيها ، كانت هى العمد التى يبنى عليها الاسلام [1] ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « بنى الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » [2] .

القسم الآخر : وهو يتضمن الاحكام والمبادئ ألتى على المسلمين الألتزام بها لحفظ مصالحهم ، ومايتعين أن تكون أنظمتهم الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية بما يحقق لهم الأمن والاطمئنان ، وبما يؤدى بهم الى إقامة المجتمع المثالى الخالى من المظالم ، وعلى وجه الخصوص يشمل كل مايتعلق بشئون الاسرة والاموال ، والمبادلات والميراث والعقوبات وعلاقة الجماعة الإسلامية بغيرها [3] .

وكما اصطلح على ان يطلق على احكام القسم الأول اسم العبادات ، فقد اصطلح ايضاً ان يطلق على احكام هذا القسم اسم « المعاملات » .

---

(١) الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) انظر د/ عبد الواحد محمد الفار : الثقافة الإسلامية دراسة تأصيلية لمضمون الرسالة الإسلامية فى ضوء القرآن والسنة ص ٢٨ .

والجانب التشريعى : فى رسالة الإسلام يكمله الجانب العقائدى منها . وقد سبقت الاشارة الى أن الجانب العقائدى هو الجانب النظرى الذى يتطلب الايمان به أولا ، وقبل كل شئ إيمانا لايرقى اليه شك ولا تؤثر فيه شبهة ، ونقول الان ، إن الجانب التشريعى هو الجانب العملى الذى يتعين على المسلم ان يلتزم بالقيام بما جاء به من عبادات ومعاملات ، وبدون الايمان بالجانب العقائدى فلايكون الالتزام بما جاء به الإسلام من عبادات أو معاملات أى قيمة (١) .

ومن ثم نجد القرآن الكريم يربط بين الجانبين برباط لا يحتمل التجزئة ، فقد عبر عن الجانب العقائدى « بالايمان » وعن الجانب التشريعى « بالعمل الصالح» وجاء الربط بينهما من الايات البينات كقوله سبحانه :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لايبغون عنها حولا » (٢) .

« ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » (٣) .

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون » (٤) .

« والعصر ان الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (٥) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٩ .
(٢) الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٣) النحل : ٩٧ .
(٤) الاحقاف : ١٣ .
(٥) سورة العصر .

واذا كانت الرسالات السماوية قد اتفقت جميعها فى الجانب العقدى منها ، إلا أنه فى الجانب التشريعى قد وجد خلاف فيما بينها يمكن ايجازه فى النقاط الثلاث التالية : (١) .

أولاً : الاختلاف فى أحكام العبادات ، وهذا يرجع الى اختلاف الناس فى طرق رياضتهم وتعليمهم باختلاف استعداداتهم وظروف بيئتهم فى مختلف العصور والازمان .

ثانيا : الاختلاف فى التأويل والتفسير ، وهذا يرجع الى أن اتباع كل كتاب سماوى يفسرون كتابهم على ضوء تصورات خاصة ومن زوايا مختلفة ولأغراض متباينة .

ثالثا : الاختلاف في الزيادة والنقص ، وذلك لأن كل دين لا حق إنما جاء مكملا أو موضحا لدين سابق ، والاسلام باعتباره خاتم الرسالات فقد زاد فى أحكام المعاملات على تعاليم الاديان السابقة ، بل ويعتبر أن ماجاء به الإسلام فى هذا الصدد أمرا لم يسبق له مثيل فى تاريخ الاديان ، من حيث شموله واحاطته لكل مايحتاج اليه الناس في حياتهم اليومية وانظمتهم الاجتماعية (٢) .

الاسس العامة التى يقوم عليها تشريع الدين الاسلامى :

لما كان العمل بالتشريع الإسلامى يقتضى أولا الايمان بالجانب العقدى الذي يضفى على المؤمن قوة معنوية توحى اليه ضرورة احترام ماجاء به التشريع من

---

(١) انظر للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار المختصر فى العقيدة والاخلاق ص ٥٢ نقلا عن الثقافة الإسلامية دراسة تأصيلية ص ٣٠ .

(٢) انظر الثقافة الاسلامية دراسة تأصيلية لمضون الرسالة الإسلامية ص ٣٠.

احكام ، والالتزام بعبادته ونظمه و وتقبل العلم بموجب تلك الاحكام والمبادئ والنظم ، دون حاجة الى معونة أى قوة من خارج النفس .. ، ولأن هذا التشريع جاء كافة للناس بشيرا ونذريا ، ومن ثم فإنه صالح للتطبيق فى كل مكان وزمان... من أجل ذلك كان لابد أن يأتى هذا التشريع مبنيا على أسس عامة تجعله صالحا فعلا لكل الناس ، وعلى مدى العصور والأزمان ، ويمكن إجمال تلك الأسس فيما يلى [1] ..

أولاً : رفع الحرج ودفع المشقة :

لما كان هناك تفاوت بين الناس فى الصحة والمرض ، فى الضعف والقوة ، الفقر والغنى فقد راعى التشريع الإسلامى ذلك ، فجاء مبينا على أساس رفع الحرج، ودفع المشقة عن الناس جميعا بصفة عامة ، وعن المرضى والضعفاء بصفة خاصة وقد جاء ذلك واضحا فى قوله سبحانه : « مايريد الله ليجعل عليكم من حرج »[2].

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج »[3] .

« يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر»[4] .

« ليس على الاعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج »[5] .

(١) إنظر د/ محمود يوسف موسى : الإسلام وحاجة لانسانية اليه.ص ٢١٣ مكتبة الفلاح : الكويت.

(٢) المائدة : ٦ .

(٣) الحج : ٧٨ .

(٤) البقرة : ١٨٥ .

(٥) الفتح : ١٧ .

« لايكلف الله نفسا إلا وسعها »(١) .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا »(٢) .

أما فى السنة المكرمة فقد ورد عن النبى ﷺ قوله : « أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة »(٣) .

وقوله ﷺ : « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلاغلبه »(٤) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « ماخير رسول الله ﷺ بين شيئين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثما »(٥) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولاتنفروا »(٦) .

ومن ثم فإن الإسلام فى كل تعاليمه الدينية والدنيوية ، بما فى ذلك العقائد والشرائع ، والقوانين المنبثقة عن نظامه الكبير ، يأبى الضيق ويوجب دفعه فى كافة المجالات سواء منها العبادات أو المعاملات ، أو غير ذلك من أوجه السلوك والتصرف»(٧) .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) النساء : ٢٧ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده . انظر بلوغ الأمانى من اسرار الفتح الربانى : ١ / ٨٩ .

(٤) أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه : ١/١٧ .

(٥) رواه البخارى .

(٦) أخرجه البخارى : ١/٢٧ .

(٧) دراسات فى الثقافة الإسلامية مدخل الى الدين الإسلامى ص ٢١٧ .

وهذه حقيقة حملها الإسلام لتتحقق فيه أسباب الصلاح لكل عصر ومصر ، وفى كل زمان ومكان ، ذلك أن الانسان يضيق بالاعنات والعسر ، والحرج ، وينفر من التكليف بما يشق عليه .

وشريعة الإسلام قد جاءت من أول يوم لتضع موازين اليسر والتخفيف ، وتنشر فى الأرض تعاليم الخير والصلاح على وجه التأبيد ، لكل الأمم وعلى مُدار الزمن ولسائر البشر ، وجماع القول أن الاسلام بنصوصه المباركة السالفة الذكر ، يبغض الحرج بكل معانيه التى تندرج تحت هذا المفهوم من صور العنت والارهاق والتعسير[1] .

وتشارك السنة المطهرة القرآن فى رفع الحرج عن البشر كما وضح ذلك جليا من الاحاديث الانفة الذكر ، وليس معنى التيسير أو اليسر أن يفهم منه أن الإسلام ضعيف أو تعاليمه هشة كلا ، فإن الاسلام يقول ما يقول من موقع القوة والريادة ، ومن المركز الذى يميل اليه الانسان فى كل زمان ومكان .

فمن تعاليم الإسلام الاتزان والاعتدال ، من غير تنطع وتزمت أو مغالات ، وأمثال هؤلاء كمثل سابح يقتحم عباب بحر لجى هادر يريد مجاوزته الى البر فلا يقوى على المجاوزة ، ولا هو ناج من الغرق والهلكة [2] .

ففى حديث أخرجه أحمد ومسلم وأبى داود عن ابن مسعود ان النبى ﷺ قال: « هلك المتنطعون » [3] أى المغالون المتزمتون .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٢١٨ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ٢١٩ .

(٣) رواه الامام أحمد .

ومن مظاهر رفع الحرج ودفع المشقة فى التشريع الإسلامى :

نلاحظ مايلى :

فى مجال العبادات نجد إباحة قصر الصلاة للمسافر ، وإباحة الفطر فى رمضان للمسافر والمريض والحائض والنفساء ، وإباحة التيمم ، بدل الوضوء للصلاة عند فقدان الماء حقيقة أو حكما ، وجعل الحج فرضا على المستطيع وحده مرة واحدة فى العمر كله ، وإباحة تناول المحرم - كالخمر ولحم الخنزير ، عند الضرورة ، وفرض الزكاة على القادر فقط الذى يفيض ماله عن حاجته [1] .

وفى مجالات المعاملات نجد التيسير شاملا فهناك الكثير من الاحكام القائمة على العرف الصحيح شرعا كجواز عقد السلم و والبيع بالتعاطى ، كما أنه ليس هناك اجراءات رسمية أو شكلية عند ابرام العقود ، ويكفى الرضا فقط ليكون العقد صحيحا .

وفى الجنايات المقرر لها عقوبات « الحدود » ، مثل الزنا ، والقذف و السرقة ، وشرب الخمر نجد الرسول ﷺ يقول : « إدرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » وفى رواية أخرى : « إدراءوا عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فإن الامام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة » [2] .

ومن ثم تمتد مظاهر التيسير فى التشريع الإسلامى لتصبح اساسا من الأسس العامة التى يقوم عليها هذا التشريع [3] .

---

(١) انظر الثقافة الإسلامية دراسة تأصيلية لمضمون الرسالة الإسلامية .. ص ٣٢ .

(٢) انظر المرجع نفسه .

(٣) انظر الثقافة الإسلامية دراسة تأصيلية ص ٣٢ .

تحقيق المصالح لجميع الناس :

تهدف احكام التشريع الإسلامى الى تحقيق مصالح الناس جميعا ، ومن ثم نجد النزعة السائدة فى هذا التشريع هى نزعة جماعية ويمكن أن نلمس هذه النزعة فيما جاءت به أحكام العبادات والمعاملات على حد سواء ، فالصلاة ، والصوم ، والزكاة والحج هى عبادات تهدف الى تهذيب الفرد وتحقيق الصالح العام للمجتمع بأسره ، كما أنه فى مجالات المعاملات ، أحل البيع وحرم الربا ، والامر برعاية الجار، والوفاء بالعهود والمواثيق ، وتحليل الزواج ، وتحريم الزنا ، وإقامة الحدود على الجنايات التى تمس المصالح الاساسية للافراد والمجتمع ، إلى غير ذلك من الاحكام التى جاءت بالامر والنهى والحل والحرمة ، تدل على الطابع الجماعى للتشريع الإسلامى ، واستهدافه مصلحة الناس كافة ، لافرق بين اجناسهم وأديانهم [1] .

إقامة العدل بين الناس كافة :

تحقيق العدل بين الناس كافة يعد أحد الأسس العامة التي يتميز بها التشريع الإسلامى ، ومن ثم جاءت الآيات فى القرآن الكريم تأمر بإقامة العدل بين الناس بصفة مطلقة ، « دون تخصيص بنوع دون نوع ، ولا بطائفة دون طائفة ، لأن العدل نظام الله وشرعه ، والناس عباده وخلقه يستوون – أبيضهم وأسودهم ذكرهم وانثاهم، مسلمهم وغير مسلمهم – أمام عدله وحكمه » [2] يقول لله عز وجل فى هذا المقام :

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولانصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فالئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » [3] .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) راجع للشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيده وشريعة ص ٤٤٥ ، وما بعدها .

(٣) النساء : ١٢٣ .

هكذا وضع الله العدل ، وجعل اقراره بين الناس ، هو الهدف من بعث الرسل عليهم الصلاة السلام، وانزال الشرائع والاحكام بدليل قوله سبحانه : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس» (١) .

فنجد فى ذكر الحديد هنا ايحاء قويا واضحا ، الى ان اقرار العدل فيما بين الناس واجب محتم للقائمين به ان يستعينوا عليه باستعمال القوة التي سخر لها ولآلاتها الحديد ، ذو البأس الشديد (٢) .

وقوله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » (٣) .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (٤) .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٥) .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين » (٦) .

---

(١) الحديد : ٢٥ .
(٢) الإسلام عقيدة وشريعة ص ٤٤٦ . ومابعدها .
(٣) النحل : ٩٠ .
(٤) النساء : ٥٨ .
(٥) المائدة : ٨ .
(٦) القصص : ٨٣ .

الفطرة :

أنها الخلقة الشاملة التى جاء عليها الانسان ، أو هى الطبيعة فى الانسان ، والتى تؤلف تركيبه النفسى والروحى والعقلى ، وهو تركيب ينسجم بمجموعه كله مع دين الله فى تعاليمه وقيمه وتصوراته ، ويكون هو ايضاً منساقا طبيعيا مع روح الإسلام في معانيه ، وعقائده وشرائعه ، وتلك الخلقة التى خلق الله سبحانه الناس عليها (١) .

قال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » (٢) .

ويفهم من هذا النص الكريم ان الفطرة من خلق الله سبحانه وتقديره ، وأنها قد جاءت لتتوافق توافقا تاما مع الدين ، وبعبارة أخرى فإن الدين قد شرعه الله سبحانه وتعالى بحيث يلائم الفطرة ويوافقها ، فلا تعارض بينها أو تنافر ، بل إنهما متلائمان متلاحمان .

وهذا التوافق بين الدين والفطرة يكسب الانسان اقتدارا على التدين والمسير فى ظل الله سبحانه وشرعه ، وهذه حجة الله سبحانه على الانسان يتحمل بموجبها عواقب تقصيره وأخطائه فليس بعد ذلك أى ظلم بالانسان إذا ماعذبه الله سبحانه لاقترافه الذنوب بعد ان ركب فيه الفطرة المشدودة الى الله سبحانه والمسوقة اليه سوقا (٣) .

---

(١) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية ص ١٦٢ .

(٢) الروم : ٣٠ .

(٣) دراسات فى الثقافة الإسلامية .. ص ١٦٣ .

ملاءمة رسالة محمد ﷺ للفطرة :

بينا فيما سلف ان الفطرة هى الخلقة التى وجد عليها الكائن البشرى ، أو هى طبيعة التكوين البشرى للإنسان بما ينطوى عليه من استعدادات وميول ونوازع وغرائز لم تلدها البيئات والظروف ، ولم تأت اكتسابا من الواقع والاحوال الاجتماعية، ولكنها ميول جبلية قد نشأ عليها الانسان وهى بعض مركباته ومكوناته النفسية والروحية والعضوية ، ومن ثم فإن الفطرة تعد بمثابة كيفية حقيقية أصيلة تنبثق عنها كل ظواهر النشاط فى الانسان (١) .

حقيقة الفطرة البشرية :

تمثل الفطرة طبيعة التكوين للإنسان والتى ترسم صورة حقيقية تتجلى فيها هذه الخلقة من حيث ميولها ، وأهواؤها ونزعاتها واستعداداتها تستلزم التعرف عليها تماما ليمكن صونها ومراعاتها على أكمل وجه وهى كذلك تقتضى من التشريع أن يرعاها حق رعايتها ، وأن يلائمها ملاءمة سليمة وافية (٢) .

إن هذه الفطرة تقتضى من التشريع ألايقف فى وجهها ليصدها صدا ، وانما يسير معها فى مراعاة وتناسب ، ووئام ، وتوجيه وارشاد ، ومما يجب التأكيد عليه ان الإسلام هو الدين الوحيد الذى يساير الفطرة ، لاعترافه بوجودها ، ومن ثم فرض لها من التشريع والصيانة والاهتمام مايجعلها تسير فى مسارها الصحيح بغير عوج أو التواء ، ذلك ان الفطرة قاهرة غلابة فلا مناص من مسايرتها ومراعاتها بالحكمة والموعظة الحسنة ، أما قهرها وصدها فإنه يؤدى الى وخيم العواقب من ألوان الأمراض النفسية والعصبية (٣) .

(١) انظر دراسات فى الثقافة الإسلامية مدخل الى الدين الإسلامى ص ٢٠٨ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٩ بتصريف .

الإسلام دين الفطرة :

هذه حقيقة تنطق بها الشريعة الغراء ، ويحققها هذا الدين و ومن ثم فإن الإسلام بنظمه ومبادئه و وأساليبه فى التربية والتهذيب إنما هو بمثابة سبيل للوصول الى الانسان المهذب السليم .. فى نفس الوقت لا يغمض النظر دون المقتضيات باعتبارها حقائق مؤكدة قد خلقها الله عز وجل ، وأنشأ الانسان عليها (١) .

الفطرة بين الإسلام والملل الأخرى :

إن الإسلام باعترافه بهذه المقتضيات ، فإنه يضع لها الحلول المختلفة من أجل التنظيم والتهذيب والانماء ، وهى حلول كاثرة ومختلفة تتواجد بين دفتى كتاب الله سبحانه وتعالى ومن خلال السنة النبوية الكريمة ، كما تواجدت فيما اسفرت عنه أقوال العلماء من صحابة وتابعين وفقهاء وعلماء طيلة عصور الإسلام (٢) .

إنه ليس كالإسلام فى الاعتراف بالفطرة ، وتهذيبها ومسايرتها ، تلك الفطرة التى اخفقت كافة المبادئ والانظمة والنظريات وكافة الملل والاراء الاخرى فى كيفية التعامل معها ،، فإذا تدبرنا حقيقة الاديان والملل وحقيقة المبادئ والنظم المتعددة أيا كانت سوف نجد انها تقف على أحد طرفى التطرف والمغالاة ، فإما الافراط وإما التفريط ، وفى كل منهما فساد وإضرار وبيل (٣) .

ومن أمثلة ذلك اليهودية :

التى تنزع بالإنسان الى الشهوات واللذائذ ، والاغراق فى متع الدنيا ، ولذاتها فى مغالات ونهم .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) انظر المرجع نفسه .

(٣) انظر دراسات فى الثقافات الإسلامية ص ٢١٠ .

وكذلك المسيحية وهى ديانة تأخذ سبيلا معاكسا تماما ، ذلك انها مغالاة من نوع أخر لايقل خطورة عن مغالات بنى اسرائيل فى حب الشهوات ، فالمسيحية تنظر للحياة والشهوات نظرة اهمال وتنكر واسقاط من الحساب ، فهى بذلك ديانة متزمته صعبة تقوم علي اساس من التفريط المتزمت الذى لايحتمله البشر والذى يصور الحياة فى لذائذها ومباهجها فى صورة من البشاعة والفحش والدنيا فى نظر المسيحية ركام ثقيل من المادة التى ينبغى الترفع عنها والتخلى عن خيراتها ما أماكن(١) .

وأكثر من ذلك فإن فى المسيحية ضرب من المثاليات الخلقية التي يتحرج منها الإنسان فلا يقوى على احتمالها ، لأنها تؤثر الانكماش والسلبية وتؤثر أن يظل الفرد راضيا صابرا أمام الضيم فلا يأخذ لنفسه من طاغية جبار ، ولا يرد عن نفسه كيدظالم متعجرف(٢) واليك هذه الامثلة :

جاء فى الإصحاح الخامس من انجيل متى قوله سمعتم انه قيل : عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا البشر . بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الاخر ايضا ، ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ويقول ايضاً ، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقطعها والقها عنك .

ويقول كذلك سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لك: أحبوا اعداكم باركوا لاعنيكم (٣) .

(١) انظر المرجع نفسه .

(٢) انظر المرجع نفسه .

(٣) انجيل متى الاصحاح الخامس : ٩ – ١٠.

هذه التعليمات الانجيلية فى غاية المثالية ، لكنها تتعارض مع فطرة الانسان ، لأن بعض الفطر لاترغب إلا فى إطفاء غليلها الموتور اللاهب ، أو الاخذ للنفس من الظالم المتجبر ، ومن ثم فإن الانسان بفطرته يبغض عدوه ، ويرغب فى صده ودفع اذاه وضربه فى معقله ان تجاوز واعتسف ، أو اعتدى علي النفس ، أو المال ، أو الوطن أو العقيدة (١) .

بينما الإسلام فى مسايرته للفطرة وتهذيبها فى شتى دروب الحياة والسلوك نراه يحث على صد العدوان بان يرضى النفس ويشفى غليلها :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» (٢) .

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين»(٣) .

وفى ذلك ارضاء للنفس كيلا تعانى من الكبت والضغينة إلا آذا عفا صاحب الحق عن طيب خاطر .

كذلك يمتدح القرآن القصاص ، لأنه سبيل لصد الشر وصون الأرواح فيقول: « ولكم فى القصاص حياة يأولى الألباب » (٤) .

والقرآن يوجب محاربة الأعداء فى غير هوادة أو تردد فيقول : « يا أيها الذين آمنو إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار » (٥) .

---

(١) البقرة : ١٩٤ .
(٢)
(٣) الشورى : ٤٠ .
(٤) البقرة :: ١٧٩ .
(٥) الانفال : ١٥ .

وذلك شأن القرآن فى ايجابيته ومطاردته للباطل وليس كالحل عند المسيحية في سلبيتها ، وفى إيثارها للانكماش والضعف والاستسلام (١) .

لكن هذا كان فى عهدها القديم ، أما المسيحون اليوم فيأخذون بنصوص القرآن وإن لم يؤمنوا بها ، فهم يكيلون لأعدائهم الضربات ، ويقتصون من اعدائهم ، بل ويحتلون اراضيهم ، لقد غيرت المسيحية جلدها متأثرة بثقافة الإسلام وما تدعو اليه من احترام فطرة الانسان التى خلقه الله سبحانه عليها .

لقد مالت المسيحية وركزت على الجانب الروحى والخلقى ، مسترشدة بأن عيسى عليه السلام مات عزبا ورفع الى السماء دون أن يصيب نكاحا ، ومن ثم دعت الى الرهبانية ، ونبذ متع الحياة ، والانسلاخ من ربقة المباهج والخيرات الحسان ، فوقفت المسيحية فى وجه الفطرة الاجتماعية والنفسية والروحية والمادية ، وذلك هو مجتمع بنى اسرائيل (٢) .

سمات مجتمع بنى اسرائيل : -

بالغ هذا المجتمع فى الافراط فى حب الشهوات : ومنها المال والجنس ، لقد انطلقوا في سعار محموم خلف لهيب الشهوة العارمة بغير اتزان أو تحفظ حتى عز على العلماء والمصلحين فى زمانهم ان يحولوا دون هذا الانحراف المتطرف المثخن صوب المادة والشهوات وبذلك فقد اقتضى الحال لبنى اسرائيل أن يبعث الله فيهم رسولا يغلو فى التصدى للشهوات الجامحة ، وفى المطالبة بالترفع عن الدنايا الى آفاق السماء الكريمة الطاهرة ، وقد كان الهدف هو التخفيف من غلواء بنى

(١) انظر دراسات فى الثقافات الإسلامية .. ص ٢١١ .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ٢١٢ .

اسرائيل، وجذبهم الى الروحانيات بدلا من الخلود الى الارض واللذائذ والشهوات الفانية (١) ، لكن هل نجحت اليهودية والمسحية فيما ذهبنا اليه ؟ كلا !

ان تعاليم كل من اليهودية والمسيحية لا تلائم الفطرة البشرية ولا تحقق مطالبها ، بل ان الإسلام وحده هو الذى جاء ملائما لهذه الفطرة فيقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا .. » (٢) .

لقد اكرم الإسلام الفطرة ، واعترف بها كحقيقة فى تركيب الانسان ، فأباح التملك بوسائله المشروعة ، وارضاء لرغبة الفرد فى الملكية والشعور ، بالاستقلال الشخصى ضمن حدود مهذبة مقبولة .

وأباح الزواج ، وحض عليه فى ترغيب مكرور باعتباره لونا من ألوان العبادة ، ومن ثم كتب الله أجرا ومثوبة لمن يتزوج لتحصين فرجه ، وصون نفسه من الوقوع فى الفواحش والقاذورات ، فيقول الرسول ﷺ « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (٣) .

كما اباح الإسلام الاستمتاع بلذائذ الحياة المختلفة سعيا لعمارة الارض ، وتحقيق اسباب المعيشة والرفاهية فيها لتظل الحياة عامرة بالخير والسعادة والأزدهار(٤) .

يقول الله عز وجل : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبادة والطيبات من الرزق »(٥).

(١) المرجع نفسه .

(٢) القصص : ٧٧ .

(٣) البخارى : ٧/٣ أخرجه باسناده عن عائشة ، ومعنى الوجاء القطع .

(٤) انظر دراسات في الثقافة الإسلامية .. ص ٢١٣ .

(٥) الاعراف : ٣١ .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » [1] .

وفى الحديث الشريف : يقول النبى ﷺ وقد جمع وجوه الاستمتاع فى حدود الشرع : « كل واشرب والبس ، وتصدق فى غير سرف ولا مخيلة » [2] .

(١) ال عمران : ١٤ ، ١٥ .

(٢) سبل السلام : للصنعانى : ١٥٩/٤ .

اثر ثقافة الإسلام فى ثقافة الغرب

لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية فى العالم الغربى المسيحى كبيرا خلال العصور الوسطى ، إذا انتقلت كثير من المؤلفات العلمية فى مختلف العلوم والفنون إلى أوربا .. ومن المعروف والثابت تاريخيا أنه فى الوقت الذى كانت البلاد الإسلامية تمثل المشعل الفكرى الوضاء الذى ينشر النور فيما حوله ، ويملأ الدنيا علما ومعرفة، كانت أوربا تعيش فى حالة من الجهل ، والتخلف والضياع والتمزق ، ولما أرادت أن ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهين التفتت الى الحضارة الإسلامية تنهل من رحيق المعرفة والفكر ما أمكنها ذلك ، ومن ثم عكف علماؤها ، ورجال الدين فيها على دراسة الاثار العلمية التى كتبها العلماء المسلمون من أمثال : ابن سينا والرازى ، والبتانى وابن الهيثم والبيرونى والخوارزمى ، والكندى والفارابى ، وابن رشد وغيرهم، فكانت هذه المؤلفات تمثل المنهل العذب الذى كان طلاب المعرفة ينهلون منه[1] .

يقول الاستاذ «سارتون» عن هذا الاثر الذي علم الحضارة الانسانية:

« المسلمون عباقرة الشرق ففى القرون الوسطي ، لهم مأثرة عظمى على الانسانية ، تتمثل فى أنهم تولوا كتابة اعظم المؤلفات والدراسات القيمة ، وأكثرها أصالة وعمقا مستخدمين فى ذلك لغتهم العربية ، التى كانت بلا مراء لغة العلم للجنس البشرى ، فى الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الحادى عشر ، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذى كان يريد الألمام بثقافة

(١) انظر مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٦٩ .وأثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٥ – ١١٨ .

عصره ، ويأحدث مايجرى من علم أن يتعلم اللغة العربية » (١) .

ولقد وصف العلامة الفرنسى الدكتور غوستاف لوبون وضع أوربا خلال القرن التاسع والعاشر الميلاديين بقوله :

« لايمكن ادراك اهمية شأن العرب فى الغرب الا بتصور حال أوربا حينما أدخلوا الحضارة اليها .. إذا رجعنا الى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية فى أسبانيا ساطعة جدا ، رأينا مراكز الثقافة فى الغرب كانت ابراجا يسكنها سينورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذي يقضون أوقاتهم فى أديارهم ، ليكشطوا كتب الاقدمين النفيسه بخشوع ، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة » (٢) .

« ودامت همجية أوربا البالغة زمنا طويلا من غير ان تشعر بها .. ولم يبد في أوربا بعض الميل الى العلم إلا فى القرن الحادى عشر ، وفى القرن الثانى عشر من

---

(١) جورج ساتون : تاريخ العلم الكتاب الأول ص ٢٢ القاهرة ١٩٥٧ والدكتور جورج هذا كان على رأس المشتغلين بتاريخ العلم – فى نصف القرن الاخير – اتجه نحوه منذ عهد الشباب حتى وضع في عداد المؤرخين ، ففى سنة ١٩١١ تقدم الى جامعة (جان) البلچيكية – حيث مسقط رأسه – برسالة الدكتوراه موضوعها (ليونارد الفنسى) وكانت هذه نقطة البدء فى حياته العلمية الحافلة .. فحاضر فى بلچيكا ، وانكلترا ، قبل ان يرحل الى أمريكا سنة ١٩١٥ .. ومن رأيه : « أن من سذاجة الاطفال ان نفترض ان العلم بدأ فى بلاد اليونان ، فالحضارة الاغريقية سبقتها الآف الجهود العلمية فى مصر ، وبلاد مابين النهرين ، وغيرهما من الاقاليم، والعلم اليونانى كان إحياء أكثر منه اختراعا » جورج ساتون : تاريخ العلم الكتاب الأول ص ٢١ .

(٢) حضارة الغرب ص ٥٦٧ .

الميلاد و وذلك حين ظهر فيها اناس رأوا ان يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم »[1] .

وقال مسيو « ليبرى» معرفا بأثر ثقافة الإسلام فى نهضة أوربا :

« لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا في الأداب عدة قرون »[2] .

لقد كانت رسالة الإسلام المجيدة منذ ظهورها ، وهى تحض على الأخذ بأسباب الثقافة ، ويعد الإسلام أول عقيدة تكرم العلم والعلماء يفهم هذا من أول الايات نزولا : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم »[3] .

« الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان»[4] .

« ن .والقلم ومايسطرون»[5] .

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله لا هو العزيز الحكيم »[6] .

(١) حضارة العرب ص ٥٦٧ .
(٢) المرجع نفسه ص ٥٦٨ .
(٣) العلق : ١ - ٥ .
(٤) الرحمن : ١ - ٤ .
(٥) القلم : ١ .
(٦) ال عمران : ١٨ .

ومن قرأ هذه الآية وقال بعدها : « وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعة ، يقول الله تعالى يوم القيامة : إن لعبدى عندى، عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » (١) .

وقوله سبحانه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٢) .

« وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العلمون » (٣) .

وفى هذه الآية الاخيرة : حصر الله العقل والتدبر فى آيات الله ، ومايضرب به من أمثال للعبرة والعظة بـ (العلماء) دون غيرهم وهذا تكريم لهم ، ولفت للانظار اليهم ، والى مكانتهم فى المجتمعات مابعده من مزيد (٤) .

وفى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ : « العلماء ورثة الانبياء »(٥) . والأحاديث فى هذا الباب (٦) كثيرة فليرجع اليها من شاء فى كتب الحديث .

ومن المعلوم ان الانبياء هم الذروة العليا فى الكمال الانسانى ، فهل هناك أكثر تشريفا للعلماء من أن يكونوا ورثتهم ؟ وقد بلغ من تكريم الإسلام للعلماء ان أثرهم على المنقطعين للعبادة ، قال رسول الله ﷺ :

« فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » (٧).

---

(١) تفسير النسفى : ١ / ١٤٩ .

(٢) فاطر : ٢٨ .

(٣) العنكبوت : ٤٢ .

(٤) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٣ .

(٥) رواه أبو داود والترمذى .

(٦) أى باب العلم .

(٧) رواه النسائى والترمذى .

وإذا كان الاسلام قد كرم العلماء، واشاد بدورهم فى المجتمع ، فانه حث على طلب العلم والمعرفة ، فى كل زمان ومكان فقال سبحانه وتعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »[1] .

وأهل الذكر هنا : هم أهل العلم (على رأى جمهور المفسرين) بدليل قول الله تعالى : « إن كنتم لا تعلمون »، وقد قال ﷺ « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[2].

« ومن خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع »[3] .

من هذا يتضح ان الإسلام قوة دافعة للحركة الحضارية ، وأن الحضارة بجميع ميادينها أصداء للإسلام ، وأن العلوم والانتاج والتعمير من مقتضيات وأهداف الإسلام[4] .

والخلاصة :

أن العلماء المسلمين قد قاموا بدورهم فى بناء النهضة العلمية العالمية ، وقدموا لأوربا زاد نهضتها ، وكانوا كما قال (البنديت جواهر لال نهرو فى كتابه : «لمحات من تاريخ العلم ») :

« كانوا بحق أباء العلم الحديث ، وأن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوربية عدا قرطبة عاصمة اسبانيا العربية ، وأنه كان لابد من وجود ابن الهيثم ، وابن سينا، والخوارزمى والبيرون ، لكى يظهر : جاليليو، وكبلر ، وكوبرينق ، ونيوتن[5] ..

(١) النمل : ٤٣ .

(٢) رواه البيهقى وابن عبد البر .

(٣) رواه الترمذى .

(٤) انظر : اثر العلماء المسلمين الحضارة الغربية ص ١١٤ . بتصرف .

(٥) المرجع نفسه ص ١١٦ .

حرية الفكر فى الإسلام :

لقد ساعد العلماء العرب (فى العصور الإسلامية الأولى) على حرية الفكر فى الإسلام أربعة عوامل و هى :

أولاً : حرية الرأى العلمى ، فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمى .

ثانيا : رعاية الحكام ، والولاة للعلم والعلماء، وانفاقهم بسخاء فى هذا المجال.

ثالثا : استعلاء العلماء بعلمهم ، وزهدهم فى الترف والسلطان .

رابعا : الاستعداد الذهنى مع الصبر والمصابرة (المثابرة) حتى أن اعمال العالم منهم (مولفاته) تعد بالعشرات فى اغلب الاحيان (١) .

ونضيف إلى هذه العوامل اعترافات منصفة لبعض علماء الغرب بقيمة الإسلام الحضارية.

جاء فى كتاب (القيم الخالدة فى الإسلام) للعالم الشهير « إميل درمنجم» مايلى :

« إن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعى يقوم على اسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادى يعتبر المال وسيلة لا غاية ، ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة ، وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعارف »ولا شك ان لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية (٢) .

وقال الدكتور المؤرخ غوستاف لوبون(٣) :

« إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

---

(١) نقلا عن نفس المرجع .

(٢) نقلا عن اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٦ ، ١١٧.

(٣) فى كتابه حضارة العرب ص .

معابر الثقافة الاسلامية الى أوربا

تمهيد

أما المعابر التى سكلتها الثقافة الإسلامية فى طريقها الى أوربا ، واجتيازها الفكر الإسلامى بمختلف عناصره (الادبية والعلمية والفلسفية) فهى ثلاثة مراكز رئيسية كبرى على الوجه التالى :

أولاً : الشرق العربى زمن الحروب الصليبية ، منطقة الشام (سوريا) خلال هذه الحروب ومابعدها فى الفترة من (١٠٩٨ م - ١٣٠٠م) .

ثانيا : صقلية : فى عهد الاغالبة : (من ٨٣١ - ٩٠١م) . حيث نشأت دولة عربية ، ظلت حضارتها قائمة بين الصقليين زمنا طويلا بعد زوال تلك الدولة .

ثالثا : الاندلس الاسلامية : زمن الخلافة الأموية ، وقد اقام الإسلام فى اسبانيا مابين (٧١١-١٤٩٢م) [1] .

وعن طريق هذه المراكز أو المعابر انتقلت اثار الحضارة المادية والثقافية الاسلاميتين ومؤلفات العلماء المسلمين الى أوربا المسيحية ، وقد انشئ فى طليطلة سنة ١١٣٠م مكتب لترجمة الكتب العربية الى اللغة اللاتينية برعاية رئيس الاساقفة « ريمون» ثم تزايدت حركة الترجمة خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد ، وقد إشار الدكتور « لوكلير » فى كتابه « تاريخ الطب العربى » الى ان الكتب العربية التي ترجمت الي اللغة اللاتينية قد زادات على ثلاثمائة كتاب ، وقد اعتمد كثير من كبار العلماء الغربيين المشهورين على هذه الكتب العربية المنسوخة أو المترجمة [2] .

---

(١) اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٩ .

(٢) مبادئ الثقافة الإسلامية ص ٧١ .

« وظلت ترجمات كتب العرب ولاسيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا تقريبا للتدريس فى جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول : إن تأثير العرب فى بعض العلوم كعلم الطب مثلا دام الى أيامنا ، فقد شرحت كتب ابن سينا فى مونبلية فى أواخر القرن الماضى [1] .

نفوذ العرب فى جامعات الغرب :

يتمثل هذا النفوذ فى الكتب التى كانت جامعات الغرب تقوم بتدريسها لطلابها ومن ثم « لم يكن نفوذ العرب فى جامعات ايطاليا ، ولاسيما جامعة « بادو» أقل منه في فرنسا ، فقد كان للعرب فيها شأن كالذى بدأ للاغارقة واللاتين بعد عصر النهضة ، ويمكن للقارئ أن يتمثل سعة نفوذ العرب من الاحتجاج الصاخب الآتى الذى قاله الشاعر الكبير « تبرارك» [2] .

« ياعجبا استطاع « شيشرون » أن يكون خطيبا بعد « ديموستين» ، واستطاع فيرجل » أن يكون شاعرا بعد « أوميرس» .

فهل قدر علينا ألا نؤلف بعد العرب ؟ ، لقد تساوينا نحن والاغارقة ، وجميع الشعوب غالبا وسبقناهم أحيانا خلا العرب ، فياللحماقة وياللضلال ، ويالعبقرية ايطاليا الناعسة ، أو الخامدة » [3] .

الشرق العربى زمن الحروب الصليبية (سوريا) :

فقد كانت سوريا – وما ارتبط بمسرحها من حروب صليبية – ذات أثر فعال فى هذا الميدان ، فالحروب الصليبية قد صحبها نشاط فكرى وحضارى ، إذ وجد من

(١) نقلا عن المصدر نفسه .

(٢) نقلا عن نفس المرجع .

(٣) حضارة العرب : ص ٥٦٥ .

اللاتنين الذين استقروا فى الاراضى المقدسة من كتب في التاريخ مثل «وليم الصورى» أو فى القانون مثل « حنا الابلينى » و « فيليب نافارى » كما انسابت بعض المصطلحات العربية الى البلاد الغربية [1] .

كذلك اثرت الحروب الصليبية فى تطور فن الحرب عند الغربيين ،، ولاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة ، هذا بالاضافة الى ما أدت اليه الحروب من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق ، واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل [2] .

الاثر الزراعى فى أوربا :

أما المؤثرات الإسلامية فى الحياة الأوربية فتتمثل فى :

أ- نمو التبادل التجارى الذى اثارته الحروب الصليبية .

ب- انتقال نباتات ، وحاصلات ، واشجار جديدة من شرق البحر الابيض المتوسط الي غربه مثل : الثوم ، والبطيخ ، والارز والليمون ، كما انتشرت فى الغرب العقاقير والاصباغ ، والتوابل الشرقية ..

جـ- كثر استعمال وصناعة الاقمشة التى نسبت الى بلدان الشرق مثل : الموسلين نسبة الى الموصل ، والدامسكو : نسبة الى دمشق . وغيرها ، وكذلك «الناعورة » نقلها الصليبيون من « حماة » الى بلادهم ، فعندما شاهدوا النواعير ترفع المياه من العاصى اعجبوا بها ، فاقتبسوها ، بأن نقلوا منها نماذج إلى المانيا [3] .

---

(١) اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٩.
(٢) نفس المرجع . ص ١١٩ .
(٣) نفس المرجع ص ١٢٠ .

ثانيا : صقلية :

وهى المعبر الثانى ، الذى انتقلت عنه حضارة الاسلام الى غرب أوربا ، حيث صار للثقافة الاسلامية شأن كبير ، وجزيرة صقلية كانت خاضعة للرومان الشرقيين من القرن الخامس الى الثامن الميلادى ، ثم فتحها العرب فى عام ٨٣٠ م ، ثم غزاها النورماندين فى سنة ١٠٨٧م ، وكان من اثر تعاقب غزو الجزيرة ، أن تأثر سكانها بعادات ولغات المغيرين ، كما تأثر الفن بطابع هذه الشعوب ، وكان للعرب تأثير فنى كبير على المبانى التى وصفت بأنها (عربية - نورماندية).

ويظهر الطراز العربى فى كنائس النورماندين ، الذين دخلوا الجزيرة بعد العرب ، ومنها كنيسة القديس جيوفانى فى مدينة « بالرمو » . وهى ذات قباب حمراء ، نصف كروية ، كماتظهر الاقواس المدببة ، والزخارف العربية الدقيقة ، فى قصور الملوك النورماندين ، فى مدينتى : بالرمو - ومونديال [1] .

ولما سيطر العرب على جزيرة كريت شرقا وصقلية ، ومالطة ، وقوصر في الوسط ، وجزر الباليار غربا ، ثم علي جزيرتى : سردينا وقبرص ، ثم كان للعرب السيطرة التامة على البحر لأبيض المتوس ، وحققت هذه السيطرة للعرب اغراضا دفاعية هامة بحيث :

أ- كانت طرطوس وقبرص تحميان شواطئ سوريا .

ب- وكانت كريت تحمى مصر .

جـ- وتحمى صقلية شمال افريقيا .

د- وتتحمى جزر البليار الاندلس .

(١) اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٢٠ .

إنه التنسيق الدفاعى المنظم البعيد عن العشوائية ، إنه الأستاذية فى فنون القوة العادلة . لقد أصبحت هذه الشواطئ العربية في مأمن من أى غزو لأول مرة ، منذ عام ٦٤٥ م ، وأصبح لدى العرب كل ما يحتاجون اليه ، وخاصة فيما يتعلق بالمواد الأولية الهامة اللازمة لبناء السفن ففى صقلية كميات وفيرة من أخشاب السفن ، وكذا بعض الحديد ، كما كانت كريت غنية بخشب الارز والسرو ، حدث كل هذا فى أواخر القرن التاسع الميلادى (١) .

أهمية جزيرة صقلية :

لهذه الجزيرة أهمية فريدة فطبيعتها تتكون من مرتفعات وهضاب ، وتحتل مدنها الاجزاء العالية ، مما جعلها حصينة ، عنيدة أمام كل فتح ، واتسمت بسمتين :

السمة الأولى : موقعها البحرى ، السمة الأخرى : توسطها بين افريقيا وأوروبا ، ومن ثم فهى ملتقى حضارات جمة ، فينقية ، ويونانية ورومانية ، وقوطية ، وبيزنطية وعربية (٢) .

وقد بدأ اختلاطها بالمسلمين ، منذ نزلها « حبيب بن أبى عبيدة » حفيد عقبة بن نافع ، ثم عودته الى افريقيا والنتيجة التى تلت هذا هى استيقاظ الروم ، وحرصهم على تحصين صقلية (٣) .

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢١ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٢١ ، وراجع للدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ... جـ٣ ص ١٤٦ ومابعدها .

استقبال صقلية للإسلام :

استعدت الجزيرة بعد ذلك لاستقبال قيم جديدة ، ودين جديد ، وتمتع عبيدها بحياة جديدة فى ظل النظم الإسلامية التى حكمت بين الناس بعدالة الله عز وجل ، مما دفعهم لتقدير الإسلام والاقبال على اعتناقه ، كما أحبوا التشرف بمصاهرة المسلمين .

ثم شهدت الجزيرة شيئا من التنافس العباسى والفاطمى ، انتقل خلاله الحكم من يد الاغالبة الى بنى أبى الحسين – الكلبيين حيث تم ارتباط صقلية بالخلافة الفاطمية ارتباطا وثيقا (١) .

وعرفت صقلية من (الكلبيين) عشرة ولاة ، طيلة خمسة وتسعين سنة نعمت فيها بالامن والهدوء الاجتماعيين ، كما نشطت الثقافة والعمران ، مما عاد عليها بالنمو الفكرى والتقدم الحضارى ، مما مهد لصقلية ان تتزعم حركة فكرية كبرى تنافس مثيلتها فى الاندلس ، ومصر ، والقيروان ، بل قدر لها احيانا ان تحتل الصدارة بالنسبة لسائر المراكز الاسلامية (٢) .

يقول المؤرخ الانجليزى (سنجر) :

« إن صقلية دانت للعرب بعد ان كانت تحت حكم الامبراطورية البيزنطية ، وسقطت بلرم سنة ٨٣١ م ، وكان النصر حليف الهلال (الإسلام) الذى امتد سلطانه سنة ٨٤٦ م الى روما نفسها .

---

(١) اثر العلماء المسلمين على الحضارة الأوربية ص ١٢٢ .

(٢) المرجع نفسه .

ونتيجة تفوق المسلمين فى شتى القطاعات بدأت آمالهم تغزو الآفاق المجاورة ، حتى وصلوا الى جنوب ايطاليا ، واستسلمت سالرنو ، ونابولى ، ومنت كاسينو ، فاستعدت تلك البلاد لتتنقل نفحات الثقافة الإسلامية الثرية (١) .

آثار المسلمين فى صقلية :

ولما آل أمر الجزيرة الى النورمان فى عام ١٠٩٢ بعد نزاع أمراء الطوائف واستنجادهم بالصليبيين حكمها « روجر الأول » فعامل المسلمين وعلماءهم معاملة حسنة عادت بالخير علي الثقافة الأوربية بأسرها (٢) .

وقد ترك العرب لأهالى صقلية الاصليين عاداتهم وقوانينهم ، وحريتهم الدينية، وحافظوا على جميع الكنائس التى وجدوها ، كما اهتموا بالزراعة والصناعة، وانشئوا مصانع الورق ، وامتدت هذه المصانع من صقلية الي ايطاليا ، كما استخرج العرب الذهب والفضة والحديد والرصاص ، وعلموا أهالي صقلية صناعة الحرير ، كما اهتموا بالتجارة (٣) .

واشتركت صقلية فى موكب العلم ، فأخرجت جملة من العلماء ، والمحدثين ، والفقهاء والادباء ، والفلاسفة ، وكان فى طليعتهم اسد بن الفرات ، وهو من اصحاب مالك ، واسد بن الحرث (صاحب الاسديات فى الفقه) والقاضى ميمون بن عمر ، وابن حمد يس الصقلى (الشاعر المبدع) (٤) .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) اثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص ١٢٣ .

(٣) انظر المرجع نفسه .

(٤) انظر المرجع نفسه .

ومن رجال صقلية : أبو عرب الصقلى ، وابن بشرون ، وابن الفحام ، والشريف الادريسى ، وابن طفر ، والحسن بن يحى (المعروف بابن الجزار) وهو صاحب تاريخ صقلية ، كذلك ترك العرب الفاظا عربية فى اللغة الصقلية والايطالية ، ولا تزال مدن واماكن كثيرة من صقلية تحمل اسماء عربية ، لا سيما اسماء القلاع والمراسى والشوارع [1] .

الاشادة بحكم العرب فى صقلية :

لم يخف الاجانب الحقيقة الناصعة لحكم العرب لهذه الجزيرة حتى قال «ديبل» :

« إن العرب حملوا معهم الى صقلية ، مظاهر فنهم ، وقناطرهم العالية الجميلة، وفسيفسائهم المعمولة من الرخام الملون وصورهم الجميلة وبهيج صناعتهم وليدة علمهم ، وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه الزمان فيما بعد » [2] .

أصلاحات العرب فى صقلية :

أهتم الولاة العرب بالاصلاحات الداخلية ، ونشروا الوية العدل ، وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكانها ، وعمت فيها الخيرات ، وظل العرب المسلمون لا يمتازون عن الاهالى الاصليين بشئ ، فكل منهم يمارس شعائر دينه، ويتبع أسلوب معيشته ، بل ان نساء صقلية تشبهن بنساء العرب ، فانتقبن النقب الملونة و انتعلن الاخفاف المذهبة ، ولبسن الحرير الموشى بالذهب وتزين بكل ماتزين به المسلمات [3] .

---

(١) انتظر المرجع نفسه .

(٢) نقلا عن نفس المصدر ص ١٢٥ .

(٣) المرجع نفسه .

كما اهتم المسلمون فى القرن التاسع الميلادى بواسئل الزراعة فى صقلية وبالقنوات ، كما أدخلوا صناعة القطن وقصب السكر ، وفى الصناعة اشتغلوا بالتعدين ، فاستخرجوا النحاس والكبريت ، كما ارتفعت التجارة فى عهدهم ، وقد كانت قبلهم فى الحضيض ، أما العمارة فقد بلغت حد الروعة ، ويمكن الاستدلال على هذا من النادر المتبقى من مبانى المسلمين في صقلية (١) .

هذا ولم تنته الحضارة الاسلامية بانتهاء حكم المسلمين فى صقلية ، فقد وجدت في ملوك النورمان خير مشجع لها ، ويوجد فى « نورمبرج » رداء من الحرير اعتاد ارتداءه ملوك صقلية وهو طرز بكتابات عربية ، بخط كوفى ، يرجع تاريخه الى سنة ١١٣٣م كما شجع ملوك صقلية ترجمة الكتب والمؤلفات العربية ، واحتفوا بالعلماء والادباء ، والجغرافيين والفلكيين المسلمين (٢) .

وحسبنا هذا الذى ذكرناه ليدرك القارئ روع حضارتنا ، واصالة ثقافتنا فى أوج عظمتها ، وإخلاص دعاتها .

ثالثا : اسبانيا :

كان الرومان يحكمون شبه جزيرة الاندلس ، منذ عصور سحيقة فى القدم ، ولما ارادوا تشييد المدن فى الجزيرة (الايبرية) أصدر ثانى قياصرتهم أمراً بهذا الخصوص ، وبعث اربعة من اقطاب مملكته ، لتنفيذ هذه الرغبة ، فشيد كل منهم مدينة بالجهة التى تولى الحكم فيها وسماها باسمه ، وكانت هذه المدن هى : قرطبة ، اشبيلية، ماردة، سرقسطة ، وظل شبه الجزيرة خاضعا لحكم قياصرة الرومان، حتى

(١) انظر د/ حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى .. ٣ / ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٢) انظر اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٢٠ .

اغار عليه قبائل الوندال فى القرن الخامس الميلادى ، ومن ثم اطلق عليها « فاند لوسيا» أى بلاد الوندال (١) .

يقول المقرى (٢) .

لم تشأ القبائل القوطية ان تترك « الوندال» ينعمون بهذه الارض الطيبة ، حتى أغاروا عليها وطردوا الوندال إلى افريقيا ، وكونوا لهم دولة قوية فى اسبانيا عمرت نحوا من اربعمائة سنة ، حتي جاء الاسلام ، فكان أخر ملوك القوطيين «غيطشة» وهلك ، فانحرف قائد الخيل « رودريك » ويسميه العرب لذريق بمن تبعه من رجاله ، وجلس على العرش ، ويؤيده نبلاء القوط ورجال الكهنوت ، وسار الى قرطبة، بعد ان كان ملوك القوط الاصليون ينزلون بـ (طليطلة) .

وهناك على الساحل الافريقى تقع مدينة « سبته » الخاضعة للحكم القوطى ، ويدين حاكمها « يوليان له بالطاعة والولاء، وكان فضل الله عظيما ، إذ حدثت المعجزة، فإنه كان علي اسبانيا رجل اغتصب الملك من أهله الشرعيين .. ثم ينتهى الأمر الى « موسى بن نصير» الوالى على أفريقيا ثم يلحق « موسى » بجيوش المسلمين سالكا طريقا اخر غير الذى سلكه طارق بن زياد ، ويذهب الجميع فى توطئة اكناف شبه الجزيرة وضمها الى حظيرة الإسلام .

ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الاندلس الإسلامية بالمغرب الإسلامى ، فى المدة التى تلت الفتح ، وكان واليها يولى من قبل أمير أفريقية ، وكان أول وال تولى السلطة فيها بعد الفتح : عبد العزيز بن موسى بن نصير ، عينه أبوه أميرا عليها ، بعد ان رحل الى الشرق ، بناء علي طلب الخليفة بدمشق ، وتزوج من مسيحية ، فثار عليه شعبه وقتلوه ، وأمّروا عليهم « أيوب بن حبيب »واليا على الاندلس(٣) .

(١) انظر المرجع نفسه ١٢٦ .

(٢) نفح الطيب :

(٣) انظر اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الاوربية ص ١٢٧ .

قرطبة :

إحدى المدن الاندلسية الهامة كان لها دور كبير فى توجيه دفة الامور ، برزت الى قمة الوجود ، لتشارك فى عواصم العالم المتحضر اذ ذاك فى السياسة والثقافة والعمارة ، وجميع مظاهر الحياة الحضارية ، وصارت قرطبة مستقر الخلافة ، وموطن الوزارة ، وكعبة الشعراء والادباء ، وموئل اهل العلم ، ومقصد الطلاب ، ومورد الظمآن الى الثقافة الهادفة .

وصلت قرطبة الى ماوصلت اليه هذا فى عهد عبد الرحمن الناصر ، من بنى مروان يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى لقب بـ «صقر قريش» حاول الخليفة العباسى ان يقضى عليه ولكنه كان من الدهاء والحيطة، بحيث قضى على أعدائه وبعث برؤوسهم الى الخليفة العباسى « فى موسم الحج » مما جعله يقول قولته المشهورة : « الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا » (١).

عبد الرحمن هذا ترجع قصة حياته يوم خروجه وهو فتى طريدا وشريدا يلتمس النجاة من يد أعدائه وزودته أخته ببعض النقود ، يستعين بها في تدبير شئونه ، ثم بعثت فى اثره بخادم يدعى بدرا ، لعب فى حياته دورا هاما ، وظلا يتنقلان حتى وصلا الاندلس ، حيث كان لبنى أمية حزب قوى ، ولهم فيها عدد كبير من الموالى والانصار ، ومعظم ممن اشترك فى الفتح من أهل الشام ، الذين قامت على اكتافهم الدولة الاموية ، واستطاع هذا الفار من الموت ، بمهارته ، ان ينشئ ملكا أمويا ، حتى كان نجاحه حافزا للكثير من الامويين على الهجرة الى اسبانيا ، وقد اغدق عليهم عبد الرحمن المناصب والهبات (٢) .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٢٨ بتصرف .

(٢) انظر المرجع نفسه ص ١٢٨ .

استطاعت قرطبة بعظمتها منافسة : القيروان ، وبغداد ، والقاهرة ، وبخارى، ودمشق ، وأصبحت قبلة الشعراء والكتاب ، والفنانين ، وتسمى عبد الرحمن بـ أمير المؤمنين الناصر لدين الله – فكان أول امير من بنى أمية فى الاندلس ينعت بامارة المؤمنين .

لقد كانت قرطبة أشبه ماتكون بالعاصمة الكبرى لاسبانيا يفد اليها الملوك والسفراء ، ويقدمون الي صاحبها فروض الطاعة والولاء ، ويستجيرون به ، ويستظلون بسلطانه(١) .

ولما أصبحت قرطبة عاصمة الحضارة العربية فى اسبانيا كلها ، وانشأ حكامها مدارس للطب والفلسفة والعلوم والفنون الاخرى وبذلوا المال فى سخاء ، إذ كانت دولتهم قد بلغت درجة عظيمة من الثراء والتقدم ، أرسل الملك (عبد الرحمن الثالث) (٩١٢ –٩٦١ م) لجمع الكتب واجتذاب العلماء للبحث والدرس والتأليف ، فأصبحت موطنا للعلوم ، وأصبح فيها عدد ضخم من المستشفيات والأطباء والصيادلة والكيمياويين ، وعلماء النبات ، والرياضيات والفلك والفلسفة ، وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مراكز للعلوم والترجمة ، من اليونانية والهندية ، وغيرها من الكتب القديمة الى اللغة العربية (٢) .

وفى عصر الحكم الثالث ، وهو ابن الملك عبد الرحمن الثالث الذى كان مثل ابيه عظيم الشغف بجمع العلوم ونشرها وصل عدد الكتب الموجودة فى مكتبة قرطبة (نحو نصف مليون كتاب) وضع لها فهرس مكون من اربعة واربعين كتابا لكل منها خمسون صفحة ، فى زمن عزت فيه الطباعة وقل انتشارها ، كما ارسل مثل ابيه

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٢٩ .

(٢) انظر اثر علماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٢٩ .

فى طلب العلماء والكتب ، من جميع مراكز العلوم فى اليونان ، وبيزنطة ، ومراكز الحضارات الثقافية في البلاد العربية لشراء أحدث المؤلفات ، وكان لا يبخل بدفع ثمنها مهما كان باهظا .

وقلد أمراء المقاطعة الاندلسية عبد الرحمن الثالث ، وابنه الحكم فى هذه الاعمال العلمية المجيدة ، مثل سرقوسة ، واشبيلية ، وطليطلة وغرناطة (قلدوا قرطبة) بمكتبتها وجامعتها ، حيث كانت تدرس علوم الطب والصيدلة والكيمياء ، ومدريد ايضا ، التى اشتهرت بجامعتها ومدينتها الجامعية التى اقيمت ليعيش فيها الطلبة[١] .

ومن الأنصاف أن نذكر هذه الشهادة وهى لعالم غربى

هو (البروفسور ادوار بروى) [٢] قال :

« ظهر الإسلام كالشهاب الساطع فحير العقول بفتوحاته السريعة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التى انشأها : نحن أمام شعب ، كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فإذا هو يتحد فى بوتقة الإسلام (الدين الجديد) الذى انطلق من الجزيرة العربية فاكتسحت جيوشه فى بعض سنوات الدولة الساسانية الفرس ، وهدت منها الاركان ، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية فى اسيا وافريقيا ، ولم تلبث جيوشه بعد قليل أن استولت على معظم اسبانيا وصقلية ، وأن تقتطع الامد من الزمن .. بعض المقاطعات الواقعة غربى أوربا وفى جنوبها ، ودقت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربى ، وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربى الإسلامى ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم ، وهذه الاديان التى سيطرت على الشعوب

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) استاذ الحضارات في جامعة السوربون فى باريس .

والاقوام – الضاربة بين سيرداريا والسنغال – ذابت كما يذوب الشمع أمام النار ، بعد ان أطل علي الدنيا دين جديد ، له من الاتباع والمريدين اليوم مايزيد على ثلاثمائة مليون إنسان [1] ، وأنجلى غبار الفتح عن امبراطورية جديدة ولا أوسع ، وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدنية ولا أروع ، عول عليه الغرب فى تطوره الصاعد ورقيه البناء ، بعد ان نفخ الإسلام فى قسم موات (من التراث الانسانى القديم) روحا جديدة ، عادت معه الى الحياة فنبض (أى التراث الانسانى) وأشع وأسرى ، ولهذه الاسباب مجتمعة كان لابد وان يحتل تاريخ العالم الاسلامى محلا مرموقا فى ثقافة رجل العصر ، كما كان لابد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيدا ان المدنية لا يقتصر مدلولها عل شعب ، أو بلد متحيز فى الزمان (فالتراث الحضارى الانسانى ملك للجميع) وعلى رجل العصر ان يعرف جيدا . أنه قبل (توما الاكوينى) الذى رأى النور فى ايطاليا طلع (ابن سينا) المولود فى إحدى مقطاعات التركستان ، وأن مساجد : دمشق وبغداد وقرطبة ، ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتردام فى باريس، بزمان ، وألا ينتقص من شأن العالم العربى الإسلامى (من خلال واقعه الراهن) بل علينا اعتبار هذا التاريخ (للحضارة العربية الإسلامية) من صميم التاريخ الانسانى المتنوع فى الازمنة والامكنة والذى لايزال على الرغم من جزائياته وخصائصه ، تاريخ هذه البشرية الجامعة الجمعاء»[2].

ما أجل اعتراف الانسان بالجميل ، ووضع الحق فى نصابه ، نعم جميل بالانسان ان يرتفع الى درجة الانصاف و والوعى الانسانى ، فيدرك ان التراث الحضارى الانسانى ملك للجميع ، وان الاعتراف بالفضل لأهله سمة الانسان الذى يحترم حقوق الاخرين .

كان هذا تمهيدا للمعابر أما التفصيل والبيان فتطالعه فى أولى المعابر : الاندلس .

---

(١) كان هذا العدد فى زمن هذا العالم أما اليوم فقد وصلوا المليار إنسان مسلم .

(٢) يراجع تاريخ الحضارات العام للبروفسور إدوار بروى (المجلد الثالث) ، وفجر الإسلام ص ١٠٩ لنفس المؤلف ط باريس ، ويراجع : (مختارات) للواء مصطفى طلاس ص ٤١ ومابعدها ط دمشق .

أولى المعابر الثقافية : الأندلس :

بدأت هذه المعابر بالعلاقات الثقافية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى:

فلم تقتصر العلاقات بين الشرق والغرب على الحروب العسكرية فحسب ، لكن كان هناك أمر آخر ربط بين الشرق والغرب ذلكم هو العلاقات الحضارية من علمية وثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية أيضاً ، ومن ثم فإن هذه العلاقات يجب ان تدرس بعناية ودقة نظرا لأهميتها الثقافية ونظرا لأهمية التمازج الحضارى بين الشرق والغرب ، وبين الإسلام والمسيحية منذ العصور الوسطى عبر المعابر الحضارية (١) .

ولقد كان لانطلاقة المسلمين من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ، ومن ثم الى اسبانيا ، وبعض بلدان أوربا وجزيرة صقلية ، الأثر البارز فى نقل الثقافة الإسلامية الى البلدان الأوربية ، وكان لانطلاقة الحملات الصليبية باتجاه الشرق الاثر الحضارى البارز ، بالاضافة الى الاثار والنتائج الحربية والعسكرية (٢) .

وبالرغم من أن الاسبان أخرجوا المسلمين من الأندلس ، واستطاع الافرنج الصقالبة اخراج المسلمين من صقلية ، كما استطاع المسلمون إخراج الصليبيين من بلاد الشام ، غير ان النتائج الاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية والادارية والسياسية استمرت ولقرون عديدة فى المجتمعات الأوربية والعربية على حد سواء ، ثم ان اخراج المسلمين من الأندلس ، وصقلية لايعنى اخراج ثقافتهم وعلومهم ، بل على

---

(١) انظر للدكتور حسان حلاق العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى . ص ٩ الدار الوطنية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م .

(٢) المرجع السابق .

العكس فقد استمر الاسبان والصقليون فى الاستفادة من هذه الثقافات والعلوم ، وعندما خرج الصليبيون من بلاد الشام كانوا قد تزودوا من الكثير من علوم المسلمين، ونقلوها معهم من الشرق الى أوربا ، ومن التراث الإسلامى والعربى (١) .

ولابد من الاشارة الى ان للثقافة الإسلامية العربية فضلا كبيرا فى نقل العلوم وتطورها فى بلدان أوربا عبر المعابر الثلاثة : الاندلس ، صقلية ، بلاد الشام، ومعابر ثقافية أخرى كالبندقية وجنوى وبيزا ، وقبرص ، ورودس وسواها فى وقت كانت فيه أوربا تعانى من وطأة التخلف العلمى والحضارى ، وفى وقت كانت لاتزال فيه تحيا حياة الركود والانحطاط (٢) .

موقع بلاد الاندلس :

تقع بلاد الاندلس « إسبانيا » فى شبه الجزيرة الايبيرية ، وايبيرية نسبة الى أمة قديمة يقال لها : « الايبير » وهى أقدم امة سكنت وعمرت بلاد اسبانيا والبرتغال أما لفظة « الاندلس » فهى مشتقة من اسم « الفاندالس » أو « الوندال » وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر « الأودر» ، ونهر « الفيستول » فى شرقى المانيا ، وهؤلاء «الفاندالس» زحفوا سنة ٤١١ق . م من الشمال الى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق (٣) ، ثم وصلوا الى افريقية (المغرب العربى) ، وقد أطلق أهل أفريقية والمغرب على اسبانيا التى استقر فيها « الفاندالس » اسم « فانداليسيا» نسبة لاسم «الفاندالس» ، ولما جاء المسلمون إلى هذه البلاد وافتتحوها عربوا الاسم وأطلقوا عليها اسم « اندلس » (٤) .

---

(١) انظر المرجع السابق .
(٢) انظر المرجع السابق ص ١٠ .
(٣) الذى كان يسمى من قبل باسم (monscalpe) انظر المرجع السابق ص ١٦ .
(٤) المرجع السابق ص ١٥ .

واعتبر العرب أن « الاندلس » هى جميع الجزيرة الايبيرية ، ويذكر الرحالة المسلمون بأن عدد المدن الاندلسية فى فترة الحكم العربى الإسلامى بلغ حوالى أربعين مدينة عربية ، كانت تضم مايقارب خمسة عشر مليونا من السكان فى عهد عبد الرحمن الناصر . (الثالث) ، وكانت قرطبة وحدها تضم مليونى نسمة ، وهذه البلاد تقسم جغرافيا الى قسمين :

الأندلس العليا وهى شمال الوادى الكبير ، والاندلس السفلى وهى جنوبى الوادى الكبير ، ويجرى فى هذا الوادى اكبر نهر في الاندلس بعد نهر « إبرة » [1].

أصل سكان اسبانيا :

هم فى الأصل خليط من الفاندال والكلتيين والإيبيريين والفنيقيين القرطاجيين، وعناصر اغريقية يونانية ورمانية وجرمانية ويهودية ، كما استقر فيها القوط الذين سيطروا على اسبانيا فترة من الزمن ثم جاءت العناصر الإسلامية والعربية فسيطرت على بلاد الاندلس فى إطار عناصر متعددة ومتمايزة ، استطاع العرب خلال حكمهم ان يمزجوها فى بوتقة الحضارة العربية والاسلامية ، فهذه العناصر « تأسلمت » أو « تعربت » أو كما يقال : « تأندلست » [2] .

مراحل فتح الاندلس :

تم فتح بلاد الاندلس فى أوائل القرن الثامن الميلادى فى زمن الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك على يد قائده موسى بن نصير الذى فتح بلاد المغرب .

أ- بدأت المعارك الأولى بعدة غارات استكشافية على جنوب اسبانيا .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ .

ب- ثم تكررت فى شهر رمضان سنة ٩١هـ = ٧١٠م على يد طريف بن مالك .

جـ- ثم بدأت مرحلة غزو اسبانيا بقيادة طارق بن زياد ، وموسى بن نصير برا وبحرا (١) .

وقد اجتاز الجبل الذى عرف فيما بعد باسم «جبل طارق» ، وكان يعرف باسم (Mons Calpe) (٢) ، وهى تسمية فينيقية تعنى الجبل المجوف سنة ٩٢ ، وقد أرسل موسى أعدادا متوالية من جنوده لمساعدة طارق وبذلك أصبح عدد الجنود المسلمين فى اسبانيا مايقارب أثنى عشر الفا ، يقول صاحب «أخبار مجموعة»(٣): « وكان موسى مذ وجّه طارقا أخذ فى عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة ، فحمل اليه خمسة الاف فتوافى المسلمون بالاندلس عند طار أثنا عشر الفا » .

المعركة الفاصلة بين المسلمين والأسبان :

تسمى هذه المعركة باسم « كورة شدونة » وكانت (فى ٢٨ رمضان الى ٥ شوال سنة ٩٢ هـ = ١٩ - ٢٦ تموز ٧١١م) . وانتهت بانتصار المسلمين على ملك اسبانيا القوطى رودريك (لذريق) ، ثم تكررت المعارك بين المسلمين والأسبان فى مختلف المناطق الأسبانية مثال : ليون ، وقشتالة (منطقة القلاع) حتى انتهى الأمر الى قيام حكم اسلامى فى اسبانيا (٤) .

أثر المسلمين العلمى فى البيئة الاسبانية :

استطاع المسلمون خلال فترة إقامتهم الطويلة فى الاندلس (٧١١- ١٤٩٢م أى حوالى ٧٨٠ عاما) أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الاسبانية فى الغرب ، وبالبيئة العربية

---

(١) انظر دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٦ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق .

(٣) فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله ، والحروب الواقعة بها بينهم المؤلف مجهول ، ط فى مدينة مجريط بمطبع ريدنير ١٨٦٧م .

(٤) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١٦ .

فى الشرق فى كافة الأصعدة الحضارية ، لقد كان الفتح الإسلامى للاندلس حدثا حضاريا امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة مع الحضارة الإسلامية وثقافتها .

وكان اختلاط المسلمين بالاسبان والرومان والقوطية وسواها ، مما نشأ عنه طبقة سميت (بالمولدين) و« المستعربين » ومن اعتنق الدين الإسلامى من الأسبان ، وسمو « المسالمة » (١) يضاف الى هذه العناصر عناصر أخرى من الرقيق الصقالبة الذين جلبوا من أوربا منذ صغر سنهم ، ثم ربوا تربية عسكرية إسلامية ، وانخرطوا فى وظائف القصر والجيش ، وكانت هذه العناصر مجتمعة قد تأثر بعضها البعض فى مجالات العسكرية والسياسية والثقافية .

كما اختلط دماء المسلمين بدماء المسيحين بواسطة المصاهرة والزواج ، خاصة، وأن أكثر القادة والجنود من المسلمين لم يصحبوا معهم زوجاتهم ، ومن ثم أقبل المسلمون على الزواج من الأسبانيات بعد استقرارهم (٢) .

يذكر المستشرق « ليفى بروفنسال » بأن الإسلام لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقا مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين ، سواء فى الداخل أو الخارج ، وكانت طيطلة – عاصمة القوط القديمة ، قد احتفظت بين أسوارها بعدد كبير من المسيحيين الذين رفضوا فى البدء الاذعان للحكم الأموى ، وأضاف بروفنسال : «غير ان العناصر غير الاسلامية من المسيحيين واليهود « تعربت » أو بعبارة أصح «تأندلست » فقد طبعتهم الحضارة الاسبانية الاسلامية العربية بطابع قوى جدا .. غير أن الأمر انتهى بهؤلاء الى نظام إسلامى .. ارتضوا ان يعيشوا فى ظله كرعايا لدولة اسلامية(٣) .

(١) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) نقلا عن المرجع السابق ص ١٩ .

لقد بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها في الاندلس في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادى ، بعد ان أصبحت قرطبة - حاضرة الخلافة الأموية - من اعظم مدن العالم المتحضر ، وفيها مايزيد على مائة الف منزل ويقطنها حوالى مليون نسمة ، وكان سكانها يتجولون في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة التى كان ينيرها موظفون مختصون ، فى حين كانت شرطة العسس (الليل) مسؤولة عن حماية الممتلكات والسكان ، بينما ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك ، ولم يوجد مصباح عام واحد يضئ شوارعها ، وبينما كانت صحيفة « كولونيا » الألمانية في عددها الصادر في ٢٨ آذار (مارس) ١٨١٩ تعتبر وتصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهى ، كانت شوارع قرطبة عام ٩٥٠ م تزدان بثمانين ألف متجر وتضاء ليلا بمصابيح تثبت على جدران المنازل ، كما مورست فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران ، وبعد مضى قرنين من الزمن اتخذت باريس سنة ١١٨٥م من قرطبة مثالا وقدوة لها ، فرصعت شوارعها ونظفتها ، وقد نقل زوار الأندلس من الأوربيين إعجابهم بالحضارة الاندلسية ، فنقلوا مظاهرها ومعالمها الي منازلهم وشوارعهم ومدنهم (١) .

كان من اثر سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون تجاه العناصر غير الإسلامية ، أن اقبل المستعربون الاسبان على تلقى العلوم وتعلم اللغة العربية ، كما تتلمذ بعض من اليهود والمسيحيين على العلماء المسلمين ، فأضحى المستعربون رسلا جددا للحضارة الإسلامية نتيجة اتقانهم اللغتين العربية واللاتينية معا ، فاستطاعوا نقل العلوم العربية والإسلامية الى الاسبان والأوربيين وأصبح اقبال

(١) انظر د. سعيد عبد الفتاح عاشور المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية ص ٩٠ ، زيغريد هونكة : أثر الحضارة العربية فى أوربا أو شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٩٩ .

الغربيين على تعلم العلوم العربية من الأمور اللافتة للنظر ، مما دعا الكاتب المتعصب «الفارو» (Alvaro) الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى للقول :

« إن إخوانى المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربى بليغ ، وا أسفاه إننى لا أجد اليوم علمانيا يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الانجيل ، بل إن الشباب المسيحيى الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علما ولا أدبا ولا لغة الا العربية ، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب فى نهم وشغف ، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة فى الوقت الذى يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها .. »(١) .

فلا غرو أن تتقدم أوربا نتيجة شغف قرائها ، وحبهم لما الفه المسلمون أو عربوه الى لغتهم .

ومما قاله ألفارو أيضا : « .. لقد نسى المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية بينما نجد بينهم عددا كبيرا لايحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم »(٢) .

كما تجدر الإشارة الى ان المسلمين اتقنوا اللغة اللاتينية لا سيما لغة جيرانهم القشتاليين والأراجونيين .

ويروى لسان الدين بن الخطيب بأن العالم محمد بن لب الكنانى المالقى ، كان يطوف بالبلاد الاسبانية ، ويناقش قساوستها فى أصول الديانتين الاسلامية والمسيحية .

---

(١) جرو ينباوم : حضارة الإسلام ص ٨١ و ٨٢ نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ٢١ ، وانظر المدنية الإسلامية واثرها فى الحضارة الأوربية ص ٥١ ، ٥٢ ، وشمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٢٩ .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٥٢٩ .

وكان العالم الغرناطى محد الرقوطى زمن الملك الاسبانى الفونسو العاشر فى القرن الثالث عشر الميلادى يتقن اللاتينية ، فكان يعلم المسيحيين واليهود فى مدرسة مرسية .

كما كان الغرناطى عبد الله بن سهل فى القرن الثالث عشر الميلادى يتقن اللاتينية وله شهرة واسعة فى العلوم الرياضية لدرجة ان المسيحيين فى شتى نواحى اسبانيا كانوا يرحلون الي داره فى مدينة بياسه (Baeza) لمجادلته والاستفادة من علمه(١) .

كما ان اسبانيا وغربى أوروبا قد استفادتا من الطب الإسلامى المشرقى الذى شهد تطورا بارزا فى المشرق ، ثم انتقل بواسطة الأطباء والمؤلفات الى الاندلس، وبرز من المسلمين داخل الاندلس الكثير من الأطباء ، وكان فى مقدمتهم بنوزهر التى انجبت الكثير من الأطباء ، وقطنت هذه العائلة اشبيلية ومن أهم اطبائها الشيخ محمد بن مروان بن زهر المتوفى سنة ١٠٣١ م عن عمر يناهز ٨٦ عاما ، ومنهم : عبد الملك بن محمد أبى مروان الذى مارس الطب فى القيروان في تونس والقاهرة ، ثم توفى سنة ١٠٧٨م فى الأندلس .

أما ثالث الأطباء الاشبيليين فكان أبو العلاء بن زهر ، أما حفيده أبو بكر محمد بن زهر فكان من اشهر أطباء عصره حتى ذاع صيته فى المشرق والمغرب ، وقد استفادت أوربا كثيرا من علومه الطبية (٢) .

---

(١) مشاهدات لسان الدين الخطيب فى المغرب والاندلس ص ٩٩ هامش ٢ تحقيق د. أحمد مختار العبادى .

(٢) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ٢٢ .

ومن المؤثرات العلمية الإسلامية فى الاندلس ، انتقال علم الرياضيات الى الغرب بواسطة المسلمين فمن المعروف ان قرطبة كانت عاصمة سياسية للخلافة ، وعاصمة للبحث العلمى ، فعالم الرياضيات « غربرت » الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستروس الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) قضى ثلاثة أعوام (٩٦٧ - ٩٧٠م) فى الاندلس ، والتقى بالعلماء المسلمين الذين استفاد من علومهم ، وتعمق فى درس الرياضيات والفلسفة والفقه (١) .

ولما عاد « غربرت» الى رومية كان علمه العربى الذى تعلمه في الاندلس غريبا على قومه حتى لقبوه بالساحر ومن بين علماء الغرب الذين تعلموا اللغة العربية للاطلاع علي مؤلفات العرب فى الفلك والرياضة « روبت ريتيننسيس» ، و« هرمانوس دلماتا» . واستجابة لطلب بطرس المبجل (١٠٩٤ - ١١٥٧) رئيس دير كلونى ، قام هذان العالمان بترجمة القرآن الكريم الى اللغة اللاتينية ، وقد أنجزا هذه الترجمة فى سنة ١١٤٣ (٢) .

هذا وقد عرفت أوروبا الارقام الهندية بواسطة العرب ، لذا يقال لها فى أوربا الى الآن « الارقام العربية » ولفظوا الصفر كما يلفظه العرب ، فأصبح فى الانجليزية صفر (Cipher) وفى الألمانية تسفر (Ziffer) وفى الافرنسية شيفر (Chiffre) وفى الايطالية شيفرا (Cifra) . كما نقل المسلمون الى أوربا الكسر العشرى الذى استخدموه فى عملياتهم الحسابية (٣) .

---

(١) انظر د. عمر فروخ : عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ص ٧٣ .

(٢) د. جمال الشيال : التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى فى عصر النهضة ص ٢٢ ، وللمزيد من التفصيلات انظر المرجع نفسه ص ١٨ - ٢٤ .

(٣) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٣ .

ومن بين علماء الرياضيات المشهورين في الاندلس : مسلمة المجريطى (المدريدى) إمام علماء الرياضيات فى الاندلس (ت ٣٩٨هـ - ١٠٠٧ م) ومن تلامذته ابن السمح (ت ١٠٣٤م) وابن الصفاء والكرمانى ، وأمية بن أبى الصلت (١) .

ومن العلماء المسلمين البارزين فى الأندلس فى علم الرياضيات والذين أثروا فى أوربا أبو الحسن على بن محمد علي القلصادى المولود فى مدينة بسطة فى الاندلس (٨٢٥هـ - ٨٩١هـ) ومن كتبه « كشف الاسرار عن علم الغبار » وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والاشارات الجبرية واقتبسته أوربا عنه (٢) .

مما سبق نؤكد على عبور الثقافة الإسلامية ، وعلوم الرياضيات ، والطب والفلسفة من الاندلس الي أوربا ، بدون ريب ، بل ان الواقع يثبت بأن هناك الكثير من المؤثرات العلمية والطبية والفيزيائية والكيميائية العربية في بلاد الأندلس وأوروبا .

كما أقام المسلمون الكثير من المراصد الفلكية فى غرناطة وطليطلة وقرطبة واشبيلية ، ومن بين علماء الفلك والجغرافيا والرياضيات فى الاندلس كل من :

* مسلمة المجريطى : عالم الرياضيات ، والعالم الجغرافى الذى قام بعمل اختصر فيه جداول البتانى ، وقد استفاد واضعوا جداول الفونس الملكية (الازياج ، التقاويم) ، ومن بين كتب المجريطى ، رسالة الاصطرلاب ، ثمار علم العدد ، تعديل الكواكب(٣) .

* الزرقالى : ويعرف باسم « الزرقيل » عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى (تقريبا ١٠٢٩ - ١٠٨٨م) وهو صاحب (زيج طليطلة) وصانع الاصطرلاب .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر د. على الدفاع : تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين ص ٢٠١ .

(٣) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٤ .

* جابر بن أفلح الاشبيلي : (ت بين ١١٤٠ - ١١٥٠م) وهو صاحب مؤلف (الفلك) والهيئة أو إصلاح المجسطى) (١) .

وهناك علماء آخرون مما لايتسع المجال لذكرهم ومنهم ابن رشد ، وابن باجة، والبطروجى من علماء الفلسفة والفلك والجغرافية والعلوم الأخرى المتنوعة ، الذين أثروا بعلومهم البلدان الأوربية عبر الاندلس (٢) .

غير أننا نستطيع ان نذكر مجموعة أخرى من العلماء فى المجالات الآتية :

* فى الطب : أحمد بن إياس القرطبى ، أبو عبد الله محمد بن عبدون العدرى القرطبى ، أبو القاسم الزهراوى ، ابن وافد ، خلف بن عباس ، ابن البيطار، ابن زهر (٣) .

* فى الأدب : ابن عبد ربه ، ابن زيدون و ابن عمار ، ابن عباد ، ابن عبدون، ابن حمد يس ، الفتح بن خاقان ، ابن بسام ، ابن سهل (٤) .

* فى التاريخ : عبد الملك بن حبيب ، محمد بن موسى الرازى ، ابن القوطية القرطبى ، ابن الفرضى ، ابن حبان ، الحميدى ، ابن بشكوال ، ابن الآبار و ابن سعيد المغربى ، لسان الدين بن الخطيب ، ابن خلدون ، أبو حامد الغرناطى الأندلسى ، ابن جبير البلنسى (٥) .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) نفيس أحمد : الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى ص ١٩٢ - ١٩٥ .

(٣) للمزيد من التفصيلات انظر د. على الدفاع : اعلام العرب والمسلمين فى الطب ص ١٧٧ - ١٧٨ ، وأحمد الملا : أثر المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٣٢ - ٢٠٠.

(٤) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٥ .

* فى الجغرافيا : أبو عبيد البكرى ، الإدريسى ، المازنى ، ابن سعيد ..

* فى علوم الدين : ابن مخلد ، ابن عبد البر ، الباجى ، الشاطبى ...

* فى الفلسفة : ابن مسرة ، ابن حزم ، الطرطوسى ، ابن طفيل ، ابن رشد، ابن ميمون ، ابن عربي ، ابن سبعين ، ابن باجة .. [1] .

* فى علوم اللغة : أبو على القالى ، الزبيدى ، ابن سيده ، ابن عصفور ، ابن مالك ، ابن إدريس القرانى ، أبو حيان [2] .

ولابد من الاشارة الى ان هؤلاء العلماء لم يكتبوا بالضرورة فى علم واحد ، ولهذا لايمكن تصنيفهم في علم واحد من العلوم ، لأن الواحد منهم ، قد يكون كتب فى التاريخ والجغرافية معا ، وفى الرياضيات والطب والكيمياء ، وفى الفلسفة والسياسةوالأدب[3] .

ومن اراد التثبت فليرجع الى كتب التصانيف مثل : الفهرست لابن النديم ، وجذوة المقتبس للحميدى ، وتراجم علماء الاندلس لابن الزبير ، وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى ، وكتاب القضاء بقرطبة للخشبى ، وتاريخ قضاة الاندلس للنباهى ، وطبقات الفقهاء لمحمد بن خالد الاندلس ، وغير ذلك من مصنفات يرويها مئات من العلماء والاطباء والأدباء ، والقضاة وأهل العلم في الاندلس والمغرب والمشرق على السواء[4] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق . ومن اراد المزيد من التفصيلات عن الاندلس ووصف مدنها فليرجع الى ابن حوقل : صورة الارض ص ١٠٤ - ١١٢ .

ومن ثم تعتبر الأندلس المدرسة الإسلامية الأولى التى دفعت بحركة النهضة الأوربية الى الامام ، فقامت بدور هام وبناء يفوق دور صقلية والحروب الصليبية ، فقد كانت الاندلس موطن العلوم والعلماء فوفد اليها الطلاب من أرجاء أوربا الغربية ينهلون من علومها وفنونها وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مركزا للعلوم ، يشع منها العلم الى كل أرجاء القارة الأوربية ، حتى قام العلماء بتشجيع من الخلفاء ، بمواصلة البحث العلمى ، والتأليف والترجمة ، فبلغ عدد الكتب الموجودة فى مكتبة جامعة قرطبة وحدها : نصف مليون كتاب ، وضع لها فهرس مكون من أربعة وأربعين مجلدا (١) .

وشغل العلماء والخلفاء والأمراء وعظماء الدولة فى جمع العلماء ، وجمع المؤلفات من شتى الأقطار ومواصلة البحث ، وعقد الندوات العلمية لدرجة ان النهضة العلمية فى الاندلس بلغت مبلغا يدعو الى الدهشة والاعجاب ، مما دعا كثير من علماء الغرب الي القول : إن الخدمات العلمية التى أداها المسلمون للعلوم غير مقدرة حق قدرها من المؤرخين ، وان البحوث الحديثة دلت علي اعترافنا من العلم العربى فى العصور الوسطى ، بينما كانت أوربا غارقة فى ظلمات الجهالة (٢) .

تقول الدكتورة سيجريد هونكة : « إن أوربا تدين للعرب والحضارة العربية ، وان الدَّين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا ، وكان على أوربا ان تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد ، لكن التعصب الدينى ، واختلاف العقائد أعمى عيوننا ، وترك عليها غشاوة ، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة ، فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب ، وما أسدوه الينا من علم ومعرفة » (٣) .

(١) انظر الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٥٤ .
(٢) نقلا عن المرجع السابق .
(٣) شمس الله تسطع على الغرب . المقدمة ص ١ .

ثم تستطرد قائلة : « إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء من اعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى ، فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الانسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية ، التى لا نظير لها ، والتى يحار الانسان فى تعليلها وتكييفها ، إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم ، وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم » (١) .

ويقول الفيلسوف الألمانى « نيتشه » :

« حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة بعد ذلك من الإسلام» (٢) .

لقد فرضت الحضارة الإسلامية فى الاندلس وفى غيرها من البلاد الإسلامية نفسها ، لخصائصها ومقوماتها التى لا تشاركها فيها أية حضارة أو ثقافة أخرى ، ومن ثم اصبحت المدن الإسلامية ومنها الاندلس منارات يهتدى بها فى ميدان العلم والثقافة الإسلامية ، لقد اولع الشباب الأوربى المسيحى بالثقافة الإسلامية لدرجة انه هجر لغته القومية وثقافته الدينية ، وفكره اللاهوتى ، وعشق اللغة العربية والثقافة الإسلامية ، حتى ارتفعت أصوات الرهبان بالشكوى من جراء انصراف الشباب عن لغته القومية ، وماذلك الا لأن هؤلاء الشباب وجدوا من أخلاق المسلمين ومعاملتهم وعلمهم ما أسر لبهم ، ولفت انتباههم الى هذه الحضارة الإسلامية السامية، وهذا الفكر الصافى المنير (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥٧ – ٢٥٩ .

(٢) عبد المنعم خفاجة : الاسلام والحضارة ص ٢٠١ .

(٣) انظر الحضارة مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٥٥ ، وحضارة العرب : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

وتظهر أهمية أسبانيا فى موقعها: فهى تقع فى الجنوب الغربى من القارة الأوربية وتفصلها من الشمال عن جنوب فرنسا ، جبال البرت ، أو البُرتات ، وتعرف بالاسبانية Pirineos (١) ، ويفصلها من الجنوب حدودا للقارة الأوربية، وعن افريقية: مضيق جبل طارق الذى يبلغ عرضه من الشرق الى الغرب ١٣ - ٣٧ كم (٢) .

كما تقع على المضيق بعض مدن المغرب الأقصى فى الشمال الافريقى ، ويصل المضيق بين شبه الجزيرة الإيبرية والمغرب الأقصى ومابعده برا ، كما يصل بين المحيط الأطلسى والبحر المتوسط بحرا .

وتطل سواحلها الشمالية ، والشمالية الغربية على المحيط الأطلسى عند خليج بسقاية (Biscay) الذى تطل عليه مدينة خيخون وتطل سواحلها الغربية على المحيط الأطلسى ، الذى يعرف عند بعض الكتاب المسلمين البحر الأخضر (٣) ، أو البحر المحيط أو البحر المحيط الرومى ، أو البحر المظلم ، أو بحر الظلمات ، أو بحر الظلمة ، أو اقيانس (٤) .

وتطل سواحلها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط ، ويسمى أيضاً البحر الرومى ، أو البحر الشامى ، أو بحر تيران (٥) .

---

(١) تسمى هذه الجبل أحيانا « البرنس » لكن الظاهر أنها تسمية خاطئة ، لأن جبال البرنس تقع شمال قرطبة ، وتعرف أيضاً بجبال المعدن ، راجع التاريخ الأندلسى .. ص ٣٥ ، وهامش ٤ .

(٢) نقلا عن التاريخ الأندلسى ص ٣٦ .

(٣) نفح الطيب : ٢٧٦/١ ، ٣ / ١٨٩ .

(٤) نقلا عن التاريخ الاندلسى ص ٣٦ .

(٥) جغرافية الاندلس وأوروبا ص ٣٨ ، نفح الطيب : ١ / ١٣١ .

أهم الثغور الاندلسية :

توجد فى الاندلس ثلاثة ثغور أندلسية [1] وهى :

١- **الثغر الأعلى** [1] ، أو الأقصى ، وعاصمته : سر قسطة ، ويواجه مملكة : نباره ، أو نافار .

٢- **الثغر الأوسط** : وعاصمته مدينة سالم ، ثم طليطلة ، [3] ويواجه مملكتى قشتالة ، وليون .

٣- **الثغر الأدنى** : ويقع بين نهرى دويره تاجة (Tojo) كانت عاصمته أولا طليطلة [4] ، ثم حلت غيرها لعلها قورية [5] . كانت فى شمال إسبانيا ، حوالى القرن الرابع الهجرى ، ثلاث دويلات نصرانية :

أ- **ليون** فى الشمال والشمال الغربى ، وعاصمتها مدينة ليون تضم منطقتى جليقية ، وأشتوريش .

ب- **قشتالة** : وعاصمتها مدينة برغش ، وتقع بين ليون ونافار .

جـ- **نبارة (نافار)** : وعاصمتها مدينة بنبلونة ، فى الشمال والشمال الشرقى حيث تسكن قبائل البشكنس [6] .

---

(١) راجع جغرافية الاندلس : ٩٤ ، ونفح الطيب : ١/١٦١ ، والتاريخ الاندلسى ص ٣٨ .

(٢) انظر نفح الطيب : ١/١٦١ ، ١٦٦.

(٣) انظر المرجع السابق ، ودولة الإسلام فى الاندلس : ١/٢٣٧ لمحمد عبد الله عنان .

(٤) انظر التاريخ الاندلسى ص ٣٨ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) انظر اندلسيات : ٢/٣٩ ومابعدها والتاريخ الاندلسى ص ٣٨ .

حالة اسبانيا قبل الفتح الإسلامى

بدأ احتلال القوط الغربيين لشبه الجزيرة الإيبرية : (إبارية = أسبانيا والبرتغال) فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، بعد طردهم للوندال (Vandals) إحدى القبائل الجرمانية المتبربرة ، الذين اتجهوا بعد ذلك الى احتلال الشمال الأفريقى وطردوا منها على يد الرومان سنة ٥٣٤م . أحتل الوندال إبارية منذ القرن الثالث الميلادى وحتى القرن الخامس (١) .

ومن اسم الواندال جاء اسم الاندلس (٢) . حدث ذلك قبل الفتح الإسلامى .

استبد القوط (Goths) بالحكم ، لاسيما قبيل الفتح الإسلامى ، وبسوء سياستهم ساءت حالة إسبانيا ، واضطربت حياة سكانها ، فالفوضى منتشرة ، وكثير من الناس يعيشون فى شقاء لسوء الأحوال المعيشية ولسياسة الاستغلال ، فكان الشعب يستغل لحساب الطبقة الحاكمة والمترفة وأصحاب المصالح (٣) .

طبقات الشعب الإسبانى :

أ- طائفة النبلاء ، ومنها الطبقة الحاكمة .

ب- طبقة رجال الكنيسة التى تشارك النبلاء فى حكم البلاد والاستمتاع بخيراتها .

---

(١) انظر د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢ ومابعدها ، ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلامى فى الأندلس ، ١ / ٢٧ - ٢٩ ، د. عاشور : أوربا العصور الوسطى : ٨٨/١.

(٢) انظر د/ عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى ، الفصل الثانى .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠.

جـ- طبقة التجار والزراع والملاك الصغار الذين يتحملون الضرائب المختلفة.

د- طبقة عبيد الأرض ، الذين يتبعون مالكها ويتنقلون مع ملكيتها من سيد الى آخر .

هـ- طبقة العبيد ، التي تكونت من اسرى الحرب ، ويتصرف فيهم بيعاً وشراءاً ولم تعط لهم ولا لسابقيهم الحقوق التى يستحقون ، فلم ينالوا تكريما (١) .

فمثل هذا الوضع ، وتلك الطبقية المتنافرة ، لايمكن للمجتمع استقرار ولاعدالة اجتماعية ، طبقة مترفة تتمتع بكل خيرات البلاد وأخرى محرومة حتى من القوت الضرورى مع أدائها لكل المسؤوليات والتكاليف التى انيطت بها ، فهل مثل هذه الطبقات المحرومة تكون مخلصة لهذه الدولة تعمل على إسعادها أو تقدمها ؟ أو نصرتها والدفاع عنها ؟

قبل الفتح الإسلامى لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لذريق ، بالاستيلاء على السلطة ، وعزل الملك غيطشة (٢) . وغداة الفتح الإسلامى كان لذريق هو حاكم البلاد ، لكن اتباع الملك السابق ومؤيديه وأفراد اسرته لم يرضوا عن هذا الحكم الجديد ، وكانوا يتحينون الفرص لاستعادة ملكهم ، ووجدوها فى الفتح الإسلامى ، ووهموا ان المسلمين طلاب غنائم فسوف لا يستقرون فى اسبانيا ، لكنهم لم يجدوا لهذا الوهم اشارة فالمسلمون حملة عقيدة يعملون على نشرها وإعلائها (٣).

---

(١) انظر الروض العطار : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار فى خبر الأقطار : لابن عبد المنعم الحميرى ص ١٧٠ نقلا عن التاريخ الاندلسى ص ٣٠ ، ودولة الإسلام فى الاندلس : ٣٢/١ .

(٢) الروض العطارة ص ١٩٣ ، وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٨ .

(٣) انظر التاريخ الاندلسى : من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ص ٣٠ .

لقد كانت اسبانيا قبل الفتح الإسلامي يستولى عليها الاضطراب والفساد الاجتماعي ، والتأخر الاقتصادي وعدم الاستقرار ، نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد ، لكن هذا لايعني ان هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية بل كان بإمكانها ان تصد جيشا مهاجما وتحاربه وتقف في وجهه .

أقام القوط في إسبانيا دولة اعتبرت أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الميلادي [1] ، وبقيت بعد ذلك تتمتع بقوة عسكرية مدربة وقوية ، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات .

ومما تجدر الإشارة اليه : ان توفر القوة وقتا ما لا يعني استمرارها ، لأنها ليست قائمة بالحق ، وذلك لايمنحها قدر البقاء والثبات أمام أحداث الحياة ، وهي بذلك لا تقود الى التقدم ضرورة ، وانها أبعد ماتكون عن بناء الحياة الكريمة . فالقوة المتمكنة التي لاتحكمها مُثُل ولاتوجهها عقيدة ، تتحول الى قوة غاشمة وجبروت قاصم، لاسيما بعد أن تحوز أي تفوق أو تكون لها غلبة على أحد ، وهي عادة تنفخ بقرن شيطان في مثل هذه الأمور ، أو تزيف الحقائق ، فتجعل من الهزائم انتصارات تاريخية تجلل بها أصوات دعاتها ، وما اكثر الشواهد التاريخية والتي ستأتيك وشيكا [2] .

كما أن توفر وسائل المعيشة وتحسنها ليس دليل الصحة العامة لشعب ما ، فالاستمرار في الهبوط أو بقاؤه وطول ملازمته قد يفت القوة أيضاً أية قوة ، والانحراف والسوء والتحلل الخلقي يصيب بآثاره جوانب أخرى في الحياة قد يكون منها القدرة الحربية وغيرها [3] .

---

(١) د . عاشور : أوربا العصور الوسطى : ١/٨٨ .

(٢) انظر التاريخ الأندلسي ص ٣١ .

(٣) المرجع السابق .

من جانب آخر ، فإن الاستقامة والنظافة ، وسمو العقيدة وصلاحية المنهاج ، وأصالة الفكرة وصدق النظرة سببا مؤكدا فى عزة الأمة وتقوية أحوالها وبناء حياتها، وحمايتها والقدرة على التقدم السليم ، وقابلية التجدد واطّراد النمو ودوام الازدهار فى الميادين كافة .

ولايرجع انتصار الإسلام الى التفوق العسكرى ، بل الى نوع البناء العسكرى للفرد ، جنديا أو قائدا ، وهو من نوع البناء العام للمجتمع الذى يقوم على العقيدة الإسلامية وشريعتها الربانية ، وهذا نلحظه بوضوح تام في فتح الاندلس وغيره (١)

كانت أحوال أوربا فى تلك القرون وقبلها وبعدها سيئة ، كما هو معلوم ، ولكن ظهر فيها العديد من القوى السياسية ذات التفوق العسكرى والأمبراطوريات التى عرفت فيها ساعد على ذلك ، بل ان عددا من الدول كانت لها – مع تلك الأوضاع السيئة – حضارات يشار اليها ، هذه المظاهر من القوة السياسية والحضارية ليست دائما هى وحدها المقياس على توفر الجانب الانسانى وسلامة الحضارة وسمو القيم والدليل :

أ- ماكانت عليه الأمبراطورية الرومانية ذات القوة الحربية والنفوذ السياسى ، لكنها تمتعت بأخلاق هابطة حفلت بصور غير كريمة (٢) .

ب- حملت موجات الحروب الصليبية ، وحملات التتار (المغول) – ذات التفوق العسكرى – الخراب الى العالم الإسلامى فى كل مكان وصلته . كانت هذه القوى عاتية مدمرة ، تغتصب البلدان وتفتك بالناس ، أو تحكمها بالقوة والتسلط والاضطهاد، ثم ينشأ الصراع فيما بينهم أو مع أهل البلاد لإزالتهم ، والاستعمار الحديث ليس إلا صورة لهذا التراث الزاخر .

---

(١) انظر التاريخ الأندلسى .. ص ٣٢ .

(٢) راجع درابر .. نقلا عن : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٢ .

جـ- استمرار الإسلام سببه اعتناق أهل البلاد عقيدته ، ويأخذون بشروعه طواعية . تمتزج العناصر كلها فى ظل العقيدة ، متعايشة متعاونة متحابة ، ومن ثم استمر الإسلام فى المناطق التى وصل اليها وحافظ أهل البلاد عليه ، وحملوه الى الاخرين ، وفدوه بأنفسهم ، وصبروا حتى النهاية لكل ألوان الاضطهاد الخارجى والداخلى ، المتلون فى كل صورة والسالك لأى سبيل .

د- ارتضى العالم الإسلامى تولى السلطة من قبل مختلف العناصر والاجناس ، ماداموا يدينون بالإسلام ، ويعملون به والشواهد كثيرة (١) . والسلطات المحلية فى أى من مناطق العالم الإسلامى هى أيضاً - حين قامت - حافظت على الإسلام عقيدة وشريعة ، وعملت فى خدمته وعضت عليه بالنواجذ (٢) .

والحديث عن الفتوحات الإسلامية حديث ذو شجون ، فقد امتازت بقوتها وسرعة مسيرها ، ومع ذلك فإننا لا نشير الى تفوق المسلمين فى القوة العسكرية والسلطة السياسية ، ولا نعلل ذلك بأى تفسير أو نرجع انتصار المسلمين اليه غير العقيدة بحيث :

أ- لم يكن المسلمون متفوقين بالقوة الحربية ، أو المجد العسكرى فى قوتهم المادية ، أو تنظيماتهم الحربية ، أو إعدادهم الفنى ، بل كانوا دوما فى فتوحاتهم - أقل بكثير في الاستعداد والاعداد من عدهم ، وأدنى منه فى الجمع العددى ، والعُددى بكثير .

وهى أمور ماكانوا يحفلون بها ، أو يعولون عليها ، ولا تأتى عندهم فى طليعة مقومات الانتصار فليست هى المعتمد فى الفتح ولا فيما بعده ، إن الفتح وفتح

---

(١) انظر : اندلسيات : ٢/٢٣ نقلا عن التاريخ الأندلسى ص ٣٣ .

(٢) انظر التاريخ الأندلسى ص ٣٣ .

العقيدة التى سرعان مايدخل الناس رحابها أفواجا ، فانتصار الإسلام وفتوحاته معجزة أخرى تضاف الى معجزاته الخالدة (١) .

ب- يجب ان تدرس الفتوحات الإسلامية فى ضوء اعمال المسلمين كدعاة وفاتحين خلال جهودهم ومجرى حياتهم فى الدعوة الى الإسلام ومسلكهم الانسانى الرفيع ، والتزامهم الكريم فى المعتاد من تصرفهم ، وذلك قوام انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه واحتضانه ، وافتدائه بكل مرتخص وغال دُون التركيز على العمل العسكرى والجانب الحربى فقط (٢) .

جـ- لا يرى فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وانتصار الإسلام المذهل فيها - كما فى غيرها - فى ظل أحوالها قبل الفتح ، بل بصورة رئيسية ، فيما امتاز به الجيش الإسلامى من عقيدة يفتديها بالنفس ، وفى قيم انسانية حملها الفاتحون وعبروا عنها فى سلوكهم ، أفرادا وجماعات ، أو حكاما ومحكومين ، وحتى غالبين ومغلوبين(٣) .

د- نوعية الجيش الإسلامى الذى فتح اسبانيا والحالة السيئة التى عرقلت مقاومتها أدى الى ضعفها ، لقد كان الجيش الإسلامى يضع نصب عينيه اعلاء كلمة الله عز وجل التى افتداها بحياته ، هذه النوعية استطاعت اتمام فتح الجزيرة الايبيرية فى اربع سنوات فقط وهو عمل لايمكن ان يتكرر بسهولة بدون هذه النوعية (٤) .

---

(١) انظر التاريخ الاندلسى .. ص٣٣ .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٣٤ .

(٤) انظر المرجع السابق .

هـ- تذكر بعض الروايات فضل الملك لذريق وحسن سيرته ، وكذلك الملك السابق غيطشة (١) المعروف ان لذريق كان حاكما شجاعا ، ومحاربا قويا وقائدا مجربا ، إذ « كان شجاعا قد بَعُدَ صوته وطال ذكره فى النصرانية » (٢) لكن من السهل ان يرى الباحث عدم قدرة مثل هذه السلطة ولا غيرها على الوقوف امام اناس أخلصوا لعقيدتهم الرفيعة وتحمسوا لها ، فلا يهابون أحدا ولا يبخلون بشئ من أجلها هؤلاء هم الجيش الإسلامى وقيادته ، الذين قَدِمُوا الفتح الاندلسى (٣) .

وتاريخ الجيش الإسلامى - فيما تم قبل وبعد من فتوح - ملئ بأنقى الصفحات وأشدها نصاعة وأقواها حكمة وضياءً .

(١) دولة الإسلام فى الاندلس جـ١ ص ٣٢ .
(٢) أحمد بن محمد القمرى التلمسانى : نفح الطيب : ١ / ٢٥٠ ، وفجر الاندلس ص ١٧ ، ودولة الإسلام فى الاندلس : ٣٤/١ ، ٤١ ، واخبار مجموعة ص ٨ .
(٣) انظر فجر الأندلس ص ٦٨ ، ٧٣ ، وتاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس : السيد عبد العزيز سالم ص ٧١ .

حالة أوربا قبل الفتح الإسلامى للأندلس وبعده

كانت أوربا خلال القرون الوسطى الأوربية تعيش حياة شاقة وسيئة ، رغم ظهور قوى سياسية متعددة فى بعض بلدانها وقد طفحت هذه القرون الأوربية بالعيوب والآثام وهربت من النظافة والعناية بالانسان والمكان ، وزخرت بالجهل ، والفوضى والتأخر وشيوع الظلم والاضطهاد ، عاشت أوربا فى ظلام وهمجية وقسوة: فشت فيها الأمية ، وقامت فيها الحروب والاعمال الوحشية ، وكانت للحروب مسرحا ، وللاضطهاد ميدانا ، فقد افترستها الفوضى وطحنتها المحن » فهى «غائصة فى فتن كقطع الليل المظلم » (١) .

كانت حياة أولئك الناس تعسة وشاقة وكئيبة ، تموج دنياهم بالمناكر والسيئات ، وهم عليها مقيمون وبها يتعاملون ، وكان هذا الحال عاما وعلى كل المستويات ، ظهر هذا الدرك والانحطاط واضحا فى جنبات حياتها ، وملموسا فى غاراتها على الشرق الإسلامى خلال قرنين من الحروب الصليبية أو مثيلتها فى الغرب الإسلامى ، بدت ظواهر هذا الهبوط فى الفكر والعلم والثقافة ، والخلق وأسلوب التعامل والتصرف ... كانوا عُراة فى الفكر والنفس ، والخلق ، فضلا عن عرى بعضهم الجسدى ...

كان ذلك عاما ، حتى فى الطبقات العليا عندهم من الزعماء والحكام والسادة النبلاء والاقطاعيين والرهبان « محتكرى المعرفة القليلة المحدودة » دلت على ذلك المصادر الوفيرة المتضافرة (٢) .

(١) تاريخ غزوات العرب : رينو ص ٢٩٥ ، نقلا عن التاريخ الاندلسى ص ١٩ .
(٢) انظر التاريخ الاندلسى ص ١٩ ، ٢٠.

فـ « إذا رجعنا الى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية في اسبانيا ساطعة جدا ، رأينا ان مراكز الثقافة فى الغرب كانت ابراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لايقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين ، الذين يقضون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا كتب الاقدمين النفيسة بخشوع ، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ماهو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« ودامت همجية أوربا البالغة زمنا طويلا من غير أن تشعر بها ، ولم يبد فى أوربا بعض الميل الى العلم الا فى القرن الحادى عشر ، وفى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وذلك حين ظهرفيها أناس رأوا ان يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم ، فولوا وجوههم شطر العرب (المسلمون) الذين كانوا أئمة وحدهم » (١) .

ويعبر آخر فيقول : « من الثابت أنه بينما كانت أغلب أوربا ترزح تحت نير الشقاء والفساد ، ماديا وروحيا أقام المسلمون فى الأندلس حضارة زاهرة وحياة اقتصادية منظمة ، لعب الاندلسيون دورا حاسما فى تطور الفن والعلم والفلسفة والشعر ، وأثرت حتى فى أرفع أعلام الفكر النصرانى للقرن الثالث عشر ، كما عند توما الاكوينى ودانتى فكانت اسبانيا - مرة - مشعل أوربا » (٢) .

قام الاتفاق على ماسبق قوله بين الكثير من المؤرخين الأوربيين ، حتى مع التفاوت في الدرجة ، وبقيت هذه الحالة من الجهل الفاضح ، والأمية المطبقة والهمجية المغرقة مستمرة حتى تيسر الاتصال بالعالم الإسلامى (٣) .

---

(١) حضارة العرب : جوستاف لوبون ص ٥٦٦ - ٥٦٧ . والعرب فى اسبانيا من الترجمة العربية ص ١١٥ ، والتاريخ الاندلسى ... ص ٢٠ .

(٢) تراث الإسلام : ٢/ ١٠ مقال : « اسبانيا والبرتغال » نقلا عن التاريخ الاندلسى ص٢٠ .

(٣) راجع للأستاذ أبى الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ص ١٧٣ - ١٩٧ ، وللاستاذ محمد كرد على : الإسلام والحضارة جـ١ ص ١٩٥ - ٢٠٧ .

تلك كانت حالة أوربا فى عمومها : شرقها وغربها وبقية العالم ، قبل مجئ الإسلام وبعده ، وزالت عن بلدان عمها الإسلام بفيضه الخير وأخرجها من الظلمات النور ، حين اشرقت الارض بنور الله سبحانه ، وعم فضله فيها بلدانا ، وعمر شرعه منها الارجاء[1] .

يضاف الي ماسبق تسلط الكنيسة وسطوتها ، وتبنيها الافكار الجامدة والمواقف الفجة ، وإثارتها التخريب بين الناس ، ودعوتها الصليبية ، كما ثبت من قيام البابوات فى التحريض على الصليبية ، وشن الغارات ضد مخالفيهم وكل هذا أمر تتبرأ منه النصرانية ، كما أوحى بها الله سبحانه ، ولم يتنزل به منه سبحانه كتاب[2] .

ومن الوثائق الهامة شهود العيان الذين زاروا عددا من المناطق الأوربية ، وتركوا بعض التقارير ، هؤلاء الشهود هم الرحالة المسلمون أو المسافرون لأى شأن آخر ، ومنهم الاندلسيون ، الذين زودوا المكتبات بأخبار ذات قيمة تاريخية كبيرة عن تلك الشعوب ، وأحوالها كانت موضع اهتمام الدارسين فيها وعنها .

أو أبو الخطاب ابن دحية الكلبى الاندلسى (٥٤٧ - ٦١٥هـ) [3] وصفا لحال سكان أحد البلدان الاسكندنافية (الدنمارك) [4] التى كان يسكنها النور مان : عرف هؤلاء فى المصادر الاندلسية « المجوس » أو « المجوس الأردمانيون » .

---

(١) أوربا العصور الوسطى د. سعيد عاشور ١/١٥٠ - ١٥٢ .

(٢) انظر التاريخ الاندلسى ص ٢١ ، وفضل الإسلام على الحضارة الغربية تأليف مونتجمرى وات نقله الى العربية أحمد أمين ص ٧٠ ومابعدها .

(٣) فى كتابه المطرب من اشعار أهل المغرب ص .

(٤) والنرويج والسويد

هذا الوصف مأخوذ من تقرير كتبه يحيى بن حكم الغزال ، بعد عودته من السفارة التى تولى رياستها الى الدنمارك سنة (٢٣٠هـ = ٨٤٥م) . وفيه يذكر ان :

« فيها من المجوس مالا يحصى عددهم ، وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار ، أهلها كلهم مجوس ، ومايليها من البر أيضاً لهم مسيرة أيام ، وهم مجوس ، وهم اليوم على دين النصرانية ، وقد تركوا عبادة النار ، ودينهم الذى كانوا عليه ، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم فى البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار ، ونكاح الأم والاخت وغير ذلك من أصناف الشنار ، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم »(١) .

ووجود مثل هذه العادات الجاهلية وغيرها كانت معهودة هناك ، وذكرها جغرافيون آخرون ، كما ايدتها بحوث أوربية (٢) .

وصف صاعد الاندلسى (المرية : ٤٢٠ - طليطلة ٤٦٢ هـ) (٣) بعض سكان البلاد الأوربية قائلا

« .. فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ،، لأن من كان منهم موغلا فى بلاد الشمال مابين آخر الاقاليم السبعة التى هى نهاية المعمورة فى الشمال ، فإفراط بُعد الشمس عن مساوته رؤوسم برد هواءهم ، وكثف جوهم ، فصارت لذلك أمزجتهم باردة ، وأخلاقهم فجة ، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذه دقة الافهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهلة ، والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة كالصقالبة والبلغر ، ومن اتصل بهم »(٤) ..

---

(١) المطرب من اشعار أهل المغرب ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) راجع جغرافية الاندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) أبو عبيد الله البكرى ص ١٨٧.

(٣) فى كتابه طبقات الأمم .

(٤) صاعد الاندلسى : طبقات الأمم ص ١١ ، وراجع التاريخ الاندلسى ص ٢٢ ، ورحلة ابن بطوطة ص ٣٣٨ .

ينقل البكرى (شلطيس حوالى ٤٠٥ - إشبيلية ٤٨٧هـ) نصوصا عن شعوب أوربية من تقرير لرحالة أندلسى من أهل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) هو إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ، فيصف أهل بلد جليقية (شمال اسبانيا) بأنهم (أهل غدر ودناءة أخلاق ، لا يتنظفون ولايغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ، ولايغسلون ثيابهم منذ يلبسونها الى ان تنقطع عليهم ، ويزعمون ان الوسخ الذى يعلوها من عرقهم تنعم به اجسامهم وتصح أبدانهم ، وثيابهم أضيق الثياب ، وهى مفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم » [١] .

يؤكد هذا المعنى المؤرخ الأوربى (لين بول) قائلا : « تظهر المقابلة جلية غريبة بين حضارة الاندلس وغيرها من المدن ، اذا ذكرنا ان أوربا كلها فى هذا العهد كانت غارقة فى حمأة من الجهل وخشونة الاخلاق » [٢] .

ويصرح أيضاً بأن « قرطبة العظيمة ، التى كانت أعجوبة العصور الوسطى ، والتى حملت وحدها فى الغرب شعلة الثقافة والمدنية مؤتلقة وهاجة ، وقت أن كانت أوربا غارقة فى الجهالة البربرية ، فريسة للشقاق والحروب » [٣] .

ثم يحدث البكرى عن اصناف الروس « وصنف ثالث يسمون الأوثانية ، وملكهم مقيم بأوثان ، والتجار اليهم لايتجاوزون كويانة فأما أوثان فلم يجد أحدا يخبر أنه دخلها ، لأنهم يقتلون كل من وطئ أرضهم من الغرباء ، والله اعلم » [٤] .

---

(١) جغرافية الاندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) أبو عبيد البكرى ، ٨١ ، وانظر ماجاء فى اثار البلاد ص ٤٩٨ شبيها بهذا الوصف عند الحديث عن افرنجة .

(٢) العرب فى اسبانيا ص ١١٦ نقلا عن التاريخ الاندلسى ص ٢٣ .

(٣) العرب فى اسبانيا ص ٣٧ .

(٤) جغرافية الاندلس وأوربا ص ١٥٣ .

كما يخبر عن أجناس الصقالبة وأن أحدهم الذى يدعى سرنين يحرقون أنفسهم بالنار إذا مات رئيسهم ويحرقون دوابهم ، ولهم أفعال مثل أفعال أهل الهند، وهم يتصلون بالشرق ، ويبعدون عن الغرب ، وهم يطربون ويفرحون عند حرق الميت ، ويزعمون ان سرورهم واطرابهم لرحمة ربه إياه ، ونساء الميت يقطعن أيديهم ووجوهن بالسكاكين ، وإذا زعمت واحدة منهن أنها محبة له علقت حبلا وارتقت اليه على كرسى ، فتشتد به فى عنقها ، ثم يجذب الكرسى من تحتها ، فتبقى معلقة تضطرب حتى تموت ، ثم تحرق وتلحق بزوجها . »[1] ويستمر البكرى فى سرد عادات جاهلية أخرى .

فيحدث عن أهل رومة (روما) حيث « يدبر أمر هم برومة البابة ويجب على كل ملك من ملوك النصارى إذا اجتمع بالبابة ان ينبطح على الأرض بين يديه ، فلا يزال يقبل رجل البابة ولا يرفع رأسه حتى يأمره البابة بالقيام .. »[2] .

لم ينفرد البكرى فى هذا ، بل ذكر رحالة آخرون أمورا مشابهة . يحدث أحمد ابن فضلان فى رسالته التي كتبها عن وصف المناطق التى زارها خلال رحلته اليها سنة ٣٠٩هـ . فحين الحديث عن الروسية وصف بعض عاداتهم ، من ذلك مايقومون به من أفعال عند موت أحد رؤسائهم وأقلها الحرق للميت ، وهو أمر يتم بالنسبة للجميع ، لكن « إذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : « من منكم يموت معه ؟) فيقول بعضهم : (أنا) فإذا قال ذلك ، فقد وجب عليه لا يستوى له أن يرجع أبدا ، ولو أراد ذلك ماترك ، وأكثر من يفعل هذا الجوارى . » .

ثم يروى ابن فضلان حدثا فى هذا شاهده ، وكيف ارتضت جارية أن تموت مع سيدها ، فتمر بترتيبات تشرب خلالها وتغنى ، ثم تهيأ سفينة توضع فيها

(١) جغرافية الاندلس وأوربا ، ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) المرجع الساق ، ٢٠٢ .

الجارية وتقوم بأعمال معينة ، ويفعل بها الافاعيل الدنيئة البشعة ، حتى تنتهى بعد ذلك الى مرحلتها الاخيرة التى تقتل فيها ، حيث توضع الى جانب مولاها ، وامسك اثنان رجليها واثنان يديها ، وجعلت العجوز التى تسمى ملك الموت في عنقها حبلا مخالفا ، ودفعته الى اثنين ليجذباه ، وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل «فاقبلت تدخله بين أضلاعها موضعا موضعا وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت »[1] !! ثم تحرق هى ومولاها والسفينة ، ولا يسع الانسان إلا أن يمسك أنفاسه خوفا من الهلع لهذه الأخبار الهمجية .

أحتقار الكتب والمرأة !!

نقل خوليان ربيرا فى مقال له وصف ريكاردو دى بيرى - جامع الكتب الانكليزية المشهور فى القرن الثالث عشر ومستشار انجلترا - لحالة الكتب فى أوربا أيامه ، ومبينا رأيه فى المرأة : « فإن الكتب يقذف بها خارج الأبواب ليحل محلها الكلاب فى بعض الأحيان أو طيور الصيد ، أو فى أحيان أخرى هذا الحيوان البغيض الذى يسمى المرأة والذى لا ينبغى أن يعاشره رجل الدين ، ولايكاد يقع نظر هذا الحيوان الذى يبغض العالم دائما على كتب مستورة تغطيها خيوط العنكبوت حتى يلعنها بأقسى العبارات ، ويفضل بأن تستبدل بها الاقمشة الحريرية والقرمزية أو أى شئ آخر عديم الفائدة »[2] .

كل ذلك وأمثاله كان يجرى فى أوربا وغيرها فى هذا التاريخ (القرن الرابع الهجرى) وقبله وبعده ، فى حين قطع العالم الإسلامى مرحلة كبيرة فى خطى

(١) رسالة ابن فضلان ، ابن فضلا ، ١٥٦ - ١٦٤ ، وانظر التاريخ الاندلسى ص ٢٦.

(٢) مجلة معهد المخطوطات العربية ، ٩٢/١/٤ - ٩٣ ، بحث المكتبات وهواة الكتب فى إسبانيا الإسلامية » ، ربيرا ، كذلك الذخائر والتحف ، القاضى الرشيد بن الزبير ، ١٩٨ نقلا عن التاريخ الإندلسى ص ٢٧ .

الانسانية على هدى الإسلام ، الذى كرم هذا الانسان ، ذكرا أو أنثى كبيرا وصغيرا من أى جنس دون تمييز وجعله أرقى المخلوقات « كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن اكرمكم عند الله اتقاكم » (١) . فكان بلال الحبشى ، العبد الأسود ، فى الإسلام وفى واقع حياته ، أفضل السادة وكان عمر بن الخطاب يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ، يعنى بلالا ، وطوت أم المؤمنين أم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان) وزوج الرسول الكريم ﷺ فراشه عن أبيها سيد قريش كيلا يدنسه بجلوسه عليه إذ هو «مشرك نجس»(٢) .

قبل تاريخ هذه الاحداث بقرون أبطل الإسلام كل أوضاع الجاهلية ومقوماتها فى النفس والفكر والمجتمع وفى جنبات الحياة كافة ، ابطلها فى واقع النفس الانسانية وتم إبطالها فى حياة الانسان ، وحطم كل الطواغيت والاصنام ، فأقام حياة الانسان وفكره على عقيده سمحة وشريعة سامية بيضاء ، ليعيش الانسان حياة فاضلة .

ففى حجة الوداع (السنة العاشرة للهجرة) كان تأكيد هذه المعانى ، فى إعلان رسول الله ﷺ الى أهل الأرض كافة بقوله : « ألا إن كل شئ من أمر الجاهلية تحت قدمى هاتين موضوع » (٣) .

فكانت ولادة الانسان الجديد النظيف فى كل شئ « الانسان المسلم » ، ومنذ ذلك التاريخ عرف الانسان قيمته الحقة ذكرا وأنثى ، كما أرادها الله سبحانه له ،

---

(١) من خطبة الرسول الكريم ﷺ فى حجة البلاغ (الوداع) ، راجع . مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، جمعها محمد حميد الله ، ٣٠٨ - ٣٠٩ .
(٢) راجع : نظرات فى دراسة التاريخ الإسلامى ، ٨٢ .
(٣) حجة النبى ﷺ ، محمد ناصر الدين الألبانى ، ٧٧ .

بعد ان عرف ربه ، وقد رفض سول الله ﷺ ان يقوم له الناس أو يقبلوا يده ، وأرادهم ان يعبروا عن محبتهم له باتباع هديه والعمل بشرع الله العالى وبطاعة الله وطاعته والاخذ بمنهجه سبحانه وتعالى .

* * * *

إن سوء الاحوال فى أوربا – وفى كل جوانب الحياة – بقى الى قرون متأخرة فى أوربا مثلما كان من قبل . ومعروف حال أوربا من السوء العام الشامل قبل الصراع والثورات التي جرت فى تاريخها الحديث كالثورة الفرنسية (١٣٠٣هـ = ١٧٨٩م) .

وإذا تجاوزنا التقدم العلمى والمادى الذى جلبته الحضارة الأوربية الحالية فهى – فى خطها العام – خاوية انسانيا ، لخلوها من النظرة الانسانية وهبوط هذه النظرة نحو الكون والحياة والانسان ، انها اهملت خصائص الانسان حين اعتبرته آلة ، أو واحدا من انواع الحيوان .

ومع ان التقدم العلمى والصراع الاجتماعى ، الذى أحدث التغيير فى أوربا ، كان بعد اتصالها بالعالم الإسلامى ، إلا أنه لم تحسن الانتفاع بذلك ، فصاغت حياتها فى إطار موروثاتها ، زيادة على الاجواء الاجتماعية التى اعطت أحداثا تاريخية معينة تشكلت تبعا لمواقفها وفى تيار أوضاعها ، لذا لم تعرف حياتها – عموما – الاعتدال السوى ، وعاشت بين الافراط والتفريط ، والقلاقل والموبقات [1] .

---

(١) انظر التاريخ الاندلسى .. ص ٢٨.

تواجد المسلمين فى جنوب فرنسا :

قال غوستاف لوبون : استقر العرب بأقصى جنوب فرنسا زمنا طويلا.

وكان يملك بلاد فرنسة ، حين ظهر فيها العرب فى القرن الثامن من الميلاد ، أمراء يعرفون بالملوك الكُسالى ، وكانت تأكلها الفوضى الاقطاعية ، وكانت مستعدة لتكون غنيمة لغزاة العرب الذين استولوا على أكثر مدنها الجنوبية بسهولة ، ودخل العرب قرقشونة ، ونيم ، وليون وماكون ، وأوتون ، الخ . بالتتابع بعد ان فتحوا أربعة من أقليم لنفدوكة وحصاروا فى سنة ٧٢١م ، مدينة طلوشة التى كانت عاصمة اكيتانية على غير جدوى ، وانتشر العرب فى جميع وادى الرون وفي دوفينة وبور غونية.

واستولى العرب بالتدريج على نصف فرنسا الحاضرة الذى يبدأ من ضفاف نهر اللوار وينتهى الى مقاطعة فرنش كونته ، ولم يقصد العرب الاستقرار بتلك البلاد، بل اكتفوا باحتلال بعض المراكز المهمة لتكون قواعد يستطيعون ان يشنوا منها غارات جديدة على بعض البقاع حيث يأملون ان يجدوا ما يغنمون .

واهم تلك الغارات هى التى كانت بقيادة عبد الرحمن الغافقى فأوقفها شارل مارتل (قارلة) بالقرب من بواتية سنة ٧٣٢ م (١) .

جمع عبد الرحمن الغافقى جيشا على شئ من الاهمية فى إسبانية وعبر نهر الغارون واستولى على بوردو (برديل) على الرغم من دفاع الاكيتان والڤاسكون الذين كان يقودهم دوك أوديس، ثم توجه الى بواتيه فاستغاث دوك أوديس بشارل مارتل الذى كان يلقب بأمير القصر ، ويمارس السلطة باسم ملكين ضعيفين من ملوك الميروفنجيين فى المقاطعتين : أشترازية وتُسطرية (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٣ .

(٢) حضارة العرب : ص ٣١٣ .

روى أحد مؤرخى العرب : « أن كثيرا من سينورات الفرنج اشتكوا الى شارل مارتل من الاضرار الى احدثها المسلمون ، ومن الخزى الذى يمكن ان يصيب البلاد من جراء دحر أناس غير مدربين وغير حاملين سلاحا كافيا لمحاربين مجهزين بالدروع وبعدة الحرب الكاملة فأجابهم شارل مارتل قائلا : « دعوهم يصنعوا مايشاءون ، فهم الآن مستأسدون ، وهم كالسيل الذى يأتى على كل مايعترضه ، وماعندهم من الحماسة والشجاعة يقوم مقام الدروع والحصون ، ولكنهم إذا ما أثقلتهم الغنائم وطاب لهم المقام بالبيوت الجميلة والفوا رفاهية العيش واستحوذ الطمع على قادتهم ، ودب الشقاق فى صفوفهم زحفنا عليم واثقين من النصر (١) .

وتثبت إقام العرب بفرنسة مدة تزيد على قرنين بعد شارل مارتل مما يدل على ان النصر الذى احرزه فى بواتيه لم يكن مهما كما زعم المؤرخون ، ولم يقم إجماع هؤلاء المؤرخين الذين قصوا علينا ان شارل مارتل أنقذ أوربه والنصرانية من العرب على أساس متين كما يبدو لنا فلم تكن غزوة عبد الرحمن الغافقى سوى حملة قام بها ليُموِّن جنوده ويمكنهم من أخذ مغانم كثيرة .

ولم يستطع شارل مارتل ان يطرد العرب من أية مدينة أحتلوها عسكريا ، واضطر شارل مارتل الى التقهقر أمامهم تاركا لهم ما استولوا عليه من البلدان ، والنتيجة المهمة الوحيدة التي اسفر عنها انتصاره هى أنه جعل العرب أقل جرأة على غزو شمال فرنسة ، ونتيجة مثل هذه ، وان كانت مفيدة ، لم تكف لتكبير أهمية انتصار هذا القائد الفرنجى (٢) .

ويرى المؤرخون الذين يجسمون قيمة انتصار شارل مارتل على العرب بالقرب من بواتيه أنه لولا هذا الانتصار لاستمر العرب على غزواتهم واستولوا على أوربه ،

(١) المرجع نفسه ص ٣١٤ .
(٢) حضارة العرب ص ٣١٦ .

ثم يسألون مذعورين عن مصير الشعوب النصرانية لو خفقت فوقها راية النبى محمد ﷺ ، قال مسيو هنرى مارتين فى كتابه عن تاريخ فرنسة الشعبى : « لقد تقرر مصير العالم فى تلك المعركة ، ولو غلب الفرنج فيها لكانت الارض فى قبضة محمد ولخسرت أوربه والدنيا مستقبلها ، فليس النشاط الذى يحفز الناس الى التقدم مما تجده فى عبقرية المسلمين التى تتلخص فى فكرتهم عن الله ، وإله المسلمين قد جنح الى العزلة والسكون بعد ان خلق العالم ، وهو لايحث الناس على العمل في سبيل الرقى »[1] .

والجواب عن ذلك هو ان النصر لو تم للعرب ماطرأ تبديل على مقادير البلاد لماذا ؟ والجواب مايلى :

أ- لنفرض جدلا ان النصارى عجزوا عن دحر العرب ، وأن العرب وجدوا جو شمال فرنسة غير بارد ولا ماطر كجو اسبانية فطابت لهم الاقامة الدائمة به ، فماذا كان يصيب أوربة ؟ كان يصيب أوربة النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب اسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبى العربى ، وكان لايحدث فى أوربة التى تكون قد هذبت ماحدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية وملحمة سان بارتلمى ومظالم محاكم التفتيش وكل مالم يعرفه المسلمون من الوقائع التى ضرجت أوربة بالدماء عدة قرون.

ب- يجب ان يكون المرء جاهلا تاريخ حضارة العرب جهلا مطبقا ليوافق على مازعمه ذلك المؤرخ العالم من « إن النشاط الذى يحفز الناس الى التقدم ليس مما تجده فى عبقرية المسلمين » ، ومن « أن أوربة والدنيا كانت تخسران مستقبلهما » ، فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يعلم ان التمدن اللامع حل بالبلاد التى خضعت لأتباع الرسول محل الهمجية ، وأن النشاط الذى يحفز الانسان الى التقدم لم يكن قويا فى إمة مثل قوته فى العرب .

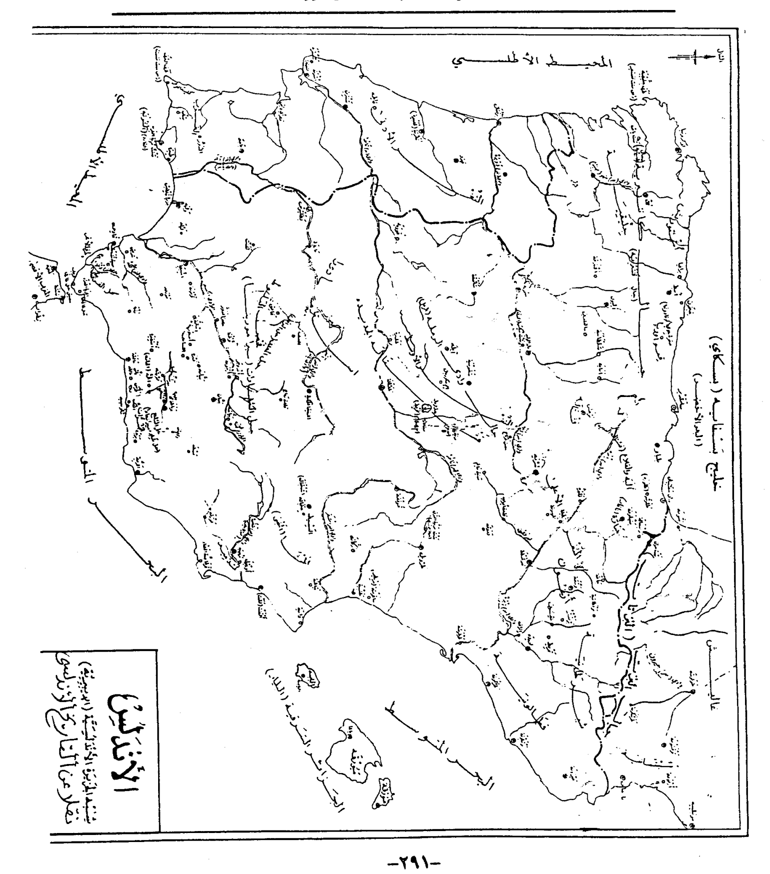
(١) المرجع نفسه .

جـ- ومع ان إقامة العرب بفرنسة نشأت عن بعض السرايا نراهم قد تركوا أثرا عميقا فى اللغة وفى الدم .. وذلك انه استقر أناس كثيرون منهم بالارضين القريبة من المدن التى استولوا عليها وتعاطوا فيها أمور الزراعة والصناعة ، وانهم ادخلوا صناعة البسط الى أبوسون ، وانهم أدخلوا كثيرا من أساليب الفلاحة كما عُزى اليهم ، وانهم امتزجوا بسكان البلاد بسبب مخالفاتهم الكثيرة لأمراء النصارى الاقطاعيين المتقاتلين على الدوام ، وانه وجد حفدة للعرب في اماكن كثيرة من بلاد فرنسة كالمقاطعات : كروز والألب الاعلى ومونتمور (جبل المغاربة) وبنيو (شارانت) وبعض قرى لاندوروسيون ولنغدوكة وبيارن كما اثبت ذلك علم وصف الانسان ، فيمكن الانسان ان يعرفهم بجلودهم السمر وشعورهم السود وأنوفهم القنو وعيونهمُ الثاقبة اللامعة ، ويمكن المرء ان يعرف نساءهم بألوانهن الزيتية ووجوههن الأسيلة وأعينهم النجل الدعج .. وقد أسهب صاحب كتاب حضارة العرب فى وصفهم بحيث يطمئن من يريد التحقيق فى هذا الأمر (١) .

وبعد : فقد وضح لنا من تاريخ العرب فى مختلف الأقطار التى دانت لهم ما تحقق لدينا أنهم ذوو أثر بالغ فى تمدين الأقطار التى خضعت لهم خلا فرنسة على مايحتمل ، وأن كل بلد خفقت فوقه راية النبى ﷺ تحول بسرعة إلى الأفضل فازدهرت فيه العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة إيما ازدهار إن شأن هذه الأمة الحقيقى فى العالم يقاس باكتشافاتها وتأثيرها فى ميدان العلم الذى صاحب الحضارة والثقافة .

---

(١) راجع حضارة العرب ص ٣١٧ ، ٣١٨ .


المحيط الأطلسي
الأندلس

افريقيا واقسامها

يقصد بافريقية الشمالية البلاد التى تشمل : مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ، وتمتد افريقية الشمالية من المحيط الأطلنطى الى غرب مصر الملحقة بالشرق على العموم ، وتحد افريقية الشمالية بالبحر المتوسط فى الشمال وبأقسام الصحراء المجاورة للسودان من الجنوب .

وكان الرومان يقسمون افريقية الشمالية الى خمسة أقسام :

(١) بلاد برقة الواقعة فى غرب مصر .

(٢) بلاد افريقية القنصلية (طرابلس الغرب وتونس) .

(٣) بلاد نوميدية (ولاية قسنطينة) .

(٤) موريتانية القيصرية (قسم من الجزائر الحاضرة).

(٥) موريتانية الطنجية (مراكش) ، وكانت رومة تمارس سلطانها على هذه الولايات بما ترسله اليها من الولاة والمندوبين والحكام (١) .

تسمية العرب افريقيا الشمالية والاندلس بالمغرب :

وسمى العرب افريقية الشمالية والاندلس بالمغرب فى البداءة واطلق اسم افريقية على تونس وطرابلس الغرب حين استقر العرب بالقيروان وتونس ، وصارت كلمة المغرب لا تدل على غير بلاد افريقية الغربية فى نهاية الأمر .

(١) انظر حضارة العرب ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

وصار العرب يسمون البلاد التى تحتوى الآن على الجزائر ، تقريبا ، بالمغرب الأوسط ، والبلاد التى تحتوى الآن على مراكش بالمغرب الأقصى .

واستولت شعوب كثيرة على شمال افريقية ، وكانت لها آثار متفاوتة فيها ، وملكها قبل العرب كل من : القرطاجيين والرومان والوندال والقوط والبزنطيين .

ولم يتبدل أهل شمال افريقية مع كثرة فتوح الاجانب لها ، وهؤلاء الأهلون هم البربر الذين حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم خارج المدن على الأقل .

وجميع أمم إفريقية الشمالية التى سماها الرومان بالنوميديين واللوبيين والافريقيين والمغاربة والجيتول ، الخ ، من عرق البربر ، ويمكن القول بأن من لم يكن زنجيا فى شمال افريقية كان بربريا ، وذلك قبل العرب (١) .

الدول التى احتلت اسبانيا قبل فتح المسلمين لها :

فى ماضى الأمم سر حوادثها الحاضرة ، وبماضى اسبانية يفسر سبب السرعة فى فتح أتباع الرسول ﷺ لها .

وكان للفنيقيين والاغارقة والقرطاجيين مستعمرات فى اسبانية التى يسكنها السلت الغوليون ومن لم يعلم أصلهم جيدا من الأيبريين والليغوريين ، وأنشأ القرطاجيون مدينة قرطاجة فى اسبانية بعد ان فتحوها لتكون تابعة لقرطاجة ، ثم فتح الرومان بلاد اسبانية على أثر الحروب اليوانانية ، وذلك قبل الميلاد بقرنين .

وملك الرومان بلاد إسبانية حتى القرن الخامس من الميلاد ، وازدهرت مدن فيها ايام حكمهم ، ووهبت لرومة رجالا مشهورين مثل سينيك ولوكن ومرسيال ، ووهبت لها قياصرة مثل تراجان وأدريان ومرك أوريل وثيودور . الخ .

---

(١) حضارة العرب ص٢٤٤ .

وكان لاسبانية نصيب من إدبار رومة بعد ان كان لها حظ من اقبالها ، فقد انقض الوندال والألين والسويف الذين هم من برابرة الشمال على اسبانيا بعد أن خربوا بلاد الغول ، ولم يلبث القوط الذين هم من البرابرة أيضاً ، أن قهروهم ، واستولوا على اسبانية فى القرن السادس من الميلاد ، وظلوا سادة لها تماما الى أن جاءها العرب [1] .

ومن سوء حظ المملكة القوطية ان هناك نزاع اجتماعى ، وفتن داخلية وفقدان للروح العسكرية ، وفتور عن الدفاع بين الأهلين المستعبدين ، هذه هى الحال التى كانت عليها مملكة القوط حين ظهور المسلمين ، وكان من المنافسات التى تمزق الدولة القوطية أن سهل الأمير يليان ورئيس أسقافة اشبيلية ، وهما من علية الاسبان ، فتح اسبانية على العرب المسلمين .

دخل الجيش الإسلامى المؤلف من أثنى عشر الف جندى بلاد اسبانية فى سنة ٧١١م ، أى فى زمن الخليفة العاشر (٢) الذى كانت دمشق عاصمته .

ومن يقطع القسم الجنوبى الخصب من بلاد اسبانية يعلم مقدار التأثير الذى أثر به فى نفوس العرب حينما استولوا عليه ، فقد بهرتهم تربته وهواؤه ومدنه ومبانيه .

وصف اسبانيا :

وصفت اسبانية فى كتاب ارسله قائد الجيش العربى الى الخليفة الأموى بأنها : « شامية فى طيبها وهوائها ، يمنية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) هو هشام بن عبد الملك ، راجع تاريخ الإسلام ، د. حسن ابراهيم حسن جـ ١ ص ٣٣٩ .

عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جباياتها ، صينية فى معادن جواهرها ، عدنية فى منافع سواحلها » .

واستولى المسلمون على ساحل اسبانية مبتدئين بجبل طارق الذى اقتبس اسمه من اسم طارق بن زياد أحد رجال القائد العربى موسى بن نصير -كما سبق-.

وكان العرب قد قضوا خمسين سنة فى فتح افريقية البربرية ، ولم يقضوا سوى بضع سنين فى فتح جميع اسبانية النصرانية ، وتقرر مصير مملكة القوط فى المعركة الأولى المهمة التى خاض المسلمون غمارها (١) .

أتم العرب فتح اسبانية بسرعة مدهشة ، وذلك ان المدن الكبيرة سارعت الى فتح أبوابها للمسلمين فدخلوا قرطبة ومالقة وغرناطة وطليطلة صلحا تقريبا ، ووجد العرب فى طليطلة التى كانت عاصمة (لتيجان) خمسة وعشرين ملكا قوطيا وأسروا أرملة لملك القوطى ، رودريك التى تزوجها ابن القائد موسى بن نصير فيما بعد .

وأحسن العرب سياسة سكان إسبانية كما أحسنوا سياسة أهل سورية ومصر، فقد تركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وحق المقاضاة الى قضاة منهم ، ولم يفرضوا سوى جزية سنوية تبلغ دينارا (١٥ فرنكاً) عن كل شريف ونصف دينار عن كل مملوك ، فرضى سكان اسبانية بذلك طائعين ، وخضعوا للمسلمين من غير مقاومة ، ولم يبق عليهم إلا ان يقاتلوا الطبقة الأريستوقراطية المالكة للأرضين.

ولم يدم القتال طويلا ، وذلك ان العرب كسروا كل مقاومة ، ودانت لهم جميع مدن اسبانية .

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٢٦٥ ، بتصرف .

أمل لم يتحقق :

يروى ، مع التوكيد ، أن موسى بن نصير فكر ، بعد فتح اسبانية أن الأمل دب فى قلبه أن يعود الى سورية من بلاد الغول – فرنسا – والمانية وفى الاستيلاء على القسطنطينية وفى إخضاع العالم القديم لأحكام القرآن ، وأنه لم يعقه عن ذلك العمل العظيم سوى أمر الخليفة إياه بأن يعود الى دمشق ، فلو وفق موسى بن نصير لذلك لجعل أوربة مسلمة ولحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية ، ولأنقذ أوربه على مايحتمل من دور القرون الوسطى الذى لم تعرفه إسبانية بفضل العرب لكن الأمل لم يتحقق (١) .

سبب ضياع الأندلس من المسلمين :

جاء جل التأثير الحضارى الإسلامى فى أوربا عقب فتح المسلمين لاسبانيا وصقلية وويمكن تحديد بداية الاحتكاك العسكرى شهر يوليو (تموز) عام ٧١٠م ، حين قامت جماعة من المسلمين قوامها نحو أربعمائه شخص بالعبور الى اقصى اطراف اسبانيا الجنوبية قادمة من شمال افريقيا ، ولم تكن هذه الجماعة إلا قوة استطلاعية . غير أن المعلومات التى عادت بها كانت مشجعة ، بحيث شهد العام التالى (٧١١م) محاولة جادة وناجحة للفتح ،قام بها جيش من سبعة آلاف شخص ، سرعان ماعززته خمسة آلاف أخرى، وقد لقيت المحاولة من النجاح مامكنها فى يوليو (تموز) عام ٧١١ من إلحاق هزيمة فاصلة برودريك ملك القوط الغربيين ، دمرت الإدارة المركزية لملكته ، ولم يلق المسلمون منذ ذلك الحين أية مقاومة فى سبيل زحفهم الا على المستوى المحلى ، وفى حوالى عام ٧١٥ كان قد تم للمسلمين فتح كافة المدن الاسبانية الهامة ، وكان من بين المناطق التى استولى عليها المسلون :

(١) انظر حضارة العرب ص ٢٦٧ .

مدينة (ناربون) فى جنوب فرنسا والمنطقة المحيطة بها ، إذ كانت جزءا من مملكة القوط الغربيين (١) .

وتم استقلال اسبانيا سنة ٧٥٦ على يد الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل ، أول أمراء الدولة الأموية فى قرطبة (٢) . وبلغت اسبانيا أوج قوتها ورخائها خلال حكم عبد الرحمن الثالث (٩١٢ – ٩٦١م) .. لكن بمجئ عام ١٠٣١ م كان ثمة نحو ثلاثين حاكما محليا مستقلا ، وحتى بدأ عهد ملوك الطوائف .. غير ان قدرا من الرخاء استمر رغم القلاقل السياسية كما انتعشت الفنون والآداب بفضل تنافس الحكام العديدين (٣) .

لكن دب الخلاف بين المسلين فكان عاملا مساعدا على تقدم المسيحيين وزحفهم ، فإذا بمدينة طليطلة ، ذلك الحصن الحصين الهام تسقط فى أيديهم عام ١٠٨٥م ، وادرك زعماء المسلمين الخطر الداهم الذى يتهددهم ، فاستغاثوا بالمرابطين الذين كانوا يحكمون دولة البربر الشاسعة فى شمال غرب افريقيا ، وقد تمكن المرابطون من حكم اسبانيا الإسلامية من حوالى عام ١٠٩٠ – ١١٤٥ م ، ثم جاء من بعدهم دولة الموحدين فحكمت اسبانيا حتى عام ١٢٢٣م ، وبعد هذا التاريخ بدأ العد التنازلى لحكم المسلمين فى اسبانيا فقد انشغل الموحدون بصراعات اسرية على الحكم ، فأدى الى انتصار المسيحيين ، فاستولوا على قرطبة عام ١٢٣٦، وعلى اشبيلية عام ١٢٤٨ . وحين استقرت الاوضاع بعد حوالى عشرين سنة لم تكن هناك فى اسبانيا من الممالك الإسلامية غير مملكة غرناطة الصغيرة التى كانت تحكمها اسرة النصريين ، ومع هذا فقد حققت غرناطة انجازات رائعة فى ميدان الأدب

(١) انظر المرجع السابق ص ٩ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٩ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠ .

العربى ، كما خلفت فى ميدان المعمار أثرا من اعظم ماشهدته اسبانيا الإسلامية ، ألا وهو قصر الحمراء ، وقد احتفظت غرناطة باستقلالها حتى عام ١٤٩٢ حين ضمتها اليها مملكة أرغون وقشتالة المتحدة (١) .

وهكذا سقطت راية الإسلام التى كانت ترفرف على ربوع الأندلس بيد المسلمين المتنازعين على الحكم والسلطان ولم يلتفتوا الى قول الله عز وجل : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » (٢) .

وقوله سبحانه : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» (٣) .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٠ ، ١١ .
(٢) الأنفال : ٤٦ .
(٣) آل عمران : ١٠٣ .

ثانى المعابر الثقافية جزيرة صقلية

موقعها ووصفها :

تقع جزيرة صقلية بين ساحل إيطاليا الجنوبى ، وبين الساحل الفرنسى القريب منها جنوبا ، وصقلية (Sicily) شبيهة بمثلث ضخم أطرافه ثلاثة رؤوس ، وهى محاطة بثلاثة أبحر : البحر اليونانى شرقا ، والبحر التيرينى شمالا ، والبحر الصقلى أو الافريقى جنوبا وغربا [1] . ويمكن تقسيم صقلية الى ثلاثة أقاليم جغرافية هى :

أ- إقليم مازر.

ب- إقليم نوطس .

جـ- وإقليم دمنش .

أما مساحة صقلية فهى خمسة وعشرون ألفا وأربعمائة وستون كم (٢٥,٤٦٠ كم) ، وأهم مدنها عاصمتها بالرمو (Palermo) ، وتومينى ايمريسه ، واترابانى ومرسالا (مرسى على) ومازر أو مزاره ، وكركنته ، وجيليه ، وسيراكوزه ، وأوعوسطة ، وكتانية ، ومسينا ، وعلقامو (من علقمة) وسواها من المناطق المدن . أما عدد سكانها فى فترة الحكم العربى فكان يقارب مليونا وستمائة نسمة (١,٦٠٠,٠٠٠) وهى كثافة سكانية عالية بالنسبة لتلك الفترة ، بينهم ستمائة الف من المسلمين [2] .

---

(١) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١١٣.

(٢) د. مارتينو ماريو مورينو : المسلمون فى صقلية ص ١- ٣ ، نقلا عن المرجع السابق ، د. عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ٨ .

وتعد صقلية هى المعبر الثانى لانتقال حضارة الإسلام وثقافته الى غرب أوربا ، فلما استولى الفاتحون من العرب على صقلية وجنوب ايطاليا و تركوا لأهلها عاداتهم وحريتهم الدينية ، وحافظوا علي جميع الكنائس التى وجدوها .. وكثرت مظاهر المدنية ونعم الناس بالأمن والسلام والحق ، وأبقى العرب فى الجزيرة كثيرا من عاداتهم ، وتركوا ثروة طائلة من الالفاظ العربية فى اللغة الصقلية والايطالية ، وفى اللغة العامية فى جميع المدن الإيطالية ، التى كانت تتجر مع الشرق وصقلية ، فدخلت بذلك كلمات كثيرة فى الإيطالية ، ولقد اضطرت مدينة (جنوة) إلى تأسيس مدرسة سنة ١٢٠٧ م ، وذلك لتعليم وتدريس اللغة العربية لغة الحضارية العالمية ، يدل على ذلك وجود كلمات عربية كثيرة فى لغة هذه المدينة ، وفى اللغة العالمية فى جميع المدن الإيطالية ، التى لها علاقة بالشرق الإسلامى (١) .

يقول « ريبالدى » : إن الجزء الاعظم من الكلمات العربية الباقية فى اللغة الإيطالية ، والتى تفوق الحصر ، قد دخلت الى اللغة الإيطالية عن طريق الاستعمار والغزو كما هو في العصر الحديث (٢) .

وأما عن الثقافة فى الأدب والشعر والرواية والهندسة والطب وغير ذلك فقد اقتبس الغرب منها الكثير ، وحسبك فى هذا ان العرب المسلمين أنشأوا المدارس المختلفة لتعلم تلك الفنون ، ومنها أول مدرسة للطب ، لم يوجد فى ارجاء أوربا كلها مثلها ، مما يدل على ان مدارس الطب فى أوربا الغربية إنما أنشئت بعد مدرسة صقلية الإسلامية بأعوام ، ومن تلك المدرسة انتشر الطب فى البلاد الإيطالية وأوربا الغربية(٣) .

---

(١) انظر الحضارة الإسلامي مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٥٣.

(٢) الإسلام والثقافة العربية ص ٢٠٢ عبد الفتاح مقلد . ط عالم الكتب .

(٣) انظر الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٥٣ .

محاولات المسلمين الأولى لفتح صقلية :

كانت صقلية من حيث موقعها الجغرافى معرضة لهجمات المسلمين من جهتين:

أ- من بلاد الشام ومن افريقية فهاجمها معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه والي الشام في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه مرتين : مرة عام ٦٥٠ م من سواحل الشام (لبنان) عندما كان واليا .

ب- ومرة عام ٦٧٠م من بلاد المغرب العربى (إفريقية) عندما أصبح خليفة ، غير ان هذه الغزوات لم تكن منظمة أو قوية ، ومن ثم لم يتسن للمسلمين السيطرة على صقلية فى تلك الفترة .

هذا وقد تكررت الغزوات العربية على صقلية فى أوائل القرن الثامن الميلادى، فبعد السيطرة على الاندلس ، بعث موسى بن نصير عام ٧٠٤م أسطولا صغيرا بقيادة ابنه عبد الله لغزو صقلية ، وسردينية ، وجزر البليار فاحتلها بشكل مؤقت ، وفى عام ٧٢٧م غزا العرب صقلية بقيادة بشر بن صفوان ، ثم تعرضت صقلية لغزوتين من العرب فى عام ٧٢٨ - ٧٢٩ بقيادة عثمان بن أبى عبيدة ، وبقيادة المستنير بن الحجاب (١) .

سبب استيلاء المسلمين على جزيرة صقلية :

يرجع محاولات المسلمين المتكررة لفتح جزيرة صقلية والاستيلاء للآتى :

أولاً : لموقعها الاستراتيچى الهام ، فهى تقع على ساحل ايطاليا الجنوبى ، والساحل الفرنسى من الجنوب ايضاً كما انها محاطة بثلاثة أبحر كما مر .

(١) د. مارتينو ماريو مورينو : المسلمون فى صقلية ص ٦ ، ٧ . نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١١٤ .

ثانيا : ولخطورتها علي البلاد الإسلامية والعربية .

ثالثا : ولأنها منطقة ، وقاعدة لهجمات البيزنطيين ، والروم والبربر (الهاربين اليها) على العرب فى برقة وبلاد المغرب ، وعلى الاساطيل الإسلامية ومراكب المسلمين(١) .

واستمر هذا التجاذب العسكرى الى أن ولى الخليفة هارون الرشيد : إبراهيم ابن الأغلب على افريقية الذى عانى من عدم الاستقرار السياسى والعسكرى فى تعامله مع البيزنطيين .

(١) نقلا عن المصدر السابق .

فتح المسلمين صقلية على يد الأغالبة (*)

لما استغاثت إحدى القبائل المتنازعة فى صقلية بالاغالبة الذين حكموا إفريقية (تونس اليوم) باسم الخليفة العباسى فى بغداد ، كانت فى الواقع تتمتع بقسط وافر من الاستقلال حدث هذا عام ٨٢٧م ، وبهذه الاستغاثة سنحت الفرصة للاغالبة ، لفتح صقلية ، فدخلوا بالرمو عام ٨٣١ ، ومسينا حوالى عام ٨٤٣ ، ولم يكتمل فتح الجزيرة حتى حوالى عام ٩٠٢م ، وقبل الفتح بوقت طويل واصل العرب

(*) قامت دولة الاغالبة على يد ابراهيم بن الاغلب بن سالم على تونس بأمر من الخليفة الرشيد لتاديب البربر وغيرهم من الثوار والوقوف فى وجه الادارسة ، إذا ارادوا الاغارة على أراضى الدولة العباسية ، وكانت تولية ابراهيم بن الاغلب سنة ١٨٤ هـ ، وكان ابراهيم هذا على جانب عظيم من الشجاعة ورجاحة العقل وكفايته ، انس فيه الذكاء استاذه الليث بن سعد إمام أهل مصر فى الفقه والحديث فقال :

« ليكونن لهذا الفتى شأن » راجع لابن الأثير البداية والنهاية : ٥٦/٦ ، ولابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب : ٨٤/١ ، وتاريخ الإسلام د. حسن إبراهيم : ٢١٢/٢ ، ٢١٣ ، وتظهر مكانة ابراهيم بن الاغلب فيما يلى : ذكر الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن ابراهيم ابن الاغلب استقبل سفراء شرلمان فى العباسية حاضرة ولايته ، ويظهر أن منزلته قد علت حتى ان شرلمان لجأ اليه مباشرة دون الرجوع الى الخليفة العباسى راجع : خلاصة تاريخ تونس ص ٥٩ ط ١٣٣٤ هـ.

ووصف ابن عذارى ابراهيم الاغلب فقال : كان « فقيها أديبا وشاعرا خطيبا ، ذا رأى ونجدة وبأس وحزم ، وعلم بالحروب ومكايدها ، جرئ الجنان طويل اللسان ، لم يل افريقية أحسن سيرة ولا سياسة ، ولا أرأف بالرعية ، ولا أوفى بعهد ولا أرعى لحرمة منه ، فطاعت له قبائل البربر وتمدنت افريقية فى ايامه ، واستقامت الاحوال بها » تاريخ الإسلام : د/ حسن ابراهيم ٢١٥/٢ ، والبيان المغرب : ٨٣/١ ، ٨٦ .

زحفهم فدخلوا نابولى عام ٨٣٧ على اثر نشوب نزاعات بين امراء اللومبارديين المتنافسين فى ايطاليا نفسها ، وبدخولهم نابولى مكن لهم الاستيلاء على بارى شمالى برنديزى على بحر الادرياتيك عام ٨٤١ أو عام ٨٤٧ ، واستبقوها قاعدة أمامية لهم على مدى ثلاثين عاما ، وقد هددوا روما نفسها عام ٨٤٦ ، ثم عام ٨٤٩ ، غير أنهم لم يستولوا عليها ، لأن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ – ٨٨٨) ظل مدة وهو يدفع الجزية للمسلمين [١] .

وخلال القرن التاسع استطاع المسلمون عبر ممرات جبال الألب الوصول الى أوربا الوسطى ، بيد أن انتعاش قوة البيزنطيين فى جنوب أيطاليا قبل نهاية هذا القرن ، عاقت تقدم المسلمين إلى ايطاليا ذاتها .

غير ان سلطان العرب فى صقلية ازداد قوة ، وحين طرد الفاطميون أسرة الاغالبة من تونس عام ٩٠٩ ، أضحت صقلية ولاية فاطمية .. ثم تمكن أحد الولاة [٢] المسلمين المعينين من قبل الفاطميين عام ٩٤٨م من أن يحرز لنفسه قدرا عظيما من الاستقلال ، وقد كانت صقلية فى عهده وعهود خلفائه من الكلبيين تنعم بحكم رشيد ورخاء عظيم ، وتغلغلت جذور الحضارة الثقافية الإسلامية فى الجزيرة [٣] .

مراحل فتح جزيرة صقلية :

أ- فتحت جزيرة صقلية على يد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب ف سنة ٢١٢هـ. وذلك فى عهد الخليفة المأمون .

(١) انظر فضل الإسلام علي الحضارة الغربية : مونتجمرى وات نقله الى العربية حسن أحمد امين ص ١٢ .

(٢) لعله : العباس بن الفضل القرارى . راجع تاريخ الإسلام .. ٢/٢٢١ ، ٢٢٢.

(٣) انظر فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ١٢ .

ب- فى عهد معاوية بن حديج والى افريقية ، فقد بعث عبد الله بن قيس الفزارى ولكن أقدام المسلمين لم تثبت فى هذه الجزيرة (١) .

جـ- قام محمد بن إدريس الانصارى بفتحها فى زمن يزيد بن عبد الملك ، وغنم منها غنائم كثيرة كما يقول النويرى (٢) .

د- ثم غزاها بشر بن صفوان الكلبى فى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٩هـ)(٣) .

هـ- كما ان حبيب بن أبى عبيدة غزاها فى سنة ١٢٢هـ ، واستولى علي سرقوسة على الساحل الشرقى للجزيرة ثم عاد الى افريقية محملا بالغنائم (٤) .

و- ثم غزاها عبد الرحمن فى سنة ١٣٠ هـ غير ان أقدام المسلمين لم تكد تثبت الا فى عهد الاغالبة (٥) .

سبب فتح صقلية :

روى المؤرخون الذين تناولوا مراحل صقلية ان السبب المباشر لفتحها فى عهد زيادة الله بن الأغلب على إفريقية ، أن امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثانى ولى عليها قسطنطين البطريق ، فأرسل يوفيميوس فى اسطول نهب ساحل افريقية، ثم غضب عليه الامبراطور ، اذ نمى اليه انه اختطف راهبة من هناك ، ففر الى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقى ، وثار فى وجه حاكم الجزيرة ، ولما

(١) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ .
(٢) نهاية الأدب المكتبة الصلقية : ١/٤٢٦ .
(٣) د/ حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام : ٢/٢١٨ .
(٤) انظر المرجع السابق .
(٥) المرجع السابق .

رأى أنه لا طاقة بجيوش الامبراطور واساطيله لجأ الى زيادة الله بن إبراهيم بن الاغلب أمير آفريقية ، واستغاث به ، وهون عليه فتحها ، فجهز زيادة الله جيشاً واسطولا يتألف من مائة مركب بقيادة أسد بن الفرات قاضى القيروان (١) .

ولما وصل جيش زيادة الله الى صقلية ، قامت الحرب بين المسلمين ويوفيميوس من ناحية وبينهم وبين حاكم الجزيرة من ناحية أخرى ، وانتهت هذه المعارك بهزيمة الروم ، وعلي الرغم مما لحق المسلمين من الهزائم ، ووفاة أسد بن الفرات وهو على حصار مدينة سرقوسة فى سنة ٢١٣هـ- فقد اتفقت كلمتهم على

(١) انظر نهاية الأرب للنويرى : المكتبة الصقلية : ٤٢٧/٢ - ٤٢٩ . وهذا وصف للحملة التى قام بها اسد بن الفرات رحمه الله تعالى :

ففى يوم ١٤ حزيران (يونية) ٢١٢هـ - ٨٢٧م أقلت قوات أسد بن الفرات من ميناء سوسة ، وكانت مؤلفة من الافارقة والاندلسيين المقيمين فى تونس ومن المسلمين الخراسانيين وقد بلغ عددهم مايقارب عشرة آلاف وسبعمائة رجل وفارس (١٠٧٠٠) أبحروا على متن مائة مركب ، ولما وصل المسلمون الى صقلية ، لاقتهم القوات المسيحية فى بلرمو ، وقد استمر القتال فى الجزيرة أكثر من سنتين ، عانى المسلمون خلالها معاناة كبيرة فحاقت بهم الاخطار والمجاعة ، والأمراض ، غير ان أسد بن الفرات رفض دعوة بعض معاونية العودة الى تونس ، وفضل الاستشهاد على العودة ، وتابع غزوته الى ان استشهد عام ٢١٣هـ - ٨٢٨ م عند اسوار مدينة سرقوسة (سيراكوزة) .

وكان تصميمه على الاستمرار فى القتال قد احرز نتيجة ثابته للمسلمين فى الجزيرة ، كانت مقدمة لافتتاح الجزيرة بأسرها ، وبعد استشهاده عين مكانه القائد محمد بن الجوارى وكان المسلمون فى حالة يائسه بعد محاصرتهم من قبل البيزنطيين ، ولكن ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجنود جاءتهم بالنجدة من افريقية اصلحت أوضاعهم العسكرية ، فاستأنفوا الزحف وتمكنوا من فتح بالرمو العاصمة فى عام ٨١٣م . راجع د. مارتينو ماريو مورينو : المسلمون فى صقلية ص ٨ ، ٩ ، نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١١٥ ، د . عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ١٥ - ١٧ .

توليت محمد بن أبى الجوارى أمير الحرب ، واستطاع المسلمين الاستيلاء على كثير من الحصون كحصن ميناو وجريجند ، أما يوفيميوس فقد سار الى مدينة قصريانة وانقلب على المسلمين فيها ، فثاروا عليه وقتلوه ، ولكن المسلمين لم يستطيعوا التوغل فى هذه الجزيرة حتى جاءتهم سفن من الاندلس كانت متجهة نحو بلاد الروم بقيادة قرغلوش ، فطلب المسلمون منه المعونة ، فأجابهم الي طلبهم ، واستولوا على مدينة ميناو ، ولكنهم اضطروا الى الرحيل عنها ، وانتشرفيهم ومات القائد الاندلسى وكثير من جند المسلمين ، وعاد الاندلسيون الى بلادهم (سنة ٢١٥هـ)(١) .

حصار المسلمين لمدينة بلرم :

طال حصار المسلمين لمدينة فبدأ فى شهر جمادى الأخرة من سنة ٢١٥هـ ، وانتهى بفتحها سنة ٢١٦ هـ - وفى سنة ٢١٩ هـ سار المسلمون الى قصريانة ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، وكانوا يعودون اليها مرة بعد أخرى ، ثم يرتدوا عنها فيحاولون الاستيلاء على غيرها من المدن مثل طبرمين وقسطلياسة ، وعلى بعض الحصون المحيطة بجبل النار وغيرها وظلوا على ذلك الي ان مات زيادة الله بن الاغلب سنة ٢٢٣هـ (٢) ، ولم يستطع المسلمون الاستيلاء على الجزيرة ، كلها برغم ما كان يصلهم من الإمداد من افريقية وكانت سرقوسة أخر معقل وقع فى أيديهم فى عهد ابراهيم الثانى الاغلبى سنة ٢٦٤ هـ (٣) .

---

(١) انظر ابن عذارى : البيان المغرب : ٢/٩٦ ، ٩٧ .

(٢) ابن الاثير البداية والنهاية : ٦/١٢٤ - ١٢٧ .

(٣) انظر: تاريخ الإسلام د/ حسن ابراهيم : ٢/٢١٩ ، ٢٢٠ .

ولما فرغ محمد الأول أبو العباس من بنى الأغلب من حروبه بينه وبين أخيه والمناوئين له تفرغ للإستيلاء على جزيرة صقلية ، واهتم بهذه الحرب اهتماما جعله فى مرتبة الجهاد ضد الروم ، فولى العباس بن الفضل الفزارى تتمة الفتح :

ففتح بين سنتى ٢٣٧ ، ٢٤٧ هـ قصريانة .. (١) ، وقطانية وسرقوسة ، ويظهر ان المسلمين كانوا يستولون على هذه المدن ثم لايلبثون أن يتخلوا عنها تحت ضغط الروم، فكانت حرب المسلمين فى هذه الجزيرة كما يقولون ، حربا مائعة غير مستقرة أو ثابته (٢) .

ومما تجدر الأشار اليه ان المسلمين لم يستطيعوا فتح صقلية بسهولة أو سرعة ، بخلاف ماتم فى فتح بلاد الاندلس الذى استغرق حوالى أربع سنوات ، أما فى صقلية ، فقد استغرق فتحها مايقرب الثمانين عاما ، ولم تتم السيطرة عليها نهائيا إلا فى العام ٩٠٢م ، وفى هذا دلالة مستميته من المسلمين على فتح هذه الجزيرة ونشر الإسلام فيها ، ليعم فيها الخير وتنتشر فيها الفضيلة .

لكن مالسبب فى تفاوت فترة السيطرة فى الأندلس عنها فى صقلية ؟

والجواب فيما يلى :

أ- ان العرب فى اسبانيا لم يجدوا أمامهم إلا حكما محليا محدودا لا يعتمد الا على قواه االذاتية المحلية .

(١) قال أبو الفداء : (المختصر فى أخبار البشر : ٣٨/٢) ان قصريانة هى المدينة التى بها دار الملك بصقلية ، وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة (يقصد سرقوسة) فلما أخذ المسلمون بعض الجزيرة انتقل الملك الى قصريانه لحصانتها ، ففتحها العباس فى سنة ٢٣٧ هـ ، وبنى بها مسجدا فى الحال ونصب فيها منبرا ، وخطب وصلى فيها الجمعة .

(٢) النويرى : نهاية الأرب : المكية الصقلية ٤٣١/٢ - ٤٣٣ ، وتاريخ الإسلام : ٢٢١/٢ ، ٢٢٢، جـ ٣ ص ١٥٩ .

ب- بينما واجهتهم فى صقلية امبراطورية قوية يمدها الشرق والغرب بقواهما كما انها كانت امبراطورية قوية بحرية تمتلك الاساطيل الكبرى والقواعد البحرية والبرية معا ، غير أن اللافت للنظر أيضاً هو التصميم والإرادة والمثابرة العربية والإسلامية التى تمثلت فى رفض التراجع عن الهدف ، والعمل على تحقيقه ولو بعد ثمانين من الأعوام (١) ، ويرجع كل هذا إلى تأثر المسلمين بقول الله عزوجل :

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» (٢) .

فى عام ٢٩٧هـ - ٩٠٩م انتهى حكم الاغالبة فى المغرب ، وقضى الفاطميون عليهم فى أفريقية ، ومن ثم فقد دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمى اسميا لاسيما فى عهد اسرة الكلبيين (٩٤٨هـ - ١٠٥٢م) ، وقد تمتعت صقلية فى هذا العهد باستقلال ذاتى يميز أن صقلية لم تنعم كثيرا بالاستقرار لاسيما سقوط دولة الكلبيين (٣) عام ١٠٥٢م ، فقد شهدت اضطرابات وثورات وحروبا أهلية ، كانت بوادرها وجذورها قد بدأت فى عهد الكلبيين ، وكان ذلك من اسباب تدهور الحكم العربى الإسلامى وضعفه ، الأمر الذى أدى أخيرا الى سيطرة النورمان (أهل الشمال) (North - Men) على جزيرة صقلية ، وعلى حد قول المؤرخ (ابن أبى دينار) فى كتابة : المؤنس : من اسباب هلاك مسلمى صقلية : الحسد والشقاق (٤) .

(١) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

(٣) نسبة الى المنصور بن على بن أبى الحسين الكلبى انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١١٦ هامش : ١ .

(٤) المرجع السابق .

زوال الحكم الإسلامى من صقلية

لم يدم حكم الإسلام فى صقلية طويلا مثلما دام فى اسبانيا : ففى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، اكتشفت بعض فرسان النورمان أن بوسعهم أن يحيوا حياة رغدة فى جنوب ايطاليا كجنود مرتزقة ، - أو بتعبير آخر - وسطاء عسكريين مستقلين لتمتعهم بكفاءة عسكرية مكنت بضع مئات من فرسانهم بقيادة روبرت جيسكار من إلحاق الهزيمة بالبيزنطيين ، ومن تأسيس إمارة نورماندية ، وفى عام ١٠٦٠ قام أخوه روجر بشن هجوم على صقلية ، واستولى على مسينا ، ثم أفلح فى احتلال الجزيرة كلها عام ١٠٩١ . وقد ظل روجر هذا حاكما على صقلية حتى وفاته عام ١١٠١م[١] .

لقد كانت الدوافع المادية وراء إعادة غزو صقلية ، أقوى بكثير من الدوافع الدينية ، ومن ثم فقد بقيت الجزيرة - من وجوه عديد - جزءا من العالم الإسلامى .

وقد رأى المعاصرون فى مظاهر حياة بعض حكام الجزيرة التاليين طابعا إسلاميا أقوى من الطابع المسيحى وقد نعت بالاخص من ابن روجر ، وهو رجر الثانى (١١٣٠ - ١١٥٤) وحفيد روجر ، وهو فردريك الثانى من اسرة هوهينشتاوفن (١٢١٥ - ١٢٥٠) بصفة «سلطان صقلية المعمد»[٢] .

ومما تجدر الإشارة اليه الى ان انتهاء الحكم الإسلامى والعربى في صقلية لا يعنى[٣] انتهاء حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، كلا فقد تمتعت صقلية

(١) انظر فضل الإسلام عل الحضارة الغربية ص ١٢ ، ١٣ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٣ .

(٣) أنتهى الحكم العربى فى صقلية قبل خروج العرب من اسبانيا بأربعمائة عام .

خلال العهدين : الأغلبى والفاطمى بحكم اسلامى مزدهر ، فانتشر المسلمون فيها وانتشرت معهم حضارة الإسلام وثقافته فى بالرمو ومسينا وسرقوسة وسواها ، وانتشرت فيها القصور والمساجد (١) والبيمارستانات والاسواق والاسوار والقلاع والقناطر ، وصناعة الورق والسفن والحرير والفسيفساء والكبريت ، واستخرج المسلمون النفط والرصاص والحديد ، وشاركوا فى ميادين التجارة والصناعة ، ونشروا اللغة العربية ، كما نشروا عاداتهم وتقاليدهم ، واستمر حكمهم فى الجزيرة مايقارب قرنين ونصف القرن من الزمن (من أوائل القرن الثالث الهجرى الى أواخر القرن الخامس الهجرى – من التاسع الميلادى الى القرن الحادى عشر الميلادى) .

ومما يلاحظ بأن النورمان بعد ان استعادوا بالرمو : سكوا نقودا كانت تحمل فى أحد وجهيها آية قرآنية كريمة هى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٢) .

وقد استمر تأثير المسلمين فى صقلية بعد انتهاء حكمهم مدة تقرب قرنين من الزمن ، ولاتزال آثارهم ماثلة إلى الآن في الجزيرة ، وقد استمر التمازج الحضارى بين المسلمين والمسيحيين فى صقلية رغم سيطرة النورمان عليها ، فرغم الاضطرابات فى صقلية أثناء الحكم الإسلامى ، غير ان الانشطة الفكرية ظهرت واضحة فى فترة هذا الحكم ، وكانت قاعدة مؤثرة فيما بعد فى التراث النورمانى والصقلى ، والغربى ، ومن بين العلماء المسلمين فى صقلية نذكر على سبيل المثال لا الحصر على بن حمزة البصرى (ت فى صقلية عام ٨٩٥م) وكان لغويا وأديبا ، وابن

---

(١) لمزيد من التفصيلات راجع الطاهر أحمد مكى الفن العربى فى اسبانيا وصقلية ص ٨٩ – ١٠٨ .

(٢) الصف : ٩ ، وراجع العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١١٦ ، ١١٧ .

البر شارح ديوان المتنبى ، ومحمد بن خراسان النحوى من علماء القرآن الكريم ، واسماعيل بن خلف الصقلى عالم فى فن النحو وفن القراءات ، وأبا العباس من علماء الحديث ، ومحمد بن إبراهيم التميمى الصقلى وهو عالم آخر من علماء الحديث(١) .

كما ظهرت فى صقلية الكثير من الكتب والدراسات الفقهية والأدبية والنحوية والعلمية ، فالعالم عبد الله الصقلى ترجم الى العربية رسالة فى علم النبات ، وكان عبد الله محمد بن الحسن بن الطازى طبيبا وشاعرا وأديبا ، وكان أبو سعيد بن ابراهيم طبيبا وصيدليا ، وكان ابو بكر الصقلى طبيبا عالما ماهرا أورده ابن أبى أصيبعة فى مصنفة ، كما وضع أبو العباس عبد السلام شرحا لأحد مصنفات ابن سينا الطبية ، وهناك من العلماء والأدباء الصقليين من العرب والمسلمين مما لا يتسع المجال لذكرهم فى هذه الدراسة الموجزة (٢) .

مما سبق يتضح للقارئ مدى تأثير المسلمين على صقلية ، لدرجة ان لقب بعض حكامها باسم « سلطان » وهى تسمية خاصة باسم حكام المسلمين ، وبالرغم من انتهاء حكم المسلمين على هذه الجزيرة لكن تأثيرهم الثقافى والحضارى ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وصنائعهم لم تنته بعد ، كذلك قام أهل الجزيرة بعد انتهاء حكم المسلمين بسك نقود تحمل بعض ايات من الذكر الحكيم .

كما ظهر علماء مسلمين من أهل صقلية انفسهم فى : اللغة ، والأدب ، فى القرآن والنحو ، والحديث والقراءات ، وفى مجال التأليف ظهرت الكتب والدراسات الفقهية والأدبية والنحوية ، والعلمية ، والترجمة الى اللغة العربية .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٧ .

(٢) للمزيد من التفصيلات راجع د. عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ٤٩ – ٥٦ ، والعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١١٧ .

ومن يطلع على كتاب الأدريسى يرى أن مامن منطقة فى صقلية إلا وكانت تضم المساجد والجوامع ، مما دعا القزوينى الي انتقاد مسلمى بالرمو لكثرة ماوجد من المساجد [1] ، ولا يخفى ما لدور المساجد من نشر الدين واللغة والثقافة .

وقد اتفقت المصادر التاريخية على أن صقلية فى ايام روجر الأول كانت مملكة نصف إسلامية فى دينها ونظامها الإدارى والعسكرى ، وكان للمسلمين فى عهده قضاتهم يتقاضون اليهم ، وكان للقرى الإسلامية رؤساء يلقبون بالقادة ، وكان يسمع من المساجد الاذان ، وأطلقت حرية المسلمين فى الاحتفال بأعيادهم ، ومما قاله المقدسى عن احتفال المسلمين بأعيادهم فى صقلية : « ... حُسن رمضان بمكة، وليلة الختمة بالمسجد الأقصى ، والعيدين بصقلية » [2] .

وجاء من بعده روجر الثانى أو (رجار كما يلفظها العرب القدامى) فاتخذ ديوانا عربيا ، وقد وقع على المعاملات الرسمية الصادرة عن هذا الديوان بعلامة عربية اسلامية مستوحاة من القرآن الكريم وهى : « الحمد لله حق حمده » ، « الحمد لله وشكرا لأنعمه » ، وسمى منتزهه الملكى الواقع قرب بالرمو باسم « المعتزية » [3] .

أما المباني التى أمر ببنائها – روجر الثانى – فهى أقرب الى الفن المعمارى العربى الإسلامى منه الى الفن المعمارى البيزنطى ، ويكفى القول بأن دير القديس يوحنا ، شفيع النساك فى بالرمو هو أشبه بمسجد إسلامى منه بدير مسيحى ، وليس السبب فى ذلك مقدرة وتوفر المهندسين والبنائين المسلمين فحسب ، بل لأن روجر أعجب وأحب الطراز المعمارى والهندسة العربية .

---

(١) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، المكتبة الصقلية ص ١٤٠ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٨٣ .

(٣) انظر د : احسان عباس : العرب فى صقلية ص ١٤٥ .

وهو كما وصفه المستشرق (إمارى) سلطان عرب يحمل تاجا كملوك الافرنج(١) .

وتذكر المستشرقة الألمانية : « زيغريد هونكة » بأن للعرب الفضل فى جعل روجر الثانى أغنى ملك فى أوربا بعد ان كان أقل ملوكها وذلك بسبب اهتماماتهم الاقتصادية والعمرانية ، وبسبب نظامهم المالى الدقيق ونظامهم الإدارى وقانونهم الجيد ، وقد تدفقت على دولته الخيرات من شمالى افريقيا التي ضمها الي أملاكه لفترة قصيرة ، ثم مالبث ان تركها . وقد لقب روجر بعد توسعاته باسم « ملك صقلية وايطاليا وشمالى افريقيا »(٢) .

ومن مظاهر ثقة روجر الثانى بالعلماء العرب والمسلمين وتقريبهم اليه : دعوته للعالم الجغرافى الاندلسى الشريف الادريسى (أبو عبد الله محمد) (٤٩٣ – ٥٤٨هـ = ١١٠٠ – ١١٥٤م) (٣) . للمجئ الى بلاطه للاطلاع منه على جغرافية مملكته والعالم، وطلب منه تأليف كتاب عن جغرافية العالم ... ولما كان الإدريسى قد تلقى دروسه فى قرطبة وقام برحلات عديدة بين اسية ، والشمال الغربى لبريطانيا ، ووصل الى جنوب افريقيا ، حتى اكتسب خبرة فى الميدان الجغرافى ، وبعد ان قضى الادريسى فى بالرمو خمسة عشر عاما منكبا على اعداد ماطلب منه ، انتهى من عمله فى شوال (٥٤٨هـ أوائل عام ١١٤٥م) وقدم للملك روجر الثانى خريطة وكتابا تفوق خريطة بطليموس الشهيرة فى دقتها ووضوحها وقلة أخطائها ، ووضع خريطة العالم على دائرة فضية مسطحة ، طولها ثلاثة أمتار ونصف المتر ، وعرضها مترا

(١) د. مارتينو ماريو مورينو : المسلمون فى صقلية ص ٢٢ نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٢٤ .

(٢) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤١٦ .

(٣) د. جمال الدين الشيال : التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى ص ٤٦ .

ونصف المتر ، ووضع عليها مختلف التفصيلات والتوضيحات لمختلف بلدان العالم ، أما الكتاب الذى ألفه الإدريسى فهو المعروف باسم « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أو (الكتاب الروجرى) وهو يضم معلومات تفصيلية عن تلك الخريطة ، وعن مختلف المناطق ، واهتم المستشرقون بهذا الكتاب الهام ، فعملوا على نشر أجزائه وترجمتها الى لغات عدة ، وترجم العالم الهولندى « دوزى » القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر ، والاندلس من العربية الى الفرنسية (١) .

ويمكن القول بأن روجر الثاني بماديه من اطلاع على ثقافة المسلمين ، وبما امتاز به من تسامح وعدل قد ساعد كثيرا على امتزاج الحضارتين العربية والأوربية من خلال جزيرة صقلية التى سهلت انتقال الحضارة العربية والإسلامية الى بلدان أوربية عديدة بحيث أصبحت صقلية معبرا هاما من معابر الثقافة والحضارة الإسلامية (٢) .

وعلى الجملة : فبالنسبة للصعيد الحضارى ، فقد استمر النورمان فى الاخذ من الحضارة العربية والإسلامية نظرا لتطورها وتقدمها ، وتظهر الاثار الإسلامية واضحة فى قصر العزيزة فى بالرمو ، كما تظهر تلك الاثار فى بناء كنيسة القصر الملكى فى بالرم ففيها الكثير من التشابه مع بناء المسجد الجامع في قرطبة ، وهنالك آثار معمارية إسلامية عديدة تظهر واضحة فى البناء الصقلى ومنها قصر «الفوارة» فى بالرم ، الذى يعود بناؤه الي ايام الكلبيين ، كما ان برج بيش بالقصر الملكى فى بالرم مقتبس من قصر المنار فى قلعة بنى حماد ، وقد وصل أثر البناء والهندسة الإسلامية الى اضرحة النورمان والغربيين .. وهناك العديد من الأمثلة حول المؤثرات الإسلامية في الهندسة النورمانية (٣) .

---

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٢٦ .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) انظر د. عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ١١٥ . والعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب .. ص١٣٢ .

وفى عهد فريدريك الثانى استمرت المؤثرات الهندسية العربية واضحة فى البناء الصقلى ، فقد بنى قصوره وقلاعه وأعاد ترميم ماتهدم على النمط العربى الإسلامى ، وتبين بأن قلاع بارى ، وترانى ، وبرانديزى ، تتشابه مع قلاع اسبانيا والشرق العربى (١) .

من جهة أخرى فإن فريديرك الثانى استفاد كثيرا من الأنظمة الإدارية الإسلامية ، فاقتبس قواعد الحكم والإدارة والانظمة المالية والضرائبية العربية .. ، والواقع فإن صقلية ليست وحدها التى تاثرت بالأنظمة المالية الإسلامية ، إنما انتقلت هذه المؤثرات بواسطة النورمان الى مختلف المناطق الأوربية ، وكان بعض المسلمين قد تولوا مناصب ادارية هامة فى صقلية ، وكانوا بمثابة خبراء في الادارة الصقلية ومن هؤلاء : « ريتشاردالعربى » الذي كان مسؤولا عن جميع أموال الضرائب ، وعن وجوه توزيعها على الموظفين ومرافق الدولة ..،

وفى عهد فريدرك الثانى أيضاً كانت المعاهدات والاتفاقات الاقتصادية تتم باللغة العربية ، ذلك لأن اللغة العربية كانت إلى جانب اليونانية واللاتينية لغة رسمية فى صقلية (٢) .

بالرمو : عاصمة صقلية :وتعد بالرمو أو بلرم عاصمة صقلية ، وقاعدة ملوكها زمن حكم المسلمين والنورمان والجرمان ، وكان المسلمون يطلقون عليها اسم المدنية ، والنصارى يسمونها بالرمو وقد زارها ووصفها الرحالة المسلمون أمثال : ابن حوقل البغدادى (ت عام ٣٨٠هـ) والمقدسى : زارها بعد ابن حوقل بثلاث سنوات ، والشريف الادرايسى (ت حوالى ٥٤٨هـ) وابن جبير (ت عام ٦١٤هـ) (٣) .

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب .. ص ١٤٣ .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) انظر ابن حوقل : صورة الأرض ص١١٣، ١١٤، والمقدسى أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، الادريسى نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق المكتبة . الصقلية ص ٣٨ .

وكانت بالرمو حاضرة صقلية من النواحى السياسية والادارية والثقافية والعمرانية ، وقد اقيم فيها فى القرن الثالث عشر الميلادى مدرسة خاصة للترجمة من العربية الى اللاتينية واليونانية على غرار ماكان معمولا به فى مدرسة طليطلة فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وقد أقيمت العلاقات الثقافية بين مدرسة بالرمو ، ومدرسة طليطلة ، ومن العلماء الذين ترددوا على مدرسة بالرمو من مدرسة طليطلة العالم الاسكوتلندى ميخائيل سكوت الذى ترجم أعمال ارسطو وشروح ابن رشد [1] . وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر ترجم القرآن الكريم الى اللاتينية ، كما ترجمت حادثة الاسراء والمعراج ، وانتشرت فى اسبانيا وايطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد استفاد منها الشاعر الايطالى « دانتى » فى ملحمته «الكوميديا الإلهية » بواسطة استاذه برونيتولاتينى الذى كان يزور دائما مدرستى بالرمو وطليطلة فى عهد الفونسو الحكيم فى القرن الثالث عشر [2] .

كما اتجهت مدرسة بالرمو الى ترجمة المؤلفات العلمية منها : كتب ابن سينا (ت ١٠٣٧ م) وأبى بكر الرازى (ت ٩٣٢م) فى الطب ، وكان من أعلام المترجمين فيها أوجينوس البالرمى ، وليوناردو بيزانو ، ولعل من مظهر النهضة العلمية فى صقلية عامة ، وبالرمو خاصة ، تلك الآلاف من المخطوطات العربية القديمة التي لاتزال محفوظة الى الآن فى مكتبة الفتيكان فى روما [3] .

---

(١) انظر : العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب .. ص ١٥٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٣) انظر : د. أحمد مختار العيادى العلاقات بين الشرق والغرب ص ٨١ ، ٨٢ .

والحقيقة فإن بالرمو لاتزال الى الآن تتميز بالروح العربية والإسلامية فى كثير من مظاهرها العمرانية والاجتماعية والثقافية ، وهناك حرص من الصقليين على أحياء العلاقات الثقافية بينهم وبين البلدان العربية ، فمنذ عام ١٩٥٩ ، افتتح فى جامعة بالرمو قسما خاصا لتعليم اللغة العربية وآدابها ، مع الحرص على أحياء التراث الصقلى العربى من خلال الدراسات التاريخية والمؤلفات والبحوث اللغوية المتنوعة(١) .

(١) انظر د. حسان حلاق : العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٥٥.

المؤثرات اللغوية العربية فى اللغة اللاتينية واليونانية :

ولابد فى هذا المجال من أن نشير مع الايجاز الى المؤثرات اللغوية العربية فى اللغة اللاتينية واليونانية التى انتشرت فى صقلية وانتقلت منها إلى مختلف مناطق أوروبه ، وهى على سبيل المثال لا الحصر (١) .

الفندق	Fondaco
ديوان	Douane (Dohana)
دفتر	Defetari
رحبه	Rahba
حجّام	Cangemi
كابل	Kabel
صك	Scheek
تعرفة	Tariffa
مخزن	Magazin
الملح القلوى (بوتاس)	Feluke
لوكة(قارب)	Gittare
قيثارة	Calslum
راحة اليد (مضرب الكرة)	Rakete
بازار	Bazzariotu
سكر	Sucre , Zuker
حرارة	Carara
ترصيع	Tarsia

(١) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى صص ١٤٥ – ١٤٨.

Buscemi	قلعة أبو شامة
Misilmeri	منزل الأمير
Amiratus	أمير (أميرا توس)
Amiagghiu , Admiral	أمير البحر (اميرال)
Almanach	التقويم والمناخ
Almuquantarat	المقنطرات
Alcool , Al Khol	الكحول
Apricot , Aprikose	البرقوق(المشمش)
Askari	عسكرى
Darsenal	دار صناعة حربية
Azur	لازورد(أزرق سماوى)
Cafe , Caffee	قهوة
Cid	السيد
Mesquino	مسكين
Mohair	قماش المخير (من الماعز)
Tasse	طاسة
Artichoke, Carcioffa	أرضى شوكى (خرشوف)
Gasena	خزانة
Cassara	خسارة
Alcamo	علقمة
Marsala	مرسى على
Trabia	تربيع
Favara	فوارة
Zecca	السكة
Rotola	

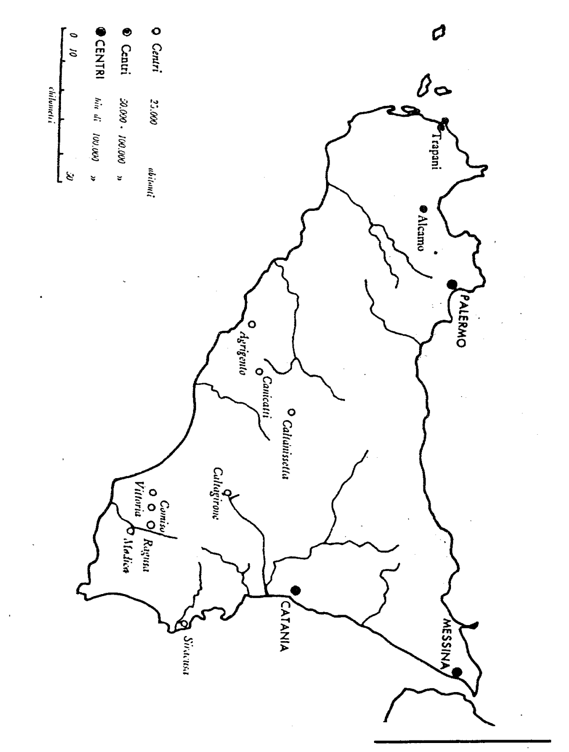
الرطل	Cantaro
القنطار	Azzalora
الزعرورة	Marascia
المرشة	Zabbara
الصبارة	Mazzara
المعصرة	Cassaro
القصر	Marzamenl
مرسى الحمام	Pasteque , Pastecca
البطيخ	Naranzu
النارنج	Noria
الناعورة	Gebbia
الجابية	Galiggi
الخليج	La Cuba
القبة	La Ziza
العزيزة	AlMotacen
المحتسب	

وهكذا يلاحظ من خلال هذه الدراسة بأن صقلية كانت معبرا من معابر الثقافة العربية والإسلامية ، فقد استفادت صقلية من هذه الثقافة ، وأفادت سواها من بلدان أوروبا ، وبالرغم من ان العلاقات الإسلامية – المسيحية فى صقلية شهدت التوتر والتقاتل غير ان الثابت ايضاً بأن هذه الجزيرة شهدت علاقات حضارية على غاية من الاهمية ، هذا وقد نظم ابن حمد يس شعراً فى صقلية [1] معبرا عن اشتياقه لها فقال :

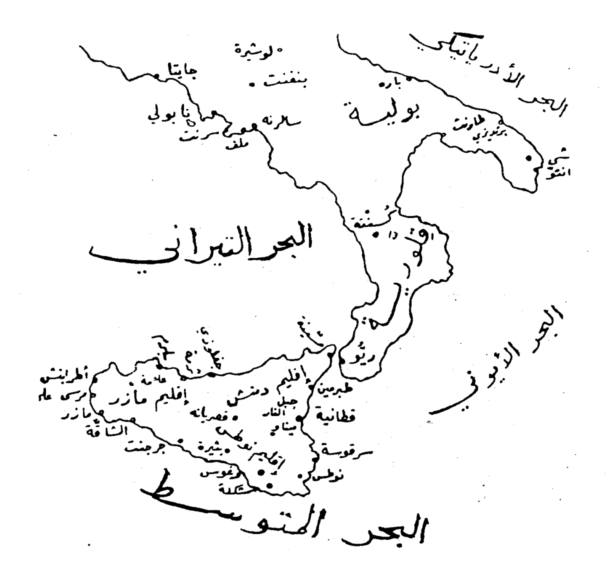
ذكرت صقليـــة والهوى ... يهيج للنفس تذكارها

فإن كنت أخرجت من جنة ... فإنى أحدث اخبارها

(١) انظر : المكتبة الصقلية . ص ١٤١ نقلا عن المصدر السابق ص ١٤٨ .

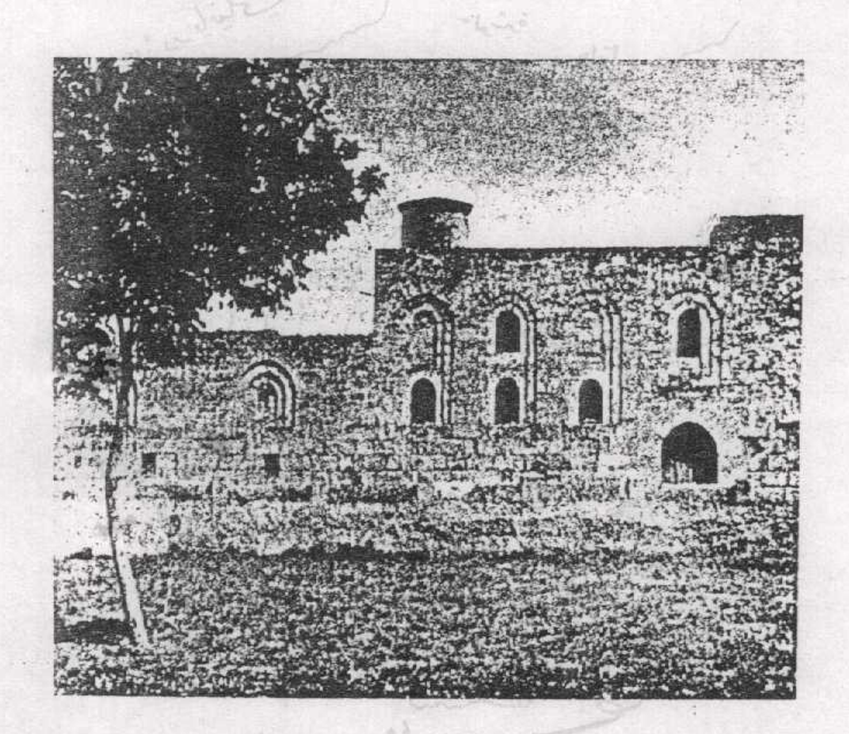


(*) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الاندلس - صقلية - الشام ص ١٥٩



خريطة صقلية وجنوب ايطاليا

(*) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الاندلس - صقلية - الشام ص ١٦٠



قصر الأمير جعفر في بالرمو

« لقد كان تأثير العالم الإسلامى فى أوربا الغربية جاء بصورة اساسية من خلال اسبانيا ، ثم بدرجة أقل من خلال صقلية [1] »

لقد كان المسلمون « يمثلون امبراطورية باتت خلال القرن ، أو القرنين التالين صاحبة اعظم حضارة وثقافة فى تلك المنطقة الشاسعة من المحيط الأطلسى الى افغانستان ، وإننا لنجد شيئا لا يكاد العقل يصدقه ، وبالتالى فهو أمر يخلب اللب ، حين نقرأ عن كيف تحولت الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط الى حضارة اسلامية ففى عام ٦٣٢، وهو العام الذى توفى فيه محمد ﷺ ولم تكن الفتوحات العظيمة قد بدأت بعد ، كان العرب شعبا بدائيا نسبيا ليس فى حوزته غير القليل من الممتلكات المادية ، ولاتزيد ثروته الأدبية عن انجازات فى ميدانى الشعر والخطابة ، بالاضافة الى القرآن ، كتاب المسلمين المقدس الذى يوقرونه باعتباره كلام الله الذى أوحى به الى محمد ﷺ ليبلغه قومه .

ولم يكن المستوى الثقافى للعرب قد نما بدرجة كبيرة وقت فتحهم لأسبانيا بعد ذلك التاريخ بثمانين عاما ، فى حين كان مستوى البربر العديدين فى جيوش المسلمين ، على الأرجح ، أقل شأنا ، غير أنه بفتح العرب للعراق والشام ومصر ، ضموا الى دولتهم العديد من المراكز الثقافية العظيمة فى الشرق الأوسط ، وقد اعتنق الإسلام الكثيرون من حملة شعلات الحضارة السالفة ، فبدأ بذلك اختمار ثقافى دام لعدة قرون ، وقد عرف سكان هذه المنطقة من العالم حضارة المدن لآلاف من السنين وهى حضارة تمتد جذورها الى زمن السومريين والأكاديين وفراعنة مصر، فإذا بكل ما ارتؤى أنه ذو قيمة وينبغى بالتالى الحفاظ عليه من بين تجارب تلك الالاف من السنين ، قد اضحى الآن ، يعبر عنه بلسان عربى » [2] .

(١) المرجع السابق ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ .

نعم فقد أدخل الإسلام كل هذه الثقافات فى بوتقته ، واضفى عليها من نوره وهدايته ، لقد كان لسيادة المسلمين البحرية أثرها العظيم فى الحياة الاقتصادية والتجارية والثقافية فى منطقة البحرين (الأسود والمتوسط) وربما استفاد من هذا التحول الاقتصادى (شمال افريقيا ، وصقلية) ويعود الفضل فى ذلك بعد الله سبحانه على سيطرة المسلمين على البحر الأبيض والطرق الشمالية الدائرة الى الشام ومصر ، عن طريق (صقلية ، وكريت وقبرص) (١) .

وحين اعتنق الإسلام أناس تلقوا تعليمهم فى ظل تقاليد ثقافية سابقة ، بات عليهم ان يمزجوا فى أذهانهم ماتلقوه فى الماضى من العلم بدراساتهم القرآنية ، فإذا بمساهماتهم تصب فى التيار العام للفكر الإسلامى ، وإذا بثقافة إسلامية قائمة بذاتها تشكل نتيجة لهذه المساهمات (٢) .

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى حين كان ثمة امبراطورية واسعة للمسلمين كان الاتقياء منهم يناقشون مسألة تطبيق الاحكام القرآنية على المشكلات المعاصرة ، وتحديدا مكان الاستفادة من سنة النبى ﷺ لحل هذه المشكلات وقد كانت ثمرة هذه المناقشات تدور عامة فى المساجد ، فنتجت كتب جليلة فى الشريعة الإسلامية والفقه ، واعتبرت الروايات الخاصة بأحاديث النبى ﷺ وافعاله ، أو سنة الرسول ﷺ معيارا ملزما ، وبذلوا فى جمعها ونقلها جهدا وحرصا بالغين ، بل لقد اضحت دراسة الحديث أحد فروع المعرفة الرئيسية فى التعليم الإسلامى العالى ، وارتبطت بها علوم أخرى مثل علم الرجال ، أو دراسة سير المحدثين من نقلة تلك الروايات ، ومثل دراسة السيرة النبوية ، وقريب الصلة بهذه العلوم والدراسات دراسة التاريخ وجغرافية الاقطار الإسلامية (٣) .

(١) انظر أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٧٥ .
(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ١٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢١ .

وصحب دراسة الحديث دراسة القرآن ، وربما جاز لنا أن نقول ان للقرآن فى الإسلام من المكانة مايفوق مكانة الكتاب المقدس فى المسيحية ، فكل المسلمين تقريبا يحفظون عددا من سوره أو آياته عن ظهر قلب نظرا الى ضرورة تلاوة بعضها فى الصلوات اليومية فى حين يحفظ البعض القرآن كله ، وقد كان المسلمون يصرون منذ عهد بعيد على أنه لايمكن ترجمة القرآن الى لغات غير لغته ترجمة مرضية ، وبالتالى كان على من اسلم من غير العرب ان يحفظ القرآن أو يقرأه بالعربية ، وهو ما أدى الى دراسة أدق للنحو العربى وصناعة تأليف المعاجم . ولكى يتحققوا من المعانى الأصلية للكلمات ، قاموا بجمع الشعر العربى الجاهلى ، ثم ارتأوا ان دراسة الأساطير المتصلة بالتاريخ تساعدهم على فهم الشعر ، واذ زاد عدد المتعلمين ، استمروا فى كتابة الشعر بالعربية ووسعوا اغراضه ، كذلك فقد اهتموا بالأدب ، وبجمع المختار من الأقوال والكتابات فى الموضوعات المختلفة بصورة خاصة ، كما نما أدب المقامات كثمرة لغرام العرب بلغتهم ، وهو شكل أدبى معقد يعتمد على التلاعب بالالفاظ ، وتنظم الدراسات الثقافية الإسلامية كل ماسبق ذكره ، وقد تم فى بداية القرن التاسع وضع نوع من التنظيم للتعليم العالى بحيث يأخذ بطرف من كل هذه العلوم ، فما انقضى القرن الحادى عشر حتى اسست مؤسسات شبيهة بالجماعات فى معظم المدن الإسلامية الهامة ، وقد مضى الف عام على بدء التعليم بالازهر فى القاهرة ، وهو مسجد وجامعة فى آن واحد على نحو متصل لم ينقطع منذ تأسيسه (١) .

---

(١) انظر فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ٢١ ، ٢٢ .

انتشار الثقافة الإسلامية فى أوربا :

ويمكن القول بأن الثقافة الإسلامية شبت عن الطوق فى نحو منتصف القرن العاشر ، وانها ظلت على مستواها الرفيع حتى القرن السابع عشر على الأقل ، ولم تكن هذه الثقافة قاصرة على منطقة معينة من الدولة الإسلامية ، وإنما كانت منتشرة انتشار ا واسعا أينما كان الإسلام قويا مترعرعا ، وقد كان طالبوا العلم يسافرون لمسافات بعيدة من أجل الاتصال بمشاهير العلماء والاستماع منهم ، ورغم ان اسبانيا فى عهد الأمويين لم تكن تعترف بالخليفة العباسى في بغداد ، فقد ظلت صلاتها الثقافية قائمة بالمشرق الإسلامى ، وكان من السهل السفر من اسبانيا الى مراكز لعلم كالمدينة ، ودمشق ، وبغداد ، وكانت الكتب المهمة تنقل الى اسبانيا بعد سنوات قلائل من نشرها فى المشرق ، فى حين ساهم العلماء والكتاب فى اسبانيا الإسلامية مساهمة جليلة فى اثراء الأدب والعلم العربيين ، وتلك إذن هى الثقافة التى قدر لأسبانيا ان تعرفها وتنهل منها بعد فتح المسلمين والبربر لها فى بداية القرن الثامن الميلادى (١) .

لقد تاثرت أواسط ايطاليا تاثيرا مباشرا بالإسلام خلال معظم القرن التاسع، وقد سبق القول أن روما نفسها قد تعرضت لهجمات المسلمين ، وكيف أن البابا حوالى عام ٨٨٠ قام بدفع مبالغ سنوية حتى يضمن إحجام المسلمين عن مهاجمة أراضيه ، ولابد ان خبر المصاعب التى كانت روما تعانيها قد بلغ اسماع قادة المسيحيين فى أوروبا ، غير ان كل هذا لايفسر سر الكراهية الشديدة للمسلمين فى كل من شمالى فرنسا والفلاندرز والمانيا ، وان من الجائز ان تكون هذه الجزئيات ساهمت فى تكوين صورة عن الإسلام باعتباره العدو الأكبر (٢) .

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٤ .

ونستطيع التاكيد على حقيقة واحدة : « وهى أن تواجد المسلمين فى اسبانيا وصقلية كان له عواقب وصدى فى البقاع الأوربية الى الشمال » [1] .

وهذه العواقب لم تكن وخيمة ، بل كانت طيبة مثمرة تقول الدكتورة زيغريد هونكة : فى شهادتها للمسلمين : بأنهم هم الذين حرروا أوروبا وعلموها ، وهذبوها ، والفت فى هذا الصدد كتابها الرائع (شمس العرب تسطع على الغرب)

ويعتقد علماء غربيون منصفون ان أوربا وصلت الى ماوصلت اليه من رقى فكرى ، وتطور ساعد بفضل العرب فى العصر الإسلامى الزاهر فى القرون الوسطى – لقد بدأت سيطرت أوربا على العالم انطلاقا من عصر النهضة – (القرن السادس) ويدفع العدل الى القول بأن أوروبا مدينة للمسلمين العرب بالاسس التى قامت عليها نهضتها المعاصرة [2] .

ومن هذه الأسس : مفهوم معتدل للحياة البشرية يستنكر المغالاة بالتقشف ، والاسراف بالزهد ، واحتقار الجسد كما ورد فى القرآن الكريم صريحا:

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » [3] .

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » [4] .

« قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والاثم والبغى بغير الحق» [5].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) انظر أثر المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢١٥ .

(٣) القصص : ٧٧ .

(٤) الأعراف : ٣٢ .

(٥) الاعراف : ٣٣ .

يقول الاستاذ (كريستوفر داوس) :

« عن العرب أخذت التقاليد العلمية فى أوربا الحديثة ، وقد أسهم العرب فى توسيع آفاق الغربيين توسيعا لم يسبق له مثيل ، إذ بفضلهم انتقلت الى أوربا حضارات الصين ، والهند ، والفرس ، وبفضل العرب انتقلت علوم الشرق الى أوربا، لتكون شاهدة بما للإسلام من (عظمة علمية تربوية) ، وفضل على الانسان والانسانية » .

وخلق العرب في نفوس الأوربيين : الوعى السياحى ، والملاحة عبر البحار ، والتأمل فى الأفلاك ، وعلموهم استعمال البوصلة وإنشاء المراصد ، ولولا العرب لما كان (كبلر) ، (وكوبرنيك) ، بل لما كان (كولومبس) ، و(فاسكو دى غاما) (١) .

---

(٤) من مقال للدكتور : أنور حاتم أستاذ بجامعة فريبورغ فى سويرا ، عن المجلة العربية (الرياضى) العدد الافتتاحى الأول آب ١٩٧٥ ص ١٣٥ ومابعدها نقلا عن أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢١٦ .

نشاط المسلمين فى اسبانيا وصقلية

أولاً : فى التجارة .

لم تكن الثقافة أو الحضارة الإسلامية لها الاثر الفعال فى كل من اسبانيا وصقلية ، وأوروبا الغربية فقط ، بل كان هناك مجال آخر لها هو مجال التجارة فى الاقطار الإسلامية ، ومن ثم كان التواجد الإسلامى فى اسبانيا وصقلية ابتداء من القرن الثامن الميلادى والتواجد الأوربى فى شرق البحر الأبيض المتوسط خلال فترة الحروب الصليبية ، ان يكونا كافيين وحدهما لخلق قدر من التفاعل الحضارى ، أو بتعبير أدق ، لتبنى الأوربيين الغربيين للكثير من مظاهر الحضارة الإسلامية ، غير أنه لاشك فى ان انتشار الثقافة الإسلامية قد ساهم فيه كذلك نشاط العرب وحنكتهم فى ميدان التجارة (١) .

فالامر لم يكن قاصرا على انتشار ثقافة متجانسة نسبيا فى جميع الأقطار الواقعة تحت حكم المسلمين ، وإنما انتقلت كذلك السلع التى ينتجها المسلمون إلى مناطق بعيدة كل البعد عن حدود الاقطار الإسلامية .. لقد كان الدين الإسلامى أولا وقبل كل شئ دينا فى صالح التجارة لادين صحراء أودين ريف (٢) .

وقد ذاعت بين الناس فى القرن التاسع عشر فكرة إرنست رينان وغيره التى تربط التزام الإسلام الصارم بمبدأ التوحيد بشعور الانسان وهو وحده وسط الصحراء الشاسعة بأنه كائن لا قيمة له ، غير أن هذه الفكرة لا أساس لها من الواقع . فلم يكن المسلمون الأوائل من البدو قاطنى الصحراء ، وإنما كانوا من

---

(١) انظر مونتجمرى وات فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ٢٦ .

(٢) انظر المرجع السابق .

سكان مكة وهى مركز تجارى هام ، ومن أهل المدينة وهى واحة زراعية ، صحيح ان غالبية من اشتركوا فى الفتوحات الإسلامية الكثيرة كانت من بدو الصحراء ، بل وصحيح ايضاً ان الأخلاق الاسلامية تحوى عناصر من فضائل البدو العظيمة ، وإن أخذت هذه العناصر شكلا يناسب حياة الحضر ، كذلك فقد كانت الصحراء طريق تجار مكة ومعبر عملياتهم التجارية ، وبالضبط كما كان البحر طريق تجار البندقية وغيرها من المدن الإيطالية (١) .

نشاط التجار المسلمين :

كان ثمة بقاع من العالم : مثل شرق افريقيا وغربها وجنوب شرق آسيا جاء اعتناق أهلها للإسلام فى العصور التالية نتيجة لنشاط التجارة بصفة رئيسية ، فقد كان هؤلاء التجار المسلمون أثناء زياراتهم للأقطار الوثنية ، يؤدون صلواتهم اليومية الخمس جهرا ، وخلف إخلاصهم وإيمانهم الرصين الهادئ بفضل الإسلام على سائر الأديان ، انطباعا قويا فى نفوس الوثنيين الذى دخلوا معهم فى معاملات تجارية ، وأدى التزاوج فيما بينهم وإقبال بعض الوثنيين على اعتناق الإسلام الى قيام طوائف مسلمة صغيرة فى الأقطار الوثنية ، تزايد افرادها بمضى الزمن (٢).

وقد يكون صحيحا ماقيل عن ان العالم الإسلامى بأسره كان منطقة تجارة حرة موحدة ، وإن كان حجم التبادل التجارى يختلف من بقعة الى أخرى ، والواضح مع ذلك ان التجارة انتعشت فى معظم الاقطار الإسلامية ، وانها أدت الى قدر ملحوظ من التماثل فى الحضارة المادية (٣) .

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨ .

ومن ثم كانت النتيجة فى اسبانيا وصقلية ان أضحى التواجد الإسلامى هناك تواجدا حضاريا ، لا مجرد تواجد عسكرى وسياسى (١) .

ثمة العديد من الجوانب الغامضة لمعلوماتنا عن شكل الاتجار بين أوربا الغربية والعالم الإسلامى .. لكن ابرز النقاط فى هذا الصدد ماذهب اليه (هنرى بيرين الى ان الفتح الإسلامى لشمال افريقيا واسبانيا غير الانماط القديمة للتجارة، ودفع أوربا الغربية الى التطلع الى الشمال عوضا عن تطلعها الى منطقة حوض البحر المتوسط ، ورغم إقامة اسبانيا لصلاة مع شرقى البحر الأبيض المتوسط ، فقد انحطت تجارة معظم انحاء أوربا الغربية في أواخر القرن الثامن ، ومانمت التجارة بين العرب والأوربيين إلا تدريجا ، ويبدو ان العرب كانوا الجانب الأنشط فى انماء هذه التجارة ففى حوالى عام ٨٠٠ كانت أساطيلهم مهيمنة على معظم ارجاء البحر المتوسط ، رغم احتفاظ البيزنطيين بنفوذهم فى البحر الادرياتيكى وبحر ايجة.

وكان لقراصنة العرب قواعد فى جزيرتى سردينيا وكورسيكا حتى القرن الحادى عشر ، كما كان لهم فيما بعد عامى ٨٩١ ، ٩٧٣ قاعدة فى فراكسينتوم على الساحل بين مرسيليا ونيس ، وقد ساهم هؤلاء القراصنة فى التمكين لهيمنة العرب على البحر ، ومن ثم كان العرب معروفين لدى سكان أمالفى ، ولدى سكان بيزا اعتبارا من القرن العاشر ، بل ان هناك بعض الأدلة على وجود صلات من هذا النوع ترجع الى القرن الثامن .

فما حل النصف الثانى من القرن العاشر حتى كانت التجارة بين أوروبا الغربية والعالم الإسلامى تنمو فى إطار نمط محدد ، وحتى كان حجمها آخذ في الأزدياد(٢) .

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٩ .

ثانيا : نشاط المسلمين البحرى :

لقد كان النشاط التجارى أحد أوجه وسيلة لتعميم الحضارة المادية ، فاستطاع العرب جلب ثمرات خبراتهم الملاحية فى المحيط الهندى ، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط ، حيث هيمنوا على التجارة العظيمة القائمة فى نصف الدائرة بين كِلْوَة فى شرق أفريقيا ، ومضايق ملقا ومابعدها ، وقد شهد المحيط الهندى اختراع السفينة ذات الشراع مثلث الشكل (اللتينة) رغم اسمها الأوربى ، إلا أن العرب هم أول من جلبوا الى البحر الأبيض المتوسط اللتينة الشراعية السريعة . وميزة هذا النوع من السفن هى قدرته على الابحار عكس اتجاه الريح . وقد اقتبس صناع السفن الأوربيون الشراع اللتينى وطوروه ، وهو مامكنهم فيما بعد من بناء سفن أكثر حجما قادرة على عبور المحيط الأطلسى ، وعلى النهوض بغير ذلك من رحلات الاستكشاف العظيمة (١) .

أما الخطوات الرئيسية فى تطوير إبرة الملاحين (البوصلة) فيبدو أن الفضل فيها يرجع بعد الله سبحانه الى العرب ، وكان ثمة مراحل عديدة تفصل بين اكتشاف خاصية قطعة الحديد الممغنط ، وبين ابتداع اداة تخدم الملاحة ، فكانت الخطوة الأولى متمثلة فى مضوع « إبرة » أو قطعة ممغنطة من الحديدة فوق لوح صغير من الخشب يطفوا على الماء . غير أن الأمر كان فى حاجة الى خطوات أخرى ، وقد كان هناك اعتقاد بأن الصينيين هم مخترعوا البوصلة خلال الألف سنة الثالثة ق م لكن هذا الاعتقاد خاطئ .

أما أقدم الاشارات الى استخدام البحارة الصينيين للبوصلة فيرجع تاريخها الى نحو عام ١١٠٠ بعد الميلاد ، وكان استخدامهم إياها بعد العرب ، حيث إن

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٣ .

الصينيين كانوا فى القرن التاسع الميلادى يستخدمون الخليج الفارسى ، والبحر الأحمر فى نقل تجارتهم ، وحين اتصل الأوربيون بالبحارة الصينيين ، اتضح لهم أن البوصلة الصينية دون البوصلات الأوربية شأنا ، أما مؤرخو رحلات فاسكودا جاما فقد ذكروا ان العرب الذين قابلوهم فى المحيط الهندى ما كانوا بأقل من البرتغاليين شأنا فى ميدان المهارة والخبرات البحرية (١) .

وفى عام ١٢٤٢م سجل استخدام البوصلة فى رحلة من طرابلس الى الاسكندرية .

وقد يكون الفضل فى المراحل الأولى من اختراع البوصلة راجعا الى العرب ، فى حين كان للأوربيين قطعا فى المرحلة التالية فضل ادخال التحسينات عليها .

كما ساهم المسلمون فى تطوير خبرات الأوربيين الفنية فى الملاحة البحرية ، فالخرائط البحرية التى كانت عدة هامة للملاحين ، إنما استقاها أهل جنوة وغيرها من الفن الإسلامى لرسم الخرائط ، وأحد الأدلة على ذلك نلمسه فى اقتباس لغات أوربية لكلمات عربية فى هذا الميدان ، ومن ابرزها فى اللغة الانجليزية : admiral (أمير الرحل أو أمير البحر ، و Cable (حبل) ، و Shallop أو Sloop (السلوب وهو مركب شراعى وحيد الصارى ، و barque (برشة أو بارجة) ، و monsoon (موسم) غير أن اللغات الأخرى غير الانجليزية نقلت عددا أكبر من الكلمات العربية(٢) .

لقد كان للمسلمين الفضل في اتساع معارف الأوربيين الجغرافية ، وفى اتسام هذه المعارف بقدر أكبر من الدقة ففى أوائل القرن الثانى عشر – كما تشهد

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٤ .
(٢) انظر فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ٣٤ ، ٣٥ .

على ذلك كتابات وليام الملميسبورى ، كان الناس لا يزالون يعتقدون أن العالم بأسره عدا أوربا - فى قبضة المسلمين (١) .

وكان الأدريسى العالم العربى (١١٠٠ - ١١٦٦) وهو من شمال افريقيا وقرطبة ، قد قام بعمل خرائط عن الهند والصين ، بعد دراسة لما كتبه الجغرافيون العرب قبله ، وكان هذا العمل تحت رعاية ملكين من ملوك صقلية هما روجر الثانى (١١٢٧ - ١١٥٤) وأبنه وليام الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) .

كما كان للإدريسى رحلات شاسعة بين كل من آسيا والساحل الغربى لانجلترا ، وقد ضمن ماحصله من معارف سبعين خريطة (عشر لكل من الأقاليم السبعة) وكتابا يحوى وصفا لها ، وهو الكتاب الذى يعرف أحيانا بكتاب « رُجّار » (٢).

ثالثا : فى مجال الزراعة :

تمكن العرب من أن يرفعوا مستوى الزراعة فى قطر مثل اسبانيا ، والمعروف أن المطر فى اسبانيا - عدا البقاع الشمالية - منها - قليل ، وأنه بدون الرى تغدو اشكال عديدة للزراعة أمرا محالا ، وقد حسن العرب نظم الرى وتوسعوا فيه على أساس خبراتهم فى المشرق الخاصة بوسائل خزن المياه وتوزيعها ، ومما يدلل على ذلك وفرة الكلمات الاسبانية المتعلقة بوسائل الرى المشتقة من العربية خاصة التالية : (الساقية) aceguia ، (البركة) alberca (الخزان) aljibe (ناعورة) noria (القادوس) arcaduz (القنطرة) alcantarilla ، (الطنبور) atanor (الخرق) alcorgue ، و هو حفرة تحفر حول قاعدة الشجرة لتحتفظ لها بالماء ، وبالاضافة الى هذه الدلالة اللغوية ، نلمس شبها عظيما بين شكل السواقى المستخدمة حتى

(١) انظر المرجع السابق ص ٣٥ .
(٢) انظر المرجع السابق .

اليوم فى اسبانيا ، وتلك المعروفة فى الشرق الأوسط والمغرب ، والراجح أن هذه السواقى اخترعت فى الشرق الأوسط (١) .

وقد صاحب النهوض بالرى فى اسبانيا إدخال زراعة نباتات جديدة تستلزم ريا وافرا من ذلك : قصب السكر والارز والبرتقال والليمون ، والباذنجان ، والخرشوف والمشمش والقطن ، وحتى الكلمات الانجليزية الدالة على كل هذا مأخوذة عن اللغة العربية (٢) .

لقد كان المسلمون رسل رحمة وفاتحة خير على البشرية كلها ، فما وطئت أقدامهم أرض بلد إلا حل بها الخير ، وعم بها نور العلم ، والثقافة والتقدم .

رابعا : فى مجال البناء والتشييد والصناعة :

نجد الدلالات من اللغة الاسبانية توحى بأن العرب لهم الفضل الرئيسى فى الكثير من التحسينات والتهذيبات التى أدخلت على أساليب البناء . فالكلمتان الدالتان على المهندس المعمارى وعامل البناء مأخوذتان من العربية وهما : (العريف) alarife ، (والبانى أو البناء) albanil . وكذا أخذت من العربية الكلمات التالية : alcazar (القصر) ، alcoba (القبة) azulejo (الآجر) ، aldaba (الضبة) alfeirza (الإفريز) ، وغيرها ، وقد قيل إن صناعا بيزنطيين استجلبوا الى اسبانيا غير أننا نلمس تأثيرا للشام أقوى من التأثير البيزنطى ، وبالتالى فمن المحتمل أن يكون قد استجلب من الشرق ايضاً صناع عرب للعمل فى اسبانيا (٣) .

---

(١) راجع فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٨ ، ٣٩ .

خامسا : فى مجال استخدام الورق :

استطاع المسلمون اقتناء الكتب لسهولة استخدام الورق الذى اخترع فى الصين ، ويقال : إنه فى منتصف القرن الثامن الميلادى اسر العرب بعض الصناع الصينيين ، ثم أطلقوا سراحهم بعد ان تعلموا منهم صناعة الورق ، وسرعان ماتبين لهم أهمية هذه المادة نظرا إلى أنها كانت أقل نفقة بكثير من بديلها الأساسى ، البردى المصرى ، وقد اسس يحيى البرمكى ، وزير هارون الرشيد أول مصنع للورق فى بغداد حوالي عام ٨٠٠م ، ثم انتشرت صناعته غربا عبر الشام ، وشمال افريقيا الى اسبانيا حيث شاع استخدامه (١) .

وفى القرن الثانى عشر وفد بعض الحجاج من فرنسا الى كومبو ستيلا ، ثم عادوا الى بلادهم يحملون قطعا من الورق باعتبارها من العجائب ومع ذلك فقد استخدم روجر الثانى ملك صقلية الورق فى كتابة وثيقة يرجع تاريخها الى عام ١٠٩٠م . ومن اسبانيا وصقلية انتشرت عادة استخدام الورق فى أوربا الغربية ، غير أن مصانع الورق لم تؤسس فى ايطاليا والمانيا حتى القرن الرابع عشر (٢) .

وهكذا مهدت الصلات التجارية والتواجد السياسى فى اسبانيا وصقلية الطريق أمام الثقافة العربية الأرفع شأنا ، للتوغل تدريجيا فى أوربا الغربية ، وبالرغم من أن أوربا الغربية كانت لها صلات بالأمبراطورية البيزنطية فقد نقلت عن العرب أكثر مما نقلت عن البزنطيين ، وهو سبب آخر من أسباب اعتقادنا أن مساهمة الحروب الصليبية فى نشر الثقافة العربية فى أوربا مساهمة ضئيلة (٣) .

(١) انظر المرجع السابق ص ٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤٥ .

لقد كان المسيحيون فى البقاع الإسلامية ملمين باللغة العربية ، لدرجة أنهم تبنوا فى ظل الحكم الإسلام كافة أوجه ثقافة الحكام إلا فيما يختص بالدين ، لدرجة أنهم عرفوا بالمستغربين (Mazaraps) . وثمة فقرة كتبت عام ٨٥٤م ، وكثيرا ما يستشهد بها ، يشكو فيها أسقف الفار من ان شباب الطائفة المسحية يجتذبهم الشعر العربى لدرجة أنهم أغفلوا دراسة اللغة اللاتينية ، وأقبلوا على دراسة العربية، أما عن اليهود الذين تحسن وضعهم بعد الفتح الإسلامى ، فقد تقبلوا هم ايضاً الثقافة السائدة فى كل شؤونهم إلا الدين .

ورغم أن هذه الثقافة السائدة كانت تستلهم الإسلام بصفة اساسية ، فإن عناصرها الإسلامية ، أو العربية امتزجت بعناصر إيبيرية (١) . ويقول مونتجمرى وات :

يجدر : بنا أن نشبير الى أمور ثلاثة :

الأول : أن إسهام العرب فى حضارة أوربا الغربية كان بصفة أساسية فى مجال كماليات الحياة وصقلها والارتقاء بقاعدتها المادية .

الثانى : إن معظم الأوربيين كانوا قليلى الإدراك للأصل العربى والإسلامى للمظاهر التى تبنّوها .

الثالث : إن حياة العرب الرغدة والآداب التى صحبتها نشطت مخيلة الأوربيين ، وأثارت العبقرية الشعرية لدى الشعوب الرومنسية من مراقدها (٢) .

أرأيت هذه الشهادة لبعض الغربيين المنصفين ؟ فلعل كل مسلم أن يحيط ثقافته بكل تقدير واحترام كما يحرص الأجانب على فهمها واستيعابها.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٥ .

معاهدة لم تتحقق !! وخسارة لم تعوض

بعد كل ما قدمه المسلمون لأسبانيا من خير كان الجزاء الذى لخصه الشاعر والأسى يملأ قلبه : لكل شئ إذا ما تم نقصان ..... نعم فقد دالت دولة الإسلام من ربوع اسبانيا وكانت المعاهدة التى لم تتحقق والخسارة التى لم تعوض فقد عاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة ولكن سنة ١٤٩٩ م لم تكد تحل حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذى دام قرونا ، والذى لم ينته إلا بطرد العرب من إسبانية، وكان تعميدُ العرب كرها فاتحة ذلك الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر بإحراق كثير من المعمدين على أنهم من النصارى ، ولم تتم عملية التطهير بالنار إلا بالتدريج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كردينال طليطلة التقى !! ، الذى كان رئيسا لمحاكم التفتيش ، بقطع رءوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء وشيوخا وولدانا ، ولم ير الراهب الدومينيكى ، (بليدا) ، الكفاية فى ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، فمن المستحب ، إذن ، قتل جميع العرب بحد السيف لكى يحكم الرب بينهم فى الحياة الأخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم ، ولم تر الحكومة الاسبانية ان تعمل بما اشار به هذا الدومينيكى الذى أيده الأكليروس فى رأيه لما قد يبديه الضحايا من مقاومة ، وإنما أمرت فى سنة ١٦١٠م ، بإجلاء العرب عن إسبانية، فقتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق ، وأبدى ذلك الراهب البارع ، (بليدا) ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين فى أثناء هجرتهم ، وهو الذى قتل مئة الف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠,٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة الي افريقية (١) .

(١) حضارة العرب ص ٢٧٠ – ٢٧١ ، أما بليدا هذا فهو اسم على مسمى حيث أنه بليد الحس والشعور بالانسانية وبالعهود المبرمة .

وخسرت اسبانية بذلك مليون مسلم من رعاياها فى بضعة أشهر ، ويقدر كثير من العلماء ومنهم سيديو ، عدد المسلمين الذين خسرتهم اسبانية ، منذ أن فتح فرديناند غرناطة حتى إجلائهم الأخير ، بثلاثة ملايين ، ولا تعد ملحمة سان بارتلمى إزاء تلك المذابح سوى حادث تافهة لايؤبه لها ، ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التي اقترفت ضد المسلمين .

ومما يرثى له أن حرمت اسبانية عمدا هولاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية .

ثم رأت محاكم التفتيش أن تبيد كل نصرانى ترى فيه شيئا من النباهة والفضل ، فكان من نتائج هذه المظالم المزدوجة أن هبطت اسبانية الى أسفل دَرَكات الانحطاط بعد ان بلغت قمة المجد ، وانهار معها كل ماكان فيها من الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والآداب والسكان .

وهاهى ذى عدة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع اسبانية ان تنهض من هبوطها مع مابذل من الجهود ، وقد صار عدد سكان طليطلة فى الوقت الحاضر ١٧,٠٠٠ بعد ان كان ٢٠,٠٠ أيام الحكم العربى ، وقد أصبح عدد سكان قرطبة فى الوقت الحاضر ٤٢,٠٠٠ بعد أن كان مليونا أيام الحكم العربى ، ولم يبق من مدن ولاية شلمنقة التى كان عددها أيام الحكم العربى ١٢٥ مدينة سوى ١٣ مدينة[1] .

(١) انظر حضارة العرب ص ٢٧٢ ، وغستاف لوبون فى كتابه قصة العرب فى اسبانيا ص ٢٢ ترجمة الاستاذ على الجارم رحمه الله .

حالة اسبانيا بعد طرد العرب

ماذا أصاب اسبانية بعد طرد العرب ؟

لقد حل بها الانحطاط محل العظمة ، وزاد انحطاطها سرعة ماعطلت من قادة عظام حربيين كالذين ظهروا فى قرن واحد ، وقد أضاعت كل شئ حين خسرت سلطانها الحربى والحضارى معاً .

وكان من سرعة الانحطاط الذى عقب إجلاء العرب وقتلهم مايمكننا أن نقول معه ان التاريخ لم يرو خبر أمة كالاسبان هبطت الى دركة عميقة فى وقت قصير جدا ، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة ، والصناعة ، وكل ماهو ضرورى لعظمة الأمم ، عن بلاد اسبانية على عجل ، وقد اغلقت أبواب مصانعها الكبرى وأهملت زراعة اراضيها وصارت أريافها بلاقع ، وبما أن المدن لاتزدهر بغير صناعة ولا زراعة فقد خلت المدن الاسبانية من السكان على شكل سريع مخيف ، وأصبح عدد سكان مدريد مئتى الف بعد ان كان اربعمائة الف ، وصارت اشبيلية ، التى كانت تحتوى ٦٠٠ حرفة كافية لإعاشة ١٣٠,٠٠٠ شخص ، لا تشتمل على غير ٣٠٠ حرفة، وهذا فضلا عن خلوها من ثلاثة أرباع سكانها كما جاء في رسالة مجلس الكورتس الى الملك فيليب الرابع ، ولم يبق فى طليطلة سوى ثلاثة عشر مصنعا للصوف بعد ان كان فيها خمسون ، وخسرت طليطلة جميع مصانعها الحريرية التى كان يعيش منها أربعون ألف شخص ، ووقع مثل هذا فى كل مكان ، ولم تعتّم المدن الكبيرة ، كقرطبة وشقوبية وبرُغُش ، أن أصبحت كالصحارى تقريبا ، وزال ماظل قائما فيها من المصانع القليلة بعد توارى العرب ، وكان من غياب جميع الصناعات فى إسبانية ان

اضطر القوم الي جلب عمال من هولندة عندما اريد انشاء مصنع للصوف فى شقوبية فى أوائل القرن الثامن عشر (١) .

وأجمع كتاب العصر الذين زاروا اسبانية على الاعتراف بضعف مستوى الاسبان الثقافى وكان هذا الضعف عميقا عاما فى أواخر القرن السابع عشر من الميلاد ، وبَدَت تلك البلاد التى أضاءت العالم أيام سلطان العرب خالية من أية مدرسة لتعليم الفيزياء والرياضيات والطبيعيات ، وصرت لا ترى فيها كلها ، حتى سنة ١٧٧٦م كيماويا قادرا على صنع أبسط التراكيب الكيماوية ، ولا شخصا قادرا على إنشاء مركب أو سفينة شراعية، وذلك كما قال الكاتب الاسبانى كنيومانس مؤكدا(٢).

ولم يسمع أطباء الاسبان شيئا عن الدورة الدموية إلا بعد اكتشافها بقرن ونصف قرن ، ويمكن استجلاء مستوى معارفهم بالأمر الغريب القائل إن بعض الناس فى سنة ١٧٦٠م اقترحوا مع التواضع أزالة الاقذار التى كانت تملأ شوارع مدريد وتفسد هواءها ، وإن رجال الصحة احتجوا على ذلك بشدة ذاكرين ان آباءهم العقلاء كانوا يعرفون مايصنعون ، وأن يمكن السكان ان يعيشوا مثلهم بين الأقذار ، وأن رَفْعها ينطوى على تجربة لايقدر أحد على كشف عواقبها (٣) .

الحكم الصائب : يظهر الحكم العادل الشديد الذى أصدره المؤرخ الانجليزى الكبير (بكْل) منذ بضع سنين على إسبانية يسرى على حاضرها وعلى زمن طويل من مستقبلها لا ريب ، قال « بكل » :

(١) انظر حضارة العرب ص ٥٨٤ .
(٢) حضارة العرب ص ٥٨٥ ، ٥٨٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٨٦ .

« لا تزال إسبانية نائمة هادئة فاقدة للحس غير شاعرة بكل مايجرى فى بقية العالم ، أى معدودة غير موجودة ، وإسبانية هناك ، حيث أقصى نقطة فى القارة لم تكن ، وهى جامدة ضخمة الجرم ممثلة لغير مشاعر القرون الوسطى وأفكارها ، ومايحزن فيها كثيرا اقتناعها بحالها واعتقادها أنها أرقى أمم أوربة ، مع انها أكثرها تأخرا ، هى فخور بكل مايجب ان يحمر وجهها منه خجلا ، فخور بقدم آرائها، فخور بتدينها ، فخور بقوة إيمانها، فخور بسرعة تصديقها الطائش الذى لا حد له ، فخور برفضها لإصلاح معتقداتها ، وعادتها ، فخور بحقدها على الملحدين، فخور بيقظتها الدائمة فى إبطال كل مايعملونه ليستقروا بأرضها استقرارا شرعيا ، ومن مجموع هذه الأمور تتألف تلك الخلاصة الكئيبة التى تسمى اسبانية » (١) .

ويقول الأستاذ ستانلى بول (٢) : « ولم يعرف الأسبان عندما نفوا العرب (٣) ماذا كانوا يفعلون حقا .

لقد خربوا بيوتهم بأيديهم ، فإنهم ابتهجوا أول الأمر بنفيهم ، وشمتوا فيهم وشفت غليلهم المناظر المؤلمة لهؤلاء العرب وهم يطردون من فردوسهم .

ولكن الأسبان لم يدركوا انهم قتلوا الأوزة التى تبيض بيضة من ذهب فى كل يوم ، فقد بقيت اسبانيا قرونا فى حكم العرب ، وهى مركز المدنية ومنبع الفنون والعلوم ، ومثابة العلماء والطلاب ومصباح الهداية والنور . ولم تصل أية مملكة فى أوربة الى مايقرب منها فى ثقافتها وحضارتها » وبهذا يسدل الستار على الفردوس المفقود .

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ .

(٢) فى كتابه قصة العرب فى إسبانية ص ٢٢ ترجمة الأستاذ على الجارم رحمة الله عليه .

(٣) تعود لفيف من الكتاب الغربيين دائما أن ينسبوا الفضل للعرب كأنما يفرقون بين المسلمين والعرب ، لكن كلمة المسلمين ينبغى أن تكون العلامة المميزة لأنها تشمل العربى وغير العربى ممن دخلو فى الإسلام وانضووا تحت سمائه وتعاليمه ، فهل هذه التفرقة مقصودة أم تأتى عرضا وعفوية فى تعبيرهم ؟

ثالث المعابر الثقافية بلاد الشام أو الحروب الصليبية

حالة الغرب والشرق زمن الحروب الصليبية

تتلخص هذه الحالة فيما يلى :

١- كانت أوربة ، ولاسيما فرنسة ، فى القرن الحادى عشر الذى جرت فيه الحملة الصليبية الأولى فى أشد أدوار التاريخ ظلاما ، وكان النظام الاقطاعى يأكل فرنسة وكانت مملؤة بالحصون التى كان أصحابها ، وهم من انصاف البرابرة ، يقتتلون دائما ولا يملكون سوى أناس من العبيد الجهال ولم يكن فى ذلك الحين نفوذ شامل لسوى البابا ، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له .

٢- وكانت دولة الروم فى الشرق قائمة ، وكانت القسطنطينية ، مع انحطاطها عاصمة لدولة كبيرة ، وكانت ميدانا للمنازعات الدينية وأنواع المشاحنات ، وكانت تخسر كل يوم جزء من أملاكها فضلا عن انطفاء سلطانها فى إيطالية ، وكان كل من بابا رومة وبطرك بزنطة قد حرم الأخر فصار للنصارى كنيستان .

٣- وكان قسم من سورية تابعا للترك السلجوقيين ، وكان القسم الآخر تابعا لسلاطين مصر ، ولم يكن الخليفة ببغداد غير شبح ، وكانت دولة العرب السياسية فى دور الانحلال مع محافظة حضارتهم على سلطانها ، ولم يكن الصراع العظيم الذى كان يتمخض عنه العالم غير نزاع عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تعد من أرقى الحضارات التى عرفها التاريخ .

٤- اقتصرت الصلات بين أوربة والشرق على زيادة حجيج النصارى لفلسطين فى ذلك الدور ، وواظب النصارى على زيارة فلسطين عندما تحسنت العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان (١) .

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٢٠ .

٥- وكان عدد الحجاج من النصارى يزيد كل يوم ، وكان ضجيجهم يزيد على ماكان عليه ، وكان التركمان الذين قاموا مقام العرب فى سورية أقل تسامحا من العرب ، فاكرهوا حجيج النصارى على دخول القدس بخشوع بدلا من أن يسمحوا لهم بدخولهم ظافرين على صوت الصنوج وضوء المشاعل كما كان العرب يسمحون به وأخذوا يحملونهم على دفع الفدى غير تاركين وسيلة لإيذائهم إلا أتوها .

٦- جاء لزيارة بيت المقدس جندى قديم كان قد ترهب بعد ان طرأ على حياته الروحية ماكدر صفوه وكان اسم هذا المجنوب المتعصب النشيط بطرس ، فأضاف التاريخ الى اسمه لقب « الناسك » .

واستشاط بطرس الناسك غيظا من سوء ماعومل به فى فلسطين ، وغاص بطرس فى بحر من الأحلام فرأى أنه مرسل لدعوة أوربة الى انجاء الأرض المقدسة.

وملكت هذه الأوهام مشاعره فتوجه الى رومة ليستعين بالبابا ، فأذن له البابا أوربان الثانى فى دعوة النصارى الى انقاذ الأماكن المقدسة ، فصار يجوب إيطالية وفرنسة ، ويلقى الخطب النارية ممزوجة بالبكاء والعويل وصب اللعنات على الكافرين، وبوعد الرب للذين يزحفون لانقاذ قبر المسيح بالمغفرة وأثرت فصاحته التمثيلية الخيالية فى قلوب الجموع فى كل مكان .

ولم تكن الجموع التى ألهبها بطرس الناسك لتستطيع عمل شئ وحدها وانما حدث ماحفز السنيورات الذين كانوا سادة للجموع الى دعم تلك الحركة ، وذلك ان قيصر الروم ، الكسيس كومنيش ، الذى كانت دولته تخسر كل يوم قطعة من أملاكها، استغاث بالبابا وملوك أوربة حينما حاصر الترك القسطنطينية ، فأقام ذلك العالم النصرانى وأقعده بالاضافة الى مواعظ بطرس الناسك ، ورأى البابا ان يشجع تلك الحركة فعقد فى ايطالية مؤتمرا دينيا لم يسفر عن نتيجة ، ثم عقد ، فى سنة ١٠٩٥م ، مؤتمرا ثانيا في كليرمون بأوفرن ، وحضر بطرس الناسك هذا المؤتمر

الأخير ، وتحالف المؤتمرون ، تلبية لدعوته الصارمة وترديد الجموع الهائجة لكلمة : «الرب يريد ذلك ! » ، على الزحف الى فلسطين لإنقاذ قبر الرب ملصقين الصلبان على أكتافهم (١) .

٧- لقد اصاب القوم نوبة حادة من الجنون ، فرغب السنيورات والعبيد والرهبان والنساء والأولاد وجميع الناس فى الزحف ، وأخذ كل أمرئ يبيع مايملك ليتجهز ، واستعد من الرجال ١٣٠,٠٠٠ مقاتل لغزو فلسطين حالا (٢) .

٨- بلغ عدد من سبق من الصليبيين الى آسية الصغرى على ذلك الوجه مئة الف ، واقترف هؤلاء من الجرائم نحو المسلمين والنصارى مالا يصدر عن غير المجانين من الاعمال الوحشية وكان من أحب ضروب اللهو اليهم قتل من يلاقون من الأطفال وتقطيعهم إربا وشيهم كما روت (أن كومنين) بنت قيصر الروم .. وكان من حقوق الترك ان يقابلوهم بالمثل ، ولذا صار الترك يتصيدونهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة مقيمين من عظامهم هرما عظيما ، ولم يلبث جيش الصليبيين الأول المؤلف من مئات الألوف أن أبيد (٣) .

٩- ظهور سلوك الصليبيين المتوحش وحماقاتهم مارواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين فى مدينة مارات للدلالة على سياسة الصليبيين الحربية ، وذلك بالاضافة الى ماحدث حين الاستيلاء على القدس ، قال المؤرخ الراهب التقى روبرت:

« وكان قوما يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التى خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إربا إربا وكانوا لا يستبقون إنسانا ، وكانوا يشنقون إناسا

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

كثيرين بحبل واحد بغية السرعة فيا للعجب وياللغرابة ان تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم !

وكان قومنا يقبضون على كل شئ يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية ، فيا للشره وحب الذهب ! وكانت الدماء تسيل كالأنهار فى طريق المدينة المغطاة بالجثث ، فياللتلك الشعوب العمى المعدة للقتل ! لم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية دينا ، ثم احضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم فى برج القصر ، وأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم وبسوق فتيانهم وكهولهم الى انطاقية لكى يباعوا فيها » [1] .

حتى قال الشاعر الفارسى الكبير سعدى بعد زمن :

« لا يستحق أولئك أن يسموا بشرا » [1] .

١٠- كان عدد الصليبيين مليون شخص حينما خرجوا من أوربة ، فأخذت المجاعة والأوبئة والدعارة والوقائع والمنازعات تبيد هذا الجيش الذى كان يمكنه فتح العالم لو ألف من أناس آخرين ، ولم يبق منه عند بلوغه القدس التى كانت تابعة، فى ذلك الحين ، لسلطان مصر الذى أستردها من الترك سوى عشرين ألفا .

١١- كان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون ، قال كاهن مدينة لوبوى ، ريموند داجيل !

« حدث ماهو عجيب بين العرب (!) عندما استولى قومنا على أسوار القدس

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٢٥ ، واليوم ماذا نرى ونقرأ عما يفعله الصليبيون المحدثون فى البوسنة وفلسطين ، وكشمير .. الخ التاريخ يعيد نفسه ، تحت سمع وبصر هيئة الأمم !!

وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل مايمكن أن يصيبهم (!) وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون الى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم فى النار فكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لايرى فى شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم ، فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض مانالوا .. » .

وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم فى مسجد عمر ، فعرض هذا الوصف الذى تقشعر منه الجلود كما يلى :

« لقد أفرط قومنا فى سفك الدماء فى هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم فى الساحة هنا وهنالك ، وكانت الأيدى والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها – نفرت منه–، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة » .

ولم يكتف الفرسان الصليبيون بما فعلوا بل عقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس ، من المسلمين واليهود وخوارج النصارى ، الذين كان عددهم نحو ستين الفا ،، فأفنوهم على بكرة أبيهم فى ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم أمرأة ولا ولدا ولا شيخا .

وأراد الصليبيون ان يستريحوا من عناء تذبيح أهل القدس قاطبة ، فانهمكوا فى كل مايستقذره الانسان من ضروب السكر والعربدة ، واغتاظ مؤرخو النصارى انفسهم من سلوك حماة النصرانية مع اتصاف هؤلاء المؤرخين بروح الاغضاء

(١) المرجع السابق ص ٣٢٦ .

والتساهل ، فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين ، وشبههم بودان الذى كان رئيس أساقفة دول ، بالفروس التى تتمرغ فى الاقذار [1] .

وهاج العالم الإسلامى من استيلاء الصليبيين على القدس ، كما هاج العالم النصرانى وتناسى المسلمون الانقسام الذى كان يفت فى عضدهم مع ما أحدثه ذلك الاستيلاء من الذعر الكبير فيهم ، وأغضى سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد فتبادلا السفراء للبحث فى كل مايجب لتلافى تلك المصيبة [2] .

والنتيجة :

لقد خسر النصارى مليون رجل ، وخرب بعض أوربا فى سبيل فتح القدس ، وكان النصارى يرجون أن يحتفظوا بثمرة هذا الفتح العزيز، غير أن أملهم خاب، فلم يلبث المسلمون أن استردوا القدس ، وعادت القدس الى حظيرة الإسلام الى الأبد .

واليك ماقاله اسقف عكا الصليبى جاك دوفترى عن أنباء الصليبيين الأولين ، وذلك فى تاريخه عن القدس :

« خرج من الصليبيين الأولين الاتقياء المتدينين جيل من الفجرة الأشرار الفاسدين المنحلين الفاسقين كما يخرج الثفل من السلاف [3] ، والدردى [4] من الزيت والشليم [5] من البر والصدأ من القلز [6] ... وكان هؤلاء الأبناء يختصمون ويقتتلون

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(٣) السلاف : ماسال وتحلب قبل العصر ، وهو أفضل الخمر .

(٤) الدردى من الزيت ونحوه : الكدر الراسب من أسفله .

(٥) السليم : الزؤان يكون بين الحنطة .

(٦) القلز : النحاس الذى لايعمل فيه الحديد .

لأتفه الأسباب ، حتى ان بعضهم كان يستعين على بعض بأعداء النصارى فى الغالب .. وكان لا يرى منهم فى أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والزناة والقتلة والخائنين والمهرجين والرهبان والدعار والراهبات العواهر »(١) .

ثم تم طرد الصليبيين من القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى الشهير ، وذلك أن صلاح الدين دخل سورية بعد ان أصبحت مصر وجزيرة العرب والعراق فى قبضته ، وأنه غلب ملك القدس الأسيف (غى دولوزينيان) وأسره واسترد القدس فى سنة ١١٨٧م .

ولم يشأ السطان صلاح الدين ان يفعل مع الصليبيين مثل مافعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش فيبيد النصارى على بكرة أبيهم ، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعا سلب شئ منهم .

وقضى على مملكة القدس اللاتينية بعد ان عاشت ٨٨ سنة، ومرت سبعة قرون على تلك الحوادث من غير أن تخرج هذه المدينة المقدسة من ايدى اتباع محمد ﷺ على الرغم من جميع الجهود التى قام بها العالم النصرانى منذ ذلك الحين (٢) .

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٢٨ .
(٢) المرجع السابق .

بواعث الحروب الصليبية

تعد بلاد الشام من أهم المناطق الاستراتيجية منذ فجر التاريخ ، ومنذ قيام الحضارات القديمة ، وقد حاولت الامبراطوريات القديمة السيطرة عليها نظرا لأهميتها ، وكان من الآراء المتفق عليها ان من يحتل الشام باستطاعته احتلال مصر وافريقيا ومناطق عديدة فى المنطقة ، واستمر هذا الواقع الى قيام الدولة الإسلامية العربية التى قضت على دولتى الفرس والروم ، بيد أن القضاء على الدولتين لم يكن يعنى انتهاء الاطماع ببلاد الشام ، بل استمر العالم الغربى يتطلع اليها محاولا بين الفينة والفينة السيطرة عليها ، إلى أن جاءت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى، وبالتحديد قبل وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام عام ١٠٩٨ ، أما البواعث التى أدت الى قيام الحروب الصليبية فكثيرة نلخصها فيما يلى (١) :

أولاً : الباعث الديني : ادعت القوى السياسية فى أوربا بسوء أحوال المسحيين فى البلاد الإسلامية ، وسوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين ، وكان ملوك أوربا وامراؤها قد اثاروا هذه الأمور ، غير ان البابا (أوربان الثانى) كان له الأثر الأكبر فى إثارة روح التعصب والبغض ضد المسلمين ، والأدعاء المكذوب بضرورة انقاذ المسيحية من الإسلام فى بلاد الشرق (٢) .

---

(١) انظر د. سعيد عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٧ - ٣٣ ، أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٤ - ٢٤ ، ود . جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٧ - ٣٢ ، والعلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٦٩ .

(٢) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٦٩ .

ثانيا : الباعث الاقتصادى : كانت أوربا تعانى من سوء الأوضاع الاقتصادية ، كما تعانى من المجاعات لاسيما فى فرنسا ، كما ان كثرة الحروب بين الاقطاعيين أفرزت الكثير من المعدمين والفقراء ، بالاضافة الى جمهرة من التجار الإيطاليين خاصة تجار البندقية ، وجنوى ، وبيزا ، الذين كانوا يشجعون على قيام الحروب فى الشرق لأهدافهم الاقتصادية والتجارية ، وقد اكد هؤلاء التجار أن تشجيعهم لقيام الحروب الصليبية لم يكن خدمة للصليب ، أو حربا ضد المسلمين ، وإنما لتحقيق مصالحهم الاقتصادية بوسائل عسكرية [1] .

ثالثا : الباعث الاجتماعى : كانت طبقة رجال الدين المسيحى ، وطبقة النبلاء ، والفرسان ، والمحاربين من الطبقات الاساسية والحاكمة في المجتمعات الأوربية ، والتي كانت تستغل الطبقات الدنيا ومنها طبقة الفلاحين الذين كانوا يعيشون حياة ملؤها الشقاء والتعاسة فى ظل الاستغلال الاقطاعى ، وفى مقابل التزامات الفلاحين الإلزامية لرجال الاقطاع .

وقد كان الفلاح مع الاقنان والعبيد (رقيق الأرض) يفضلون الحياة والإقامة فى أية منطقة فى العالم على الاقامة فى ظل الشقاء والعبودية ، ومن ثم وجدوا في الدعوة للحملات الصليبية متنفسهم من ذل العبودية ، وتجمع مع هؤلاء شذاذ الافاق وقطاع الطرق على المشاركة فى هذه الحروب لتتخلص أوروبا منهم ، فى وقت طمعوا هم بالارتزاق والغنى فى الشرق الثرى الساحر الذى يفيض لبنا وعسلا [2] .

رابعا : الباعث السياسى : كانت الأوضاع السياسية التى يعيشها ملوك واباطرة أورباتحتم عليهم الخضوع للفكر الدينى المسيحى ، ومن الثابت ان فردريك بربروسا ، وريتشارد قلب الاسد ، وفيليب أغسطس ، وفريدريك الثانى لم

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٧٠ .

يشتركوا فى الحروب الصليبية إلا بضغط من البابوية باستثناء لويس التاسع ملك فرنسا المشهور بتعصبه ، وتديته وقناعته بمحاربة المسلمين ، ثم إن بقية الأمراء كانت لهم أهدافا سياسية من وراء اشتراكهم فى هذه الحملات : تتلخص فى سيطرتهم على الأراضى والاقطاعات التى حرم بعضهم من امتلاكها فى الغرب ، بدليل الصراعات التى وقعت بين الأمراء انفسهم بسبب الاقطاعات وامتلاكها فى الشرق(١) .

خامسا : لم تكن أوضاع بلاد الشام والعالم الإسلامى فى تلك الفترة ، أوضاعا مستقرة أو قوية ، بل كانت الجبهات الإسلامية متناحرة ومفككة ، فالدولة العباسية شهدت صراعات فارسية : تركية - عربية ، وأصبح الخلفاء العباسيون العوبة فى أيدى الاتراك مما أدى الى اضطراب الأوضاع السياسية وإشاعة الفتن لدرجة أدت إلى طمع العدو فى البلاد (٢) .

وصف بلاد الشام وموقعها :

وصف المقدسى الشام فقال : « إقليم الشام جليل الشان ، ديار النبيين ، ومركز الصالحين ، ومعدن البدلا ، ومطلب الفضلا ، به القبلة الأولى ، وموضع الحشر والمسرى والأرض المقدسة ، والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة .. »(٣) .

أما موقعها : فيحدها من الغرب بحر الروم ، ومن الشرق البادية من أيلة الى الفرات الى حدود الروم ، ومن الشمال بلاد الروم ، ومن الجنوب مصر وتيه بنى

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧١ .

(٢) وللمزيد من التفصيلات حول نشوء دويلات فى منطقة الشرق وتفرقها ينظر المرجع السابق ص ١٧١ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٥١ .

اسرائيل ، واخر حدودها مما يلى مصر ورفح ، ومما يلى الروم الثغور المعروفة قديما بثغور الجزيرة وهى : ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة ، وعين زربة والمصيصة وإذانة وطرسوس .. وكور الشام : جند فلسطين ، وجند الاردن ودمشق ، وحمص وقنسرين والعواصم والثغور (١) .

بداية الحملات :

الحملة الأولى : وصلت الى بلاد الشام عام ١٠٩٨م ، وكان عددها الاجمالى ثمان حملات أساسية بالاضافة الى حملات فرعية حملت مجموعات من الغربيين الي الشرق فالحملات الأولى والثانية والثالثة والسادسة اتجهت الى بلاد الشام ، بينما اتجهت ثنتان منها الى مصر وهما الخامسة والسابعة ، فى حين اتجهت الحملة الرابعة الى القسطنطينية ، بينما اتجهت الثامنة الى افريقيا ، وقد مكثت هذه الحملات الى حين سقوط مدينة عكا فى فلسطين عام ١٢٩١م ، ولا يعنى هذا الانتهاء الحاسم للمعارك الصليبية (٢) .

الحملة الأولى دعا اليها البابا (أوربان الثانى سنة ١٠٩٥م فى مجمع كليرمونت ، ونشط لها البابا مع ملوك أوربا بدعوى تخليص المسيحيين والحجاج من اضطهاد الاتراك السلاجقة ، وطرد المسلمين من اسيا ، لاسيما بعد اتفاق البابا مع الأمبراطور البيزنطى الكسيوس كوفين ، وموافقة ادهمار أسقف بوى المندوب البابوى فى الحملة الأولى ، كما وافق على الحملة : ريموند الرابع أمير تولوز وبروفانس (١٠٨٨ - ١١٠٥) وكرس بطرس الناسك نفسه للدعوة لهذه الحملة بين طبقة العامة (٣) .

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٧٢ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

وبعد وصول طلائع الحملة الى البسفور قرر قادتها الزحف على نيقية قاعدة السلطان قلج أرسلان ، وكان عددها مايقارب خمسة وعشرين ألفا ولكن السلاجقة قضوا عليهم .. ، وفى نيسان (أبريل) ١٠٩٦ تجمع فى حوض الراين جمع كبير من الصليبيين الألمان قدر عددهم أكثر من عشرة الآف مقاتل تحت قيادة فولكمار ، وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة نيقية القاعدة الأساسية لقلج أرسلان ومقر حكمه فى أواخر نيسان سنة ١٠٩٧ ، وانتصروا فى نهاية الأمر على قلج أرسلان وحاميته[١] .

وفى عام ١٠٩٨ جرت معارك عسكرية كثيرة بين الصليبين والأتراك ، توجت باعلان امارة انطاكية إمارة صليبية ، وفى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٠٩٨ قرر الصليبيون الزحف نحو بيت المقدس ... ، وبعد ارتكاب مجزرة رهيبة داخل المسجد الأقصى استطاع الصليبيون الأستيلاء على القدس الشريف ، ...، وبعد سقوط بيت المقدس قام الصليبيون باحتلال نابلس ، وعسقلان والجليل وطبريا [٢] ... ، ولقد حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس وخاصة مسجد قبة الصخرة الذى كان عبد الملك بن مروان قد بناه على انقاض مسجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولقد اقام (فرسان تامبلا) فى المسجد الأقصى بعد ان حولوه الى كنيسه وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان [٣] .

ومن الجدير بالذكر أن وجود هذه الممالك أدى الى إثارة الوعى واليقظة الإسلامية للعمل على التخلص من العناصر التى جاءت من الخارج للسيطرة على

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٢) انظر د. سعيد عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٧٧ ، والعلاقات الضارية بين الشرق والغرب ص ١٧٦ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٧٧ .

المناطق العربية والإسلامية ، وقد تيسر للمسلمين بعد هذه الفترة رجال عملوا على القضاء على المخطط الصليبي ، ومن هؤلاء : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي ، رحمهم الله جميعا رحمة واسعة (١) .

ورأى عماد الدين زنكي بثاقب فكره ضرورة القضاء على إمارة الرها خاصة لأنها تحول دون الاتصال بين إمارتي الموصل وحلب ، ومن أجل ذلك بدأ بتقوية جيشه وحصونه وجواسيسه ، واستطاع عماد الدين بتوفيق الله عز وجل من الإستيلاء على إمارة الرها في عام ١١٤٤م ، ولقد أثار هذا الانتصار الإسلامي على الصليبين وجها من الحماس بين المسلمين فاقبلوا على الجهاد (٢) .

الحملة الصليبية الثانية (٣) : (٥٥٢ هـ - ١١٤٨م) اشترك في هذه الحملة كل من: كورات الثالث امبراطور المانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، غير ان هذه الحملة فشلت فشلا ذريعا فقد تمكن الاتراك السلاجة في آسيا الصغرى من صدها والانتصار عليها ، واضطر الملكان الألماني والفرنسي الى اتخاذ طريق البحر إلى امارة انطاكية الصليبية ، وعوضا من ان يهاجم الصليبيون ممتلكات نور الدين ، وشقيقة سيف الدين لاستعادة إمارة الرها حاول الملكان محاصرة دمشق غير ان حاميتها استطاعت فك حصارها ، مما اضطر الملكان الى الانسحاب والسفر الى بلديهما .

وكان من اثر فشل هذه الحملة قد ضاعف من حماس المسلمين ، فاستغل السلطان نور الدين محمود هذه الروح الإسلامية فهاجم إمارة انطاكية ، وانتصر على اميرها بوهمند ، واستولى على جميع المراكز الصليبية الواقعة بين حلب

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٣) عن جميع هذه الحملات الصليبية أنظر : أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ٢٥ - ١١٩ .

وانطاكية ، ويضم نور الدين الموصل ودمشق الى مملكته أقام دولة إسلامية متحدة تمتد من الموصل ، وحلب شمالا الى دمشق جنوبا ، ويعنى قيامها نوعا من التوازن بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية فى الشرق العربى (١) .

دور صلاح الدين الأيوبى رحمة الله عليه :

سنحت الفرصة لصلاح الدين ، وهو من الشخصيات القيادية الهامة فى العالم، فهو من أصل كردى ، كان والده نجم الدين أيوب قائد قلعة تكريت شمالى بغداد ، وكان صلاح الدين قد خلف عمه فى وزارة مصر ، وفى قيادة جيش نور الدين فيها .

وبوفاة كل من الملك نور الدين سنة ١١٧٤م ، وملك المملكة اللاتينية في فلسطين واتت الفرصة لصلاح الدين أن يخط لمستقبل العلاقات العسكرية مع الصليبيين على النحو التالى :

أولاً : فترة الاستعداد وتوحيد الشرق العربى والإسلامى .

ثانيا : العمل على استرداد بيت المقدس ، ومحاولة الانتصارات على الصليبين .

ثالثا : العمل على مواجهة ملوك غربى أوربا لاسيما فى حملتهم الثالثة .

ففى الفترة الأولى : تمكن من تحقيق الوحدة التى كان ينشدها ، وقد امتدت فترة الاستعداد من « ٥٦٧ – ٥٨٢هـ » سيطر فى خلالها على بلاد النوبة واليمن الجنوبى ، وعلى بلاد الشام والجزيرة فكون جبهة اسلامية موحدة احاطت بالملكة الصليبية فى فلسطين (٢) .

(١) للمزيد من المعلومات راجع العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب . ص ١٨٠ ، ١٨١ ومابعدها .
(٢) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ... ص١٨٠ ، ١٨١ .

وفى الفترة الثانية : كان الترتيب للقيام بهجوم إسلامى على مملكة الصليبين عام ٥٨٣هـ - ١١٨٧ .. وعلى بعض المناطق التى كانت تتعرض للقوافل الإسلامية ، والتى كانت تسافر من مصر الى بلاد الشام (١) .

موقعة حطين : لما ابتدأ القتال بين الجانبين فى هذه الموقعة تبين ان موقف المسلمين كان أقوى من موقف الصليبيين الذى حوصروا فى تل صخرى ، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين واستسلام الصليبين وفرار زعيمهم ريموند الثالث .

وعلق المؤرخ ابن الأثير المعاصر لتلك الفترة على موقعة حطين قائلا : « كل من يرى القتلى يحسب ان ليس هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى يحسب ان ليس هناك قتلى » (٢) .

أما المقريزى فيقول : أخذ المسلمون صليب الصلبوت (٣) « واسروا الابرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين ، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لايعد كثرة ، ثم قدم الابرنس أرناط وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية ... » (٤) .

فتح بيت المقدس :

وبعد هذه الموقعة التاريخية العظيمة بدأ صلاح الدين يسيطر على المدن الصليبية التى عاملها معاملة حسنة ، فاستولى على عكا ، ويافا وحيفا ، وصيدا

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ١٨٢ ، وانظر لابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ١١ ص ٥٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ١١ ص ٥٣٧ .

(٣) سمى بهذا الإسم لأن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك ، راجع لابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ٥٣٦.

(٤) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب .. جـ ١٨٢ .

وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة ، وبذلك تهيأ له اتصال بحرى سريع بين قسمى دولته أى بين الشام ومصر (١) .. ، ثم اتجه صلاح الدين الى الداخل لمحاصرة مدينة القدس فاضطرت الى التسليم يوم الجمعة ليلة الإسراء فى ١٧ رجب سنة ٥٨٣هـ (٢) – ١١٨٧ ، ثم اتفق الطرفان على الصلح .

شروط صلح بيت المقدس :

أ- السماح لمن يحب ان يغادر المدينة حاملا أمتعته وأمواله .

ب- عامل النصارى الشرقيين معاملة أهل البلاد الوطنيين .

جـ- لم يهدم الكنائس ، بل تركها ، وكان على رأسها كنيسة القيامة ، واكتفى بإعادة المساجد التى حولت الى كنائس ، لا سيما المسجد الأقصى .

ثم واصل صلاح الدين انتصاراته ، ففتح بقية المدن الشامية ، باستثناء انطاكية وصور ، وقد عبر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله فى رسالة الى أخيه توران شاه باليمن : « إن بلاد الشام لاتسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما » (٣) . فياترى من سيكون استرداد بيت المقدس على يديه

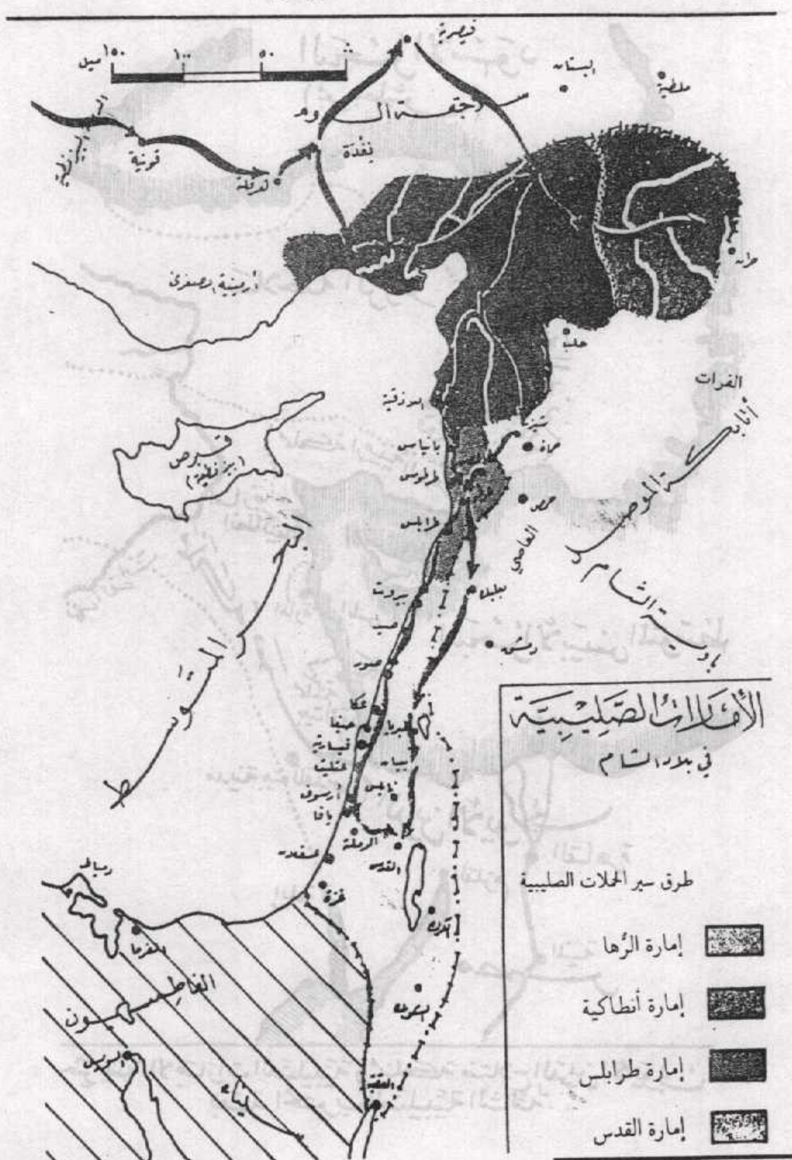
لقد استرد السلطان صلاح الدين بيت المقدس بعد أن حول الى كنيسة فمن ياترى الذى سيقيضه الله عز وجل لاسترداد بيت المقدس من أيدى الصهاينة ؟

---

(١) نقلا ن المرجع السابق ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ١١ ص ٥٣٧ ، وعن فتح بيت والمزيد من المعلومات يراجع المصدر السابق جـ١١ ص ٥٤٦ ومابعدها .

(٢) انظر المقريزى : السلوك ... جـ ١ ص ٩٦ .

(٣) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١٨٣ .

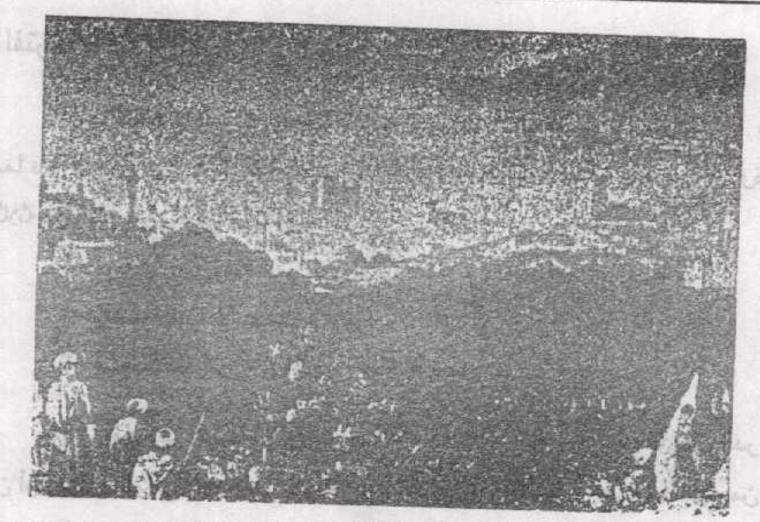


(*) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الاندلس – صقلية – الشام ص ٢٧٥

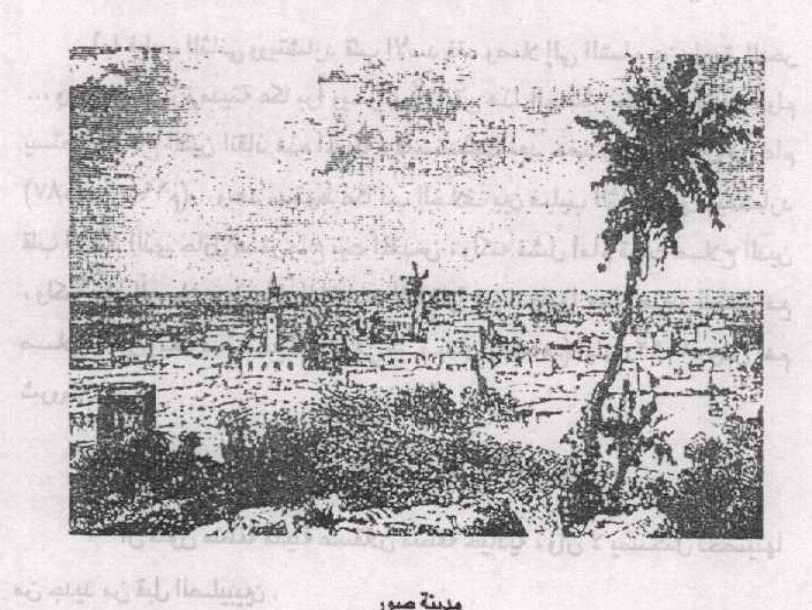


خريطة الامارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي بعد الحرب الصليبية الثالثة.

(*) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الاندلس - صقلية - الشام ص ٢٧٦



مدينة بيروت



مدينة صور

الفترة الثالثة :

أدت انتصارات صلاح الدين الأيوبى الى ردود فعل خطيرة فى غرب أوربا ، مما دعا البابوية والملوك والأمراء للدعوة للقيام بحملة صليبية ثالثة ، وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غربى أوربا وهم :

١- فريدريك بربروسا امبراطور المانيا .

٢- رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

٣- فيليب أغسطس - أو الثانى - ملك فرنسا .

وقد دامت هذه الحملة ثلاثة سنوات (١١٨٩ - ١١٩٢م) ، وكانت مفاجأة القدر أن أول من وصل الى بلاد الشام هو فريدريك أمبراطور المانيا ، وعندما اقترب من هذه المنطقة انتشر الطاعون بجيشه ، وفتك بجنوده ، ثم لم يلبث الأمبراطور نفسه أن غرق فى نهر بالقرب من انطاكية ، ولحق به اتباعه.

أما فيليب الثانى وريتشارد قلب الأسد فقد وصلا إلى الشام عن طريق البحر .،، وبدأ بمحاصرة مدينة عكا براً وبحرا وركزا فى هذا الحصار جميع قواتهما ، ولم يستطع صلاح الدين انقاذ هذه المدينة ، فاستسلمت بعد حصار دام سنتين فى عام (٥٨٧هـ - ١١٩١م) .. وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين فيليب الثانى وبين ريتشارد قلب الأسد الذى حاول استرجاع بيت المقدس ، ولكنه فشل أمام قوات صلاح الدين ، ولكنه عاد الى بلاده على أثر الخلافات الداخلية فى انجلترا مما اضطر للصلح مع صلاح الدين ويعرف بصلح الرملة في شعبان (٥٨٨هـ) أيلول ١١٩٢م ومن أهم شروطه :

١- احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية من عكا الى يافا .

٢- أن تكون منطقة مدينة عسقلان منطقة حيادية ، وأن لا يستكمل تحصينها من جديد من قبل الصليبيين .

٣- تبقى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الإسلامى على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج اليها .

٤- يسيطر المسلمون على منطقة ساحلية على البحر الأبيض المتوسط تشمل صيدا - بيروت (١) .

واعتبرت هذه الحملة فاشلة فى نظر البابا ، لأنها لم تحقق الغرض الذى جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس ، ورحل رتشارد الى بلاده فى أكتوبر سنة ١١٩٢م ، ولأول مرة يظهر مبدأ التعايش السلمى بين المسلمين والصليبيين ، ولكن لم تنته بعد الحملات الصليبية .

الحملة الصليبية الرابعة :

كان المقرر لها ان تتجه الى مصر ، ولكنها غيرت وجهتها الى القسطنطينية عام ١٢٠٤م للانتقام من ملكها الاكسيوس الثالث .

الحملة الصليبية الخامسة :

هى الحملة التى قام بها الملك السابق لاسترداد بيت المقدس ، ولكنه توجه نحو مصر فبدأ باحتلال دمياط عام ١٢١٨م ، ولحرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة العسكرية الهامة بيد أن هذه الحملة منيت بالفشل بعد مقاومة السلطان الكامل ناصر الدين محمد (١) .

الحملة الصليبية السادسة :

خرج بها الأمبراطور فريدريك الثانى من صقلية الى فلسطين عام ٦١٨هـ - ١٢٢١م فى عهد السلطان الكامل محمد .

---

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(١) راجع المقريزى : السلوك : ١/١٩٤ - ٢٠٩ ، والحملة الخامسة : حملة دى برين على مصر (٦١٥-٦١٨هـ=١٢١٨ - ١٢٢١م)

الحملة الصليبية السابعة :

هى الحملة التى تولى قيادتها لويس التاسع ملك فرنسا على مصر سنة ١٢٤٨م (١) . واسر فى المنصورة وافتدى نفسه .

استمرار الصراع بين المسلمين والصليبين :

استمر الصراع بين المسلين والصليبين فى بلاد الشام فى عهد دولة المماليك أيضاً ، لاسيما فى عهود الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون ، وابنيه الاشرف خليل ، والناصر محمد ، وبعد سقوط عكا آخر معقل صليبى فى بلاد الشام عام ١٢٩١ م ، انتقل الصراع بين المسلمين والصليبيين الى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وعلى رأسها جزيرة قبرص التى صارت مركزا للعدوان الصليبى على سواحل المسلمين وتجارتهم فى مصر والشام ، وانتهى الصراع بين المسلمين والصليبيين باحتلال المسلمين لجزيرة قبرص فى عهد السلطان الأشرف برسباى عام ١٤٢٦م ، ويرى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط دولة المماليك فى مصر والشام بل استمرت هذه الحروب بين الصليبيين ، والاتراك العثمانيين (٢) .

ومازال الصراع مستمرا فى العصر الحديث و، ولكنه اتخذ طريقا آخر : طريق المكر والوقيعة طريق الغزو الفكرى ليجعل بعض العقول المنتسبة للإسلام تخضع لمتطلباته وتسير فى فلكه وغاياته وسوف أفرد لموضوع الغزو الفكرى دراسة خاصة بإذن الله تعالى .

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٨٥ .

(٢) فى عام ١٩١٨ وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى التى انهزمت فيها الدولة العثمانية وحلفائها دخل الجنرال (عورو) الى دمشق ووقف على قبر السلطان صلاح الدين الأيوبى وقال : هاقد جئناك صلاح الدين . .. اليوم انتهت الحروب الصليبية ، انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ١٨٥ هامش ٢ .

النتائج الثقافية

هدف هذه الدراسة التوصل الى النتائج الحضارية والثقافية ، فقد كانت العلاقات الحضارية والتمازج الثقافى والعملى بين المسلمين والنصارى فى اسبانيا وصقلية أكثر أهمية وعمقا مما كانت عليه فى بلاد الشام ، ويرجع سبب ذلك الى أن اسبانيا وصقلية شهدتا نشوء حواضر ومراكز علمية وحضارية أكثر مما شهدته بلاد الشام .

ومع ذلك فقد شهدت بلاد الشام مؤثرات وعلاقات متبادلة بين المسيحين والمسلمين (١) والسبب إقامة الصليبيين فى المنطقة لمدة مئتى سنة ، وهذه المدة كفيلة بأن تؤدى الى نوع من التمازج البشرى والفكرى والعلمى ، والاقتصادى والاجتماعى والمعمارى والطبى ، ... ومما ساعد على توثيق العلاقات بين الجانبين أيضاً أن المستعمرات الصليبية كانت قائمة وسط إمارات إسلامية فى بلاد الشام مثل : حلب وحمص وحماه ودمشق ، وقد سهل ذلك اتصال الصليبيين بالمسلمين والقدرة على فهمهم عن كثب ودراية ومحو الصورة غير الصحيحة التى أخذوها عن المسلمين قبل مجيئهم الى المنطقة (٢) .

---

(١) راجع د. جوزيف نسيم : دراسات فى العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٢٨ - ١٥٤ .

(٢) انظر د. أحمد مختار العبادى : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١١٩ - ١٢٩ .

يقول ارنست باركر : إنه ينبغى أن ننظر الى الحروب الصليبية على أنها فصل من فصول تاريخ المدنية فى الغرب ، لا على أنها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية فى الشرق ، وأضاف بأن الغرب اتصل بالشرق ، أو بالأحرى اتصل بشئ يخالفه ويغايره ، غير أنه فى أحوال كثيرة يسمو عليه ، بل أنه لأسمى منه وأعلى ، وبينما نشأ عن الحروب الصليبية روح جديدة اشتهرت بالتسامح والقدرة على الموازنة والتقدير ، فما نجم عن الحروب الصليبية من المعرفة والخبرة الجديدة هيأ مادة جديدة للتفكير العلمى والخيال الشاعرى فى آن واحد (١) . وما قدمناه من دراسة كفيل بالرد على باركر فيما ذهب اليه من قول .

(١) ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٤٣ ، ١٥٠ ، وانظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٨٧ .

اثر الحروب الصليبية

أظهـرت الاتصـالات بين العـالم الإسـلامى من جـهـة ، وبين العـالم الأوربى المسيحى من جهة أخرى ، على إثر الحروب الصليبية ، نتائج طيبة ومثمرة على العالم الأوربى ، فالأوربيون الذين جاءوا الى البلاد الإسلامية فى موجات متلاحقة ، ولغت فى سفك الدماء ، وخاضت فى دماء الأبرياء بدون رحمة أو شفقة ، حتى إذا جوبهت بالجند المسلمين رأت سيوفا معلمة ، وقلوبا مؤدبة ، ونفوسا رحيمة ، تسير برجولة وخلق وحق ، ليست من رسالتها الاستعباد والقهر والظلم .. ، وإنما رسالتهم تطهير البلاد من البغى والجور والعنت وسفك الدماء ، ومنع السجود لغير الله تبارك وتعالى ، واتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه .

فرأى الصليبيون صورة مختلفة عما هم عليه رأوا المساواة والعدل والإخاء ، فـثـاروا على نظام الأقطاع .. وامـتـهـان الانسـان عندهم وأنكروا تسلط الكنيسـة وجبروتها ، ونقلوا الكثير من الصناعات والنباتات ، والعقاقير ، والأصباغ وفن العمارة والهندسة ، وبناء الحصون والقلاع ، كما انتقلت كثير من التقاليد الإسلامية فى الملبس ، والمأكل وفى الأسـرة الى أوربا ، ورجع الصليبيون ، وكأن صـعـقـة كـهربائية أيقظتهم على سوء حالهم وجهالة فكرهم ، وضآلة شخصيتهم داخل مجتمعاتهم ، فانتفضوا يبحثون عن العلم والمعرفة ويبغون الاصلاح الاجتماعى ، والتقدم الفكرى والصناعى والثقافى [1] ، فلم يجدوا ضالتهم المنشودة إلا فى معاهد الاندلس العامرة بالعلم والعلماء ، فذهبوا ينهلون من علومها ، ويتعلمون من فنونها ، ويتتلمذون على أساتذتها المسلمين .

---

(١) انظر د. توفيق يوسف الواعى : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٥٢ .

إن الراهب الفرنسى « جربرت » ترك بلاده وقصد الاندلس ، ليزداد من مناهل العلم العربى الإسلامى بها ، واستوطن (اشبيلية) وتسمى الآن - اكوادور - حتى ارتوى ، ثم تركها الى (قرطبة) وتسمى الآن - سيليفيا - فاكتمل له التحصيل ، ومنها رحل الى روما ، حيث علا شأنه ، وارتقى منصب البابوية باسم (سلفستر الثانى) عام ٩٩٩م ، وتبعه كثير من أمثالة الرهبان الذين عنوا بالثقافة العربية ، وطبع مؤلفاتها وترجمة كتبها في الفلسفة وعلوم الطبيعة : وقد اشتهر منهم راهب المانى يدعى (البير الكبير) ، وكان استاذا للفلسفة واللاهوت بجامعتى : باريس وكولونيا ، وقد تثقف العربية ودرس مؤلفات : ابن سينا والغزالى والفارابى ، وألف فى الفلسفة كتابه الضخم : (مآثر العرب) الذى يعد مفتاحا لمعرفة الغرب فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

ومنهم الراهب الانجليزى (روجر بيكون) (١) الذى أوصى قومه بتعلم العربية ، وأكب على دراسة مؤلفات ابن الهيثم (٢) .

---

(١) اشتهر بالمنهج التجريبى الذى أخذه عن المسلمين فى الاندلس يقول بريفولت فى كتابه « بناء الانسانية » .

« إن روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد ، على خلفاء معلميه العرب فى الاندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه - فرنسيس بيكون - الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجربى ، فلم يكن روجر بيكون الا رسول من رسل العلم والمنهج الإسلاميين الى أوربا المسيحية » ، راجع الإسلام ومشكلات الحضارة للأستاذ سيد قطب ص ٣٥ .

(٢) انظر أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٦ ، هامش ١ .

المؤثرات الثقافية

تقدم أن الصليبيين أقاموا لفترة تقارب مئتى سنة فى بلاد الشام ، وهذه الاقامة أدت الى التبادل الثقافى مع المسلمين وقد استفاد الصليبيون كثيرا من الطب العربى المعمول به فى المنطقة ، والواقع فإن طبيعة الاتصال البشرى أدت الى تعرف الافرنج الى علوم العرب ، وتعرف العرب على العادات والتقاليد الطبية عند الفرنجة .

أما فيما يختص بالمؤثرات الثقافية ، فقد بدأ الفرنجة يتعلمون اللغة العربية ويستخدمونها أحيانا فى علاقاتهم مع الإمارات الإسلامية المحيطة بهم ، كما ان المسلمين تعلموا اللغات الافرنجية سواء الفرنسية أو الألمانية ، أو الإيطالية (١) .

فنجد ان الأصفهانى (٢) استخدم بعض العبارات الأجنبية ومنها تركبولى ، وسرجندى ، وبارونى ، واسبتارى ، وفريرى كما استخدم فى صفحات أخرى (ص ٤٦٠) عبارة براكيس وهو مأخوذ من الكلمة الايطالية Barcoso وتعنى السفينة.

كما استخدم أسامة بن منقذ فى كتابه «الاعتبار» عدة كلمات غير عربية بل افرنجية كان الفرنجة يستخدمونها مثل « سرجنت » (Sergeant) .. قال عن أحدهم : « فوقف وكان سرجنديا .. » ، واستخدم اسامة كلمة « تركبول » (Turcopole) حينما تحدث عن صاحب طرابلس وعن جنده فاستخدم هذه الكلمة ، وتعنى هم جند فى خدمة الفرنجة آباؤهم من العرب ، أو الاتراك وأمهاتهم من اليونان أو العكس ، وقال إن صاحب طرابلس خرج « فى ثلاثمائة فارس ومائتى تركبولى وهم رماة الفرنجة » ، كما استعمل اسامة بن منقذ كلمة البرنس (prince) عندما

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٢٧ .

(٢) فى كتابة : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٤٠٣ نقلا عن المرجع السابق .

تحدث عن « صاحب البيت المقدس بغدوين البرونس » .. كما استعمل كلمة « الفيكونت» (viscount) عندما تحدث عن محاكمات الفرنجة بقوله « فجاء البسكند وهو شحنة البلد .. » بالاضافة إلى ذلك فقد استخدم اسامة بن منقذ فى كتابة عبارة « بور جوازى » (Bourgeoisie) ، فعندما حاولت إحدى النساء اتهام اسامة بقتل اخيها فما كان من أحد الفرنجة إلا أن دافع عن أسامة ، وقل للمرأة : « هذا رجل برجاسى لايقاتل ولا يحضر القتال ... » كما أن اسامة استخدم عدة تعابير يونانية منها : «سقلاطون » وتعنى الثياب الكتانية الموشاة ، وكلمة « قنطارية » وتعنى الرمح وكلمة «زربول » أو « زربولة » وتعنى الحذاء (١) .

وبالرغم من تأثر أهل الشام باللغات الأجنبية التى استخدمها الصليبيون لاسيما الفرنسية غير أن تأثير اللغة العربية فى الفرنجة كان اشمل وأكثر اتساعا نظرا لقلة الصليبيين إذا ماقيسوا بعدد سكان المنطقة ، ثم بسبب مصالحهم التجارية والسياسية رأوا أنه من الأجدى تعلم واستخدام اللغة العربية ، وقد دخل الى اللغات الأوروبية أكثر من ألف كلمة عربية (٢) .

وقد اشار ابن جبير الى استخدام الفرنجة ومعرفتهم للغة العربية ، عندما تحدث عن موظفى الديوان (الجمرك) فى عكا ، فقال عن خان عكا التجارى ومصاطبه : « فيها كتاب الديوان من النصارى ..... وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها »(٣) .

بالاضافة الى ان المولدين وسادة الاقطاعات قد اتقنوا اللغة العربية ، وذلك للتفاهم والتعامل مع اتباعهم المحليين ولادارة البلاد ، وممن تعلم اللغة العربية واطلع

(١) انظر : اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار صفحات : ٥١ ، ٧٥ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٤١ .
(٢) د. سعيد محمود عمران العلاقات بين السرف والغرب ص ٢٥٥ .
(٣) ابن جبير : الرحلة : ص ٢١١ .

على تاريخ العربية « رينو الصيدانى » الذى حرص على الاتيان بمترجم وقارئ عربى يفهمه ويفسر له بعض الأمور (١) .

إضف الى ذلك فإن أحد مبعوثى فريدرك الثانى الى الملك الكامل كان يتقن العربيـة ، وكان هذا المبعوث هـو المسمى « إيفز » البـريطانى ، وكان يعـرف اللسـان العربى » (٢) ، كمـا ان الملك « بلدوين الثالث » والملك « امدريكا لأول » شـغـفـا بالآداب العربية واهتم سيد صيدا « ريناك » بالعلوم الإسلامية .

والحقيقة فإن عصر الحروب الصليبية قد انجب أيضـاً نـخبة من المؤرخين المعاصرين لهذه الحروب سواء من الشرقيين أو الغربيين .. فمن بين المؤرخين الفرنجة « فـوشيـه دو شـارتر» صـاحب كتـاب (Histora Hierosolimirana) وصـف فـيـه تاريخ مملكة القدس الى سنة ١١٥٧م ، وكذلك ترك مؤرخ فرنسى تاريخا عن الحروب الصليبيـة يعـرف باسـم النورمـاندى ، ومن المؤرخين الفـرنجـة أيضـاً غليـون (وليم) الصـورى له كتـاب بعنوان « تاريخ فيمـا وراء البـحـار » ، وهو (٣٣) مجلدا تناول فيه الأحداث الى سنة ١١٨٣م ، وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية أهم مرجع لتاريخ الحروب الصليبية ، بالاضافة الى تاريخ الفرنجة فى بلاد الشام ، وألف غليوم الصورى أيضـاً كتابا عن تاريخ الأمراء المسلمين منذ ظهور النبى ﷺ ، وظهر من المؤرخين الفرنجة المعـاصـرين غليـوم الطرابلسى الذى كـتب فى تاريخ الحـروب الصليبية كما ترك كتابا فى «حالة العرب» وذلك سنة ١٢٧٣م ، كما ظهرت مؤلفات أخرى عالجت الحمـلات الصليبية منها ما ألف باللغة اللاتينية لبعض الكتاب الانجليز، كمـا ظهرت قصـائد حول الحروب الصليبية باللغة الفرنسـية القديمة « لامبراوز »

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) مذكرات جوا نفيل ص ١٦٨ ، ١٨٠ وللمزيد من التفصيلات يراجع د. عمر تدمرى : الحياة الثقافية فى طرابلس الشام خلال العصور الوسطى ص ٢٠٠ .

بعنوان : « تاريخ الحرب المقدسة » ، كما وجدت مؤلفات باللغة الالمانية تصف حملة بربروسة الصليبية ، كما ترك بعض الجنود الصليبيين بعض المذكرات واليوميات الخاصة بهم عن الحروب الصليبية (١) .

أما الحملة الصليبية الخامسة :

فقد استفيد من رسائل الكاردينال « جميس فيترى » وتاريخ دمياط الذى ألفه « أوليفر بادينورن » الذى كان كاتبا للكاردينال ببلاجيوس ، كما ان المراسلات والتقارير البابوية القائمة بين البابوات وزعماء الطوائف والملوك والأمراء من المصادر الهامة ، كما أن الحروب الصليبية خلفت مجموعة من المؤلفات الدستورية المهتمة بالأجراءات القانونية والتجارية والمحاكمات وطبيعة العلاقات التشريعية القائمة بين بلاد الشام وأوربة (٢) .

كما وجدت بعض المصادر الأرمنية التى اهتمت بالتأريخ للحروب الصليبية ، ومنها كتاب الأمير الأرمنى هايتون (هيثونم كوريكوس) الذى ألفه باللغة الفرنسية بعد التجائه الى فرنسا فى أوائل القرن الرابع عشر (٣) .

كما كتب ابن العبرى باللغتين السريانية والعبرية ، وهو يعتبر من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن فترة القرن الثالث عشر (١٢٦٦ - ١٢٨٦) ووجدت مصادر فارسية اهتمت بالحقبة الصليبية والمغولية والسلجوقية ، ومن مؤرخى تلك الحقبة ابن بيبى الذى أرخ لسلاجقة الروم ، وتاريخ رشيد الدين عن المغول (٤) .

---

(١) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٣١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٢ .
(٤) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ٢٣٢ .

كما أظهرت الحروب الصليبية عددا من المؤرخين الشرقيين ، ومنهم على سبيل المثال : أسامة بن منقذ ، ابن جبير ، ابن الأثير ، ابن شداد ، وابن واصل ، ابن الفرات ، ابن العميد القبطى ، ابن عساكر ، أبو شامة ، القلقشندى ، محمد بن على ابن نظيف (صاحب التاريخ المنصورى) والمقريزى وغيرهم ، وقد عكف المؤرخون الأوربيون فى العصر الحديث على جمع المواد الوفيرة من هذه المراجع الغربية والشرقية ، وذلك فى موسوعة علمية تحت عنوان : « مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية» .

وهى تنقسم الى قسمين :

قسم يضم ماكتبه المؤرخون الشرقيون فى خمسة مجلدات .

وقسم أخر يضم ماكتبه المؤرخون الغربيون فى خمسة مجلدات أخرى (١) .

تأثر أوربا بعلوم الرياضيات فى الشرق الإسلامى :

يقول أرنست باركر أنه بالرغم من أن أقوى ماتأثرت به أوربا إنما جاء من المسلمين بإسبانيا بيد أنها تأثرت أيضاً بما جاء من المسلمين فى الشرق ، فالمعروف ان أول عالم مسيحى فى الجبر هو ليوناردو فيبوناتشى الذى ارتحل الى بلاد الشام (سوريا) ومصر ، وبدأ في دراسة اللغات الشرقية ، لارتباطها بالبعثات التبشيرية فى الشرق . كما أن المبشر الدؤوب ريموندل حث مجمع فينا سنة ١٣١١ على اتخاذ قرار بإنشاء ست مدارس للغات الشرقية فى أوربا ، وبالاضافة الى هذه المؤثرات العلمية هناك المؤثرات الأدبية ، إذ توافر الكثير من القصائد الجديدة التى عالجت الحروب

(١) للمزيد من التفصيل عن مؤرخى ومصادر ووثائق الحروب الصليبية يراجع : أرنست باكر : الحروب الصليبية ص ١٨٥ - ٢٠٤ ، ود. جمال الدين الشيال : التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوربى ص ٦٨ ، ٧٦ .

الصليبية ، إما عن طريق الرواية كالتى اشتهرت بها قصيدة امبرواز التى تروى تاريخ الحملة الصليبية الثالثة وإما فى روح شاعرية حرة ، كالتى انبعثت من قصيدة انطاكية(١) .

وبالاضافة الى المؤثرات السابقة فقد شهدت الفترة الصليبية نتاجا من الفكر الجغرافى ، كما اقيمت المؤسسات العلمية لاسيما المدارس ، سواء الصليبية أو الإسلامية ، كما شهدت الفترة ذاتها مدارس مختلطة ضمت ابناء من المسلمين والصليبيين ومن المولدين ، وقد قام هذا الجيل بدور نشط فى نقل التراثين الغربى والشرقى ، : كما كان له دور بارز فى الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية ، وفى الإمارات الإسلامية فى تلك الفترة شهدت مدارس مختلفة المناهج خصص معظمها لتدريس فقه مذهب واحد من المذاهب الاربعة : الحنفى والملكى والشافعى والحنبلى ، وكانت أكثر المدارس فى بلاد الشام للحنفية ، ثم للشافعية ، ثم الحنابلة فالمالكية ، وأنشئت فى دمشق وحلب كما فى القاهرة مدارس خاصة بالطب (٢) ، كما كان الطب يدرس الي جانب مواد أخرى فى بعض المدارس لقد بدأت ثقافة الإسلام بهذه المدارس تنتشر ، وأثرها يتضح ، وكان من بين المدارس « المدرسة النورية » التى أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٣ هـ . وقد زار هذه المدرسة ابن جبير بعد عودته من الحج ومما ذكره عن هذه المدرسة : « وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، ومن أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ،

---

(١) راجع أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) يعد ابن العبرى (ت٦٨٥هـ - ١٢٨٦م) من اشهر المؤرخين والأطباء فى ملطية واشتهر بكتابه : «تاريخ مختصر الدول» ، ومن أطباء ملطية أيضاً : أبو سالم اليعقوبى الملطى المعروف بابن كرابا ، ولمزيد من المعلومات يراجع د. علية عبد السميع الجنزورى : الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى ص ١٧٨ - ١٨٢ .

وبها قبره نوّره الله ، وهى قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء فى شاذروان وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء فى ساقية مستطيلة الى ان يقع فى صهريج كبير وسط الدار ، فتحار الابصار فى حسن ذلك المنظر ، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمة الله تعالى »(١) .

كانت بلاد الشام حينذاك تعج بالعلماء وطلاب العلم ، فكانت مقصد الطلاب ومنتجع القصاد من كل جنس ، اكد هذا الرحالة ابن جبير ، ومن ثم طلب من أبناء وطنه المغاربة طلب العلم من الشام قائلا لهم « « فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل الى هذه البلاد ، ويتغرب فى طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة : فأولها فراغ البال من أمر العيشة – وهو أكبر الأعوان وأهمها – فإذا كانت الهمة ، فقد وجد السبيل الى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر ، إلا من يدين بالعجز والتسويف ، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه ، وإنما المخاطب كل ذى همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده فى وطنه من الطلب العلمى . فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ... »(٢) .

وإليك اسماء بعض المدارس الشامية التى كان منها وبالذات الدمشقية مدارس: الصادرية ، النورية الكبرى ، العزيزية ، القليجية ، الأمينية ، التقوية ، العادلية ، الشامية البرانية ، العذاروية ، الشريفية ، العمرية ، الصلاحية ، الاشرفية ، الوجيهية ، ومن مدارس الطب المدرسة الدخوارية ، وكانت فى الأصل دارا للطبيب عبد الرحيم بن على الدخوار ، وقفها لتكون مدرسة للطب ، ووقف عليه ضياعا وأماكن عدة ، يستغل منها ماينفق فى مصالحها وفى راتب المدرس ورواتب المشتغلين فيها ، وكان أول طبيب درس فيها هو واقفها نفسه عبد الرحيم الدخوار الذى صنف

(١) الرحالة ابن جبير ص ١٩٨ .

(٢) الرحالة ابن جبير « الرحلة » ص ١٩٨ .

كتبا عدة فى الصناعة الطبية (ت ٨٢٨هـ) كما كنت هناك مدارس أخرى فى حلب وحماه وحمص وحران والقدس(١) .

وقد رأى ابن جبير بعض هذه المدارس ، وتحدث عنها ، ومما ذكره عن مدارس حلب حينما زارها عام ٤٨٠هـ وصفه « مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنا .. وهذه المدرسة من أفضل ماشاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة .. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع أو خمس ولها مارستان .. »(٢) .. لقد كانت النهضة الثقافية والعالمية منتشرة وماثلة للعيان فى بلاد الشام .

ومما تجدر الإشارة اليه ان فى فترات السلم فى الحروب الصليبية كانت تشهد ولادة الكثير من العلماء ، ليس فى ميدان : الفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا فحسب ، وإنما ايضاً فى مجالات الرياضيات ، والفلك والكيمياء وبقية العلوم . ففى الرياضيات مثلا ألف على بن خليفة لصاحب بعلبك كتابا سماه : الموجز المفيد ، كما ألف كتابا فى المساحة ، ووضع نجم الدين اللبودى (ت سنة ١٢١ هـ) . كتابا في الحساب سماه : الرسالة الكاملة ، وفى الهندسة لخص كتاب إقليدس ، كما وجد مهندسون بارعون منهم : إبراهيم بن غنائم المصرى بانى المدرسة الظاهرية فى دمشق ، أما الكيمياء ، فقد شهد عصر الحروب الصليبية رجالا كانوا يدرسونها ، يقومون بتجاربها بهدف تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب ، وقد اهتدى بعض العلماء المسلمين الي اختراعات حربية ، كذاك الاختراع الذى أحرق ابراج الفرنجة على أبواب عكا ، واشهر عالمين فى الرياضيات والكيمياء كانا من طبقة الأطباء

(١) انظر أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٦١ – ٦٩ .
وانظر خطط د : محمد كرد على جـ٦ ص ٦٦ – ١٢٩ .

(٢) نقلا عن العلاقات الحضارة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

وهما: نجم الدين بن اللبودى المولود فى حلب ، ويلمظفر نصر بن محمود ، ومن الأطباء الذين توزعوا مابين انطاكية وطرابلس والقدس : ميخائيل أسقف حلب اليعقوبى ، وتيودور الانطاكى طبيب فريدريك الثانى ، وباسيل الحلبى ، ويعقوب النسطورى الطرابلس»(١) .

لقد وجد الصليبيون الكثير من العلماء فى : الفلك والنجوم والموسيقى والطب ، وقد بات الطب الإسلامى طبا متطورا أخذ الفرنجة عنه الكثير ، ومن الأطباء المشهورين فى تلك الحقبة : مهذب الدين عبد الرحيم بن على ، الذى طبب الملك العادل من المرض الذى ألم به ، وأسعد بن إلياس ، وإبراهيم بن أبى الوحش ، وعدنان بن نصر ، وموسى بن ميمون ، وأبى الحكم المغربى نزيل دمشق ، وهناك العديد من الأطباء والصيادلة الكثير مما لايتسع المجال لذكرهم ، كما أن المؤلفات الطبية كانت عديدة متنوعة بدورها (٢) .

وقد بلغ الطب الإسلامى من التطور مادعاه للاهتمام بمداواة الحيوانات ، وهو مايعرف بالطب البيطرى ، وكانت قوانين « المملكة اللاتينية » تنظم حالة الأطباء فى الممالك الافرنجية فى البلاد المقدسة ، على غرار ما كان معمولا به فى البلاد الاسلامية ، من ذلك أنها لم تكن تسمح لأى طبيب مزاولة المهنة ، قبل أن يؤدى امتحانات تحت إشراف نقيب أطباء المملكة . وفى مجلس يرأسه الأسقف (٣) .

هذه هى الجذور العلمية والخلفية الثقافية التى أدت الي تطور الطب الإسلامى، وتأثر الفرنجة بهذا الطب تأثرا كبير فى وقت كانوا يرزحون فيه تحت

(١) انظر : أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٩٩ - ٣٠٥ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٠٧ - ٣٢٣ .

(٣) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ٢٣٦ .

قيود التقاليد والعادات والمعالجات الوهمية والماورائية ، وقد اكد اسامه بن منقذ فى كتابه : ملامح وشواهد من الطب العربى والطب الأفرنجى ، ومما قاله عن الطب الأفرنجى :

« ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه انقاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل اليه طبيبا نصرانيا يقال له : ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له ما أسرع ماداويت المرضى ، قال احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة ، وصلحت وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب افرنجى فقال لهم : هذا مايعرف شئ يداويهم ، وقال للفارس أيما أحب اليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة ، قال أحضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر - انظر - فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس إضرب رجله بالفأس ضربة واحد إقطعها فضربه ، وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت، ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته (١).

وأبصر المرأة فقال هذه أمرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل فى رأسها ، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها ، فقلت لهم : بقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا لا . فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أكن أعرفه » (٢) . هذه هى الصورة المقززة التى تقشعر لها الأبدان مما كان يجرى على أيدى الأوربيين فى العصور الوسطى .

---

(١) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ٢٣٧ ، ومن روائع حضارتنا ص ١٥٧ .
(٢) المرجعين السابقين .

وروى أسامة بن منقذ أيضاً قصة أخرى تبين مدى تأخر الطب عند الفرنجة فقال :

« ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية ، وكان مقدما فيهم، واتفق أنه رافق الأمير معين الدين رحمة الله ، من عكا الى طبرية وأنا معه ، فحدثنا فى الطريق قال : كان عندنا فى بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا : تجئ معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال: نعم ، ومشى معنا ، ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفى . فلما رآه قال : اعطونى شمعا ، فأحضرنا له قليل شمع ، فلينه وعمله مثل عقد الأصبع ، وعمل كل واحدة فى جانب أنفه ، فمات الفارس ، فقلنا له قد مات . قال : نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح !! (1) » .

ويلاحظ أن أسامه بن منقذ كان منصفا ، ففى الوقت الذى أشار فيه إلى تأخر الطب الافرنجى ، أشار فى مكان آخر واعترف بمهارة بعض أطباء الافرنج فى علاج بعض الأمراض ، ومما قاله : « وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك ، كان للملك خازن من فرسانهم ، يقال له : برناد – لعنه الله – من ألعن الأفرنج وأرجسهم فَرَمَحَه حصان فى ساقه ، فعمِّلت عليه رجله وفتحت فى أربعة عشر موضعا ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا أدعو بهلاكه ، فجاء طبيب افرنجى ، فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح، وبرأ مثل الشيطان »(2) .

ثم ذكر أسامه أسماء بعض الأطباء العرب مثل يوحنا بن بطلان من حلب «الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم فى صنعة الطب » .

(1) انظر العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ٢٣٧ .

(2) المرجع السابق ص ٢٣٨ .

والطبيب الشيخ أبو الوفاء تميم الذى عالج أسامه بن منقذ نفسه عندما ألم به مرض فى شيزر ، غير أن أطباء الملك « املريك الأول » كانوا من السوريين ، ولما عاد للاعتماد على الأطباء الأفرنج ، مرض مرضا خطيرا، ثم مالبث أن توفى (١) .

لقد أثبت أسامة بن منقذ بأن العلاقات العلمية والثقافية كانت قائمة فى بلاد الشام بين الفرنجة وبين العرب وأن المؤثرات المتبادلة بين الجانبين قد ظهرت من خلال حاجات السكان إلى أطباء من العرب أو الفرنجة بصورة عامة لم يكن طبا .. ، مع الإشارة الى أن كثيرين من الاطباء الافرنج قد تأثروا بالطب العربى وبالوصفات والكتب الطبية العربية التى أطلعوا عليها ، ومنها على سبيل المثال كتاب المالكى لعلى ابن عباس الذى ترجمه ستيفن البيزوى فى انطاكية سنة ١١٢٧م الى اللغة اللاتينية . والكتاب الآخر هو« سر الأسرار » الباحث فى طب العيون والمنسوب لأرسطو حيث ترجم من العربية الى اللاتينية فى انطاكية أيضاً سنة ١٢٤٧ (١) .

ولما تحدث ابن جبير عن مدارس دمشق ، وبيمارستاناتها (مستشفياتها) وصف ملامح من تقدم الطب العربى ، وتحدث عن أحد هذه البيمارستانات ، وكيفية معالجة المرضى فيه ومعاينة الأطباء ومداواتهم ، كما تحدث عن البيمارستانات الخاصة بالمجانين ومما قاله : « وجرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا ، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية أسماء المرضى ، وعلى النفقات التى يحتاجون اليها فى الأدوية وغير ذلك ، والأطباء يبكرون اليه فى كل يوم ، ويتفقدون المرضى ، ويأمرون بإعداد مايصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم ... وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج ، وهم فى سلاسل موثوقون وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ماكنا نسمع به .. (٢) .

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص ١٩٨ ، ويذكر د. محمد كرد على عن أحد بيمارستانات حلب فى خطط الشام : ٦ / ١٦٠ ، ١٦١ مايلى :

=

كما اشار ابن الأثير وأبو شامة فى « كتاب الروضتين » الى هذه البيمارستانات فى أيام نور الدين لاسيما بيمارستان الملك العادل الذى بناه فى دمشق « فإنه عظيم كثير الخرج بلغنى أنه لم يجعله وقفا على الفقراء فحسب ، بل على كافة المسلمين من غنى وفقير ... » وأشار الى حادثة جرت معه عندما كان مريضا فقصد ذلك البيمارستان ، ومما قاله :

« فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب ، فدللت على طبيب هذا البيمارستان ، فأتيته فيه وهو يكتب نسخا للمرضى الذين به ، سألنى عن حالتى فوصفتها له ، فكتب لى نسخة .. فقال : يا مولاى ، لا شك أنك فى غنى عن هذا ، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وإنعامه ، والله ان أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيمارستان ... ، وأنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم .. (١) » . تلك آثارنا شاهدة على حضارتنا الثقافية ، وهى تنادى المسلمين أن هبوا الى سابق مجدكم الذى بناه المسلمون من قبلكم ، لتأخذوا مكانكم مرة أخرى تحت الشمس .

=

« إن كل مجنون يخص به خادمين يخدمانه ، فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه بالماء البارد ، ثم يلبسانه ثيابا نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت ، ثم يفسحانه فى الهواء الطلق ، ويسمع فى الأخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطبية » .

(١) نقلا عن العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص ٢٣٩ . وانظر البحث القيم (المستشفيات والمعاهد الطبية) د. مصطفى السباعى فى كتابه من روائع حضارتنا من ص ١٤٣ – ١٥٧ .

النزعة الانسانية فى ثقافتنا الحربية

شن الغرب على المسلمين فى القرون الوسطى ماشتهر فى التاريخ بالحروب الصليبية ، ولقد كنا نفى ويغدرون ، ونصفح وينتقمون ، ونصون الدماء ويخوضون فيها الى الركب ، وهم يتلذذون ويطربون .

فحين وصل الصليبيون فى الحملة الثانية الى معرة النعمان حاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام ، بعد ان أخذوا من رؤساء الحملة عهودا مؤكدة بالمحافظة على النفوس والأموال والأعراض ، فما كادوا يدخلونها حتى ارتكبوا من الفظائع ماتشيب له الولدان ، وقدر بعض المؤرخين الافرنج الذين كانوا فى هذه الحملة عدد الذين قتلوهم بين رجال ونساء وأطفال بمائة الف !! ثم تابعوا سيرهم الى بيت المقدس ، وشددوا الحصار على أهلها ، ورأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة فطلبوا من قائد الحملة (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم ، فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى ويلجؤونا اليه آمنين على كل شئ ، ودخلوا المدينة بعد ذلك ، فيا لهول المجزرة ، ويالقسوة الاجرام ! .. لجأ سكان القدس الى المسجد الأقصى الذى رفعوا فوقه راية الأمان ، حتى إذا امتلاء بمن فيه من شيوخ وأطفال ونساء ذبحوا ذبح النعاج ، فسالت الدماء فى المعبد حتى ارتفعت الى ركبة الفارس ، وطهرت المدينة بذبح كل من فيها تماما ، حتى كانت شوارعها تعج بالجماجم المحطمة والاذرع والأرجل المقطعة والاجسام المشوهة ، وذكر مؤرخونا أن عدد الذين ذبحوا فى داخل المسجد الأقصى فقط سبعين ألفا ! منهم جماعة كبيرة من الأئمة والعباد والزهاد فضلا عن النساء والأطفال ، ولاينكر مؤرخو الفرنج هذه الفظائع ، وكثير منهم يتحدثون عنها فخورين (١) ! .

(١) انظر من روائع حضارتنا ص ٩٩ ، ١٠٠ .

وبعد مرور تسعين سنة من هذه المجزرة فتح صلاح الدين بيت المقدس فماذا فعل ؟ .. لقد كان فيها مايزيد على مائة ألف غربى ، لم ينتقم منهم انتقاما من آبائهم ، بل أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ، وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم ، وأعطاهم مهلة للخروج أربعين يوما ، فجلى منها أربعة وثمانون ألفا لحقوا بإخوانهم فى عكا وغيرها ، ثم أطلق كثيرا من الفقراء من غير الفدية ، وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفى رجل منهم ، وعامل النساء معاملة لاتصدر عن أرقى ملك منتصر فى العصر الحديث ، ولما أراد البطريرك الافرنجى أن يخرج و سمح له بالخروج ومعه من أموال البيع والصخرة والأقصى والقيامة مالا يعلمه إلا الله ، واقترح بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم ، فأجابه السلطان : « لا أغدر به » ولم يأخذ منه إلا ما كان يخذه من كل فرد [١] .

ومما يزيد فى روعة النزعة الانسانية لدى صلاح الدين فى فتح بيت المقدس ، أنه أرسل مع جماهير الغربيين الذين نزحوا من القدس لينضموا الى أخوانهم من يحميهم ويوصلهم الى أماكن الصليبيين فى صور وصيدا بأمان ، مع أنه لايزال فى حرب معهم ! إن الغرابة التى تندهش لها القلوب وتستولى على النفوس حين نعلم أنه اجتمع كثير من النساء اللواتى دفعن الجزية وذهبن الى السلطان يتوسلن اليه قائلات إنهن إما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أسر ، أو قتل من الفرسان والجنود ولا عائل لهن ولا مأوى ، ورآهن يبكين فبكى معهن تأثرا وشفقه ، وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهن ، وأطلق الذين وجدهم وردهم الى نسائهم ، الى غير ذلك من المواقف الرحيمة من السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى [٢] .

إن قصة صلاح الدين مع الغربيين فى الحروب الصليبية تشبه الأساطير ، ولولا أن الغربيين أنفسهم لايكاد ينتهى عجبهم فى نبل هذا البطل الخالد وسمو

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٠٠.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٠١ .

أخلاقه لكان هناك مجال لاتهام مورخينا بالمبالغة ، والغربيون أنفسهم هم الذين يذكرون عن صلاح الدين أنه بلغه مرض ريتشارد قلب الاسد - أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم - فأرسل اليه صلاح الدين طبيبه الخاص يحمل اليه العلاج والفواكه التى لايمكن ان يحصل عليها ذلك القائد الصليبى ، هذا مع أن الحرب بينهما مستمرة ، وجيشاهما فى صراع وهم الذين يذكرون أن امرأة غربية ألقت بنفسها على خيمة السلطان صلاح الدين تبكى وتولول وتشكو اليه ان اثنين من جنود جيشه خطفا لها ولدها ، فبكى صلاح الدين وأرسل من يفتش عن الولد حتى وجدوه وسلم اليها ، وأرسلت بحراسة من الجيش الى معسكرها آمنه مطمئنة ، فماذا يقول قائل بعد تلك المعاملة (١) ؟

والمزيد من المقارنة بين أخلاق الفاتحين المسلمين فى الاندلس ، وحسن معاملتهم للمغلوبين ، ورحمتهم ورعايتهم لشعورهم وبين مافعله الأسبان حين استولوا على غرناطة (آخر مملكة للإسلام فى الاندلس) ، بعد ان أعطوا المسلمين بضعا وستين عهدا باحترام ديانتهم ومساجدهم وأموالهم وأعراضهم ، ولكنهم لم يرعوا عهدا ، ولم يفوا بذمة ، ولم يعفوا عن سفك الدماء وازهاق الارواح وسلب الثروات ، فلم يكد يمضى على سقوط غرناطة اثنان وثلاثون سنة حتى أصدر البابا أمره عام ١٥٢٤م بتحول جميع مساجد اسبانيا الى كنائس ! ولم تمر بعد ذلك أربع سنوات أخرى حتى لم يبق فى اسبانيا كلها مسلم واحد ! هذا هو وفاؤهم بالعهود .. وذلك هو وفاؤنا (٢) .

نبذه عن طبع الغربيين :

قال مصطفى فالسان رومانى الأصل ، كان قنصل رومانيا فى باريس ، ثم اعتنق الإسلام ، وترك العمل الدبلوماسى :

(١) انظر المرجع السابق ص ١٠١ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٠٤ .

« إن لكل أمة خلقا تعرف به ، ومن أبرز أخلاق الغربيين النفاق فى ادعاء الرحمة ! [1] » .

لقد فقدت الحضارة الغربية الشرف والجمال ! أنها فقدت جمال الروح ، وجمال الذوق الفطرى ، وجمال الخلق [2] .

وبعد :

فلماذا نذهب بعيدا وهذه أخلاق الغربيين المستعمرين فى الحربين العالميتين وآثار قسوتهم فيها ، وها هى أخلاقهم فى الشرق العربى والإسلامى ناطقة على مدى القسوة التى تتصف بها ضمائرهم فى حروبهم وحكمهم ، وعلى مدى النفاق الذى بلغوه حين يعلنون فى المحافل الدولية إنسانيتهم ورحمتهم ، وهم فى حروبهم ومستعمراتهم والبلدان الخاضعة لحكمهم يعلنون وحشيتهم وضراوتهم .

ولئن كان بعض الناس يعتذر عن فظائع الغربيين فى القرون الوسطى بأنهم قوم لم تهذبهم المدنية بعد ، فما هو عذرهم الآن وهم أرباب الحضارة وأساتذة الدنيا في العلوم والفنون والمخترعات ؟ إن الحقيقة الماثلة أمام العيان أنها مسألة طبع أصيل يغلب كل تطبع وتصنع ، فالغربيون مايزالون يحملون فى نفوسهم وطباعهم خصائصهم يوم كانوا قبائل متوحشة وثنية ، ثم اختبأت هذه الطبائع فى القرون الوسطى وراء الدين فحملته وزر وحشيتهم ، وهى تختبئ الآن وراء الحضارة فتحمل « السلام والاستقرار » و « التمدن والتهذيب » وزر قسوتهم ، إنهم هم فى كل العصور .. سكان الأدغال ، وسفاكوا الدماء ، وعبدة القوة ، ووحوش التعصب ، فكيف يحق لهم أن يتحدثوا عن قسوتنا فى الفتوحات ورحمتهم فى الاستعمار [3] ؟ لعمر الحق مانحن وهم إلا كما قال الشاعر :

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٧ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ١٦ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ١٠٦ .

ملكنا فكان العفو مناسجية .٠. فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وماعجب هذا التفاوت بيننا .٠. فكل إناء بالذى فيه ينضح

نتائج الحروب الصليبية بين الغرب والشرق

١- كان اتصال الغرب بالشرق مدة قرنين من أقوى العوامل على نمو الحضارة فى أوربة ، وتكون الحروب الصليبية قد أدت بهذا الى نتائج غير التى نشدتها ، وليس التاريخ خاليا من الأمثلة على عدم المطابقة بين الضالة المنشودة والهدف المدرك ، بل هو حافل بهما ، حتى يكاد البصير يرى فى ذلك قاعدة مطردة .

٢- وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق فى الغرب وجب عليه أن يتمثل حال الحضارة التى كانت عليها شعوبهما المتقابلة ، فاما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل المسلمين ، وأما الغرب فكان غارقا فى بحر من الهمجية .

٣- لم يكن عند أولئك البرابرة مايفيد الشرق ، ولم ينتفع الشرق منهم بشئ فى الحقيقة ، ولم تكن للحروب الصليبية عند أهل الشرق من النتائج سوى بذرها فى قلوبهم الازدراء للغربيين على مر الاجيال ، ولم ينشأ عن جهالة الصليبيين وغلظتهم وتوحشهم وسوء نيتهم غير حمل الشرقيين أسود الأفكار عن نصارى أوربة وعن النصرانية .

٤- كما نشأ عنها ، أيضاً ، زيادة سلطة البابوات الذين كانوا رؤساء عالين للصليبيين وزيادة سلطة رجال الدين الذين اغتنوا بأرضين اضطر السنيورات الى بيعها منهم ليقوموا بنفقات الغزو ، وقد نجم عن نمو سلطة أولئك واغتناء هؤلاء أن رغب البابوات فى السيطرة على الشعوب والملوك وان عم فساد الأكليروس ، فأدى

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

هذا الفساد بعد زمن الى الإصلاح الدينى وماقاسته أوربه بسببه من المنازعات الدامية (١) .

٥- كان من أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون، بما صبغته بمالم تعرفه ديانة ، خلا اليهودية ، بصبغة القسوة والجور ، أجل ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشئ الكثير من عدم التسامح ولكنه ندر أن كان عدم التسامح هذا يصل الي حد الجَلَف والطغيان ، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغا من الحُميّا الشديدة فى الحروب الصليبية مالايزال العالم يقاسى أثره الى زماننا تقريبا ، فلم يلبث رجال الدين الذين تعودوا سفك الدماء أن صاروا ينشرون المعتقد ويبيدون اصحاب البدع على الطريقة التى كانوا يبيدون بها الكافرين ، ويرون أنه يجب إخماد أقل انحراف بأفظع تعذيب ، ومن نتائج مانمـا فى الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشؤومة ما حدث من ذبح اليهود والألبيجوا وكل ذى بدعة ومن انشاء محاكم التفتيش ومن الحروب الدينية ومن الحروب الوحشية التى ضرجت أوربة بالدماء زمنا طويلا (١) .

من نتائج الحروب الصليبية النافعة .

١- كان من النتائج السياسية التى نشأت عن الحروب الصليبية أن تضعضع النظام الاقطاعى فى فرنسة وايطالية على الاقل ، وذلك أن السنيورات لم يخسروا كثيرا من اراضيهم التي باعوها لينفقوا على ماجهزوه من الحملات فقط ، بل باعوا أيضاً ماكانت تصبو اليه المدن من الحرية والامتيازات ، فصارت هذه المدن دويلات مستقلة ضمن دول الأقطاع تابعة للملك وحده (٢) .

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

٢- تقلص النظام الإقطاعى ، ولم يتقلص هذا النظام بفعل الحروب الصليبية الا فى فرنسة وايطالية فقط أما فى انكلترة والمانية فلم يحدث لهما تغيير لعدم اشتراك سنيوراتهما فى الحروب الصليبية الأولى الاقليلا ، وصاروا رقباء على ملوكهما الذين تورطوا فيها كثيرا ، فاستفادوا من ذلك فقيدوا سلطة هؤلاء الملوك ، ونحن إذا أمعنا النظر فيما نشأ عن سير الحوادث من النتائج البعيدة بدا لنا أن أصول دستور إنكلترة السياسى المتين ترجع الى حوادث الحروب الصليبية .

٣- وفى مجل التجارة : لم يقف نموها بعد طرد الصليبيين من آسية ، فقد عقد أكثر جمهوريات ايطالية وأمراء المسلمين معاهدات تجارية ، وكانت صلات البندقية التجارية الوثيقة بالمشرق سبب عظمتها ، واطرد تقدم هذه التجارة مع الزمن الى أن اكتشفت طرق بحرية جديدة ، فانتقل زمامها الى أيد أخرى .

٤- وفى مجال الصناعة والفنون : لم يكن تأثير الحروب الصليبية فى الصناعة والفنون أقل من ذلك ، فقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة انظار السنيورات الصليبيين مع جلفهم ، فوجدوا فى التجارة وسيلة تقليدها ، فنرى أقتباس نفائس الشرق فى أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه فى القرن الثانى عشر ، والقرن الثالث عشر على الخصوص (١) .

٥- وكلما نمت النفائس أدات الى تقدم الصناعة بحكم الضرورة ، وتبحث الصناعة عن المنتجات التى تطلبها التجارة منها بطبيعة الحال فتحفزها الضرورة الى القيام بذلك من فورها .

وإذا كانت صنائع الخشب والمعادن والميناء والزجاج تتطلب معارف كثيرة فقد أقتبسها الأوربيون من آسية مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية ، وعم أمرها

(١) انظر حضارة العرب ص ٣٣٦ .

بذلك فى أوربة فعن صور أخذت البندقية نماذج صناعة الزجاج ، وعن المسلمين أخذت أوربة صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة ، وعن سورية أخذ عمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين ماكانوا يجهلون من المعارف الصناعية ، وذلك فى أثناء إقامتهم الطويلة بها ولكن أحفادهم يتجاهلون .

٦- كما كان تأثير فنون الشرق فى الغرب عظيما أيضاً ، فقد نشأ عن إيلاف الصليبيين ضروب منتجات الشرق الممتد من القسطنطينية الى مصر تهذيب أذواقهم الغليظة ، ولم يلبث فن العمارة أن تحول فى أوربة تحولا تاما ، ولا يصعب علينا ، والحالة هذه أن نثبت قوة تأثير حضارة العرب في أطواره الأولى لدى الغرب (١) .

٧- والحقيقة أنه ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق في تمدين الغرب كان عظيما جدا بفعل الحروب الصليبية ، وأن ذلك التأثير كان فى الفنون والصناعات والتجارة أشد منه فى العلوم الآداب ، وإذا ما نظرنا الى تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق والى ماينشأ عن تحاك الصليبيين والشرقيين من النمو فى الفنون والصناعة تجلى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علومهم وآدابهم التى أخذت جامعات أوربة تعول عليها فانبثق عصر النهضة (٢) . ووصلت أوربا الى ماوصلت اليه اليوم .

---

(١) انظر حضارة العرب ص٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٩ .

من حضارة الإسلام الرفق بالحيوان

نحن المسلمين لسنا رحماء فى الحروب وحدها ، بل إننا رحماء حتى بالحيوان الأعجم أيضاً .

فالرفق بالحيوان ومداواته لدى الإسلام والمسلمين موضوع يتسم بالطرافة الممزوجة بالعناية الصحية فى واقع حضارتنا الثقافية .

لقد كانت الانسانية حتى العصر الحديث لا ترى للحيوان حقا من الرفق ، أو حظا من الرحمة ، ولاتزال بعض الأمم المعاصرة تتلهى بقتله أو تعذيبه فى أعيادها ، ومجال أفراحها ورياضتها ، أما حضارة الإسلام الثقافية ففى مبادئها الرحمة والشعور الانسانى المرهف بالنسبة للحيوان والرفق والرحمة به رحمة تلفت النظر وتدعو الى الدهشة والعجب واليكم بعض الحديث عن هذا الموضوع .

أول ماتعلنه مبادئ حضارتنا الثقافية فى مجال الرفق بالحيوان أن تقرر فى يقين بأن عالم الحيوان كعالم الانسان له خصائصه وطبائعه « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم »(1) . فله حق الرفق والرحمة كالأنسان : « الراحمون يرحمهم الرحمن »(2) . « من أعطى الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة » . بل إن الرحمة قد تدخل صاحبها الجنة « بينما رجل يمشى بطريق إذا اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا فنزل فيها ، فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من

---

(1) الانعام : ٣٨ .

(2) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم .

العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له ، قالوا يارسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا ؟ فقال : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » (١) .

كما أن القسوة على الحيوان تدخل النار : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من حشاش الأرض » (٢) . وتمضى شريعة الإسلام الغراء ، فتحرم المكث طويلا على ظهر الحيوان وهو واقف ، فقد قال ﷺ : «لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسى » (٣) . كما تحرم إجاعته وتعريضه للضعف والهزال، فقد مر ﷺ ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال : « اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة ، فاركبوها صالحة ، وكلوها صالحة » (٤) .

كما تحرم ارهاق الحيوان بالعمل فوق طاقته ، دخل رسول الله ﷺ بستانا لرجل من الانصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبى ﷺ حن وذرفت عيناه ، فأتاه رسول ﷺ فمسح دموعه ثم قال من صاحب هذا الجمل ؟ فقال صاحبه : أنا يارسول الله ، فقال له ﷺ : « أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ، فإنه شكا إلى أنك تجيعه وتدئبه» (٥) .

كما تحرم الشريعة الغراء التلهى بالحيوان فى الصيد : « من قتل عصفورا عبثا عج الى الله يوم القيامة يقول يارب إن فلانا قتلنى عبثا ولم يقتلنى منفعة» (٦).

(١) أخرجه الشيخان والأئمة مالك و أحمد أبو داود .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) رواه الإمام أحمد والحاكم .

(٤) رواه أبو داود وابن حبان .

(٥) رواه الإمام أحمد ومعنى « تدئبه » أى تتعبه بكثرة العمل .

(٦) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحيهما .

كما نهى عن اتخاذه هدفا للتعليم والتدريب فقد « لعن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا »(١) .

كما تنهى عن التحريش بين الحيوانات ، ووسمها فى وجوهها بالكى بالنار (أى كيها لتعلم من بين الحيوانات الأخرى) فقد « مر النبى ﷺ على حمار قد وسم فى وجهه ، فقال لعن الله الذى وسمه »(٢) فإذا كان الحيوان مما يؤكل حثت الرحمة أن تحد الشفرة ، ويسقى الماء ، ويراح بعد الذبح قبل السلخ : « إن الله كتب الإحسان على كل شئ ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »(٣) .

وعندما أضجع رجل شاة للذبح وهو يحد شفرته ، فقال له ﷺ : « أتريد ان تميتها موتات ؟ هلا أحددت شفرتك قبل ان تضجعها »(٤) .

ولنسمع هذه الرحمة بالحيوان ودلالتها البالغة حد الشفقه : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فرأينا حمرة « طير يشبه العصفور » معها فرخان لها ، فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفرف بجناحيها) ، فلما جاء رسول الله ﷺ قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار »(٥) .

وعلى ضوء هذه الأدلة التعليمية التهذيبية يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان مالا يخطر بالبال ، فيقررون أن النفقه على الحيوان واجبة على

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه الطبرانى .
(٣) رواه الإمام مسلم والإمام مالك والترمذى .
(٤) رواه الطبرانى
(٥) أخرجه أبو داود فى صحيحه .

مالكه ، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الانفاق عليه ، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه ، أو ذبحه إن كان مما يوكل ، وقد ذهبوا إلى ماهو أبعد من هذا ، فقال بعضهم إذا لجأت هرة عمياء الى بيت شخص وجبت نفقتها عليه حيث لم تقدر على الانصراف ، ومنعوا من تحميل الحيوان أكثر مما يطيق ، ورتبوا على هذا نتائج حقوقيه فى حق من استأجرها حيوانا للحمل أو الركوب محملة اكثر مما يستطيع ، فألزموه بضمان ثمنه لمالكه ، وتعرضوا لمقدار مايستطيع البغل والحمار حمله ، ومن الطريف ان بعض الفقهاء قدر لكل منهما مقدارا لم يرض فقيها آخر ، فعقب على ذلك بقوله لعمرى إن هذا إنصاف للبغل وإجحاف كبير بالحمار ، أما جناية الحيوان على غيره ، فهى جبار أى مهدرة ، فالحيوان لا يعاقب بما جنى على غيره وإنما يعاقب صاحبه إذا فرط فى حفظه وربطه .

هذه هى مبادئ الرفق بالحيوان فى حضارة الإسلام الثقافية وتشريعنا الاغر [1].

معاملة الحيوانات ومحاكمتها لدى الأمم فى العصور الوسطى :

هذا الموضوع يتسم بالعجب والغرابة مما كان يحدث فى ذلك الأزمنة الغابرة إنك لا تشتم منها رائحة الرفق أو الرحمة بالحيوان ، إنه منزوع الحقوق ، فلا نفقه ولا رعاية له على صاحبه ، بل كانوا يؤخذون الحيوات بجنايته ، ويوقعون عليه الجزاء كأنه إنسان عاقل مفكر ! وهذا أغرب ماتضمنه تاريخ العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر ، فيحاكم الحيوان كالإنسان ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت ! .

أ- ففى شرائع اليهود : « إذا نطح ثور رجلا ، أو أمرأة وأفضى ذلك الى موت النطيح ، وجب رجم الثور وحرم أكل لحمه ولاتبعة على مالكه إذا لم يكن

---

(١) انظر د. مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا ص ١١١ ، ١١٢ .

الثور معتاد النطح فإذا كان ذلك من عادته ، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم وأهمل رقابته حتى تسبب فى هلاك رجل أو أمرأة ، كان جزاء الثور الرجم وجزاء صاحبه الاعدام ، وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان فى شرائع اليهود وهى ما إذا واقع رجل أو أمرأة بهيمة وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأ ة » (١) .

ب- **أما فى شرائع قدماء اليونان** : فكانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة فى هلاك إنسان ، وكان يطلق عليه اسم (البريتانيون) وهو اسم المكان الذى كانت تعقد جلساتها فيها ، وومما ذكره أفلاطون فى كتبه « القوانين » مايلى :

١- إذا قتل حيوان إنسانا كان لأسرة القتيل الحق فى إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء ، ويختار أولياء الدم القضاء من المزارعين وفى حالة ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصا ، والقاء جثته خارج البلاد ويستثنى من ذلك : القتل الناشئ عن مبارزة بين الإنسان والحيوان فى مسرح الألعاب العمومية ، فإن هذه لا يترتب عليه شئ .

٢- وإذا سقط جماد على إنسان فقتله ، اختار أقرب الناس الى القتيل قاضيا من جيرانه ليحكم على الجماد أن ينبذ خارج الحدود ، ولم تكن مسؤولية الحيوان عندهم قاصرة على حالات القتل ، بل هو مسؤول كذلك فى الجنايات التى دون القتيل .

٣- فإذا عض كلب إنسانا وجب على صاحب الكلب ان يسلم كلبه الى المجنى عليه مكموما ومشدودا فى الوثاق ، يثأر لنفسه منه كما يشاء ، بالقتل أو التعذيب أو غيرهما .

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ١١٤ .

٤- وكذلك كان الحيوان عندهم يعاقب على جناية سيده أو اسرته فى بعض الحالات فمن حكم عليه بالإعدام لجريمة ارتكبها ضد الدين ، أو الدولة كان هو وأسرته وحيواناته وممتلكاته محكوما عليهما بالحرق أو التدمير أو المصادرة(١)

جـ- أما قدماء الرومان ، فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضى بعقوبة الإعدام على الثور وصاحبه إذا نقل الثور أثناء الحرث الحد الفاصل بن الحقل المحروث والحقل المجاور له ، وأقرت عقوبة الكلب الذى يعض إنسان بوجوب التخلى عنه للمعضوض يتصرف فيه كما يشاء ، وكذلك الحال إذا رعى الحيوان عشبا غير مملوك لصاحبه (٢) .

د- وكذلك كان الحال عند قدماء الجرمان ، كما كان عند الرومان واليونان من عقوبة للحيوان (٣) .

هـ - أما عند قدماء الفرس ، فالامر فيها أعجب وأطرف ، ذلك أن الكلب المصاب بالكلب اذا عض خروفا فقتله أو انسانا فجرحه تقطع أذنه اليمنى ، فإن تكرر ذلك منه قطعت أذنه اليسرى وفى المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى ، وفى الرابعة تقطع رجلة اليسرى ، وفى الخامسة يستأصل ذنبه (٤) .

و- وعند الأمم الأوربية فى العصور الوسطى ، كانت فرنسا أول أمة أوربية مسيحية أخذت فى القرن الثالث عشر بمبدأ مسؤلية الحيوان ومعاقبته بجرمه أمام محاكم منظمة بنفس الطرق القانونية التي يحاكم فيها الإنسان ، ثم أخذت به سردينيا فى أواخر القرن الرابع عشر ، ثم بلچيكا فى أواخر القرن الخامس عشر ،

(١) انظر المرجع السابق ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .
(٣) المرجع السابق .
(٤)

وفى هولندا وألمانيا وإيطاليا والسويد فى منتصف القرن السادس عشر . وظل العمل به قائما عند بعض شعوب الصقالبة حتى القرن التاسع عشر ! (١) .

محاكمة الحيوان عند الأوربيين !! (أقرأ وتعجب)

كانت هذه المحاكمة تقوم على ادعاء المجنى عليه أو النيابة العامة ، ثم يتقدم وكلاء الدفاع عن الحيوان المجرم ، وقد تقضى المحكمة بحبس الحيوان احتياطيا ! ثم يصدر الحكم بعد ذلك وينفذ على ملأ من الجمهور كما كان ينفذ فى الانسان ، وقد يكون الحكم بإعدام الحيوان رجما أو بقطع رأسه أو بحرقه أو بقطع بعض أعضائه قبل إعدامه ، ولايظن أحد ان هذه المحاكمة كانت هزلية للتسلية ، بل كانت جدية تماما ، بدليل مايرد للأسباب الموجبة للحكم على الحيوان من مثل قولهم : «يحكم بإعدام الحيوان تحقيقا للعدالة » ، أو« يقضى عليه بالشنق جزاء لما ارتكبه من جرم وحشى فظيع » !! (٢) .

ومن طريف مايذكر ان من الأسباب التى كانت تحمل الأوربيين علي رفع القضايا ضد الحيوان تعديه – فى نظرهم – على قوانين الطبيعة فكان يتهم «بالسحر» وهى جريمة كان مرتكبوها يعاقبون بالاحراق بالنار ، وكانوا يحتفلون احتفالا كبيرا بتنفيذ العقوبات على الحيوان ، فيأتى الجلادون بقطع من الحطب ، ويضعونها فى وسط أحد الميادين ، وتحضر القطط مثلا المحكوم عليها ، كل هرة فى قفص من حديد وعندما يحين وقت تنفيذ العقوبة يحضر بعض القساوسة يصحبهم بعض الحكام ، فيتقدم أحدهم وفى كلتا يديه شعلتان من نار لإشعال الحطب ، ثم يأمر أحد الحكام بقذف القطط في النار حتى تصبح رماد عقوبة لها علي ممارستها السحر ! (٣) .

---

(١) انظر روائع حضارتنا ص ١١٦ .

(٢) انظر المرجع السابق .

(٣) انظر المرجع السابق .

وإليك بعض المحاكمات الشهيرة للحيوانات !!

تجدر الاشارة الى ذكر بعض المحاكمات الشهيرة للحيوانات عند الأوربيين فى القرون الوسطى ، فمن اطرف المحاكمات وأشهرها محاكمة الفئران فى بلدة أوتون بفرنسا فى القرن الخامس عشر ، فقد اتهمت الفئران فى هذه القرية بالتجمهر فى الشوارع بشكل مزعج مقلق للراحة ، وتقدم للدفاع عنها « شاسانيه » المحامى الفرنسى وطلب التأجيل ، لأن الفئران لم تتمكن من الحضور ، حيث فيها الرضيع والمريض والعجوز ، والباحث عن الطعام ، وهى تستطيع ان تستعد للمثول بين يدى المحكمة إذا منحت فرصة التأجيل ، فوافقت المحكمة على التأجيل لوقت معين ، ولما حان الوقت لم تحضر الفئران فقال محامى الدفاع للمحكمة : إن الفئران تذعن لأوامركم الموقرة ، وتود الحضور ، ولكنها ياحضرات القضاة تخشى وقوع الأذى عليها من القطط إن هى جاءت الى هنا ، فرد رئيس المحكمة قائلا : إن من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم ، فطلب المحامى أن تأمر المحكمة بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران فى الشوارع لتكون مطمئنة على حياتها ، فوافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته ، وأصدرت أمرا بمنع القطط والكلاب من المرور فى الشوارع تأمينا للفئران أثناء حضورها الى قاعة المحكمة ، ولكن أهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك فاضطرت المحكمة الى أن تحكم ببراءة الفئران ، لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة !

وقد نال المحامى بسبب هذه القضية شهرة ذائعة ، ولا ندرى ان كان قد أخذ أتعابه من الفئران أم لا ، وربما كانت اتعابه أن تتعهد له الفئران بعدم قرض كتبه وأوراقه[1] .

(١) من روائع حضارتنا ص ١١٦ ، ١١٧ .

ومن اغرب قضايا محاكمة الحيوان فى القرون الوسطى محاكمة الديك الذى باض ، فقد رفعت دعوى على ديك في مدينة بال بسويسرا عام ١٤٧٤م لأنه باض ، وذلك فى عرف الأوروبيين يومئذ جريمة شنيعة ، إذ كان من المعروف عندهم أن السحرة يبحثون عن بيضة الديك ليستخدموها فى أغراضهم الشيطانية ، وقدم الديك للمحاكمة ، ودافع محامية عنه بقوله : كيف يكون الديك مسئولا عن واقعة - لا حيلة له فيها ؟ ولكن المحكمة لم تأخذ بنظرية - محامى الدفاع ، بل أصدرت حكمها بإعدام الديك ، وعللت حكمها بقولها ليكون فى ذلك عبرة لغيره من الديكة (١) !؟ .

وفى عام ١٤٩٥م وقعت قضية أخرى فى فرنسا هى من أغرب المحاكمات الحيوانية أيضاً ، فقد رفع أصحاب مزارع العنب فى مقاطعة « سان جوليان » دعوى على حشرات السوس بتهمة أنها أتلفت كرومهم وقضت على أشجارهم وصناعتهم وتجارتهم وتولى الدفاع عن هذه الحشرات أثنان من كبار رجال القانون ، واستمرت القصة أربعين عاما انتهت بأن أصحاب الكروم سئموا هذا التأخير ، فاتفقوا على اقطاع السوس قطعة أرض خاصة ليأكل فيها مايشاء من زروع وأشجار (٢) ! أرأيت حالة أوربا فى العصور الوسطى ؟ التي كانت عصور العلم والازدهار والحضارة الثقافية لدى المسلمين .

أما روح الشعب المسلم :

فتتضح فى إقامة المؤسسات الاجتماعية فقد كان للحيوان منها نصيب كبير ، وحسبنا أن نجد فى ثبت الأوقاف القديمة أوقافا خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافا لرعى الحيوانات المسنة العاجزة ، ومنها أرض المرج الأخضر (التى يقام

(١) المرجع السابق ص ١١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٧ ، ١١٨ .

عليها الآن الملعب البلدى بدمشق) ، فإنها وقف الخيول العاجزة التى يأبى أصحابها أن ينفقوا عليها لعدم الانتفاع بها ، فترعى فى هذه الأرض حتى تموت ، ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وترعى وتنام ، حتى لقد كان يجتمع فى دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التى يقدم لها الطعام كل يوم وهى مقيمة لا تتحرك إلا للرياضة والنزهة (١) .

وهذا كله يدلل على روح الشعب المسلم الذى بلغ من الرفق بالحيوان الى هذا الحد ، وهو مالا نجد له مثيلا ، ولعل أصدق مقال عن روح الشعب فى ظل حضارتنا الثقافية ، أن ترى صحابيا جليلا كأبى الدرداء يكون له بعير فيقول له عند الموت يا أيها البعير لا تخاصمنى الى ربك فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك .

وأن صحابيا كعدى بن حاتم كان يفت الخبز للنمل ، ويقول : أنهن جارات لنا ولهن علينا حق .

وأن إماما كبيرا كأبى اسحاق الشيرازى كان يمشى فى طريق ومعه بعض أصحابه ، فعرض له كلب فزجره صاحبه فنهاه الشيخ وقال له : أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه (٢) ؟ ولو ذهبنا نستقصى مآثرنا الحضارية الثقافية لضاق بنا المقام .

وبعد :

فهذه مقارنات طريفة بين موقف حضارتنا الثقافية من الحيوان ، وموقف غيرنا من الأمم منه ، فتلكم هى صورة العقول التى انضجت هذه التعاليم المغرقة فى الجهل والأمية فتربت عليها أوربا ..

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق .

لقد امتازت حضارتنا الثقافية بأمور لامثيل لها عند الأمم القديمة ، وبعض الأمم المعاصرة :

أولها : إقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان وتطبيبه ، وتأمين معيشته عند العجز والمرض والشيخوخة .

ثانيها : إن حضارتنا الثقافية قد خلت من محاكمات الحيوان ، لأنها نادت برفع المسؤولية الجنائية من قبل ثلاثة عشر قرنا من منادة الحضارة الحديثة بذلك .

ثالثها : إن حضارتنا الثقافية خلت من مظاهر القسوة والتحريش بين الحيوانات ، وهى التى كانت معترفا بها رسميا لدى أمم اليونان والرومان ، ولاتزال معترفابها فى إسبانيا حيث تقام الحفلات الكبرى لمصارعة الثيران ، وهى بلاشك وحشية من بقاء الغربيين القدماء وطبعهم فى العصور الوسطى ... قد تنزهت حضارتنا الثقافية الإسلامية عنها (١) .

(١) انظر من روائع حضارتنا ص ١١٨ .

من أسباب عظمة المسلمين

تمت فتوح العرب بشكل شد انتباه المؤرخين ، وكيف انها لم تفل عزائمهم ، وأنهم تعلموا من غالبيهم ماكانوا يجهلون من فنون الحرب ، بعد خروجهم من جزيرتهم ، وتغلبهم على الوارثين للسلطان الاغريقى الرومانى ، فلما تساووا هم والرومان فى الاساليب الحربية لم يبق شك فى تمام النصر لهم لاستعداد كل جندى مسلم لبذل نفسه فى سبيل دينه ، ولتوارى كل إخلاص وحماسة وإيمان فى جيش الروم منذ زمن طويل ويمكننا استنباط مايلى :

أ- كان يمكن أن تعمى فتوح العرب الأولى أبصارهم ، وأن يقترفوا من المظالم مايقترفه الفاتحون عادة ويسيئوا معاملة المغلوبين ، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم ، ولوفعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت غير خاضعة لهم بعد ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرا ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد ادرك الخلفاء السابقون بعبقريتهم السياسية أن النظم والأديان ليست ممايفرض قسرا ، فعاملوا أهل سورية ومصر واسابنية وكل قطر فتحوه : بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب إذا ماقيست بما كانوا يدفعونه سابقا فى مقابل حفظ الأمن بينهم ، فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ، ولا دينا مثل دينهم (١) .

ب- ومما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم أنه كان من الأسباب السريعة فى اتساع فتوحهم وفى سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم

(١) أنظر حضارة العرب ص ٦٠٥ .

ونظهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم .... ومن الأمثلة مصر التى لم يوفق فاتحوها من الفرس والاغارقة والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها .

حـ- وهنالك اسباب أخرى غير تسامح العرب وحلمهم ساعدت على انتشار دينهم ، ونظمهم المشتقة منه ، وذلك أن هذه النظم كانت من البساطة فى الحقيقة ، بحيث لاءمت احتياجات طبقات الأهلين الوسطى البسيطة أيضاً (١) .

د- وإذا كنا انتهينا الى الزمن الذى أتم العرب فيه فتحهم للعالم ، ولكن بحثنا لم يتم ، وذلك أن دور الفتح لم يكن سوى وجه واحد من وجوه تاريخ أشياع النبى ﷺ وأن المسلمين أبدعوا حضارة جديدة بعد أن فتحوا العالم ، وأن الأساليب التى ذكرناها لاتكفى لإيضاح هذا الإبداع فلابد من وجود عوامل أخرى منها :

أنه وجد عاملان قاطعان فى إبداع العرب وهما :

١- بيئة العرب الجديدة .

٢- وقابليات ذكائهم .

والبيئة مما وصفنا آنفا (٢) ، ولم يلبث العرب بعد خروجهم من صحارى جزيرتهم أن وجدوا انفسهم أمام مابهرهم من آثار الحضارة الاغريقية اللاتينية ، وأن ادركوا تفوقها الثقافى كما كانوا قد ادركوا تفوقها الحربى فجدوا ليكونوا على مستواها من فورهم .

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٦٠٥ .

(٢) يراجع ص ٦٠٠ ومابعدها من المصدر السابق .

هـ- كما يتطلب استمرار حضارة راقية ذكاء مثقفا ، وحاول البربر قرونا ادراك معنى الحضارة اللاتينية ولكنهم وجدوا صعوبة فى ذلك ، ومن حسن الحظ ان العرب لم يكونوا من البربرة .. والحق ان الرجل الأديب المثقف يجهل أمورا كثيرة ، وما يتعلمها بسهولة لمافيه من الاستعداد الذهنى وقد اظهر العرب فى دراسة العالم الجديد فى أعينهم من الحماسة كالاستعداد الذى أبدوا لفتحة [١] .

و- لم يتقيد العرب فى دراسة الحضارة التى واجهتهم فجأة بمثل التقاليد التى أثقلت كاهل البزنطيين منذ زمن طويل ، فكانت هذه الحرية من أسباب تقدمهم السريع ، فالذى يحدث فى حياة الأمم فى الغالب ، هو أن تأثير الماضى يعبد الناس لنير التقاليد البالية المسنة بعد نفعه لهم ، ويمنعهم من كل تقدم .

ز- لم يلبث أن تجلى استقلال العرب الروحى ، وخيالهم وقوة إبداعهم فى مبتكراتهم الحديثة ، وقد رأينا أنه لم يمض غير وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائر الفنون ، ثم على مباحثهم العلمية ، طابعهم الخاص الذى يبدو فى آثارهم أول وهلة ، وأنهم لم يبالوا بفلسفة اليونان النظرية لملاء متها القليلة لمزاجهم النفسى وأن همهم كان مصروفا الى الفنون والعلوم والأدب على الخصوص ، فتم وصف ماابتكروه فى هذه الفروع الكثيرة ، ولهذا فقد تعرضنا لذكر اسباب عظمة المسلمين الأساسية [٢] التى كانت سببا فى تفوقهم ونجاحهم .

(١) انظر المرجع السابق ص ٦٠٦ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

من فضائل الإسلام

أصاب مسيو ج . دوفال حيث قال : « من فضل الإسلام زوال الاصنام والأنصاب من الدنيا ، وتحريم القرابين البشرية وأكل لحوم الانسان ، وحفظ حقوق المرأة وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وتنظيمه مع عدم الوصول الى الحق المطلق ، وتوطيد أواصر الأسرة وجعل الرقيق عضوا فيها ، وفتح أبواب كثيرة سهلة لتحريره ، وتهذيب الطبائع العامة ورفع مستواها بالصلاة والزكاة وإيواء الغرباء و وتثقيف المشاعر بالعدل والاحسان ، وتعليم أولياء الأمور أن عليهم من الواجبات ماعلى الرعية ، وإقامة المجتمع على أسس منظمة ، وإذا حدث ان وجد جور في الغالب ، فى أى مكان آخر وجد فى العدل الالهى مايخفف وطأته ، وذلك ان فى رجاء الحياة الآخرة ، حيث السعادة وحسن الثواب ، سندا لضحايا الدهر أو الظلم ، وتلك هى بعض المحاسن التى تدل فى كل مكان على انتشار الاسلام بين المجتمعات غير المتمدنة »(١) ومنه نقرر مايلى .

« إن الأمم التى فاقت العرب تعدنا قليلة الى الغاية ، وإننا لا نذكر أمة ، كالعرب ، حققت من المبتكرات العظيمة فى وقت قصير مثل ما حققوا ، وإن العرب أقاموا دينا من أقوى الأديان التي سادت العالم و أقاموا دينا لايزال تأثيره أشد حيوية مما لأى دين آخر ، وأنهم أنشأوا ، من الناحية السياسية ، دولة من أعظم الدول التى عرفها التاريخ ،، وإنهم مدنوا أوربة ثقافة وأخلاقا ، فالعروق التى سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة ولم يظهر ، كالعرب ، عرق يصلح ان يكون مثالا بارزا لتأثير العوامل التى تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها »(٢) .

(١) نقلا عن حضارة العرب ص ٦١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١٨ .

من أسباب انحطاط المسلمين :

يمكن الاستناد الى كثير من العوامل التى ذكرنا أنها من أسباب عظمة العرب فى بيان انحطاطهم ، ويكفى ان ننظر الى عامل الزمن المهم لنعلم أنه ينشأ عن أنفع صفات الأفراد والأمم فى أحد الأزمنة أسوأ النتائج فى زمن آخر ، وأن الاستعداد الخلقى أو الذهنى الذى يكون عامل نجاح فى أحد الأوقات قد يكون عامل حبوط وإخفاق فى وقت ثان (١) ، يتضح هذا بما يلى :

أ- انقسام المسلمين وتجزأ دولتهم حتى سقطت كما حدث لهم فى إسبانية وصقلية اللتين أضاعوهما بفعل انقساماتهم الداخلية على الخصوص ، واللتين أجلاهم النصارى عنهما بسبب تنافسهم الدائم فيهما .

ب- أن العرب لم يقدروا على فتح العالم إلا حينما خضعوا للشريعة الجديدة التى جاء بها محمد ﷺ وجمعوا كلمتهم المتفرقة تحت لوائها ، وهى التى كان يمكنها وحدها أن تجمع القوى المبعثرة فى جزيرة العرب وقد بيقى نير هذه الشريعة الجازم طيبا ما بقيت نظم النبى ﷺ ملائمة لاحتياجات أمته ، فلما أصبح تعديل هذه النظم ضربة لأرب ، بسبب مبتكرات حضارة العرب ، كان نير التقاليد من الثقل بحيث لايمكن زحزحته .

وعادت نظم القرآن التى كانت عنوان احتياجات العرب فى زمن محمد ﷺ لا تكون هكذا بعد بضعة قرون ، والقرآن ، دستور دينى ومدنى وسياسى فى آن واحد ، لا يمكن تبديله بسبب مصدره الإلهى ومن ثم تعذر تعديل أحكامه الاساسية (٢) واصرار المسلمين على تعديل هذه الاحكام سيؤدى بهم لا محالة إلى الانحطاط كما هو مشاهد اليوم .

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٦٠٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٦٠٨ .

جـ- أما حال الدول الكبرى المطلقة التى تكون جميع السلطات فيها وفى قبضة رجل واحد ، لا ترتقى إلا إذا كان على رأسها رجال عظماء ، فإذا افتقدتهم تداعى كل شئ دفعة واحدة ..

د- ومن نتائج سوء نظام العرب السياسى ما أصيبت به دولتهم من الانقسام فلم تلبث أهم ولايات الدولة ان تحولت بهذا الى دويلات مستقلة ، بينها من العداء ما فرق وحدتها ومزق شملها مما أدى الى اضعاف سلطان العرب الحربى (١) .

هـ- هذه هى شريعة القرآن ، ولم يرغب الغالبون عنها ، ولم يؤلف الغالبون والمغلوبون فى بدء الأمر سوى أمة واحدة ذات معتقدات واحدة ومشاعر واحدة ومصالح واحدة ، وقد ساد الوفاق جميع نواحى الدولة العربية ماظل العرب أقوياء محترمين فى كل مكان ، أما إذا صارت بلاد الاسلام ميدان خصام دائم بين أحزاب لم تترك تنازعها حتى حين كان النصارى يحاصرون آخر معقل اسلامى في الاندلس، فهذا مما يؤدى حتما الى تأخر العرب وانحطاطهم .

و- وإذا كان العرب دون الرومان مرتبة فى النظم السياسية والاجتماعية فهم أعلى منهم بسعة معارفهم العلمية والفنية ، ويمكن القول ، على العموم أن للعرب مقاما رفيعا فى التاريخ (٢) .

وإذا قابلنا بين العرب والأمم الأوربية بدلا من مقارنتهم بالأمم التى غابت عن مسرح العالم ، امكننا ان نقول انهم أرقى من جميع أمم الغرب التي عاشت قبل عصر النهضة أخلاقا وثقافة ، فلم تعرف جامعات القرون الوسطى فى قرون كثيرة ، مصدرا غير مؤلفاتهم ومناهجهم ، وكانت أخلاقهم أفضل من أخلاق أجدادنا بمراحل(٣) .

(١) انظر حضارة العرب ص ٦٠٨ - ٦١٠ .
(٢) انظر المرجع السابق ص ٦١١ .
(٣) المرجع السابق ص ٦١٤ .

من آثار الثقافة الإسلامية فى العالم

مما لاريب أن ثقافة الإسلام تركت آثارا طيبة ونافعة بحيث أثرت فى الفكر الانسانى فى كل جانب من جوانب نشاطه كما يلى :

(أ) فى مجال المثل والقيم دعت الثقافة الإسلامية الى مثل جديدة تعتمد على الايمان والحق والعدالة والحرية والمساواة والاخاء . يتضح هذا من الدعوة الى تكريم الانسان ، واعلان خلافته فى الأرض .

(ب) قدمت الى الانسانية نظرة شاملة متوازنة منسجمة مع الكون ومافيه من سنن مطردة ودلالة ذلك على الله سبحانه والى الانسان وصلته بالله بالعبادة والمسئولية والعمل(١) .

(جـ) جعلت العبادة بمفومها الواسع ليست قاصرة على العبادات المدونة المنصوص عليها ، ولكنها تتسع لتشمل كل عمل يأتيه الانسان ، أما المسئولية فلا تكون إلا على العمل ، ولايكون الجزاء إلا بمقدار مايقدم الانسان من عمل صالح أو خبيث .

(د) فى مجالات العلاقات الاجتماعية قدمت هذه الثقافة مفهوما جديدا للروابط بين الفرد والاسرة ، مفهوما يقوم على التكافل من أجل صالح الانسانية بحيث يشمل الجانب الروحى والاخلاقى ، والمادى والنفسى معاً (٢) .

(هـ) اعطت للعرب والمسلمين عموما شخصية فكرية متميزة لم تكن لهم من قبل، لقد كان العرب يملكون الفطرة السليمة البسيطة ، والأصول الطيبة لمكارم

(١) انظر معالم الثقافة الإسلامية ص ٢٩٣ .

(٢) انظر المرجع نفسه .

الاخلاق ، وبديهية فذة فى الشعر والخطابة ، إلا أنهم كانوا فى حاجة ماسة الى رابطة قوية تربطهم وتكون منهم الامة ، فكانت رسالة الاسلام ، رسالة العقيدة والفكر الموحد .. ومن اثم أمكن لهذه الطاقات الفطرية أن تنطلق وتبدع ، لقد أصبحت حياة العرب مع الإسلام وثقافته غنية وارفة ، لقد وضع العرب أيديهم علي سر وجودهم فاستطاعوا أن يحققوا الكثير ،، استطاعوا ان يغنوا الانسانية بالمبدأ ، والتسامح والحضارة والتاريخ المشرق ، وظهرت بظهور الإسلام ثقافات جديدة ، وعلوم مبدعة ، وفنون ومعارف فى جميع مناحى الحياة [1] .

(و) كما كان من أثار ثقافة الإسلام فى مجال الفكر والتقدم العلمى ماذكره الدكتور حتى قائلا :

« خلال القسم الأول من القرون الوسطى لم يساهم أى شعب من شعوب الأرض بقدر ماساهم به المسلمون فى التقدم البشرى ، وظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والتقدم الفكرى لمدة قرون فى جميع انحاء العالم المتمدن آنذاك ، وكان من آثارها أيضاً انه فيما بين القرن التاسع والثانى عشر الميلادى (الثالث والسادس الهجرى) فاق ماكتب بالعربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والإلهيات والفلك والجغرافيا كل ماكتب بأى لسان آخر » [2] .

(ز) لقد كان دور العرب المسلمين فى هذه الثقافة عظيما ، إذا ليس بوسع أحد أن ينكر عليهم فضلهم فى وضع أسس هذه الثقافة ثم تطويرها نحو المستوى الرائع الذى بلغته ، كما أنه يجب الاعتراف بحق الشعوب الأخرى التى اعتنقت الإسلام ، وساهمت مساهمة فعالة فى هذه الثقافة أدهشت كل من اطلع عليها ، مثل هذه الشعوب : أواسط اسيا ، وإيران ، وتركيا ، وامبراطورية المغول فى الهند [3] .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٢٩٤ .

(٢) نقلا عن نفس المرجع .

(٣) انظر معالم الثقافة ص ٢٩٥.

قائمة بالكلمات الانجليزية المشتقة من أصل عربي (*)

نورد في القائمة التالية الكلمات الانجليزية التي اشتقت من أصل عربي في حقب تاريخية مختلفة ، والكثير منها دخل اللغة العربية من لغات أخرى وحيث ان الغرض الرئيسي من هذه القائمة هو بيان ديننا للإسلام في العصر الوسيط ، فقد استبعدنا منها كلمات أخرى أدخلها حديثا في لغتنا بعض الرحالة في الاقطار العربية ، ولا ندعي أن هذه القائمة كاملة ، وهي تشمل بعض الكلمات التي يختلف البعض حول اصل اشتقاقها (وامام عدد منها علامة استفهام) ، وقد استعنا في إعدادها بمراجع عديدة ، أكثرها شمولا هو كتاب كارل لوكوتش Karl Lokotsh

" Etymologisches Wörterbuch der europäischen Wörter orientalischen Ursprungs "

الذي نشر في هايد لبرج عام ١٩٢٧ م .

(*) نقلا عن كتاب فضل الإسلام على الحضارة الغربية من ص ١١٥ - ١٢٥ . تاليف : مونتجمري وات ، نقله الى العربية : حسين أحمد أمين ، ط دار الشروق ط الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

حبشى	Abyssinia
أمير البحر أو أمير الرحل	Admiral
الطوب	Adobe
القادوس (وهو الإبريق ، أى الطائر على هيئة الإبريق) ، وفى البرتغالية Alcadroz	Albatross
القائد	Alcaide , Alcalde
الحناء	Alcanna
الكيمياء (وفى المصرية القديمة Kemi)	Alchemy
الكحل أو الكحول (وهو مسحوق)	Alcohol
القبة ، وفى الاسبانية Alcoba	Alcove
الأنبيق ، وباليونانية ambix	Alembic
حلب (نوع من القماش)	Aleppin
حلفا	Alfa , Halfa
الفصفصة	Alflfa
الجبر	Algebra
الخوارزمى (اسم علم)	Algorithm
القلى (وهو البوتاس)	Alkali
الحناء	Alkanct
المجسطى (لفظ يونانى)	Almagest
المناخ	Almanach
الـ (بالاسبانية Paco)	Alpaca
الملغم (باليونانية malaga)	Amalgam
عنبر	Amber
المستق (وهى فارسية ، وبالاسبانية almucio)	Amice

Amulct (?)	الحمائل
Anilin	النيلة (بالسنسكريتية nila)
Antimony	إثمير (بالقطبية Stim)
Apricot	البرقوق (باللاتينية Pracox ، وبالاسبانية albaricoque)
Arab, Arabesque	عرَّب Arabesque ، (وهو حصان)
Arrack	عرَق
Arsenal	دار الصناعة
Artichoke	الخرشوف (بالاسبانية alcarchofo)
Assassin	حشيشيين أو حشاشين
Atlas	أطلس (أى ناعم الملمس ، وهو قماش)
Aubergine	الباذنجان (وهى كلمة فارسية ، وبالاسبانية alberengena)
Average	عوار (أى خسارة ، وبالاسبانية averia)
Azimuth	السموت (أى الطرق أو الاتجاهات)
Azoth	الزاووق
Azure	لازوردى (وهى فارسية) أو : أزرق
Baboon	ميمون
Balcony	بالاه (وبالفارسية bálákhánä)
Baldachio	بغداد (وبالايطالية baldacco)
Banana	بنان (أى إصبع)
Barberry	بربارس
Barbican	بالاة (وبالاسبانية barbcnaba)
Baroque	برقة (وبالبرتغالية barroca)
Barque, Barquentne, Brigantine	برشة أو بارجة (وبالمصرية القديمة vá - rá أى مركب الشمس وبالاسبانية barca)

Bedouin	بدويين
Benzine , etc.	لبان جاوى (أى اللادن من جاوة)
Berberine	بربارس
Bergamot	بجرمدى (وهى تركية)
Bezoar	بادزهر (وهى فارسية ، وبالاسبانية (bezoar
Bismuth	إثميد (وبالاسبانية bismuto)
Blouse	بلسى (وبالمصرية القديمة Pclusium ، وباللاتينية (Pelusia
Bombasine	بنبا (وهى فارسية ومعناها قطن ، وباللاتينية bombacium ، والتركية Pembe)
Borax	بورَق (وبالفارسية burāh ، وبالبرتغالية borax)
Borage	أبو راج (وبالفرنسية bourrache)
Buckram, Barchant	بركان
Cabas	القفص
Cabaya	قباء(وهى فارسية) [1]
Cable	الحبل
Cadi , Cauzce	قاضى
Calibre	قالب
Caliph	خليفة (وبالاسبانية Califa)
Camel	جمل (وباللاتينية Camelus)
Camelia	جمل (وبالألمانية Kamell)
Camelot	جمل (نوع من القماش)
Camphor	كافور (بالسنسكريتية Karpúra)

Candy	قند ، قندى (عصير قصب ثخين)
Caper	كبار (باليونانية Kapparis ، والاسبانية (alcaparra
Carafe	غرافة (بالاسبانية garrafa)
Carat	قراط (باللاتينية Carratus ، وبالبرتغالية (quirate
Caraway	كروية
Carmine	قرمزى أو قرمز (باللاتينية Carmesinus وبالسنسكريتيةKrmija)
Carob ?	خروبة (وهى أشورية)
Check	شاه (وهى فارسية بمعنى ملك ، وتستخدم اسما للعبة)
Chcckmate	شاه مات (مات الملك)
Chemistry	كيمياء
Cheque	صك
Chess	شاه (وهى فارسية)
Chiffon	شف (وبالفرنسية القديمة Chiffe)
Cid ?	سيد
Cinnabar	زنجفر (وهى فارسية ، وباللاتينية Cinnábaris
Civet , Zibet	زباد
Coffee	قهوة
Coffle	قافلة
Cotton	قطن

Coffer	قفة (باليونانية Kophinos)
Colcothar	قلقتار (باليونانية Khalkanthé)
Cramoisy	قرمزى أو قرمز
Crimson	قرمزى أو قرمز
Cubeb	كباب
Cumin	كـمون ؟ (وهـى اشـورية ، وباليونانية (Kuminos
Cupola	قبة
Cypher	صفر (أى خال)
Dam, Dambrod	الـشطرنج التام (وبالاسبانية ajedrez (atama
Daman	دمن اسرائيل
Damascene , Damask	دمشق (باللاتينية danascenus)
Damson	برقوق دمشق
Date	دقل (نوع سئ من البلح) (باللاتينية dactylus ، وبالاسبانية dátil)
Demi - John	دمـجان (وهـى فارسـية ، وبالإيطالية (damigiana
Dhow	داوة
Divan	ديوان (وهى فارسية)
Dragoman	ترجمان
Drug	دورواه؟
Druse	دروز
Durra	درة

Elemi	اللامى (بالاسبانية elemi)
Elixir	الإكسير ؟ (باليونانية xéron)
Fanfare	فقير
Fakir	فرفرة ؟ (بالفرنسية Fanfaron)
Fata Morgana	مرجان
Felucca	حراقة أو فلك أو فلوكة (بالبرتغالية Falúa
	وبالاسبانية haloque)
Fellah, Fellaheen	فلاحين
Fondaco	فندق (باليونانية Pandocheion)
Fret	فريدة ، أو فرد
Fricze	إفريز ؟ (باليونانية Phrygios ،
Gabelle	وبالاسبانية Frisco)
Gala	قبالة (باللاتينية Caballa)
Galingale	خلعة
Gallont	خلنجان (باللاتينية galanga)
Gamash?	خلعة (بالاسبانبة galante أى أنيق
	الثياب)
Guadamaci	غدامسى بالأسبانية وهو نوع من الجلود
Gaze, Gauze	قز (بالاسبانية gasa أى الحرير)
Gazelle	غزال
Gazette	كنز (باللاتينية gaza ، وبالفارسية gánj
	، وبالإيطالية gazzetta وهى عملة)
Ghazal	غَزَل
Giaour , Guebre	كافر (وبالفارسية gábr ؟)
Gibraltar	جبل طارق

Ginger	زنجبيل وباللاتينية giniber أو Zingiber)
Ciraffe	زرافة
Guitar (Cither , Citole , Gittern , Zither)	قيثار (باليونانية kithara ، وبالاسبانية guitarra)
Gypsum	جبس (باليونانية gypsos)
Hakeem , Hakim	حكيم
Hashish	حشيش
Hazard	الزهر (بالاسبانية azar) ؟
Henna	حناء
Hooka	حُقة
Howda	هودج
Jrade	إرادة
Jar	جرة
Jasmine	ياسمين (وهى فارسية)
Jerboa	يربوع
Jump , Jupe	جُبة
Jumper	جبة
Julep	جلاب (وهو شراب ، وبالفارسية Gul-ab)
Kakium	قَلَى
Kavass, Kawass	قواس
Kermes	قرمز
Kismet	قسمة
Kohl	كحل
Lac, Lacquer ?	لاك (وهى فارسية ، وبالتركية Láqa)

Ladanum ?	لادن
Landau	الاندول
Lapis - Lazuli	لازوردى (وهـى فارسـية ، وباللاتينية (Lazulum
Lilac	ليلاك (وهى فارسية)
Lemon	ليمون (وهى فارسية)
Loofah	لوفة
Lute	العود
Magazine	مخازن
Mameluke, etc.	مملوك
Mancus	منقوش
Marabou	مرابط
Marabout	مرابط
Marcasite	مرقشيتاة
Maroquin	مراكش
Maripan, Marchpane	موثبان (وبالفارسية مرزبان)
Mask, Masque, Masquerade	مسخرة (وبالاسبانية Máscara)
Mat , Matt	مات
Matachin	متوجهين (لابسين الأقنعة) ؟
Mate	مات
Mattress	مطرح
Minaret	منارة مخة (اسم مدينة)
Mocha	مُخير
Moiré	مخير

Monsoon	موسم (بالبرتغالية monçáo)
Morocco	مراكش
Mosqu	مسجد (بالفرنسية القديمة mosquete ، وبالاسبانية Mezquita
Mulatto ?	مُوَلد
Mummy	مومياء (وبالفارسية múm أى شمع)
Muscat , Muscadine, Muscatel	مُسْك أو مسقاط
Musk	مسك (وبالفارسية mushk وبالفرنسية (musc
Musket	مُسْنَق
Muslin	الموصل
Myrrh	مر
Nabob	نواب (جمع نائب)
Nacre	نقارة (وبالفرنسية القديمة nacaire)
Nadir	نزر (وبالاسبانية nadir) ،
Naker	نقارة (فارسية ؟)
Natron	نطرون (وبالعبرية néther ؛
Nitre	نطرون (وباليونانية nitron)
Noria	ناعورة
Ogive	عوج (وباللاتينية augivus)
Orange	نارنج (وهى فارسية)
Ottoman	عثمان (اسم علم)
Percival	فارس الفال
Popinjay	الببغاء ؟ (بالفرنسية القديمة Papagai)

Race	رأس (بالأسبانية raza)
Racket	راحة (بالفرنسية raquette)
Razzia	غزية أو غازية
Realgar	رهج الغازى (أى غبار الكهف)
Ream	رزمة (بالفرنسية القديمة rayme)
Rebec	رباب (بالايطالية ribeba أو ribeca)
Rice	الرز (بالفرنسية القديمة ris)
Risk	رزق (بالاسبانية risco أو arrisco)
Rob	رُب (وهو عصير فاكهة بالعسل)
Roc	رُخ ؟
Rocket	راحة
Rook	رخ
Saccharin	سكر (وباللاتينية Saccharum)
Sacre, Saker	صقر
Safari	سافر
Saffron	زعفران ؟ (بالفرنسية Sapran)
Salep , Salop	ثعلب
Sambook	سنبوق
Sandalwood	صندل
Sapphire	صفير
Saracen	شرقى
Satin	زيتونى (بالإيطالية Setino)
Senna	سناء
Sepoy	سباه (وهى فارسية بمعنى الجيش ، وبالتركية Sipâhî)

Shellac	لاك
Sherbet	شربات (بالتركية Sherbet)
Shrub	شُرب
S (h) umach	سُماق
Sirocco	شرق (بالإيطالية Scirocco)
Sofa	صفة
Sorbet	شَربة (بالتركية Shorbet)
Spahi	سباه (وهى فارسية)
Spinach	إسبانخ (وبالفارسية aspanákh ، وبالفرنسية القديمة espinage)
Sugar	سكر
Sultan	سلطان
Sultana	زوج السلطان
Syrup	شرب (بالفرنسبة القديمة Sirop)
Tabby	عتابية (ناحية من بغداد)
Tabor, Taborin , Tabret	طبل ؟ (بالفارسية 'taburák)
Talc	طلق ؟
Talisman	طلسم (باليونانية Telesma)
Tamarind	تمر هندى
Tamarisk	تمر (باللاتينية Tamariscus)
Tambour, Tambourine	طبل
Tare	طرحة
Tariff	تعريف (وبالإيطالية tariffa)
Tarragon	طرخون (وهى فارسية ، وباللاتينية tarchon)
Tass, Tassie	طاس (وبالفارسية طشت ، وبالفرنسية tasse)

Tcak	ساج (وبالبرتغالية Teca)
Toque	طاقية (وبالإيطالية Tocca)
Troubadour	طراب (أى المغنى) ؟
Turbith, Turoeth	تُرباذ
Tutty	تُوتياء
Vizier	وزير
Wad	باطن (بالفرنسية ouate)
Zedoary	زدوار
Zenith	سمت (بالفرنسية القديمة cenit)
Zero	صفر (بالإيطالية Zero أو Zefro)
Ziacon	أزرق
Zouaue	زواوة (اسم قبيلة)

لقد كان هناك نقاط ثلاث للاتصال المعنوى بين المسلمين والأوربيين فى العصور الوسطى وهذه النقاط هى :

الأولى : معرفة الأوربيين للغة العربية .

الثانية : الاتصال الفلسفى بين أوروبا والأمم الإسلامية .

الثالثة : معرفة الأوربيين للعلوم الدينية (١)

أولاً : اللغة العربية فى أوربا :

مما لاريب أن اللغة العربية من اقرب الطرق لمعرفة الشئون الإسلامية علمية وغيرها ، فلا غرو إذا كان انتشار اللغة العربية فى أوربا في ذلك الوقت كان مظهرا له قيمته فى وصول الثقافة الإسلامية اليها .

وان الامم المجاورة للدول الاسلامية تكاتبها بالعربية ، كما مر سابقا ، كما نجد الاسبانيين جيران المسلمين في الغرب ، قد يتخذون كتابا من العرب يكتبون عنهم بالعربية الى المسلمين فى الاندلس والمغرب (٢) .

---

(١) هذا التقسم منقول عن صلة الإسلام باصلاح المسيحية ص ٣٧ للشيخ أمين الخولى وهو مصدر سابق .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان : ٤٢٩/٢ ط بولاق إذا يروى : ان الاذفونش كتب الى ابى يوسف يعقوب صاحب المغرب الذى كان قد جاز الى الاندلس ، رسالة من انشاء وزير له يعرف بابن الفجار ، ونصها :

« باسمك اللهم فاطر السماوات والارض صلى الله على السيد المسيح ، روح الله وكلمته ، الرسول الفصيح أما بعد : فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ، ولا ذى عقل لازب ، أنك امير الملة الحنفية ، كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الان ماعليه الان رؤساء اهل الاندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، واخلادهم الى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار ، واسبى الذرارى وأمثل بالرجال ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة .

=

وكما نجد الاتصال الحربى بين الطرفين يدفع الى تعلم اللغة العربية ، فيبدأ الفرنسيون بتعلم العربية فى الحروب الصليبية ، ويدرسونها في اسبانيا على أهلها (١) .

فكذلك نرى ان المناطق التى امتد فيها نفوذ العرب وتوطنهم ، كان أهلها يتعلمون العربية بحكم هذا الاتصال ، اذ كانت تؤخذ منهم الرهائن الى البلاد العربية كما تؤخذ منهم الاسرى ، فيتعلم كل هؤلاء العربية من أهلها ، ويعودون بها الى بلادهم ، كما يتعلمها من قد يعتنق الاسلام من أوربى هذه البلاد ، ومن ثم يظل

=

وانتم تزعمون ان الله تعالى قد فرض عليكم القتال عشرة منا بواحد منكم ، فالان خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا ، ونحن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعا ، ولا تملكون امتناعا ، وقد حكى لى عنك انك اخذت في الاحتفال ، واشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدرى أكان الجبن فى ابطائك ، أم التكذيب بما وعد ربك ، ثم قيل لى : إنك لا تجد الى جواز البحر سبيلا ، لعلة لايجوز لك التقحم معها وهأنا أقول لك مافيه الراحة لك ، واعتذر لك وعنك ، على ان تفى بالعهود والمواثيق، والاستكثار من الرهاب (جمع رهب النصل الرقيق) ، وترسل الي جملة من عبيدك بالمراكب والشوانى ، والطرائد والمسطحات ، وأجوز بحملتى اليك ، فأقاتلك فى أعز الاماكن لديك . فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك . وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وأن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، واستحقيت امارة الملتين ، والحكم على البرين ، والله يوفق للسعادة ، ويسهل الارادة ، لا رب غيره ، ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى » .

وهذه الرسالة توضح للقارى مدى صلة البلاط الأوربى بالإسلام ، ومعرفة الكثير عن عقائده ولغته .

أما الرحالة العربى الشهير « ابن جبير » فيذكر ان ملك صقلية الذى سماه « غليام» لديه معرفة باللغة العربية (قراءة وكتابة) وأن شعاره (الحمد لله حق حمده) وكان شعار أبيه (الحمد لله شكرا لأنعمه) .

(١) رينو : مصدر سابق ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

يتكلمها الى حين من بقى من المسلمين فى أوربا اسيرا أو رقيقا ، أو يتنصر فى بعض تلك المناطق (١) .

وحينما قويت حركة التعلم والنقل العلمى التى سبقت الاشارة اليها ، كان المتعلمون من الأوربيين في البلاد الاسلامية يتعلمون العربية ، كما كان يجيدها المترجمون للعلوم الاسلامية ، ويعرفها دارسو تلك العلوم فى الغرب ، ومن هنا نسمع منذ عهد مبكر ان رجالا من ذوى الشأن الدينى ، أو العلمى ، أو السياسى ، كانوا يعرفون العربية ، فكان القسيس هرتموت (Hertmot) رئيس دير القديس جالو بفرنسا فى أواخر القرن التاسع الميلادى يعرف العربية والعبرية (٢) ، والبابا سلفستر الثانى كان يجيد العربية (٣) ، والفيلسوف الشهير البرت الكبير كان يعرفها، كما كان ملوك أوربيون كفردريك الثانى ، ورجار ملك صقلية وغيرهم يتكلمون العربية(٤) .

ومما يدل دلالة اكيدة على انتشار اللغة العربية ماقاله روجر باكون فى القرن الثالث عشر :

ان الفلسفة مأخوذة عن العرب فلاتفهم كما يجب إلا إذا عرفت اللغة التى اخذت منها (٥) ، والعبرية واليونانية لازمتان لفهم العهد القديم ، وفلسفة أرسطو ، فالعربية لازمة لفهم ابن سينا وابن رشد » ، مما سبق يكفى بأن اللغة العربية كانت منتشرة فى البيئات المثقفة في أوربا خلال تلك العصور (٦) .

(١) رينو : مصدر سابق ص٢٣ من الترجمة العربية .

(٢) رينو : مصدر سابق ص ٢٣٢ من الترجمة العربية .

(٣) الخورى عيسى أسعد : الطرفة النقية ص ٢٠٩ .

(٤) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٣٩ .

(٥) الفريد جيوم : تراث الإسلام : ١ / ٢٣٥ من الترجمة العربية .

(٦) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٤٠ .

عقبات فى طريق انتشار الاسلام :

ثم قامت فى أوربا حركة مقاومة للإسلام ، كانت حربا صليبية معنوية ، تصدت لمقاومة الاسلام بأساليب علمية ، من بينها تعلم اللغة العربية فكان « ريموند لول » الذى يحسن اللغة العربية ، يجعل من الدراسات الشرقية أداة حرب صليبية هادئة ، سلاحها روحى خالص ، فيؤسس سنة ١٢٧٦ م كلية للرهبان فى ميرامار (Miramar) لدراس اللغة العربية (١) .

كما اسست أول مدرسة عرفتها أوربا للدراسات الشرقية في طليطلة على يد المبشرين ، وفيها كانت تعلم العربية (٢) .

كما كانت تعلم العبرية وغيرها من مواد تعين على اخراج مبشرين ضد الإسلام(٣) .

ولعله لهذا الغرض من الحرب المعنوية ، قد تقرر ايجاد كراسى لدراسة اللغات الشرقية من عربية وغيرها فى جامعات باريس ، ولوفان ، وسلمنقة فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى (٤) .

فهذه الحركات الايجابية والسلبية في دراسة اللغة العربية ، أعنى تعلمها لاقتباس المعارف الإسلامية ، أو لمحاربة الإسلام والتبشير بالمسيحية ، كانت هذه الحركات كلها وصلا معنويا واضحا للغرب بالشؤون الإسلامية (٥) .

---

(١) ايرنست باركر : تراث الإسلام : ١٢٤/١ ، ١٢٥ من الترجمة العربية .

(٢) الفرد جيوم : تراث الإسلام : ٣٠٠/١ ، ٣٠١ من الترجمة العربية .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) ايرنست : كتاب تراب الإسلام : ١٢٥/١ من الترجمة العربية .

(٥) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٤١ هامش ٢ .

وإذا ماتحدثنا عن اللغة بأوربا لذلك العهد ، وأنها سبيل الاتصال بالثقافة الإسلامية ، فإنه يجب ان نذكر لغة أخرى سامية هى اللغة العبرية ، التى كانت شقيقة العربية تعاونا ، كما هى شقيقتها نسبا ، فعملت على حفظ الذخائر العلمية للثقافة الإسلامية ، باشتراك اليهود جنبا الى جنب فى الميدان العقلى ، حين اطمأنوا فى ظلال تلك الحضارة ، لا سيما فى اسبانيا ، فكانت لهم فلسفة إسلامية العناصر عربية النصوص ، وان كتبت حينا باللغة أو الحروف العبرية (١) .

وقد كان لفلسفة اليهود حينذاك اثر عظيم على الفلاسفة الغربيين فى العصور الوسطى (٢) ، كما ان اليهود قد حفظو لأوربا الثقافة الاسلامية بترجمتها الى العبرية، وكثيرا ماكانت الترجمة منها الى اللاتنية (٣) ، حتى لقد يضيع الاصل العربى فى بعض الاحيان ، ولا يبقى الا الترجمة العبرية فقط (٤) .

كما ترجمت اليهود بأنفسهم من العربية الى غير العبرية من اللغات الأوربية كالاسبانية مثلا (٥) .

ولقد نقل اليهود الثقافة الإسلامية نقلا فعليا إلى أوربا ، حين هاجروا من اسبانيا الى الشمال لأسباب سياسية ، أو اجتماعية مختلفة ، لا سيما هجرتهم الى جنوبى فرنسا في القرنين : الثانى عشر ، والثالث عشر الميلادى (٦) .

(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة ابن ميمون ، وجورج مورفى كتاب تاريخ الأديان : ٣٩٨/٢ من الترجمة الإيطالية .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) فيورينتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة : ٢٥٤/١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : مادة فارابى .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة : ابن الرجال .

(٦) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٤٢ .

وكانت هذه العبرية من اللغات التى شاع تعلمها فى الغرب حينما استيقظت الافكار، زعماء رجال الاصلاح كانوا يعرفونها « كهس» ولوثر وغيرهما (١) .

ثانيا : الاتصال الفلسفى بين الغرب والامم الإسلامية :

الفلسفة بفطرتها صورة واضحة للاتجاه الفكرى، دينى وغير دينى، والفلسفة في تلك العصور الوسطى كانت أشد عناية بالجانب اللاهوتى، - ميتا فيزيقا - ونستطيع القول أب فلسفة تلك العصور الوسطى كانت اسلامية القيادة، فلم يلبث الغربيون بعدما ذكرنا من اتصالهم بالاسلام، ان عرفوا ودرسوا فلاسفة الإسلام جميعا من شرقيين وغربيين : كالكندى، والفارابى، وابن سينا، والغزالى، وابن رشد وغيرهم (٢) .

ومن المهم ان نلحظ سرعة اتصال الغرب بمن كان من هؤلاء المفكرين في اقصى الشرق، فالغزالى مثلا المتوفى سنة ١١١١م قد ترجم فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر : حوالى نصفه الى اللاتينية (٣) .

وهكذا ظهر التأثر بهؤلاء الفلاسفة المسلمين فى تفكير المفكرين الغربيين في أقصى أنحاء أوربا، فكان يوحنا دنس سكوت الاسكندلاندى ق ١٣ - ١٤ يستوحى تأثير الارسطالية الإسلامية، وبخاصة من ابن سينا (٤) . كما يتأثر بابن سينا نفسه فى المانيا الفيلسوف ايكهارت (٥) .

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) انظ الفرد جيوم : تراث الإسلام : ١ / ٢٣٩ ، ٢٥٣ من الترجمة العربية .

(٣) انظر فيور تتينو : خلاصة تاريخ الفلسفة : ١/٢٧٠ ، والفريد جيوم : تراث الإسلام : ٢٣٩/١ من الترجمة العربية .

(٤) انظر جورج مور : تاريخ الاديان . الترجمة الايطالية : ١٢ ص ٣٠٠ .

(٥) انظر المرجع السابق جـ٢ ص ٣٠٥ .

واسكندر الهاليسى الذى درس وعلم فى باريس يعتمد على الشروح العربية لابن سينا ، وابن رشد [1] ، وألبرت الكبير يتأثر بابن سينا حتى ليقول رينان : إنه مدين بكل شئ لابن سينا ، كما ان القديس توما الاكوينى فى ايطاليا مدين كذلك لابن رشد [2] ، وهو فى الوقت نفسه ممن تأثر بالغزالى [3] .

لقد أثرت هذه الحركة الإسلامية فى مقاومة الفلسفة على مثيلتها فى الغرب ، وترك طابع الغزالى العقلى والدينى ، أثرا على الباحثين النصارى من اللحظة الأولى التى أمكن لكتاباته فيها أن تقرأ ، ولايزالون يمنحونها دراسة دقيقة [4] ، واستعمل المسيحيون في كثير من رسائلهم العلمية براهين الغزالى على مسائل لاهوتية [5] .

مما سبق يتضح الاتصال العقلى ، واستفادة أوربا مما كان المسلمين يقومون إذ ذاك على رعايته من علم وفلسفة ، لا لقصد بأن العرب أو المسلمين فلسفة خاصة لها شخصيتها المستقلة بادئ ذى بدء .

ثالثا : معرفة الأوربيين بالعلوم الدينية الإسلامية :

مما سبق من أمر انتشار اللغة العربية فى أوربا ، وأخذ العلم والفلسفة عن مصادر اسلامية ، ليؤهل فى غير شك للاتصال بالمعارف الدينية الإسلامية ، ولا سيما فى تلك الاعصر التى كان الطابع الدينى هو السائد للحياة فيها ، بل كان ابرز

(١) انظر فبورنتينيو : خلاصة تاريخ الفلسفة : ٢٧٨/١ .

(٢) انظر جوستاف لوبون : حضارة الغرب ص ٦١٨ .

(٣) م . جيوم تراث الاسلام : ٣٠٣/١ من الترجمة العربية .

(٤) المرجع السابق : ٣٠١/١ . ٣٠٢ من الترجمة العربية .

(٥) المرجع نفسة ، وراجع صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٤٣ ، ٤٤ .

مايهيمن عليها على انا نملك فوق ذلك اخبارا عن محاولات ايجابية فى أوربا للاتصال بالمعارف الدينية الإسلامية اتصالا خاصا ومباشرا ، ونقلها الى الغرب تعريفا له بها ، لاغراض مختلفة (١) .

ففى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، ترجم القرآن الى اللاتينية ، رغبة فى نقده ، ومناقشته ، إذ ان بطرس الفينزابلى الذى كان رئيس دير كولونيا بفرنسا منذ سنة ١١٢٢ م قد دعا الى ذلك فقام بتلك الترجمة روبرت الراتينى ، وهيرمان الدالماتى ، وتمت الترجمة فى سنة ١١٤٣ م ، وهى الترجمة التى طبعت فيما بعد ذلك بأربعة قرون فى مدينة بازل سنة ١٥٤٣م (٢) وعلى ذكر الحديث عن ترجمة القرآن فى الغرب ، نذكر اننا نجد خبرا عن ترجمة أخرى الى اليونانية فى وقت متأخر ، عن زمن الترجمة اللاتينية ، ولكنه على كل حال قبل الحركة الاخيرة للإصلاح ، إذ يروى ان ذلك قد تم فى القرن الرابع عشر الميلادى على يد يوحنا كانت كوزينى ، الذى كان امبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة ويعرف باسم يوحنا السادس ، ثم ترهب ودعى يوسف ، ويذكر كذلك ان راهبا يدعى ملاتيوس ، عاونه فى هذه الترجمة(٣) .

بل نجد ان القرآن نفسه لم يكن يعرف فى أوربا بتراجمه غير العربية فقط ، وإنما كان يقرؤه قسيسون بالعربية فى أوربا ، خلال القرن الثالث عشر ، على ماورد فى إحدى رسائل القسيس ريكولدو الايطالى المتوفى سنة ١٣٢٠م (٤) .

(١) انظر صلة الإسلام باصلاح المسيحية ص ١٠٤٥ .

(٢) مادة قرآن فى دائرة معارف الاديان والاخلاق ، ولويجى بونيللى فى مقدمة ترجمته الايطالية للقرآن المطبوعة سنة ١٩٢٩ ص ١٥ . وقد ذكر الاستاذ ترند فى كتاب تراث الاسلام جـ١ ص ٥٥ من الترجمة العربية ، أما روبرت هذا فهو احد مترجمى القرآن كان بين من زاروا مدرسة طليطلة وسماه « روبرت الانجليزى » .

(٣) الدرة النفسية فى شرح حال الكنيسة ص ٣٢١ .

(٤) هنرى دى كاسترو الاسلام خواطر وسوانح ص ١٥٦ من الترجمة العربية .

وكان للقس « بيتر» اثر كبير فى حركة الترجمة للقرآن الكريم ، حيث ظهرت له فى القرن الثانى عشر اربع تراجم قرآنية ، وكانت إحداها باللغة اللاتينية ، وكان الغرض من هذه الترجمة تشويه القرآن ، أولا ثم الرد عليه ثانيا ، وتفنيد مايترجم منه ثالثا (١) .

ثم ظهرت ترجمات أخرى باللغة الانجليزية والفرنسية ، منها ترجمة فرنسية قام بها « أندريه دى روير » عام ١٧٤٧ م ، ثم ترجمة جورج لرسالته التى نشرت عام ١٧٧٣ م واستفاد منها كل من ادوارد جيبون ، وتوماس كارليل وغيرهما من مؤلفاتهم الشهيرة عن الإسلام والغرب والقرآن ، ومحمد ﷺ ، واستفاد منها كل من أتى من بعدهم من المستشرقين (٢) .

ومن المسيحين اللاهوتيين فى الشرق و الغرب رجال عرفوا الاسلام أمثال : يوحنا الدمشقى ، والبطريق يحيى (ق ٨م) هو وأبوه وكانا فى قصر الخليفة الاموى «عبد الملك بن مروان» ، ثم تليمذه « تيودور أبو قرة » (ق ٨م) وهو اللاهوتى الضليع فى معرفة اليونانية والعربية ، والذى خلف ثلاثة وأربعين تآليفا عن الاسلام واليهودية، والمذاهب المسيحية (٣) ، هؤلاء فى الشرق ، وإن كان وجد غيرهم كثيرون عارفون بالاسلام ، أما فى الغرب فنجد بطرس الفيزابلى الداعي الى ترجمة القرآن الى اللاتينية ، يزور اسبانية سنة ١١٤١م فيدرس هناك أصول النظريات الإسلامية الدينية ، و(ريموند لول) الذى أوتى حظا وفيرا من معرفة العربية والدين الإسلامى ، مما كان له الاثر فيما ترك من مؤلفات ... و« لول » هذا هو الذى اسس مدرسة

(١) انظر صور استشراقية ص ٢٧ .

(٢) فلسفة الاستشراق ص ١٧٣ هامش ١ .

(٣) الخورى عيسى أسعد : كتاب الطرفة النقية ، ص ٢٠١ ، ج مور : كتاب تاريخ الاديان : ٢٥٧/٢ .

تبشرية فى (ق١٣م) تخرج منها رجالا يكافحون ضد الإسلام ، كما انشئت فى طليطلة لهذا الغرض عينه ، وتخرج فى تلك المدرسة « ريموند مارتن» – ق ١٣م – وكانت له معرفة بمؤلفى العرب ، ومعرف بالقرآن والسنة وكبار علماء الدين الإسلامى وعظماء فلاسفة الاسلام [(١)] .

تلك ظواهر من اتصال الغرب بالتفكير الدينى فى الإسلام ، والبحوث الاعتقادية عند أهله شرقا وغربا ظواهر تجعل ، معابر الثقافة الإسلامية الى أوربا حقيقة لاغموض فيها .

مكانة طليطلة الثقافية :

مما يلحظه الباحثون الغربيون أن اسبانيا الإسلامية كانت مرآة صافية يتجلى فيها شتيت المذاهب الإسلامية ، كما كانت أداة هامة فى نقل تأثير العرب الى الغرب[(٢)] .

وفى كتاب تراث الإسلام [(٣)] مانصه : « .. وقد استغرق تأثير الإسلام كل مرافق الحياة في اسبانيا فى القرن العاشر ، فلما سقطت طليطلة انتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوربا ، ذلك أن هذه الاخيرة كانت قد اصبحت شيئا فشيئا ، مركز الثقافة الإسلامية ، فى القرن الحادى عشر ، بعد ان خرب البربر قرطبة فى أوائل هذا القرن ، وبقى لها هذا المقام بعد الغزو المسيحى سنة ١٠٨٥ .. الخ » .

اثر الثقافة الإسلامية فى البيئة الألمانية :

لقد تأثر مصلحى المسيحية بالاسلام ، خاصة فى البيئة الالمانية إذ هى التى كانت ميدان معارك الاصلاح العملى للمسيحية ، فى دوره التنفيذى ، ففى حركة نقل

(١) أجيوم : تراث الاسلام : ٣٠١/١ من الترجمة العربية .

(٢) انظر المرجع السابق : ٢٧/١ من الترجمة العربية .

(٣) ج ١ ص٥٤ . من الترجمة العربية .

العلم الإسلامى الى أوربا ، قد رأينا ان ناصرها الاكبر ، إنما هو الامبراطور الملحد فردريك الثانى ، هو هنشتاوفن الالمانى ، الذي يعرف تاريخ الكنيسة اثر صراعه ، وصراع اسرته ، وما لحق البابوية بسبب ذلك من اضرار .

وميول هذا الامبراطور الشرقية العربية ، بل الاسلامية ، كانت مثلا غريبا فى أوربا فى العصور الوسطى اليونانية ، وظهر التأثير العربى فى تربيته وفى ميوله الشخصية والطبيعية ، وفى علاقاته بالعالم الثقافى الشرقى ، ولعظم التأثير العربى عليه كان يلقب « السلطان المعمد »[1] . ومنذ أعوامه الأولى كان يحيى على أسلوب عربى ، ويألف العادات العربية ، وقد أنشأ من عهد زواجه الأول مقاصير للسيدات - يسميها الكتاب الغربيون حريما [2] - وعلاقاته الودية مع الشرق ، ولاسيما مصر ، وتونس مما يلذ تتبع بحثه ويكشف عن درجة تغلغل روح الشرق فى أوربا خلال العصور الوسطى[3] .

كما أن والدة ألفونس الحكيم الذي هو ضريع فريدريك الكبير فى هذه الرغبات الشرقية الاتجاه ، والذى عمل بجد على نقل الثقافة الإسلامية الى أوربا ، نجد ان والدة الفونس هذا إنما هى أميرة - سفيفيا - المقاطعة البافارية ، التي منها فريدريك الثانى واسرته .

كما نجد ان الفيلسوف الشهير البرت الكبير[4] يمت بصلة واضحة الى فردريك الثانى أيضاً ، وليس الفيلسوف إلا ابن أحد أصدقاء هذا الامبراطور نفسه [5].

---

(١) رافاييل مورجن (Raffaello Marghen) استاذ تاريخ القرون الوسطى بجامعة روما : فى مادة فردريك الثانى هو هنشتاوفن دائرة المعارف الايطالية الجديدة .

(٢) رافاييل مورجن المرجع السابق .

(٣) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٥١ .

(٤) البير الكبير « ١٢٠٥ - ١٢٨٠» فيلسوف مدرسى ، وراهب دومينيكانى واسع الأطلاع حتى لقد اتهم بالسحر ، كجربرت سلفستر تلميذ العرب ، انظر المرجع السابق ص ٥١ هامش ٤ .

(٥) انظر صلة الإسلام بإصلاح المسيحية ص ٥١ .

وكذلك نجد القس توما الاكوينى الفيلسوف اللاهوتى ، إنما هو ابن أحد اقارب اسرة هذا الامبراطور هوهنشتاوفن أيضاً وكلا الفيلسوفين قد اصاب حظه من معرفة الثقافة الاسلامية والتأثر بها ، كما سبق بيانه آنفا .

من كل هذه الشواهد نقدر صلة البيئة الالمانية ، بالثقافة الإسلامية ، والمؤثرات الإسلامية ، ونرى أثر تلك البيئة يظهر فى قشتالة ، بأقصى المغرب الجنوبى فى أوربا ، كما يظهر فى إيطاليا جنوبا (١) .

من كل هذا يتجلى للقارئ الكريم التأثير الإسلامى الذى أوضحنا قوته فى أوربا بعامة ، وان كان واضحا قويا فى البيئة الجرمانية خاصة أى الميدان الأخير للإصلاح(٢) .

(١) انظر المرجع نفسه .

(٢) انظر المرجع نفسه .

واحب ان اضيف الى ماسبق ماقاله الشيخ عبد الواحد يحى [1] ، اذ كتب فى مقال له بعنوان :

أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب :

بين فيه فضل الثقافة الإسلامية على أوربا إذ يقول :

---

(١) كان اسمه : « رينيه جينو » نشأ فى فرنسا من اسرة كاثوليكية ، ثرية محافظة ، نشأ مرهف الحس، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان متجها بطبعيته الى التفكير العميق ، والبحوث الدقيقة، وهاله حينما نضج تفكيره ماعليه قومه من ضلال ، فأخذ يبحث فى جد عن الحقيقة ، ولكن اين هى ؟ أفى الشرق أم فى الغرب ؟ وهل هى فى السماء أو فى الارض ؟ أين الحقيقة ؟ سؤال وجهه « رينيه جينو» الى نفسه » ... كما وجهه من قبله من المفكرين الذين أبوا ان يستنيموا للتقليد الاعمى .. وتأتى فترة الشك والحيرة والألم الممض ، ثم يأتى عون الله سبحانه، وكان عون الله تعالى ، بالنسبة الى « رينيه جينو » أن بهرته اشعة الإسلام الخالدة ، وروحانياته التليدة ، وغمره ، ضياء الإسلام الباهر ، فاعتنقه ، وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحى ، وأصبح جنديا من جنوده يدافع عنه ويدعو الى . انظر للشيخ الدكتور عبد الحليم محمود أوربا والإسلام ص ٦٥ .

ومن أمثلة ماكتبه فى كتابه « رمزية الصليب » تفنيدا للفرية التى تقول : إن الإسلام انتشر بالسيف ، ومن أمثلة ذلك ايضاً ماكتبه فى مجلة « كاييه دى سود » فى عددها الخاص بالإسلام والغرب : دفاعا عن الروحانية الإسلامية .

لقد انكر الفربيون روحانية الإسلام ، أو قللوا من شأنها وأشادوا بروحانية المسيحية ، وأكبروا من شأنها .. على ان الشيخ أحمد عبد الواحد يحى لم يشد بالإسلام فحسب وإنما اشاد فى جميع كتبه ، وفى مواضع كثيرة بالشرق الإسلامى . انظر أوربا والإسلام ص ٦٦.

لقد دأب الاستعمار .. على ان يغرس فى نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة ، بل أقل انسانية من الغربيين وأتى الشيخ عبد الواحد يحيى فقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية ، ومشرق الوحى والإلهام . راجع أوربا والاسلام ص ٦٦ .

إن كثيرا من الغربيين لم يدركوا قيمة ماقتبسوه من الثقافة الإسلامية ، أو يفقهوا حقيقة ما أخذوه عن الحضارة العربية في القرون الماضية ، بل ربما لم يدركوا منهما شيئا مطلقا ، وذلك لأن الحقائق التي تلقى اليهم ، حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل ، فإنها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية والتقليل من قدر المدنية العربية كلما اتاحت الظروف اصحابها ذلك .

ويلاحظ أن دراسة التاريخ في المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير ، بل ان الحقائق تناولتها يد التحريف والتحوير قصدا فى كثير من الحوادث عظيمة الشأن جليلة الخطر .

مثال ذلك ماهو شائع معروف – عندهم – من أن اسبانيا ظلت تحت الحكم الاسلامى عدة قرون ، بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط أن صقلية والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامى ايضاً ، وربما عزا البعض هذا الاهمال من المؤرخين الى تعصبهم الدينى ، ولكن ماهى حجة المؤرخين المعاصرين – وغالبهم لادينى – فى موافقتهم اسلافهم فى قلب الحقائق ؟

لهذا ينبغى ان ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم ، مما منعهم عن إدارك الحقائق الصحيحة ، ومقدار ماهم مدينون به للشرق ، والاغرب من ذلك كله انه بينما يعتبر الاربيون انفسهم الورثة المباشرين للمدينة اليونانية القديمة ، فإن الحق يدحض زعمهم هذا : إذ ان الواقع المعروف من التاريخ نفسه ، يثبت لنا ان علوم اليونان وفلسفتهم لم تنتقل الى الأوروبيين الا بواسطة المسلمين ، وبعبارة أخرى ، لم تصل المخلفات العقلية لليونانيين الى الغرب ، إلا بعد ان درسها الشرق [1] .

(١) انظر أوربا والإسلام ص ٦٦ ، ٦٧ .

ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم زمنا طويلا بل ربما لم يدركوها كلية ، وينبغى ان نلاحظ أننا نبحث هنا عن مقدار تأثير الحضارة الإسلامية ، لا العربية فحسب ، كما يختلط على البعض احيانا ، وذلك لأن معظم من حاولوا نقل هذه الثقافة الاسلامية لم يكونوا من العرب الخلص ، واذا كانت لغتهم عربية ، فان ذلك ناتج عن تأثيرهم بدينهم الاسلامى ، ومادمنا قد ذكرنا اللغة العربية، فاننا نلاحظ دليلا واضحا يثبت لنا انتقال المؤثرات الإسلامية فى الغرب : وهو تلك الكلمات العربية الاصل والمنبت التى تستعمل تقريبا فى كل اللغات الأوربية ، بل مازالت تستعمل حتى وقتنا هذا ، على ان معظم الغربيين الذين يستعملونها يجهلون حقيقة مصدرها كل الجهل .

وربما ان الكلمات هى التى تستعمل لنقل الافكار واظهار ماتكنه النفوس ، فان من السهل علينا جدا ان نستنتج انتقال تلك الافكار والاراء الاسلامية نفسها ، وفى الحق ان تأثير الحضارة الاسلامية قد تناول لدرجة بعيدة وبشكل محسوس ، كل العلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وغير ذلك ، وقد كانت بلاد الاسبان مركز الوسط الهام الذى انتشرت منه تلك الحضارة ، ونرى مقدار ماخلفته الثقافة الاسلامية فيها ومن ثم نركز فى بحثنا على بعض النقاط نعتقد انها من الاهمية بمكان ، وإن قل من يدركها فى وقتنا هذا .

أما عن العلوم فمن السهل ان نفرق بين العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية، فأما عن الأولى فانا نعلم علم اليقين انها انتقلت بكلياتها وجزئياتها الى أوربا عن طريق الحضارة الاسلامية مصبوغة بالصبغة الاسلامية تماما ، فالكيمياء احتفظت دائما باسمها العربى والذى كان له معنى من اعمق المعانى التى لم يعرفها الكيميائيون الحديثون حقيقة .

ولنضرب مثلا آخر ، ذلك علم الفلك فان اكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظة فى كل اللغات الأوروبية بأصلها العربى ، كما ان كثيرا من النجوم مايزال علماء الفلك فى كل الامم يطلقون عليها اسماءها العربية .

وهذا يرجع الى ان مؤلفات الفلكيين اليونانيين القدماء مثل بطليموس الاسكندرية ، كانت معروفة فى التراجم العربية ومجتمعة مع المؤلفات الإسلامية .

ومن السهل جدا ان نوضح ان كثيرا من المعارف الجغرافية الخاصة بالمناطق السحيقة فى اسيا وافريقيا عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرا من الاقطار وحملوا معهم معلومات جمة .

أما من ناحية الاختراعات - وهى تابعة للعلوم الطبيعية - فقد انتقلت ايضاً بنفس الطريق أى بواسطة المسلمين ، وماتزال قصة الساعة المائية التى أهداها الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور شالمان عالقة بالاذهان ثابتة الوقائع .

أما الرياضيات فيجب ان نعيرها التفاتا خاصا ، وذلك لأهميتها في هذا البحث ، فان ميدانها الواسع لا نرى فيه علوم اليونان فحسب ، بل نرى فيه اكبر الاثر للثقافة الاسلامية ، مضافا اليها علوم الهند ايضاً . أما اليونانيون فقد بلغوا درجة الكمال فى الهندسة وعلم الارقام ، ويلاحظ ان الاخير يرتبط دائما مع الأول فى الاشكال عليها اسماؤها العربية .

وهذا التفوق الذى كان للهندسة يظهر لنا جليا فى الجملة التى حفرها افلاطون على مدخل مدرسته : (لا يدخله الا عالم بالهندسة) .

ولكن يوجد علم آخر من الرياضيات يتبع علم الارقام ولكنه لم يكن معروفا - كالعلوم الاخرى - فى اللغات الأوروبية بالاسم اليونانى : لأنه لم يكن معروفا بين اليونانيين القدماء : هذا هو علم الجبر الذى كان مصدره الأول الهند ، والذى يسهل علينا من اسمه العربى أن نعرف طريق انتقاله الى الغرب .

حقيقة أخرى حان وقت ذكرها ولو انها قليلة الاهمية ، ولكنها تدل ايضاً على ماقدمنا وهى أنه من الشائع في كل مكان ان الارقام التى يستعملها الأوروبيون هى نفس الارقام التي استعملها العرب ، ولو ان مصدرها الأول هو الهند ، لأن علامات العد التى كان العرب يستعملونها قديما ماهى الا حروف الهجاء نفسها .

واذا انتقلنا من بحث العلوم الى بحث الفنون ، فاننا نلاحظ ان كثيرا من المعانى التي جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين فى الأدب والشعر ، قد اخذت واستعملت في الادب الغربى ، بل أكثر من هذا فان بعض كتاب الغرب وشعرائه قد قلدوا تمام التقليد بعض كتاب المسلمين وشعرائهم .

كذلك نلاحظ ان أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة فى فن البناء ، وذلك فى العصور الوسطى : فمن ذلك شكل القوس المعقود الذى صار متميزا بنفسه حتى صار يدل على طريقة خاصة للبناء كان يستعمل فيها ، وقد كان مصدره فن البناء الاسلامى ولو ان كثيرا من النظريات الخيالية اخترعت لمخالفة هذه الحقيقة ، ومما هدم هذه النظريات وجود رواية يتناقلها دائما البناؤن انفسهم ، وهى تثبيت انتقال هذه الطريقة من الشرق ، وقد كان لهذه الحقيقة صفة سرية جعلت لفتهم معنى رمزيا ، فكانت ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم الارقام ، وقد نسب هذا العلم فى مصدره الأول لهؤلاء الذين بنوا هيكل سيدنا سليمان .

ومهما يكن من أمر هذا المصدر البعيد فلا يمكن بحال ما أن يكون انتقاله الى أوربا الا بواسطة العالم الاسلامى ، ومما يحسن ذكره ان هؤلاء المعماريين – وقد كانوا هيئات متحدة لها شعائر خاصة – كانو يعتبرون انفسهم كأنهم اجانب في الغرب حتى في مساقط رؤوسهم ، وقد ظلت هذه التسمية حتى الان ، على ان هذه الامور صارت غير معروفة الا للقليلين جدا [١] . (مازال الحديث للشيخ أحمد عبد الواحد) .

(١) نقلا المرجع السابق ص ٧٠ .

فى هذه النظرة العجلى ، ينبغى ان نذكر بصفة خاصة نوعا اخر هو الفلسفة، قد بلغ التأثر الاسلامى فيها فى القرون الوسطى مبلغا عظيما لم يستطع اشد خصوم الشرق تعصبا ان ينكر قوته .

والفلسفة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت باسم « الفلسفة المدرسية » كانت تتميز بها الفلسفة الإسلامية واليهودية المسيحية (١) .

ولكن من الإسلامية استمد النوعان الاخران مصدرهما ، بل ان الفلسفة اليهودية وهى التى ازدهرت فى اسبانيا كانت لغتها عربية (٢) .

المؤثرات الإسلامية فى مؤلفات دانتى :

بدأ هذا النوع يتضح لبعض الاوروبين أنفسهم ، وذلك خلال دراساتهم لاشعار « دانتى » الايطالى ، ولكنهم لم يدركوا ماهية طبيعتها الحقة ، ومنذ سنين عدة كتب المستشرق الاسبانى . « دون ميجيل آسين بلا ثيوس» كتابا عن المؤثرات الإسلامية فى مؤلفات « دانتى » جاء فيه ان جزءا كبيرا من الرمز ، والاشارات التي استعملها « دانتى » كان يستعملها قبله بعض المحققين والكتاب المسلمين (٣) .

هذا من كل من أثر الثقافة الإسلامية في الغرب ، ولكن الغربيين لايريدون أن يعترفوا به في وضوح ، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم ، ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التى يريدون اخفائها » (٤) .

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ٧١ .

(٤) نقلا عن المرجع نفسه ص ٧٢ .

وأثر الحضارة الإسلامية على أوروبا موضوع كتب فيه الان كثيرون من زوايا مختلفة ، ونحب الان ان نضيف الى ماكتبه الشيخ عبد الواحد ، رأى الاستاذ بريفولت ، وقد أورده الدكتور محمد اقبال فى كتابه بناء الانسانية ، وقدم له مقدمة تبين ان الإسلام دعا الى التجربة والملاحظة والاستقراء ، أى أنه دعا الى المنهج العلمى الحديث فانتشر فى ربوع الحضارة الإسلامية ، ثم انتقل من حضارة الإسلام ، غازيا أوروبا ، فكان السبب فى نهضتها ، ثم يقول : فالزعم بأن أوروبا هى التى استحدثت المنهج التجريبى ، زعم خاطئ يقول دوهرنج : « ان اراء روجر بيكون ، فى العلوم ، أصدق وأوضح من اراء سميه المشهور .

ومن اين استقى روجر بيكون ماحصله فى العلوم ؟ من الجامعات الاسلامية فى الاندلس . والقسم الخامس من كتابه الذى خصصه للبحث فى البصريات هو فى حقيقة الامر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وكتاب بيكون ، فى جملته ، شاهد ناطق على تاثره بابن حزم (١) .

لقد كانت أوروبا بطيئة نوعا ما فى ادراك الاصل الاسلامى لمنهجها العلمى ، واخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة ، وسأتلو عليكم فقرة أو فقرتين من كتاب : « بناء الانسانية » الذى الفه بريفولت .

يقول بريفولت : « ان روجر بيكون درس اللغة العربية ، والعلم العربى ، والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الاندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى ان ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة .

(١) المرجع السابق ص ٧٢ .

والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لاصول الحضارة الأوربية .

وقد كان العلم اهم ماجادت به الحضارة العربية لى العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

أن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها الا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلم الظلام [1] .

ولم يكن العلم وحده هو الذى اعاد الي أوروبا الحياة ، بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من موثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة اشعتها الى الحياة الأوربية (ص ٢٠٢) فانه على الرغم من انه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوروبى الا ويمكن ارجاع اصلها الى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ، فان هذه المؤثرات توجد أوضح ماتكون وأهم ماتكون ، فى نشأة الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره - أى فى العلوم الطبيعية ، وفى روح البحث العلمى - (ص ١٩٠) [2] .

إن مايدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية باكثر من هذا ، أنه يدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم ، كما رأينا ، لم يكن للعلم فيه وجود .

وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم ، كانت علوم اجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية [3] .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

« لوكان الاسلام الحقيقى معروفا فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال – اكثر من أى دين آخر – من العطف والتأييد ، من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه – والحق يقال – يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم ، فهو ببساطته المتناهية يهدى علماء أوروبا وآسيا الى الطريق المستقيم ، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير ان يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم .

كما انه تعزية وهدى لزنوج السودان – وغيرهم – الذين ينتزعهم من احضان أوهامهم الوثنية(٢) .

يقول فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين : « نهض الاسلام بالعقول من وهدة الخمول واذن لها ان تبحث فى كل علم ، وتذهب فى البحث كل مذهب ، فوجدت الامم من العرب وغير العرب فى هذه السماحة ما اثار نشاطهم للبحث فى كل ناحية من نواحى العلم ، فلم يلبثوا ان جمعوا القرآن الكريم في مصحف ، ودونوا الحديث النبوى بعد ان كان محفوظا فى الصدور ، وكتبوا فى تفسير القرآن ، وشرح السنة النبوية ، وحققوا النظر فى تقرير أصول الدين واصول الفقه ، وحرروا وجوه استنباط الاحكام العلمية ، ووضعوا ازاءها العلوم العربية من النحو ، والصرف ، والبيان وفقه اللغة ، ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها ، فاصبحت بلاد الاسلام – ولاسيما عواصم الممالك ، كبغداد ، وقرطبة ، ومصر ، ودمشق ، وتونس ، موارد العلوم الاسلامية والادبية والكونية ، ومن هذه الموارد استحدثت الامم الأوروبية معارفها وفنونها ، وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوروبا المنصفين .

قال الاستاذ بريفوت الانجليزى ، فى كتابه « تكوين الانسانية » « فى القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الاسلام » ، وقال : ان رئيس دير كلوتى

(١) نقلا عن المرجع نفسه ص ٧٦ .

يأسف على أنه رأى أثناء أقامته بالاندلس الطلبة من فرنسا والمانيا وانجلترا ، يرون افواجا افواجا، الى المراكز العلمية العربية » وقال : فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر » (١) .

« ولم يكن فضل الاسلام علي أوروبا من ناحية العلم فقط ، بل كان له الفضل على نهضتها المدنية ، قال الاستاذ بريفوت فى الكتاب المذكور : « لم تكن ايطاليا مهدا لحياة أوروبا الجديدة ، بل اسبانيا (الاندلس) لأن أوروبا كانت بلغت أشد اعماق الجهل والفساد ظلمة بينما العالم العربى ، بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وطليطلة كان مركز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي نمت فى شكل ارتقاء انسانى جديد» (٢) .

وخلاصة القول : ان دعوة خاتم النبيين ، ﷺ ، قد اتت العالم بضروب خطيرة من الاصلاح لم يأته بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها فما يوجد فى العالم من هداية صادقة ، أو علوم نافعة أو مدنية فاضلة ، فانما يوجد الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم(٣) .

فليرفع الفتى المسلم رأسه معتزا بدين رفع الانسانية من حضيض الجهل الى أوج العلم ، وهداها سبل السعادة الباقية والمدنية المهذبة (٤) : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ؟ » (٥) لا أحد .

---

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٧٩ هامش ١ .

(٢) نقلا عن نفس المرجع .

(٣) نقلا عن نفس المرجع .

(٤) نقلا عن نفس المرجع .

(٥) فصلت : ٣٣ .

منهج المسلمين فى المدن المفتوحة

بدأت فتوح العرب ، وقد استوقف العالم الذى فتحه أتباع النبى ﷺ خيالهم المضطرم ، فأخذوا يدرسون الآداب والفنون والعلوم بمثل نشاطهم فى فتوحهم ، ولم يلبث الخلفاء ، بعد ان شادوا دولتهم ، أن انشأوا فى جميع المدن المهمة مراكز للتعليم وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة اشهر الكتب ، ولا سيما كتب اليونان .

ولم يدم اكتفاء العرب بما نقل الى لغتهم طويلا ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ، على الخصوص ، ليستقوا منها علوم اليونان ، ثم تعلموا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية فى إسبانية كما يشهد بذلك مافى مكتبة الاسكوريال من المعجمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الاسبانية التى الفها علماء من المسلمين (١).

كان العرب اذا ما استولوا على مدنية صرفوا همهم الى انشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها وإذا ماكانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التى روى بنيامين التطلى المتوفى سنة ١١٧٣م أنه شاهدها فى الاسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة ، الخ، على جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية ، وكل مايساعد على البحث العلمى ، وكان للعرب فى اسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة ، وكان في مكتبة الخليفة الحاكم الثانى بقرطبة ستمائة الف كتاب منها أربعة واربعون مجلدا من الفهارس كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل فى سبب ذلك ، ان شارل الحيكم لم

(١) انظر حضارة العرب ص ٤٣٣ – ٤٣٤ .

يستطع ، بعد أربعمائة سنة ، ان يجمع في مكتبه فرنسه الملكية اكثر من تسعمائة مجلد يكاد ثلثها يكون خاصا بعلم اللاهوت (١) .

قال مسيو سيد يو : « إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد فى البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة لأعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق فى الحوادث تدقيقا مؤديا الى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لايثبت بغير التجربة مبادئ قال بها اساتذة من العرب ، وكان العرب ، فى القرن التاسع من الميلاد ، حائزين لهذا المنهاج المجدى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى أروع الاكتشافات » (٢) .

كما قام منهاج العرب على التجربة والترصد ، وسارت أوربة القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على تكرار رأى المعلم ، والفرق بين النّهجين أساسى ، ولايمكن تقدير قيمة العرب العلمية الا بتحقيق هذا الفرق .

واختبر العرب الأمور وجربوها ، وكانوا أول من ادرك أهمية هذا المنهاج فى العالم وظلوا عاملين به وحدهم زمنا طويلا . قال دو لُنْبر فى كتاب «تاريخ علم الفلك»: « تعد راصدين أوثلاثة بين الاغارقة وتعد عددا كبيرا من الرصاد بين العرب » ، وأما فى الكيمياء فلا تجد مجربا يونانيا مع ان المجربين من العرب يعدون بالمئات .

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلفاتهم دقة وإبداعا لا ينتظر مثلهما من رجل تعود درس الحوادث فى الكتب ، ولم يبتعد العرب عن الابداع الا فى الفلسفة التى كان يتعذر قيامها على التجربة (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٤٣٤ .

(٢) نقلا عن حضارة العرب ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٧ .

من أمثال العرب

حظيت الأمثال العربية بالعناية والاهتمام ، ومن أمثالهم اقتبست اسبانية وبقية أوربة عددا من الامثال غير قليل ، ومن يدقق فى حكمة (سانكو بانسا) ير قسمها الكبير ، الذى لاينضب معينه من أصل إسلامى .

وإننى ، تنويرا للقارئ ، انقل بعضها الآتى من كتاب مسيو پياس :

« العيش تحت جناح الذبابة خير من النوم فى الجبانة » .

« استفد من شبابك فالعمر قصير » .

« انس همومك فى ليلتك مادمت جاهلا مافى غدك » .

« عاشر حدادا تُضرج بالسناج (١) ، وعاشر عطارا تنل شذا الأزهار » .

« خشبة تلهب المحبة » .

« من يتزوج أمرأة من أجل جمالها يخدع ، ومن يتزوجها من أجل مالها يطمع، ومن يخترها من أجل رشادها يُمتع » .

« إذا ما أحبكم النساء فتحن لكم الأسداد ، وإذا ماكرهنكم أقمن أمامكم سورا من خيط العنكبوت كأنه من صنع حداد » .

« راحة بال مع فقر خير من هم مع يسر » .

« لا تدخل الذبابة فماً يستطيع السكوت » .

(١) السناج : أثر دخان السراج فى الحائط .

« التدبير نصف المعيشة ، وقد يكون به كل المعيشة » .

« لاتلد الفارة إلا فارة » .

« الشجرة التى تخرج الورد تخرج الشوك » .

« شاور من يبكيك لامن يضحك » .

« فى الصلاح سر النجاح » .

« ثلاثة خير من ثلاثين : الجمال والتقوى وكتمان الهوى »

« منهومان (١) لا يشبعان : طالب علم وطالب مال »(٢) .

خضع الشرق لكثير من الشعوب ، كالفرس ، والاغارقة والرومان الخ .

وماكان من تهافت المصريين على نبذ النصرانية ودخولهم فى الإسلام يثبت درجة ضعف تاثير النصرانية فيهم .

وما وفق العرب له فى مصر من التأثير البالغ اتفق لهم مثله فى كل بلد خفقت فوقه رايتهم كإفريقية وسورية وفارس ، الخ ، وبلغ نفوذهم بلاد الهند التى لم يدخلوها إلا عابرى سبيل ، وبلغ بلاد الصين التى لم يزوروها الا تجارا .

ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب (٣) .

---

(١) المنهوم : ذو النهم من نهم فى الأكل : شره وحرص وافراط فيه .

(٢) انظر حضارة العرب ص ٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٣) انظر حضارة العرب ص ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

تأثير العرب العلمى والأدبى فى الغرب :

أن تأثير العرب فى الغرب كان عظيما ، وأن أوربة مدينة للعرب بحضارتها ، والحق ان تأثير العرب فى الغرب ليس أقل منه فى الشرق ، ولكن بمعنى آخر ، فأما تأثيرهم فى الشرق فتراه باديا فى أمر الدين واللغة والفنون على الخصوص ، وأما تأثيرهم الدينى فى الغرب فتراه ضعيفا ، وترى تأثيرهم الفنى واللغوى فيه ضعفا ، وترى تأثيرهم العلمى والأدبى والخلقى فيه عظيما .

ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب فى الغرب إلا بتصور حال أوربة حينما أدخلوا الحضارة اليها إذا رجعنا الى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الإسلامية فى اسبانية ساطعة جدا . رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرو بأنهم لايقرأون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم فى أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع ، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ماهو ضرورى لنسخ كتب العبادة (١) .

وظلت همجية أوربة البالغة زمنا طويلا من غير ان تشعر بها ، ولم يبد فى أوربة بعض الميل الى العلم الا فى القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر فيها أناس رأوا ان يرفعوا اكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا ائمة وحدهم .

دخلت العلوم أوربة من اسبانية وصقلية وايطالية ، وذلك ان مكتبا للمترجمين في طليطلة بدأ ، منذ سنة ١١٣٠ م ينقل أهم كتب العرب الى اللغة اللاتينية تحت

---

(١) انظر حضارة الغرب ص ٥٦٦ .

رعاية رئيس الاساقفة « ريمون » ، وأن اعماله فى الترجمة كللت بالنجاح ممابدا للعرب بها عالم جديد ، ولم يتوان الغرب فى أمر هذه الترجمة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر من الميلاد ولم يقتصر الغرب على ترجمة مولفات علماء العرب ، كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد ، الخ ، الى اللغة اللاتينية، بل نقلت اليها ، ايضاً ، كتب علماء اليونان التى كان المسلمون قد ترجموها الى لغتهم الخاصة ككتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وارسطو واقليدس وارشميدس وبطليموس ، فزاد عدد ماترجم من كتب العرب الى اللغة اللاتينية على ثلاثمائة كتاب كما روى الدكتور لوكلير فى كتابه « تاريخ الطب العربى » .

والحق ان القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليونانى القديم الا من ترجمتها الى لغة اتباع محمد ﷺ وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها كتاب أبلونيوس فى المخروطات وشروح جالينوس فى الأمراض السارية ، ورسالة ارسطو فى الحجارة ، الخ .

وانه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمنية اعترافا ابديا ، قال مسيو ليبرى : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة فى الآداب عدة قرون » (١) .

لأنه لم يكن فى العالم فى ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ما خلا الشرق الإسلامى طبعا ، وبلاد الاندلس التى كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم فى الحقيقة ، ونذكر منهم ، على حسب بعض

(١) انظر حضارة العرب ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

الروايات التى هى موضوع جدال من غير ان يثبت عدم صحتها ، (جربرت) الذى صار بابا في سنة ٩٩٩م باسم (سلفستر) الثانى ، والذى اراد أن ينشر فى أوربة ماتعلمه فعد الناس عمله من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه من الشيطان (١) .

فإذا مانطقت الحقيقة فإنها تقول :

« إن فضل الشرق فى تأثيره فى الغرب يعود الى العرب وحدهم » (٢) .

وقد يسأل أحد القراء بعد كل ماتقدم : لم ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار دينى كما يلوح ؟ والجواب من كلام العلامة غوستاف لوبون نفسه حيث يقول : « إن استقلالنا الفكرى لم يكن فى غير التظاهر بالحقيقة ، واننا لنسا من احرار الفكر فى بعض الموضوعات كما نريد .

« فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصية العصرية التى كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية ، والشخصية القديمة غير الشاعرة التى جمدت وتحجرت بفعل الاجداد وكانت خلاصة لماضٍ طويل ، والشخصية غير الشاعرة وحدها ، ووحدها فقط ، هى التى تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة ، وتملى عليهم آراءهم ، فيلوح ماتمليه عليهم من الآراء حرا فى الظاهر فيحترم .

والحق ان اتباع محمد ﷺ ظلوا اشد من عرفته أوربة من الأعداء أرهابا عدة قرون ، وانهم عندما كانوا لايرُعوننا بأسلحتهم ، كما فى زمن شارل مارتل

(١) المرجع السابق ص ٥٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧١ .

والحروب الصليبية أو يهددون أوربة بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس » [1] .

لعلك أيها القارئ الكريم عرفت سر بغض الغرب للإسلام والمسلمين ، إنهم لم ينسوا مكانة العرب المسلمين أيام كانوا متمسكين بدينهم كانت القوة تمشى فى ركابهم ، والثقافة بألوانها المختلفة تزين خطواتهم حتى غزت ثقافتهم أقطار الغرب المختلفة ، وقد ينفس الطالب على استاذه إذا شعر بضآلته نحوه ، أما بعض علماء الغرب العقلاء والذين أوردنا لهم بعض النصوص التى يعترفون فيها بفضل حضارة العرب الثقافية ، والمادية فهم أرجعوا الفضل لأهله .

ويضيف الدكتور غوستاف لوبون الى ماسبق من موقف من العرب وحضارتهم الثقافية مايلى :

« وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين فى قرون كثيرة وصارت جزاء من مزاجنا وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفى أحيانا والعميق دائما .

« ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى أن أوربة النصرانية مدينة لأولئك الكافرين فى خروجها من دور التوحش ، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة [2] .

---

(١) انظر حضارة العرب ص ٥٧٧ .

(٢) حينما تلتقى المبتسرات الموروثة والثقافة فى العالم الفاضل ، ولا يدرى على أيهما يعتمد فى وزن الأمور ، يتجلى فيه مايجتمع فى شخص واحد من الذاتية القديمة التى هى وليدة الماضى، والذاتية العصرية التى هى وليدة المشاهدة الشخصية فيصدر عنه من الآراء المتناقضة مايستوقف النظر ، ومن ذلك التناقض : المثال البارز الذى يجده القارئ فى الخطبة التى القاها الكاتب اللبق والعالم الفاضل مسيو (رينان) فى السوربون عن الإسلام ، والتى اراد مسيو (رينان) ان يثبت فيها عجز العرب ، ولكن ترهاته كانت تنقض بماكان يجئ فى الصفحة =

نختم هذا الفصل بقولنا إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم فى العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم ، وأن العرب هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقى ، وإن العرب هم الذين فتحوا لأوربة ماكانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافى ، فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون (١) .

=

التى تليها فبعد ان قال مسيو رينان مثلا : إن تقدم العلوم مدين للعرب وحدهم مدة ستمئة سنة، وذكر ان عدم التاسمح مما لم يعرفه الإسلام إلا بعد ان حلت محل العرب شعوب متأخرة كالبربر والترك ، عاد فادعى أن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة وقضى على العقل فى البلاد التى دانت له . بيد أن ناقدا بصيرا كمسيو رينان لا يستطيع ان ينام مدة طويلة على مثل ذلك الزعم المناقض لأوضح مارواه التاريخ ، فذهبت عنه مبتسراته الموروثة ثانية ، ورجع يعترف بتأثير العرب فى القرون الوسطى ويشهد بتقدم العلوم فى بلاد الاندلس ايام سلطانهم .

ومن دواعى الأسف أن تغلبت على رينان مبتسراته غير الشاعرة بعد ذلك سريعا فصار يزعم ان علماء العرب ليسو عربا ، بل « من ابناء سمرقند وقرطبة واشبيلية ، الخ . » مع ان الواقع ان تلك البلاد مما ملكه العرب ، وان الدم العربى مما جرى فى عروق ابنائها ، وان علوم العرب مما كان لها نصيب منه زمنا طويلا ، وأنه إذا أبيح لأحد ان يجادل فى الاثار التى صدرت عن مدارس العرب ، كان ذلك من قبيل اباحيته لنفسه ان يجادل فى مؤلفات علماء فرنسة بحجة أنهم من الشعوب الكثيرة التى تألف من مجموعها الشعب الفرنسى ، كالنورمان والسلت والاكتيان .... الخ .

ثم يظهر الكاتب الفاضل مسيو (رينان) أسيفا ، أحيانا ، على سوء رأيه فى العرب ، ويصل النتيجة غير المنتظرة الاتية التى تنم ، كذلك ، على مابين ذاتيه الانسان القديمة وذاتيته العصرية من التنازع ، ويأسف على أنه ليس من اتباع النبى ، فيقول « إننى لم أدخل مسجدا من غير ان اهتز خاشعا أى من غير ان أشعر بشئ من الحسرة على أننى لست مسلما » . حضارة العرب ص ٥٧٩ هامش (١)

(١) المرجع السابق ص ٥٧٨ ، ٥٧٩ .

وفى ختام الحديث عن المعابر أقول : إنه لا مراء فى أن أثر ثقافة المسلمين في النهضة الأوربية واضح ، لايجحده إلا مكابر ، فقد كانت للمسلمين عقيدة واضحة - ومازالت - وفلسفة للحياة الانسانية ، وكان لهم نظام حكم ، اشاع روح العدل والانصاف والتسامح ، فتعايش الناس ذوو العقائد المختلفة والأجناس المتباينة ، متجاورين ، يسودهم الأمن والسلام والمحبة ، فتجاور المسجد والكنيسة .. لقد أوجدوا البيئة التى تسمح بنمو روح الأخاء والتسامح ، وبعد ان اغلقت أوربا - العصور الوسطى - أكاديمية أفلاطون فى أثينا سنة ٥٢٩ م قامت مساجد اسبانيا وجامعات فرنسا وصقلية بفضل جهود المسلمين وعلمهم بحمل مشاعل الابتكار فى العلم والفن والفلسفة الانسانية ، وظل المسلمون قرونا متطاولة يحملون رسالة العلماء والخبراء والصناع على أرض فرنسا واسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية [١] .

ومجمل القول إن العلماء المسلمين في العصر الإسلامى ، قاموا بدورهم في بناء النهضة العلمية العالمية ، وقدموا لأوربا : زاد نهضتها وكانوا كما قال (البنديت جواهر لال نهرو فى كتابه لمحات من تاريخ العالم :

« كانوا بحق آباء العلم الحديث ، وإن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوربية - عدا قرطبة - عاصمة اسبانيا العربية ، وأنه كان لابد من وجود : ابن الهيثم ، وابن سينا والخوارزمى والبيرونى لكى يظهر : جاليليو [٢] ، وكبلر [٣] ،

(١) انظر أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٥ .

(٢) عالم ايطالى اشتهر فى علوم الطبيعة ، والطب والرياضة والفلك ، ومكتشف قوة الجاذبية الأرضية (ت سنة ١٦٤٢ ، وكف بصره تماما فى سنة ١٦٣٧) راجع أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الانسانية ص ١٥٦ هامش ٥ ..

(٣) عالم فلكى رياضى ألمانى مشهور ولد سنة ١٥٧١ أكتشف ثلاثة قواعد لحركة الكواكب التى تعد أساسا فى علم الفلك الحديث . انظر اثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الانسانية ص ١٤١ هامش٢ .

وكوبرينيك[١] ونيوتن[٢] .. » .

العوامل التى ساعدت المسلمين على التفوق العلمى :

لقد ساعد العلماء المسلمين على هذا التفوق أربعة عوامل كما يقول الاستاذ أحمد الملاوهى[٣] .

أولاً : حرية الرأى العلمى ، فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمى .

ثانيا : رعاية الحكام والولاة للعلم والعلماء ، وانفاقهم بسخاء فى هذا المجال .

ثالثا : استعلاء العلماء بعلمهم ، وزهدهم فى الترف والسلطان .

رابعا : الاستعداد الذهنى مع الصبر والمصابرة - المثابرة - حتى ان اعمال العالم منهم (مؤلفاته) تعد بالعشرات فى أغلب الاحيان واليك أقوال منصفى الغرب الذين اعترفوا بقيمة الإسلام الحضارية .

جاءت فى كتاب (القيم الخالدة فى الإسلام) للعالم الشهير « اميل درمنجم» :

« إن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية ، نظامها الاجتماعى يقوم على أسرة متماسكة ، ونظامها الاقتصادى يعتبر المال وسيلة لاغاية ، ويحترم الملكية

---

(١) عالم فلكى شهير ولد فى اقليم بروشياسة ١٤٧٣ ، ت ١٥٤٣ م ويعد مؤسس علم الفلك الحديث وفى سنة ١٥٠٠ شاهد أول مرة كسوف القمر فى روما وفى سنة ١٥٣٠ أتم كتابه الذى أثبت فيه ان الشمس مركز الكون انظر المرجع السابق ص ١١٥ هامش ١.

(٢) هو العالم الفيلسوف الفلكى الانجليزى اسحاق نيوتن الشهير ولد فى ١٦٤٢م ، ت فى ١٧٢٧م وهو مكتشف الجاذبية ، واخترع المنظار العدسى ، وكان ماهرا فى علم الرياضة ، وكان يجارى معاصره الفيلسوف والرياضى الالمانى الكبير « ليبنتر » . انظر المرجع السابق ص ١١٥ هامش ٢ .

(٣) فى كتابة : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٦ .

الفردية غير المستغلة ، وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعارف ، ولاشك ان لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية » .

وقال الدكتور غوستاف لوبون (المؤرخ الفرنسى) (١) : « إن فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

نعم لقد كان تأثير الحضارة الإسلامية فى العالم الغربى المسيحى كبيرا – خلال العصور الوسطى – فقد انتقلت كثير من المؤلفات العلمية من مختلف العلوم والفنون إلى أوربا ، وترجمت الى اللغات اللاتينية مرات متعددة ، وكانت تدرس فى المؤسسات والمعاهد والجامعات ، ويعتمد عليها كمراجع اساسية ، ومن ثم يعترف كثير من المستشرقين بعظمة الدور الذى قامت به الثقافة الإسلامية ، فى إثراء الفكر الأوربى لفترة طويلة من الزمن استمرت لقرون عديدة (٢) .

ومن المعروف مماسبق ، والثابت تاريخيا ، أن في الوقت الذى كانت البلاد الإسلامية تمثل المشعل الفكرى الوضاء الذى ينشر النور فيما حوله ، ويملء الدنيا علما ومعرفة ، كانت أوربا تعيش فى حالة من الجهل والتخلف ، والضياع والتمزق ، ولما أرادت ان ترفع عن كاهلها عبء ذلك الوضع المهين ، التفتت الى الثقافة الإسلامية ، تنهل من رحيق المعرفة والفكر ما امكنها ذلك ، ومن ثم عكف علماؤها ورجال الدين فيها على دراسة الاثار العلمية التى كتبها العلماء المسلمون من أمثال : ابن سينا والرازى والبتانى وابن الهيثم ، والبيرونى والخوارزمى والفارابى ، وابن رشد وغيرهم فكانت هذه المؤلفات تمثل المنهل العذب ، الذى كان طلاب المعرفة ينهلون منه (٣) ، يشهد بذلك الدكتور « غريسيب » مدير جامعة برلين ، ورئيس فرع الطب فيها حيث قال فى حفل أقامه الطلاب المسلمون :

---

(١) فى كتابة : حضارة العرب .

(٢) انظر اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١١٧ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ١١٧ .

« أيها الطلاب المسلمون ، والآن قد انعكس الأمر فنحن الأوربيين يجب أن نؤدى ماعلينا تجاهكم ، فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم ، وشرحا لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر ، طالما ان كتابكم المقدس عنوان نهضتكم مازال موجودا بينكم وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم ، فارجعوا الى الماضى لتؤسسوا للمستقبل ، ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور معرفة ، وسلام عليكم ياطلابنا أن كنا فى الماضى طلابكم » (١) .

فهل تجد هذه النصيحة صدى فى قلوب أبناء الإسلام فيحققوها ؟

وقال الأستاذ « كويلو بونج » أستاذ العلاقات الاجنبية بجامعة برنستون ، ورئيس قسم اللغات والاداب الشرقية فيها فى محاضرته التى ألقاها فى مؤتمر الثقافة الإسلامية الذى عقد برعاية (جامعة برنستون) و(مكتبة الكونغرس) فى واشنطن عام ١٩٥٣ تحت عنوان :

«أثر الإسلام الثقافى فى المسيحية » .

« وبعد : فهذا عرض تاريخى قصد به التذكر بالدين الثقافى الذى ندين به للإسلام ، منذ أن كنا نحن المسيحيين - داخل هذه الألف السنة - نسافر الى العواصم الإسلامية وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الانسانية .. ولن نتجاوز حدود العدالة ، إذا نحن أدينا ماعلينا بربحه ، ولكن سنكون مسيحيين حقا ، إذا نحن تناسينا شروط التبادل ، وأعطينا فى حب ، واعتراف بالجميل » (٢) .

---

(١) نقلا عن أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٤٣ .

(٢) راجع الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ص ٢٥٧ مجموعة محاضرات القيت فى مؤتمر الثقافة الإسلامية فى واشنطن عام ١٩٥٣.

فهل أعطى المسيحيون كما قال الاستاذ « كويلو بونج » حق الدين الذى عليهم ؟ أم أنهم يقيمون المؤتمرات تلو المؤتمرات للقضاء على الإسلام والمسلمين لكن « الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون »(١).

لقد كان انتقال الثقافة الإسلامية الى أوربا المسيحية عن طريق معابر ثلاثة : اسبانيا وصقلية وسوريا أيام الحروب الصليبية ، وعن طريق هذه المعابر انتقلت آثار الحضارة الإسلامية ومؤلفات العلماء المسلمين الى أوربا كما سبق بيانه وتوضيحه .

طبيعة الثقافة الغربية نابعة من الغزو الفكرى :

أصبح الغزو الفكرى الغربى من أخطر التحديات التى تواجه الثقافة الإسلامية ، والمجتمعات العربية ، .. وهو غزو كانت بدايته فى أوائل القرن التاسع عشر ، حيث بدأت الثقافة الغربية تفرض وجودها على شعوب العالم الإسلامى فى ظل الاستعمار العسكرى الذى كان مسيطرا على مقدرات تلك الشعوب ، وعندما بدأ الاستعمار ينحسر فى منتصف القرن العشرين ، فقد ظلت الهجمة الفكرية الاستعمارية مستمرة فى صبغ المجتمعات الإسلامية بصبغتها مستهدفة فى ذلك طمس معالم الثقافة الإسلامية (٢) .

« وتشويه القيم الاخلاقية والروحية ، وتحويل المسلمين شيئا فشيئا عن طريق وسائلها المبتدعة وخططها المحدثة عن الانتماء الى هذه الأمة الى انتماءات جديدة وولاءات مبتكرة »(٣) .

---

(١) يوسف : ٢١ .

(٢) الثقافة الإسلامية دراسة تأصلية لمضمون الرسالة الإسلامية ص ٣٥٧ .

(٣) د/ محمد عبده يمانى « المعادلة الحرجة فى حياة الأمة الإسلامية ص ١٧ دار الشروق بجدة ط الثانية سنة ١٤٠٠ هـ .

طبيعة الثقافة الغربية :

عن هذه الطبيعة عبر المفكر الإسلامي محمد أسد [1] عن طبيعة الثقافة الغربية ومؤسساتها خير تعبير حيث يقول :

« وقد كان البلاء الأكبر فى حضارة اليونان والرومان قديما ، وفى حضارة الغرب الحديثة هو في سيطرة المادية فى غاياتها وأهدافها ومن هنا نشأ الفساد والحروب والخصومات ان الرجل العادى فى أوربا ديمقراطيا كان أم فاشيا ، ورأسماليا أم اشتراكيا ، عاملا أم رجلا فكريا ، إنما يعرف دينا واحدا هو عبادة الرقى المادى والاعتقاد بأنه لاغاية فى الحياة إلا أن يجعلها الانسان حرة طليقة من قيود الطبيعة .

أما كنائس هذا الدين ، فهى المصانع الضخمة ، ودور السينما ، ومختبرات الكيمياء ، ودور الرقص ، ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات ، وكواكب السينما ، وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون ، ونتيجة هذا النهم للقوة والشره للذة - النتجة اللازمة - ظهور طوائف متنافرة ، مدججة بالسلاح ، والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها إذا تصادمت أهواؤها ، ومصالحها و أما فى جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز من الانسان يعتقد الفضيلة فى العقائد العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخيبر والشر هو النجاح المادى لاغير وليس فى هذه الحضارة ولا فى نظامها الفكرى موقع لله فى الحقيقة ، ولاتعرف له فائدة ولاتشعر بحاجة اليه » [2] .

هذا ويكمن الخطر ثانيا فى تبنى الحضارة الغربية للمؤسسات التعليمية والثقافية التي تبث ثقافتها وتعمل فى الوقت نفسه على إظهار الإسلام بماليس هو

(١) ليوبولد فيل سابقا .

(٢) نقلا عن عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية ص ٩٨ .

على الحقيقة ، وطمس معالمه الصحيحة ، وتشويه مبادئه المثالية ، ويقوم بهذه المهمة من يسمون بالمستشرقين وأذنابهم من المستغربين ، ومما يدل على ماسبق أنك :

« لاتجد موقف الأوربى من الإسلام موقف كره فى غير مبالاه فحسب كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان ، والثقافات غير الإسلامية بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدور من التعصب الشديد وهذا الكره ليس عقليا فقط ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ، إنه كره نابع من الغزو الفكرى .

قد لاتقبل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية ، أو الهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلى متزن ومبنى على التفكير ، إلا أنها حالما تتجة الى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفى فى التسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى فى كتاباتهم عن الإسلام ، ويظهر هذا فى معظم بحوثهم ، كما لو ان الإسلام لايمكن ان يعالج على أنه موضوع دراسة في البحث العلمي ، بل أنه متهم يقف أمام قضاته ، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعى العام الذى يطلب أثبات الجريمة وبعضهم يقوم مقام المحامى فى الدفاع فهو مع قناعته شخصيا باجرام موكله لايستطيع أكثر من أن يطلب له مع شئ من الفتور اعتبار الاسباب المخففة » (١) .

من أهداف المستشرقين :

لقد كان من أهداف « المستشرفين من دراساتهم اضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب ، وإثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر ، واظهار أى دعوة الي التمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر ، بينما عملوا على إحياء حضارات ماقبل الإسلام : مثل الحضارة الفروعونية فى لغتها فى مصر ،

(١) معالم الثقافة الإسلامية ص ٩٩ .

والحضارة الأشورية ولغتها فى العراق ، والبربرية فى افريقيا الشمالية والفينيقية فى سواحل فلسطين وسوريا ولبنان »[1] .

كما أن من أهداف الاستشراق عقد المؤتمرات ووضع أحدث الصيغ لعرقلة سير الإسلام ، ونهوض المسلمين .

وإليك مقتطفات من المؤتمر الذى طبع فى كتاب التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى ، والذى يعد صرخة فى آذان المسلمين ليستيقظوا :

قال أحد المنصرين وهو « دون ماكرى » فى مؤتمر سنة ١٩٧٨م. « أن أكبر عقبة تواجه عملية تنصير المسلمين هى عدم وجود كنيسة خاصة بالمتحولين عن الإسلام ممن قبلوا الرسالة النصرانية ، أى كنيسة تلائم تقاليدهم الثقافية والاجتماعية »[2] .

أى أنهم يبحثون إقامة كنيسة مفصلة على مقاس المسلمين لأنهم لايريدون ضم المسلمين الذين تحولوا عن دينهم الى حوزة كنائسهم الرسمية .

وفى هذا المؤتمر الذى عقد فى ١٥/٥/١٩٧٨م كان عدد الحضارين (١٥٠) شخصا ، وتمخض عنه إنشاء معهد فى جنوب كاليفورنيا فى أمريكا الشمالية وأطلق عليه اسم : معهد صاموئيل زويمر ، وأختير « دون ماكرى » مديرا له [3] .

ومن البحوث المقدمة لهذا المؤتمر بحث يقول :

« العالم الإسلامى يمر اليوم بحالة من التمزق الاجتماعى والسياسى ، ولذلك يوجد لدى المسلمين اليوم استعداد قلبى وعقلى لتقبل رسالة المسيح كما توجد هنالك

---

(١) المرجع السابق .

(٢) التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى ص ٢ .

(٣) المرجع نفسه ص ٤ ، ومهمة هذا المعهد إعداد البحوث ، وتدريب العاملين فى صفوف المسلمين، وبصورة عامة تعزيز قضية تنصير المسلمين راجع المرجع نفسه ص ٢٠ .

بعض « الشعوب» الإسلامية التى يصعب الوصول اليها ، ولذلك يجب على الكنيسة أن تبتعد عن الأساليب غير المثمرة وتسلك طرقا ثقافية ملائمة من أجل تقديم عيسى المسيح بكل إخلاص وقوة الى المسلمين ، إن الأعمال التي يجب علي الكنيسة القيام بها متعددة :

١- لابد أن يجد الانجيل طريقه الى الملايين من المسلمين .

٢- يجب على القائمين على التنصير ان يتخلوا عن الإحساس المتبلد واللامبالاة ، والتعصب للتقاليد البالية وسبل التنصير الفاشلة .

٣- يجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى الى تنصيرهم .

٤- يجب على المواطنين النصارى فى البلدان الإسلامية ، وإرساليات التنصير الاجنبية العمل معا بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك »(١) !!

فهل وجدت تحريضا سافرا ، أقبح من هذا التحريض ؟ وان المسألة باتت تدخل فى دور التحدى الخبيث والنيات المبيته على ضرب المجتمعات الإسلامية فى أعز ماليها وهو أمر العقيدة الإسلامية .

لقد أوصى هذا المؤتمر بدراسة المشاكل اللاهوتية التى تؤثر على تنصير المسلمين ، ونشر كافة الدراسات التى تساعد النصرانى العامل فى هذا المجال .. وفيما يلى جانب بسيط من النتائج المثيرة التى تمخض عنها هذا الاجتماع التاريخى:

---

(١) المرجع السابق ص ٦ ، ٧ .

« * لقد كشف المؤتمر عن تصور وأمل جديد للتنصير يجب على الكنيسة الاستجابة لهما .

* لقد حان الوقت لتوقع حصاد وافر بين المسلمين .

* لقد حان الوقت للعمل الجاد والالتزام المالى .

* لقد حان الوقت للصلاة المؤمنة والتفانى المخلص والشجاعة والشهادة لرسالة المسيح .

* لقد حان الوقت لأن نؤمن أن الرب سوف يجلب مجده للعالم الإسلامى كله .

* لقد حان الوقت لخلاص العالم الإسلامى ، ونضج الحصاد ، ورب الحصاد ينادينا فأين هم الحاصدون ؟ يجب على الكنيسة ألا تتأخر أكثر من ذلك » (١) .

أما نحن المسلمين فلا ينبغى أن نترك الساحة خالية بل لابد من ملئها بمنهج الإسلام . يجب علينا أن نذكر هؤلاء المغرورين بقوتهم ، المفسدون فى الأرض بعقيدتهم .

يقول الله عز وجل : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ، قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » (٢) .

والعمل الجاد من المسملين لرفع عزة الإسلام وتطبيقه قولا وعملا نصا وروحا .

---

(١) المرجع السابق ص ٨ .
(٢) الانفال : ٣٦ - ٣٨ .

وتحت عنوان المسيح وثقافات الشعوب الإسلامية ومجتماعتها جاء مايلى :

« .. تاريخ الكنائس وإرساليات التنصير يفضل اقتلاع المسلم المتنصر كلية من بيئة الاجتماعية والثقافية ، وأساس ذلك هو إيمان النصارى بأن الثقافة والحضارة الإسلامية شريرة برمتها وليس فيها مايمكن خلاصه ، بل يتوجب إدانتها ورفضها جميعا ، ويرافق هذا الموقف الحكمى من الثقافات والمجتمعات الإسلامية قصور ملحوظ فى التفكير النقدى من جانب المنصر لثقافته ، وقد أدى هذا الى حدوث مايسمى بالصدمة الثقافية بالنسبة للمسلم المتنصر ، فبا لإضافة الى اتباعه الشرعى للمسيح فإنه يجبر كذلك على قبول المفاهيم الثقافية والاجتماعية الخاصة بالمنصر سواء كان بروتستانتيا أم غير ذلك »[1] .

الثقافة الإسلامية ليست خامدة :

وتحت عنوان : حان الوقت لمنطلقات جديدة جاء مايلى :

« أعطى علماء الأجناس البشرية من النصارى وغير النصارى اهتماما كبيرا للثقافات والمجتمعات الإسلامية ، وراقبوا المسلمين فى أماكن تواجدهم ، وحددوا وشرحوا القوة المحركة فى صفوفهم وبدأت عبارات « الإسلام الشعبى » أو « الإسلام المعمول به بين الناس » تظهر فى كتابتهم ، وتفتح الطريق أمام آفاق جديدة كثيرة لاتنطبق على التصور التقليدى للإسلام ويظهر من الوصف الذى قدمه أولئك العلماء أنه لا توجود ثقافة إسلامية خامدة إطلاقا »[2] .

(١) التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

الجانب الإسلامي الذى نسيه الغرب :

قال و . ستانلى مونيهام :

« إن العالم الإسلامى يشغل اليوم حيزا مهما فى الأخبار أكثر من أى وقت مضى ، فالمواجهة فى الشرق الأوسط لاتزال بعد عقدين من الزمن تقلق العالم كل لحظة ، وكل إنسان فى العالم يتأثر فى الواقع تأثرا مباشرا متى اجتمعت الأمم الإسلامية المنتجة للنفط لتقرركم ستتقاضى على برميل النفط الخام ، ويحبس العالم كله أنفاسه قلقا كلما اجتمعت منظمة الأوبيك ، والمظاهرات وأعمال الشغب التي يقوم بها المسلمون المحافظون فى مصر ، وايران والباكستان مطالبين بالرجوع الى الطرق التقليدية توضح لعالم القرن العشرين الجانب الثورى للإسلام والذى نسينا وجوده ، واليكم ما استنتجته إحدى المجالات الأمريكية فى أحد أعدادها الأخيرة « تصارع الثروة النفطية وحركة العلمنة فى الشرق الأوسط طرق الحياة القديمة مما أوجد اندفاعا إسلاميا للعودة الى الجذور » وتسترسل المجلة قائلة : « إن التعصب الدينى يتحرك باتجاه المواقع السياسية الأمامية فى أرجاء العالم الإسلامى من كازبلانكا ، وحتى مضيق خيبر ! »(١) .

إن مؤشرات هذا الوضع بالنسبة لحركات التنصير ملحة وتشكل تحديا خطيرا لايمكن تجاهله ، وإذا لم يكن هناك ماهو أقوى من الفكرة الناضجة فإنى أومن أيضاً أنه لايوجد ماهو أكثر مدعاة للأمل فى الحدث الذى تختاره العناية الربانية توقيته ، ثم يقول و . ستانلى مونيهام : عن هذا المؤتمر : إنها المرة الأولى خلال جيلين يعقد فيها مؤتمر يضم هذا العدد من قادة النصارى جاءوا ليناقشوا معا حالة عملية تنصير المسلمين ، ففى بداية هذا القرن قام :

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٥ من الخطاب الرئيسى . و . ستانلى مونيهام .

صموئيل زويمر عام ١٩٠٦ م بتنظيم مؤتمر فى القاهرة وصف بأنه « يمثل بداية عهد جديد لإرساليات التنصير بين المسلمين » وقد ضم ذلك المؤتمر ٦٠ ممثلا لثلاثين كنيسة وإرسالية للتنصير ، وكان هذا المؤتمر هو الذى هيأ المناخ لعقد مؤتمر أدنبره للإساليات العالمية عام ١٩١٠م ، ومؤتمر لكناو فى الهند عام ١٩١١م واللذان ركزا على حاجات العالم الإسلامى (١) .

لقد كان الهدف الأساسى من مؤتمر لوزان هو : تنصير المسلمين خاصة لوجود حقيقتان معاصرتان عن الإسلام تؤيدان تفاؤل و . ستانلى مونيهام :

أولاهما : الخلافات والفرقة فى داخله ، والضغوط التى تدعو الى التغيير والتى تهاجمه ، ثم يقول لاحظوا ان الإسلام لم يكن ذلك الدين المتماسك كما كان عادة يوصف فى السنوات الماضية ، بل هو عالم من الخلافات الواسعة والتفرق .. المسلمون يمثلون واحد من كل ستة من البشر فى العالم ، يتوزعون فوق رقعة واسعة تمتد من الصحراء الجرداء فى شمال افريقيا والجزيرة العربية الى القاهرة ، وكابول المكتظتان بالسكان ، وحتى غابات جاو الاستوائية (٢) .

إنهم قبائل الهوسا فى شمال نيجيريا ، والمهاجرون الباكستانيون فى نيجيريا ، وقبائل البربر في المغرب ، والأرواحيون الجاويون ، والنخبة الايرانية والفلسطينية فى المنفى ، والمدراء العاملون فى بيروت من خرجي جامعة اكسفورد ، والمهاجرون الاتراك في المانيا ، لقد عددت القليل منهم والذين يمثلون اليوم جماعات متباينة الى حد كبير فلقد أصبحنا أكثر وعيا بعد لقاء لوزان على ضرورة النظر الى العالم على أنه يتكون من مجموعات متميزة من البشر ، وإن علينا التعامل مع كل

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧ .

مجموعة باستراتيجية تنصيرية خاصة ، إن هناك أكثر من (٥٠) أمة تقول بأنها إسلامية كما توجد جاليات إسلامية فى أكثر من (١٥٠) دولة ، وأكد دكتور رالف ونتر وجود حوالى ٣٥٠٠ مجموعة فرعية من المسلمين فى أنحاء العالم (١) .

وكما أن المسلمين ليسوا شعبا واحدا فإن الإسلام ليس عقيدة موحدة ، فهناك الإسلامى الشعبى الذى يتبعه ملايين المسلمين والذى هو خليط من الأرواحية والتقاليد، وهناك الإسلام الأسود الذى تدين به الأقليات السوداء فى أمريكا ، كما يوجد أيضاً الدين الإسلامى المدنى الذى يمارسه ظاهريا المتعلمون والطبقات الراقية من المسلمين الذين يفتقرون داخليا الى « الإيمان الحقيقى » وتطبق أقلية نسبية الإسلام المستند الى تعاليم القرآن والسنة النبوية (٢) .

ويضاف الى اختلاف المسلمين أنفسهم ان الإسلام كعقيدة يتعرض لضغوط عديدة منها اندفاع المسلمين لتقليد الغرب ، والافكار العلمانية ، والتغييرات الاجتماعية ، فأولئك الذين كانوا يسكنون خياما مصنوعة من جلود الاغنام ، ويركبون الجمال عبر كثبان الصحراء فى نمط من الحياة لم يتغير منذ قرون عديدة أصبحوا اليوم فجأة يقتنون سيارات المرسيدس ، وأجهزة التلفاز والساعات الالكترونية والبنوك الامريكية ، وتم افتتاح فروع « لدجاج كنتكى المقلى » فى الكويت ، وأبوظبى، حيث يتمكن العرب من مضغ قطع لحوم الدواجم المشحونة من ولاية كارولينا الشمالية (٣) .

ويتزايد باضطراد عدد المسلمين الذين يسافرون الى الغرب ، ولأنهم يفتقرون الى الدعم التقليدى الذى توفره المجتمعات الإسلامية فإنهم يشعرون بالتمزق ،

(١) المرجع نفسه ص ٢٧ .
(٢ المرجع نفسه ص ٢٨ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٨ .

ويكونون غير واثقين من أنفسهم ، ويعيشون نماطا من الحياة يختلف عن ذلك الذى يجب عليهم اتباعه لقد كتب ماكس كيرشو فى بحثه الذى قدمه الى هذا المؤتمر يقول : «يبدو أن عقيدة الغالبية العظمى من المسلمين فى الغرب سواء أكانوا مهاجرين أم طلابا أم زوارا تتعرض للتأثير » .

ويشكل هذا تهديدا خطيرا للتماسك الإسلامى ، وقد اشار أحد الكتاب المسلمين الى أن انتشار النزعة العصرية لم : « يزرع الارتباك فقط ، ولكنه أضعف من قبضة الإسلام وتأثيره كما أدى الى فصل أجزاء مختلفة من العالم الاسلامى عن بعضها البعض أكثر من أى وقت مضى » (١) .

ونقل عن مصدر إسلامى آخر قوله إن ثلث عدد سكان الباكستان فقط الذين يبلغ عددهم ٦٦ مليون مسلم يؤدون كل الفرائض المطلوبة ، أنا اعتقد أننا نستطيع ان نجد وسط هذا التباين داخل الإسلام والضغوط التى يتعرض لها من خارجه الكثير من أسباب التفاؤل بأن رسالة يسوع المسيح ستجد آذانا صاغية (٢) .

هذا هو وقت تنصير المسلمين :

قال قيس يعلم فى منطقة الخليج : « إن العالم العربى لم يفتح أبوابه أبدا أمام أهل الكتاب كما يفعل اليوم » (٣) .

وكتب منصر يعمل فى الهند مايلى : « يصغى المسلمون اليوم الى رسالة الكتاب المقدس بانفتاح واهتمام لم يسبق لهما مثيل على الإطلاق » (٤) .

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٣.
(٤) المرجع السابق ص ٣٣ .

وكتب قسيس آخر من شمال افريقيا يقول : « نحن على أبواب اختراق طالما صلينا من أجله »(١) .

ومن الباكستان يؤكد آخرى مايلى : « لقد فتح الرب للكنيسة بابا على المسلمين لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإرساليات التنصيرية الحديثة »(٢) .

ومن الأردن كتب منصر آخر يقول : « إن أربعين عاما من الزرع بدأت تثمر آخر الأمر ، إن هذا هو وقت تنصير المسلمين »(٣) .

مؤهلات المنصر الفعال فى صفوف المسلمين كمايلى :

أ- التمكن من اللغة العربية والقرآن والمصادر اللاهوتية الإسلامية .

ب- التحلى بالصبر والحزم فى النقاش .

جـ- الشعور المتعاطف الذى يمكنه ان يقود المسلم من الحقائق التى يؤمن بها الى المسيح الحقيقة المطلقة .

د- الاستعداد لنبذ الطرق القديمة البالية التى تثير الكثير من الجدل .

هـ- ان يكون لديه روح الأمل (٤) .

هذه شروط من يتصدى للتنصير بين المسلمين ، فعليه ان ينزع عن نفسه الكسل والجبن ، والانطلاق نحو الرغبة والحماس كتب زويمر في أول افتتاحية له فى « مجلة الإسلامى » إن الكنيسة في خدمتها بين المسلمين « مدعوة الى دراسة أعمق للمشكلة إضافة الى إعداد شامل للمنصرين وإيمان راسخ بالرب »(١) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٦ .

(٥) المرجع نفسه ص ٣٧ .

وقال فى مكان آخر أنه إذا أرادت الكنيسة ان توصل الكتاب المقدس الى العالم الإسلامى : « فعلينا أولا أن نعرف العالم الإسلامى ونفهمه » (١) .

أرأيت أيها القارئ اللبيب الفرق بين أتباع الإسلام وأنصار الكنيسة ؟

أتباع الإسلام أخلصوا فى نشر العلم والمعرفة والثقافة الهادفة فى كل بلد فتحوه ، واحترموا أموال أهله وعقيدة شعبه ، وحافظوا عليهم كما يحافظون على أنفسهم وأطلقوا عليهم « أهل الذمة » أى العهد والميثاق .

أما اتباع الكنيسة فى عصرنا فيحاولون بشتى الطرق زحزحة المسلمين عن دينهم : يقيمون المؤتمرات ويؤلفون الكتب ويدبرون المكائد ويشنون الهجوم السافر على الإسلام وأتباع المسلمين .

لقد كان للمسلمين الفضل فى إخراج أوربا من ظلمات العصور الوسطى وهمجيتها الى نور العلم والحضارة المادية والثقافية إنهم يرون القضاء على الحضارة التى أضاءت لهم طريق القوة والمدنية على الإسلام وأتباعه ، وهيات يصلون الى غرضهم فإن الذى أمسك السماوات والأرض أن تزولا أمسك القرآن من الزوال والانحراف ، وهو الذى يجمع المسلمين ويوحد كلمتهم : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون » (٢) .

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره الكافرون » (٣) .

وفى حديث رسول الله ﷺ مايبشر بالمستقبل الأغر للإسلام : « ليبلغن هذا

(١) المرجع نفسه ص ٣٧ .
(٢) التوبة : ٣٣ .
(٣) الصف : ٨ .

الأمر مابلغ الليل والنهار ، ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل به الكفر »(١) .

إن عز المسلمين فى تمسكهم بدينهم مهما تقلبت الدنيا والعالم من حولهم ، إن دين الإسلام هو صمام الأمان للفرد والأسرة وللأمة كلها .

أهمية الدين فى المجتمع :

أصبح الناس فى هذا العصر يجرون وراء المنفعة لاهثين ، حتى أن كثيرا منهم يرون الحق فيما ينفعهم لا فيما يطابق الواقع ، أو ما تقوم البراهين على صحته .

وقد قام مذهب برأسه ينادى بأن « المنفعة مقياس الحقيقة » ويصر على أن المهم من كل شئ هو نتائجه ، ومايترتب عليه من آثار فى حياتنا العلمية ... وعلى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع ، بل إنسجامه مع مايقع ، وهكذا فكل شئ يحكم عليه بما يتبعه من نتائج ، فإن كانت هذه النتائج متناسبة مع أغراضنا ، ومع مانريد من مقدمات كانت خيرا مصدقا وحقا ، وإن كانت غير ذلك كانت شرا وكذبا وباطلا ولا يوصف الفعل بحسن ولاقبح ولايوصف القول بالصدق والكذب حتى تعرف ثمرته ، وهذا هو مذهب « البراجماتزم »(٢) .

لكن انفع شئ للناس هو الحق ، وأن أضر شئ بالناس هو الباطل ، ومن ثم ضرب القرآن مثلا للحق بالماء السائل والمعدن النافع ، وللباطل بالزبد الرابى على وجه الماء عندما يسيل به الوادى ، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يوقد عليه

---

(١) رواه ابن ماجه فى صحيحه : ١٦٣١ ، ١٦٣٢ .

(٢) انظر للدكتور محمود حب الله كتابى : « إرادة الاعتقاد » ، « والعقل والدين » لوليم جيمس ، نقلا عن الإيمان والحياة : للدكتور يوسف القرضاوى ص ٥ .

فى النار ابتاغ حليه أو متاع ، قال الله تعالى : « كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال »(١) .

والذى مكث فى الأرض هو الحق ، وهو الذى عبر عنه القرآن « ماينفع الناس» إنه ينفهم ماديا ومعنويا ، وهو الذى عبر عنه القرآن ينفعهم أجساما وعقولا وقلوبا، وينفعهم افرادا وجماعات ، وينفعهم دنيا وآخرة .

فالمنفعه فى الجملة معتبرة ، لكن الاختلاف مع الماديين فى قياس المنفعة ، وتحديد نوعها ومداها ، نحن لانقصر المنفعة بالكم والكيف والمادة والروح ، والفرد والمجتمع جميعا .

بل نحن لانقصر المنفعة على الحياة العاجلة هنا ، بل نضع فى حسابنا دائما الحياة الأخرة ، حياة الخلود التى أعدت للانسان وأعدلها الانسان (٢) .

أثر الإيمان فى الفرد والمجتمع :

أما فى الفرد فأثره واضح كل الوضوح ، فالمؤمن مستقيم الطباع ، معتدل السلوك ، يأمنه الناس يعيش مطمئن القلب « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٣) . أما الفرد الذى بغير دين ولا إيمان ، فهو كالريش فى مهب الريح لاتستقر على حال ، ولاتعرف له وجهة ، ولاتسكن الى قرار مكين ، الفرد بغير دين ولا إيمان إنسان ليس له قيمة ولا جذور إنسان قلق متبرم حائر ، لايعرف حقيقة نفسه ، ولا سر وجوده ، لايدرى من البسه ثوب الحياة ، ولماذا البسه إياه ، ولماذا ينزعه عنه بعد حين ، وهو

(١) الرعد : ١٧ .

(٢) انظر الإيمان والحياة : ص ٦ .

(٣)

بغير دين ولا إيمان حيوان شرس ، أو سبع فاتك ، لا تستطيع الثقافة ولاالقانون ان يجدا من شراهته ، أو يقلما أظفاره (١) .

والمجتمع الذى يعيش بغير دين ولا إيمان فهو مجتمع غابة ، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة ، حيث ان الحياة والبقاء فيه للأشد والأقوى ، لا للأفضل ، ولا للأتقى .. مجتمع تسوده التعاسة ويحل به الشقاء ، وإن زخر بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم ، مجتمع تافه رخيص ، لأن غايات أهله لاتتجاوز شهوات البطن والفرج فهم : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام » (٢) .

هل يحقق العلم المادى الطمأنينة ؟

من المشاهد والملاحظ أن العلم المادى ، وان امتد رواقه ، واتسعت ميادينه ، ليس بمستطيع ان يحقق الطمأنينة والسعادة للناس ، لأن العلم يرقى الجانب المادى للحياة فيختصر الشقة البعيدة ، والزمن الطويل ، الى مدة أقصر ، ولهذا سموا عصرنا هذا : « عصر السرعة » ، أو عصر « التغلب على المسافات » .

ولكن هل يستطيع أحد ان يسميه عصر « الفضيلة » ، أو عصر « الطمائنينة » ، أو عصر « السعادة للبشر» ، أو عصر « الأمانة والخلق » (٣) ؟

إن العلم هيأ للإنسان الحديث وسائل الحياة ، ولكنه ، لم يهده غايتها ، إنه زين له ظاهرها ، ولكنه لم يصله بأعماقها ، وما أتعس الانسان إذا اغرقته الوسائل فذهل عن الغايات ، وإذا شغل بالسطح عن القاع ، وبالقشرة عن اللباب ! العلم

(١) المرجع نفسه ص ٧ .
(٢) محمد : ١٢ .
(٣) انظر الايمان والحياة ص ٧ .

المادى أعطى الانسان أدوات كثيرة ، ولكنه لم يعطه « قيمة » كبيرة ، أو « هدفا » رفيعا يحيا له ، ويموت من أجله (١) .

إن أثر الدين والإيمان فى النفس والحياة لا يمكن أن يكابر فيه إنسان منصف ، ولو كان من خصوم الإيمان

إن الحقيقة يجب ان تحترم لذاتها ، وإن لم تجلب نفعا ، أو تدفع ضررا ، فكيف إذا كان من ورائها اعظم المنافع ، وأطيب الثمرات ؟! ووجود الله عز وجل ، وتفرده بالسلطان والتدبير واستحقاق العبادة ، وبعثة النبيين وصدق ما أماخبروا به عن الحياة الآخرة ، كل هذا حق قامت الأدلة على صدق ثبوته ، والإيمان به واجب لأنه حق ، وبما أنه حق فقد نيط به صلاح الظاهر والباطن ، ورقى الفرد والمجتمع ، وسعادة الدنيا والآخرة .

ونحن حين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره فى النفس والحياة ، إنما نعنى الإيمان القوى الدافع ، والايمان الحى اليقظ ، لا الإيمان الضعيف المعدل ، أو المغير، الذى أدخل البشر فيه أنوفهم ...إن الإيمان الإسلامى على وجه الخصوص هو الأكثر نفعا ، وأطيب ثمرا ، أما الأديان الأخرى فقد علق به ماشابه ، وكدر صفاءه ، وربما أمكن الأخذ من تعاليم بعض الأديان ، أو من سلوك رجالها ، بأنها عدو للحياة ، أو أفيون للشعوب ، كما زعم « كارل ماركس » اليهودى الحاقد ، ومن الغريب ان يتلقف هذه المقولة المكذوبة الببغاوات من المنتسبين للإسلام ، فيرددوها ترديد الحاكى ، دون بصر ، ولا تمييز ، فإن الدين عندنا غير الدين هناك ، والمجتمع هنا غير المجتمع هناك (٢) .

---

(١) المرجع نفسه ص ٨ .

(٢) انظر الإيمان والحياة ص ٩ .

إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم ، والدنيا والاخرة ، إنها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفس الكرامة والحرية ، وتجعل الخضوع لغير الله كفرا وفسقا ، بل تعده شركاو ومن ثم تأتى على الناس أن يتخذو بعضهم بعضا أربابا من دون الله (١) .

يقول الاستاذ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز (٢) : « إن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة ، لا تقف عند تهذيب السلوك ، وتصحيح المعاملة ، وتطبيق قواعد العدل ، ومقاومة الفوضى والفساد فحسب، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثرا فى كيان الجماعة ، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم ، لا يعدله رباط آخر من الجنس ، أو اللغة ، أو الجوار أو المصالح المشتركة، بل إن هذه العلائق مجتمعة مهما يكن أثرها الظاهرى من كف الأذى ، وبذل المعروف المتبادل ، تظل روابط سطحية تضم الأفراد ، كما تضم الأعواد فى ضغث ، ولاتزال تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية ، حتى تشدها رابطة الأخوة فى العقيدة والمشاركة فى المثل العليا ، فهناك تعود الكثرة وحدة ، وتصبح النفوس كالمرايا المتقابلة ، تنعكس صور بعضها فى بعض ، بل كثيرا ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأخرى ، فتنعقد بها أقوى الوشائج وأوثقها بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم وكثيرا ما نرى فى الدول التى تقوم على قاعدة المصالح المشتركة فى الوطن بين ملل مختلفة تضطر الى الاستنجاد بما فى هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير والتناصر على دفع عدوان المغيرين ، ولذلك قيل بحق : « إن الوطنية التى لاتعتمد على دعامة من الخلق والدين إنما هى حصن متداع يوشك أن ينهار ، وقد ثبت بهذا كله أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد » . أ . هـ .

(١) انظر المرجع نفسه .

(٢) فى كتابة الدين ص .

من مزايا عقيدة الإسلام :

أولا : إنها عقيدة واضحة :

للعقيدة الإسلامية مزايا لاتتوافر لغيرها من العقائد ... ، لاتقول هذا تعصبا، ولكن الحقائق تشهد بهذا ، والادلة والبراهين خير دليل إذ هى عقيدة مبرهنة ، فهي واضحة بسيطة لاتعقيد فيها ولا غموض ، تخبر خبرا ثابتا بأن وراء هذا العالم البديع التكوين ، المنسق التركيب ، المحكم النسج رب واحد خلقه من عدم ونظمه على أحسن نظام ابدعه على غير مثال « بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم »(١) .

يقبلها العقل ، إذ هو دائما يطلب الترابط والوحدة ، وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يرجع الاشياء دوما الى سبب واحد ، فليس فى عقيدة التوحيد ما فى عقائد التثليث ، أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذي يعتمد دائما عى الكلمة المأثورة عند غير المسلمين : « اعتقد وأنت أعمى » « الغ عقلك وسلم » .

ثانيا : إنها عقيدة الفطرة :

بمعنى أنه ليست غريبة على فطرة الانسان ، صرح هذا القرآن « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٢) .

وصريح الحديث النبوى الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة – أى على الإسلام – وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه »(٣) .

---

(١) الانعام : ١٠١ .

(٢) الروم : ٣٠ .

(٣) متفق عليه .

فهذا دليل على أن الإسلام هو فطرة الله فلا يحتاج الى تأثير من الأبوين .

أما الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية ، ومجوسية فهى من تلقين الآباء (١).

ثالثا : أنها عقيدة ثابتة :

بمعنى أنها لاتقبل الزيادة و النقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس الحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يضيف اليها أو يحور فيها ، وكل إضافة أو تحوير مردود على صاحبها ، والنبى ﷺ يقول : « من أحدث فى أمرنا ماليس منه فهو رد » (٢) .

والقرآن يقول مستنكرا : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله »(٣) . ؟

ومن ثم فإن كل البدع والاساطير والخرافات التى دست فى بعض كتب المسلمين ، أو أشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لايقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه(٤) .

رابعا : إنها عقيدة مبرهنة :

بمعنى أنها لاتكتفى من تقرير القضايا بالإلزام المجرد والتكليف الصارم ، ولاتقول كما تقول بعض العقائد الأخرى :

« أعتقد وأنت أعمى » أو « آمن ثم أعلم » أو « أغمض عينيك ثم أتبعنى » أو «الجهالة أم التقوى » ، بل يقول كتابها بصراحة : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(٥) .

---

(١) انظر الإيمان والحياة ص ٤٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) الشورى : ٢١ .

(٤) انظر الإيمان والحياة ص ٤٤ .

(٥) البقرة : ١١١ .

ولا يقول أحد علمائها مقاله الفيلسوف المسيحى : « أوغسطين » : « أو من بهذا لأنه محال » ! بل يقول علماؤها : إن إيمان المقلد لايقبل (١) .

وكذلك لاتكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليما أساسا للاتعقاد بل تنبه قضايا بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع .. الذى يملك أزمة العقول ، ويأخذ الطريق الى القلوب ، ويقول علماؤها : إن العقل أساس النقل ،.. والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح .

ففى قضية الألوهية يقيم الأدلة من : الكون ، ومن النفس ، ومن التاريخ على وجود الله الخالق سبحانه وعلى وحدانيته وكماله (٢) .

وفى قضية الانبياء عليهم الصلاة والسلام يثبت القرآن أنهم مرسلون – من قبل الله عز وجل : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٣) .

وفى قضية البعث يدلل على إمكانية بخلق الانسان أول مرة ، وخلق السماوات والارض ، وإحياء الأرض بعد موتها ، ويدلل على حكمته بالعدالة الإلهية فى إثابة المحسن وعقوبة المسئ « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » (٤) .

خامسا : إنها عقيدة تتسم بالوسطية ، فلا افراط فيها ولاتفريط .

هى وسط بين الذين ينكرون كل ماوراء الطبيعة مما لم تصل اليه حواسهم ، وبين الذين يثبتون للعالم أكثر من إله ، بل يحلون روح الإله فى الملوك والحكام ، بل

(١) الايمان والحياة ص ٤٤ ، وانظر ص ١٤٩ من هذا البحث

(٢) المرجع نفسه .

(٣) النساء : ١٦٥ .

(٤) النجم : ٣١ .

فى بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والاشجار ، فقد رفضت الانكار الملحد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والاشراك الغافل ، واثبتت للعالم إلها واحدا ، لا إله إلا هو : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون » (١) .

كما تتمثل هذه الوسطية فى صفات الإله .. ، ليس فيها الغلو فى التجريد الذى جعل صفات الإله مجرد سلوب لا تعطى معنى ، ولاتوحى بخوف أورجاء - كما فعلت الفلسفة اليونانية - فكل ماوصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا .. من غير أن تقول ماصفات هذا الإله الإيجابية ؟ وما اثرها فى هذا العالم ؟

كما أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أخرى كاليهودية .. التى جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالنوم والتعب والراحة ، والتحيز والمحاباة ..،، .. وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء فيصارعه ، لم يتمكن الرب من الافلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد (٢) .

لكن عقيدة الإسلام تقرر تنزيه الله سبحانه اجمالا عن مشابهة مخلوقاته :

« ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » (٣) . ومع هذا تصفه تفصيلا بصفات ايجابية فعالة : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما

---

(١) المؤمنون : ٨٤ - ٤٩ .

(٢) الإيمان والحياة : ص ٤٥ .

(٣) الشورى : ١١ .

خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم »(١) .

وهى عقيدة وسط بين التسليم الأبله الذى يأخذ عقائد الأباء قضية مسلمة ، أو بالوراثة ، كما يرث عنهم العقارات والأملاك « إنا وجدنا أباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »(٢) .. وبين الذين يريدون أن يعرفوا كنه كل شئ حتى الألوهية ، وهم بعد لم يعرفوا كنه أنفسهم التى بين جنوبهم ، ولا ماهية حياتهم وموتهم ، ولكنه شئ من القوى الكونية المحيطة بهم ، فكيف يطمع العقل بعد ذلك فى معرفة كنه الألوهية ؟ وهل يعرف النسبى كنه المطلق ؟ ويعرف المحدود حقيقة غير المحدود ؟ (٣) . هى وسط فى علاقاتها بالعقائد الأخرى . فلا تقبل الذوبان فى غيرها ، بل تدعو فى قوة الى الثبات عليها والاستمساك بها « فتوكل على الله إنك على الحق المبين »(٤) .

« فاستمسك بالذى أوحى اليك إنك على صراط مستقيم »(٥) .. ولكنها لا تتعصب ضد غيرها من العقائد السماوية : « الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم»(٦) .. بل يتسع صدرها لما يخالفها : « لكم دينكم ولى دين »(٧) « لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون »(٨) .

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .
(٢) الزخرف : ٢٣ .
(٣) الإيمان والحياة : ٤٦ .
(٤) النمل : ٧٩ .
(٥) الزخرف : ٤٣ .
(٦) الشورى : ١٥ .
(٧) الكافرون : ٦ .
(٨) يونس : ٤١ .

سادسا: إنها عقيدة تفتح الباب للنظر فى الكون والتفكير فيه .

يقول الرسول ﷺ : « تفكرو فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » (١) . ويقول القرآن الكريم : « قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » (٢) . « أولم يتفكروا فى أنفسهم» (٣) . « أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ » (٤) . « وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (٥) .

سابعا : إنها تهيب بأصحابها أن يدعوا اليها : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله » (٦) .

وهى فى نفس الوقت لاترضى بإكراه أحد على اعتناقها : « لا إكراه وفى الدين قد تبين الرشد من الغى» (٧) .

ثامنا : إنها لاتقبل التهاون فى موادة من يحاربونها ، ويضعون العراقيل في طريقها ، وإن كانوا من ذوى القرابة القريبة ، لقول الله عز وجل : «لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » ، ولكنها لاتقبض يد البر والمعونة عمن يخالفها ولا يعتدى علي أهلها : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » (٨) .

---

(١) الحديث روى بألفاظ متعددة من طرق مختلفة ، أسانيده كلها ضعيفة ، ولكن تعددها واجتماعها يكسبها قوة ، والمعنى صحيح كما قال السخاوى فى المقاصد الحسنة .

(٢) يونس : ١٠١ .

(٣) الروم : ٨ .

(٤) الاعراف : ١٨٥ .

(٥) الذرايات : ٢٠ ، ٢١ .

(٦) فصلت : ٣٣ .

(٧) البقرة : ٢٥٦ .

(٨) الممتحنة : ٨ .

تاسعا : إنها وسط فى أمر النبوة ، فلم ترفع الانبياء الى مقام الألوهية ، فيتجه الناس اليهم بالعبادة ، أو الاستعانة مع الله ، كما اعتقد بعض أهل الملل السابقة فى أنبيائهم ، ولم تنزل بهم الى مستوى السفلة من الناس فتنسب اليهم ارتكاب الموبيقات وفعل المنكرات من شرب المسكرات ، واتباع للشهوات - بل قتل للنفوس فى سبيلها - كما رأينا فى وصف أسفار العهد القديم للأنبياء [1] .

وإنما الانبياء فى عقيدة الإسلام بشر أصفياء ، علم الله طيب معادنهم ، وحسن استعدادهم ، فأنزل الله سبحانه وحيه عليهم : « الله أعلم حيث يجعل رسالته» [2] ، « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » [3] .

وجعلهم أسوة لأتباعهم وعصمهم من قبائح الذنوب ودنئ الأعمال ، حتى لا يتوجه اليهم وعيد الله سبحانه « أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» [4] . وحتى لا يكونوا أهلا لعهد الله سبحانه الذى قال فيه : «قال لا ينال عهدى الظالمين » [5] .

عاشرا : إنها عقيدة وسط فى قضية الارادة الانسانية : قضية الجبر والاختيار ، تلك القضية التى حار العقل البشرى فى الوصول الى رأى قاطع فيها ، فكان تنازع الفلاسفة ، وعلماء الاخلاق ، والنفس والتربية فى القديم والحديث [6] .

---

(١) الإيمان والحياة : ٤٩ .

(٢) الانعام : ١٢٤ .

(٣) الحج : ٧٥ .

(٤) البقرة : ٤٤ .

(٥) البقرة : ١٢٤ ، وانظر الايمان والحياة ص ٤٩ .

(٦) انظر الايمان والحياة ص ٤٩ .

إن عقيدة الإسلام فى هذا واضحة تمام الوضوح ، إذ هى العقيدة الوسط المطابقة للفطرة السليمة والواقع المشاهد ، فالإنسان في دائرة أعماله الاختيارية حر مسئول عن نفسه وعمله ، له أن يفعل وان يترك ، أن يقدم وأن يحجم .. كما تدل على ذلك بديهته وإحساسه ، وكما تشهد بذلك نصوص القران الكريم : « إنا هديناه السبيل إماشاكرا وإما كفورا »[(1)] . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » [(2)] .

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » [(3)] .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، وكلها تقرر حرية الانسان ، ومسئوليته عن عمله .

هذا مايقرره القرآن الكريم ، فى هذا المقام ، ولكنه حمل بقوة على الجبريين الذين يلقون بشركهم وأوزارهم على كاهل القدر محتجين بأنهم مجبورين بمشيئة الله لشركهم فقال : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا من شئ ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » [(4)] .

يريدون من مقالتهم هذه ان الله تركهم ، وما يختارون لأنفسهم من ضلال أو هداية .

نعم يعلم الله سبحانه – بشمول علمه – ماسيكون الانسان باختياره من هدى أو ضلال ، وخير أو شر ، وليس فى علم الله بذلك شئ من معانى القهر والإلزام ،

(1) الانسان : ٣ .

(2) الكهف : ٢٩ .

(3) الجاثية : ١٥ .

(4) الانعام : ١٤٨ .

وانما هو مجرد انكشاف ما وقع وسيقع على السّنّة الدائمة التى رسم ، وهى سنة الاختيار التى بنى عليها التكليف والثواب والعقاب .

وإذا فلايسمح الإسلام أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله فى عقائده ودينه ، ثم يعتذر بالقضاء والقدر ولوصح ذلك لبطلت التكاليف ، وكان بعث الرسل وانزال الكتب ، ودعوة الانسان الي دين الله وما يجب ، ووعده بالثواب لأهل الخير ، وبالعقاب لأهل الشر – باطلا وعبثا – لا يتفق وحكمة الحكيم ، فى تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده (١) . وعندما تضاف الآية اللاحقة الى السابقة يتضح الرد على هؤلاء:

« قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » (٢) .

أى تعللوا فى ردهم أنه تعالى شاء أن يشركوا ، ورد الله عز وجل على قولهم، بحجتين اثنتين :

أولاهما : أن الله سبحانه عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم ، ولو ان اعمالهم السيئة كانت مفروضة عليهم لما عاقبهم عليها ، وأن الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على الله تعالى .

اخراهما : أن الله سبحانه لم يقل مثل هذا القول على لسان أحد من رسله، وطالب المشركين بدليل على زعمهم : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » ، ثم أثبت الله بطلان زعمهم بقوله عز وجل : « فلو شاء لهداكم أجمعين » .

وواضح من هذا أنه لوشاء الله أن يكون الناس على طريق واحد لكان هذا الطريق هو طريق الهداية ، ولكن الناس غير مجبرين على سلوك طريق بعينه ، وترك

(١) الاسلام عقيدة وشريعة : ص ٥٠ ، ٥١ .
(٢) الانعام : ١٤٩ .

سبحانه للانسان تفضيل أحد الطريقين على الاخر ، وسلوك السبيل الذى يختاره : «إنا هديناه السبيل . إما شاكراً وإما كفورا »(١) .

وقوله سبحانه وتعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(٢) .

فمشيئة الله تتجلى فى إرسال الرسل لهداية الناس وتعليمهم سبيل الرشاد ، والتحذير من سبل الضلال ، ومشيئة الإنسان تتوضح فى اختياره لأحد السبيلين (١).

حادى عشر : الاعتقاد بالقضاء والقدر فيها دعوة الى الاقدام والشجاعة :

قال السيد جمال الدين الافغانى رحمه الله تعالى : « الاعتقاد بالقضاء والقدر - إذا تجرد عن شناعة الجبر - يتبعه صفة الجرأة والاقدام ، وخلق الشجاعة، والبسالة يبعث على اقتحام المهالك التى توجف لها قلوب الأسود ، وتتشق منها مرائر النمور ، هذا الاعتقاد يطبع النفس على الثبات ، واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال، ويحليها بحلل الجود والسخاء ، ويدعوها الي الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها علي بذل الأرواح ، والتخلى عن نضرة الحياة ، كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته ، أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟

---

(١) الانسان : ٣ .

(٢) انظر للأستاذ شوقى أبو خليل : الإسلام فى قفص الاتهام ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

اندفع المسلمون فى أول نشأتهم الى الممالك والاقطار يفتحونها ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول ، وحيروا الألباب بمادوخوا الأمم ، وقهروا الدول ، وامتدت سلطتهم من جبال بيرينيه - الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا - الى جدار الصين ، مع قلة عدتهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الاقطار المتنوعة، أرغموا الملوك ، وأذلوا القياصرة والاكاسرة فى مدة لاتتجاوز ثمانين سنة ، إن هذا ليعد من خوارق العادت وعظائم المعجزات .

دمروا بلادا ودكوا أطوادا ، ورفعوا فوق الأرض أرضا ثانية من القسط ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وماكان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم » (١) .

ثانى عشر : من مزايا عقيدة الإسلام ، كما يقول الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة :

« إن القرآن كتاب موجه للانسانية كلها ، وهو ينطبق على جميع طوائف هذه الانسانية ، ويعبر عن ذلك تماما ، فالمتدين الورع ، الذى قد نفذ فى كيانه الشعور العميق أنه مخلوق فيريد ان يخرج عن حوله وقوته وينسب الخير لله والشر لنفسه ، أو يرى أن ينسب كل شئ لله نسبة ميتافيزيقية لا مادية يجد فى القرآن مايناسب ذلك من مثل « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (٢) .. «قل كل من عند الله » (٣) .

---

(١) العروة الوثقى ص ٥٣ نشر دار العرب للبستانى .

(٢) النساء : ٧٩ .

(٣) النساء : ٧٨ .

والمتدين المعتز بفعل الخير ، المعترف بمسئولية فى فعله للشر ، يجد ما يرضى شعوره بذاته ، ويتفق مع العدالة التى يتصورها من مثل : « من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها » (١) . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٢) .

والمذنب المسرف على نفسه يجد إذا تاب وأناب مايبدد يأسه ويطمئنه على مصيره من مثل : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » (٣) .

والناظر نظرة فلسفية ميتافيزيقية عميقة يجد ما يلائم نظرته .

والخاسر الذى يزعم أنه هالك قد قضى عليه بالشر والشقاء يجد مايقرر وصف حاله .

فالقرآن ليس موجها للسذج ولا للمُصرين على النظر الى شئ واحد ، وعلى النظر من جانب واحد ، بل هو موجه الى الانسانية المتطورة ، السائرة في تطورها نحو الكمال والفكر ونحو النظرة الموحدة » (٤) .

---

(١) فصلت : ٤٦ ، الجاثية : ١٥ .
(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٣) الزمر : ٥٣ .
(٤) من تعليقات الدكتور محمد عبد الهادى أبوريدة على كتاب (تاريخ الفلسفة فى الإسلام) لديبور ص ٦٩ .

بين العلم والإيمان

هل يمكن الاستغناء بالعلم عن الدين ؟

خيل لبعض الناس ان الانسان يمكنه الاستغناء عن الدين ، وأن يعيش «متحررا» من تكاليف الدين ، وخاصة فى هذا العصر ، عصر العلم والتقنية ، الذى استطاع بهما الانسان أن يقهر الطبيعة ، وينتصر عليها ويسخرها لمنافعه ، فيفجر الصخر ، ويحول مسير النهر ، ويغوص فى أعماق البحر ، ويحلق فى أعالى الجو، حتى راح يزاحم الكواكب فى فضائها ، والاقمار فى مداراتها ، وبعد أن زاحم الحيتان والاسماك فى قاع المحيطات .. ، وحتى قال بعضهم فى غرور وصلف : إن الانسان غدا سيصنع نفسه ! (١) .

المكاسب المزعومة من وراء الاكتفاء بالعلم :

يقولون : إنهم بواسطة هذا العلم يستطيع ان يكيف حياته ، وينظم شئونه بعيدا عن الايمان بالله ، ويمعزل عن رسالاته ، فخرج بهذه المكاسب .

أولها : الصحة العقلية والنفسية : فإن عقائد الدين والإيمان بالغيب، تسبب للمثقف العصرى قلقا ذهنيا ، ناتجا عن إيمانه بشئ لاتقوم عليه الادلة العلمية ، ولاتشهد له التجارب الحسية .

ثانيها : الحرية الشخصية : فإن للإيمان بالله ورسالاته قيودا والتزامات حد من انطلاق الانسان ، وتقيد من حريته وتضعه فى قفص حديدى محكم، وفقا لنظرية « الحلال والحرام » التى لايخلو منها دين وبهذه الحرية يستمتع الانسان بطيبات الحياة كلها دون حجر ولا تدخل من سلطة كهنوتية .

(١) انظر الايمان والحياة ص ٣٢١ .

ثالثها : العمل للحياة الدنيا وترقيتها : فإن الدين بمافيه من زهد، وإقبال على الآخرة ، يدير ظهره للدنيا ، ويحقر من شأنها ويتهم العاملين لها بأنهم معرضون عن الله سبحانه ، وعن الحياة الباقية ، فالدنيا والاخرة عنده ضرتان إذا أرضيت إحداهما اسخطت الأخرى (١) .

والرد على هذه المزاعم بمايلي :

أولاً : للعلم مجالات واختصاصات لايتعدها ، ومجالا لايتجاوزه ، ذلك هو مجال الماديات والمحسوسات التى تدخلها الملاحظة والتجربة وهى التى يمكن التحكم فيها .. أما ماوراء الحس ، أو المادة ، فليس من وظيفة العلم ، إنما من وظيفة الوحى إن العلم منهج صحيح لمعرفة المادة ، ولكنه ليس منهجا صحيحا لمعرفة ماوراء ها (٢).

إن العلماء - كما قال صاحب فيض الخاطر قد اتجهوا بمنهجهم العلمى اتجاها صحيحيا نحو« عجلة » العالم يفحصونها ويجربونها ويمتحنونها ، ولكنهم لم يتجهوا نحو« محرك » العجلة ، وليس فى مقدور علمهم وحده - وهو مبنى على الحس والتجربة : ان يضع أيديهم على محرك العجلة ، لأنه لا يرى ولا يدرك بالحس ، ولايدخل المعمل ، ولا يجرى فى أنابيب الاختبار .

لقد تقدم العلم وتقدم ، واعتز بنفسه وملأه الغرور ، ومع هذا كله لم يستطع أن يفسر إلا السطح وإلا المظاهر ، ما العلة الأولى للخلق ؟ ومن الذى بعث الحياة فى الخلية الأولى للعالم ؟ كيف نفسر ملايين الحقائق فى عجائب الطبيعة ؟ وفى عجائب أنفسنا ؟

إن أقصى مايصبو اليه العلم أن يعرف نصف الحقائق ، وهو الظاهر ،

(١) انظر المرجع نفسه ص ٣٢١ .

(٢) انظر المرجع نفسه .

والاجابة عن « كيف » . أما النصف الآخر ، وهو أقوم النصفين ، وهو باطن الحقائق والإجابة عن « ماهى » لا « كيف هى » فعاجز كل العجز عنه لايستطيع أن ينبس فيه بحرف .

إن من يؤمن بالعلم وحده ، وينكر ماوراءه ، ومن يؤمن بالقوانين العلمية وينكر ماعداها ، لا يؤبه بقوله حتى يقول : إنى استطيع ان أفسر العالم من ألفه الى يائه، فأما ان يفسر الآله ، ولا يفسر محركها ، ويفسر تطور الحياة وتدرجها ، ولا يفسر كيف وجدت لأول عهدها بالوجود فضرب من السخف ، أو هو - على أحسن تفسير- كقول الطفل : لا أعلم ، لأنه يريد أن يتعلم إن إنكار العلم الأولى للعالم ، وعقل العالم الذى يدبره ، يلقى على عاتقنا عبئا لا نسطيتع حمله .

« إن العالم فى حقيقة أمره يزيد عجائب ولا يحلها ، هذا الفلكى بعلمه ودقته وحسابه ورصده وآلته ، ماذا صنع ؟ أبان ملايين النجوم فى السماء بالقوة المركزية بقيت فى أماكنها أو أتمت دورتها كما أن قوة الجاذبية فى العالم حفظت توازنها ، ومنعت تصادمها ، ثم استطاعوا ان يزنوا الشمس ، والنجوم ويبينوا حجمها وسرعتها وبعدها عن الأرض ، فزادونا عجبا ، ولكن مالجاذبية ؟ وكيف وجدت ؟ وما القوة المركزية وكيف نشأت ؟ وهذا النظام الدقيق العجيب كيف وجد ؟ أسئلة تخلى عنها الفلكى لما عجز عن حلها وأبان الجيولوجى لنا من قراءة الصخور ، كم من ملايين السنين قضتها الأرض حتى بردت ؟ وكم آلاف من السنين مرت عليها فى عصرها الجليدى ، وكيف عمرت بالماء ؟ وكيف ظهر السطح ؟ وأسباب البراكين والزلازل وكذلك فعل علماء الحياة فى حياة الحيوان ، وعلماء النفس فى نفس الإنسان ، ولكن هل شرحوا إلا الظاهرة وهل زادونا الا عجبا ، سلهم كلهم بعد السؤال العميق الذى يتطلبه العقل دائما وهو :

من مؤلف هذا الكتاب المملوء بالعجائب التى شرحتم بعضها وعجزتم عن أكثرها ؟ أتآليف ولا مؤلف ، ونظام ولا منظم ، وإبداع ولامبدع ؟ من أنشأ فى هذا العالم الحياة وجعلها تدب فيه ؟ من أوجد عقله الذى يدبره ؟ .

« إن النشوء والارتقاء لايصلح تفسيرا للمبدع ، وإنما يصلح تفسيرا لوحدة العالم ووحدة المصدر ، وكلما تكشفت أسرار العالم ، وتكشفت وحدته ووحدة تدرجه ، ووحدة نظامه ، وتدبيره ، كان الانسان أشد عجبا وأشد إمعانا فى السؤال وليس يقنعه بعد كشف العلم عن اسرار العالم وعجزه عن شرحها وتعليلها إلا أن يهتف من اعماق نفسه « إنه الله رب العالمين » (١) .

ثانيا : إن نتائج العلم ليست – كما يظن بعض الناس – قطعية يقينية : مائة فى المائة : ١٠٠٪ وبصورة دائمة ، فإن قابلية الشك والاحتمال قائمة في كثير من نتائج العلم ، ذلك ان اساس العلم هو التجربة ، والتجربة أساسها الحس، والحواس كثيرا ما تخدع ، وهذا ما أقر به المحققون من العلماء (٢) .

يقول الاستاذ « ماريت استانلى كونجدن » (٣) فى مقال له : « إن العلوم حقائق مختبرة ، ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الانسان وأوهامه ، ومدى بعده عن الدقه فى ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته ... ، ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود ، فهى بذلك مقصورة على الميادين الكمية فى الوصف والتنبؤ .. وهى تبدأ بالاحتمالات، وتنتهى بالاحتمالات كذلك ، وليس باليقين ... ونتائج العلوم بذلك تقريبية

---

(١) الاستاذ احمد امين : فيض الخاطر : ٤/ ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) الايمان والحياة ص ٣٢٤ .

(٣) أحد العلماء الأمريكيين المعاصرين.

وعرضه للاخطاء المحتملة فى القياس والمقارنات ،.. ، ونتائجها اجتهادية وقابلية للتعديل والاضافة والحذف وليست نهائية »(١) .

يبين تاريخ العلم أن الآراء العلمية كثيرا ما تتغير فى أسسها ، وتتبدل فى موازينها .

يقول الكاتب التركى الاستاذ « بيامى صفا » فى بحث له عن « المفهوم الجديد للإنسان »(٢) :

« إن إنسان القرن العشرين يعيش فى أزمة منذ أن بدأ يدرك خطأ هذا المعنى الذى أضفاه على نفسه ، منذ نهاية القرون الوسطى ، أى بدأ يدرك خطأ « تأليه» نفسه. وماحركات التجديد فى العصر الحديث إلا بداية للنفور الموجه الى هذا المعنى.

فقد عرف الانسان عدم كفاية العلم الذى أراد أن يضعه مكان الدين ، ومكان موازين القيم المعنوية ، فلقد شهد العلم نفسه انهيار اساسين وقاعدتين من قواعده ، هذين الاساسين اللذين كانا بمثابة البداهة حتى نهاية القرن الماضى .

فكما قال « أورتاكاى كست » فى اجتماع جنيف : بأن الفيزياء ، والمنطق اللذين هما اساسا (العلم الذى قام عليه بناء المدنية الغربية) قد هدما نفسيهما ، بنفسيهما : « إن فجاعة الدراما ربما لا تكون ظاهرة لكل عين ، لأن عين غير الخبير لاتكشف فى قطرة دم تحت الميكروسكوب علامات مرض قاتل . ولكن كل خبير يستطيع أن يقدر بأن الوضع الذى سقط فيه المنطق والفيزياء اليوم لهو أبلغ فى

(١) عن كتاب : « الله يتجلى فى عصر العلم » مقال : « درس من شجيرة الورد » .
(٢) عن مجلة المسلمون « المسلمون » ٨٢ المجلد الثامن العدد الثامن ذو الحجة ١٣٨٣هـ (مايو) ١٩٦٤ . ترجمة الاستاذ أورهان محمد على .

الإشارة الي الأزمة التى تعانيها مدنيتنا من جميع فجائع السياسة والحرب ، لأن هذين العلمين كانا بمثابة الصندوق الذى يخبئ فيه الغربيون فائضهم من الذهب ، استعدادا لاستقبال الايام المقبلة بأمن وطمأنينة » .

لقد شرح هذه العالم الشهير كيف غير الفيزياء اساسه ، وكيف ا المنطق فى ظرف خمسين سنة بواسطة بحوث ودراسة « رسل » و« وايتهيد » و« هلبيرت » ، قد غير اساسه أيضاً ، تابع كلامه : « إن مدنيتنا أصبحت تعلم الآن أن اسسها فى حالة فى إفلاس ، ولذلك نراها تشك فى نفسها ، ولكن ليس من الممكن أن تموت حالا أية مدنية لمجرد هزة شك ، وإنما على العكس فإننى أرى أن المدنيات لاتموت إلا من تصلب المعتقدات وتحجرها ، وكل هذه تشير الى أن شكل مدنيتنا ، أو بالاصح شكل المدنية التى يجلبها الغرب قد جف وانتهى » (١) .

ثالثا : ان العلم ليس خصما للإيمان ، ولا ضدا له ، بل هو دليل يهدى اليه ، فقد اهتدى به كثير من العلماء بعد تيقنهم أن وراء هذا الكون قوة عليا تدبره وتنظمه، وترعى كل شئ فيه بميزان وحساب ومقدار ، .. يقول الاستاذ « هوشل » :

« كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى، لا حد لقدرته ولانهاية ، فالجيولوجيون ، والرياضيون ، والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده » (٢) .

أما الدكتور « دى نوى » الطبيب العالم الذى اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعى ، فيقول : « كثير من الأذكياء وذوى النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الايمان بالله ، لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه ، على أن الانسان الأمين

(١) نقلا عن الايمان والحياة ص ٣٢٦ .

(٢) نقلا عن نفس المرجع ص ٣٢٧ .

الذى تنطوى نفسه على الشوق العلمى لا يلزمه أن يتصور « الله» إلا كما يلزم العالم الطبيعى أن يتصور « الكهرب » ، فإن التصور فى كلتا الحالتين ناقص وباطل ، وليس الكهرب قابلا للتصور فى كيانة المادى وإنه – مع هذا – لأ ثبت فى آثاره من قطعة الخشب »[1] .

أما العالم الطبيعى « سير آرثر طومسون » المؤلف الاسكتلندى الشهير فيقول: « إننا فى زمن شقت فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الاثير كيانه المادى ، فهو أقل الأزمنة صلاحا للغلو فى التأويلات المادية »[2] .

ويقول فى مجموعة « العلم والدين » : « ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم ، لأن العالم الطبيعى لا يخلص من الطبيعة الى رب الطبيعة ، إذ ليست هذه وجهته ، وقد تكون النتيجة أكبر جداً من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة الى مافوق الطبيعة ، إلا أننا خلقاء نغتبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للنزعة الدينية أن تتنفس فى جو العلم حيث لم يكن ذلك يسيرا في أيام آبائنا وأجدادنا ، فإذا لم يكن على الطبيعيين أن يبحثوا عن الله – كما زعم مستر « لانجدون دافيز » خطأ فى كتابه البديع عن الانسان وعالمه – فنحن نقرر عن رؤية أن أعظم خدمة قام بها العلم، أنه قاد الانسان الى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولانجاوز المعنى الحرفى حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضا جديدة وحفزه من ثم الى غاية جهده العقلى ، فإذا به فى كثير من الأحيان لايجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك فى اليقين ، والأطمئنان الى الله تعالى »[3] .

---

(١) الاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد : عقائد المفكرين فى القرن العشرين .

(٢) المرجع نفسه ص .

(٣) عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص

وقد حفلت مكتبات العالم – بمختلف اللغات الحية – بكتب قيمة ، ألفها « علماء» راسخوان متبحرون ، كلها تهدى الى الله سبحانه وتدعو الى الإيمان به .

وحسبنا مما كتب باللغة الانجليزية ، ونقل الي اللغة العربية : كتابان حازا شهرة عالمية واسعة :

أحدهما : ألفه « أ . كريسى موريسون » رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك وعضو المجلس التنفيذى لمركز البحوث القومى فى أمريكا ، وأحد أقطاب العلوم الكونية فى عصرنا ، وعنوان كتابه فى الأصل : «الإنسان لا يقوم وحده » ، وقد كتبه ردا على « جولويان هكسلى » فى كتابه الإلحادى : « الإنسان يقوم وحده » يعنى : من غير إله (١) ! .

وقد قام بترجمة كتاب « أ. كريسى موريسون » الى العربية الاستاذ محمود صالح الفلكى ، ووضع له عنوانا هو : « العلم يدعو الى الإيمان » .

ثانيهما : اشترك فى تأليفه ثلاثون عالما من اشهر العلماء المتخصصين فى أمريكا ، كل واحد منهم كتب فيه مقالا ، بين فيه كيف أهتدى الى وجود الله عز وجل والايمان به ، عن طريق علمه واختصاصه ، وذلك الكتاب هو : « الله يتجلى فى عصر العلم » ، وقد قام بترجمته الى اللغة العربية الدكتور الدمرداش سرحان (٢) .

أما البحوث والمقالات التى كتبت باللغة العربية بالاضافة الى الكتب المؤلفة فنذكر منها :

« سنن الله فى الكائنات » للدكتور محمد أحمد الغمرواى عليه رحمة الله ، و« مع الله فى السماء » للدكتور أحمد زكى رئيس تحرير مجلة العربى الكويتية « سابقا » ،

---

(١) انظر الإيمان والحياة ص ٣٢٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٣٠ .

و« قصة الإيمان » للشيخ نديم الجسر ، وماكتبه الدكتور محمد جمال الدين الفندى مؤخرا ، والاستاذ عبد الرزاق نوفل ، بالاضافة الى ماكتبه الشيخ طنطاوى جوهرى رحمة الله فى تفسيره « الجواهر » والدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل رحمه الله وغيرهما [١] .

أما دعوى الصحة العقلية والنفسية بالانخلاع من الدين ، فهى دعوة كاذبة مغرضة يكذبها الواقع ، وينفيها الواقع المشاهد من الحضارة الآلية الغربية المادية .. فهذا هو العالم الغربى (العلمى) الحديث يُعانى من أمراض النفس ، والعقل مايشهد عليه ليله ، ويكدر ويقلق عليه نهاره ، وإليك الأدلة :

يقول الفيلسوف المؤرخ البريطانى المعاصر « توينبى » « لقد أغرت فنون الصناعة ضحاياها ، وجعلتهم يسلمونها قيادة أنفسهم ببيعها « المصابيح الجديدة » لهم مقابل « المصابيح القديمة » لقد أغوتهم فباعوها أرواحهم ، وأخذوا بدلا :« السينما » و« الراديو » ، وكانت نتيجة هذا الدمار الحضارى الذى سببته تلك « الصفقة الجديدة » إقفارا روحيا ، وصفه « أفلاطون » بأنه « مجتمع الخنازير » ووصفه « الدوس هكسلى » بأنه « عالم زاه جديد » [٢] ! .

ويأمل « توينبى » أن يحصل الغرب على خلاصه بالانتقال من الاقتصاد الى الدين ، مؤكدا قوله : « إن الغربى يستطيع بواسطة الدين أن يتصرف تصرفا روحيا يضمن سلامته بالقوة المادية التى ألقتها بين يديه ميكانيكية الصناعة الغربية » [٣] .

فتوينبى بهذا يرد على الماديين المغرقين فى ماديتهم بان السلامة الحقيقية فى التصرف الروحى الذى يحافظ على القوة المادية ، التى لن يجنوا من ورائها إلا الدمار والهلاك .

---

(١) انظر المرجع نفسه هامش ١ ص ٣٣٠ .

(٢) نقلا عن الايمان والحياة ص ٣٣١ .

(٣) نقلا عن نفس المرجع .

ويقول الدكتور محمد إقبال الفيلسوف الشاعر المسلم :

« الرجل العصرى بماله من فلسفات نقدية ، وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق اليه ، لكنه سلبه إيمانه فى مصيره هو .

الانسان العصرى ، وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه الى الحياة الروحانية الكاملة ، أى الى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ، وهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ، وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية السياسية فى كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة وحبه للمال حبا طاغيا ، يقتل كل مافيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى « الواقع » أى فى مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلاة بأعماق وجوده ، تلك الاعماق التى لم يسبرغورها بعد ، وأخف الأضرار التي اعقبت فلسفته المادية ، هى ذلك الشلل الذى اعترض نشاطه ، والذى ادركه هكسلى (Hyxley) وأعلن سخطه عليه » (١) .

أما صوت النذير الصارخ فيأتى من أحد العلماء التجريبين الذين أفنوا جل وقتهم فى المعامل والمختبرات إنه الدكتور « الكسيس كاريل » أحد أقطاب العلم الحديث الذى يقول فى كتابه « الانسان ذلك المجهول » (٢) :

« من العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدد من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجانيب تعج بنزلائها ، وتعجز عن استقبال جميع

(١) تجديد الفكر الدينى فى الإسلام للدكتور محمد اقبال ص ٢١٤ .

(٢) ص ١٨٧ ، ١٨٨ من الترجمة العربية .

الدين يجب حجزهم » ، ويقول « س . و . بيرس » : « إن شخصا من كل ٢٢ شخصا من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر» !!

« وفى الولايات المتحدة تبدى المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين ، ففى كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات ، حوالى ستة وثمانين ألف حالة جديدة ، فإذا استمر عدد المجانين فى السير على هذا المعدل ، فإن حوالى مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن الى المدارس والكليات سوف يدخلون المصحات عاجلا أو آجلا !

« ففى عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية : ٣٤٠,٠٠٠ مجنون ، كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين المحجوزين فى المصحات الخاصة ٨١,٥٨٠ . وكان عدد مطلقى السراح بشرف كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠ . ولاتشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التى تعالج فى المستشفيات الخاصة ، وعلاوة على المجانين يوجد فى البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ من ضعاف العقول ، ولقد كشف الفحص الذى تولته اللجنة الوطنية للصحة العقلية بعناية ، عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء ، إلي درجه أنهم لا يستطيعون الاستمرار فى المدارس العامة ، والافادة ممايتلقون من علم .. ، وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقليا أكثر من ذلك بكثير ، ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الاحصاءات الرسمية ، مصابون باضطربات نفسيه ، وتدل هذه الأرقام علي مدى استعداد الرجل المتحضر للعطب ، وكيف أن مشكلة الصحة العقلية تعتبر من أهم المشاكل التى يواجهها المجتمع العصرى .

فإن أمراض العقل خطر داهم : إنها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلى ، بل التيفوس والطاعون والكوليرا ، فيجب ان يحسب

للأمراض العقلية حسابها لا لأنها تزيد عدد المجرمين فحسب ، بل لأنها ستضعف حتما التفوق الذى تتمتع به الاجناس البيضاء (كذا) . على أنه يجب أن يكون مفهوما أنه لا يوجد ضعاف عقول ومجانين بين المجرمين بالكثرة التى يوجود بها بين افراد الشعب !! .

صحيح أن عددا كبيرا ممن يعانون من النقائص العقلية موجود فى السجون، بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعى الثقافة ، مازلوا مطلقى السراح !

« ولاشك أن كثرة عدد مرضى الاعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطير الذى تعانى منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقا الى تحسين صحتنا العقلية » .

وفى مجال الأدب والصحافة نكاد نقرأء كل يوم جديدا عن السخط والقلق والتوتر الذى يسود الحياة فى الغرب ، نتيجة للانحراف عن الايمان بالله والآخرة والاستغراق فى المطالب المادية وحدها .

وأكتفى هنا بنموذج مما نشرته صحيفة «الاخبار القاهرية» فى يوم ٢/١٢/ ١٩٦٠ فى « أخبار الأدب » نشرت الصحيفة تحت هذا العنوان « الأفيون والقرف» الخبر التالى :

« البولس فى أمريكا اعتقل عشرات الأدباء من : « جمعية الأدباء الساخطين» ولم يكن السبب هو الاعتراض على آثارهم الفنية ، بل على سلوكهم الاجتماعى ، على تعاطيهم للأفيون ، ودفاعهم عن هذه المخدرات بصورة عدائية ، وعلى إثر اعتقالهم أصدر « وليام روراك» من الأدباء الساخطين ما يلى : « إن الحياة طعمها

مر ، وأن الناس فى تعب دائم ، وإنه لا وسيلة للهرب من « القرف » إلا الاستسلام للأحلام السعيدة ، وكسل لذيذ »(1) .

وفى مجلة « العصور الحديثة » يصرخ سارتر الوجودى ويقول : « لقد انتهت الحرب فى فرنسا الجائعة ، ولكن السلام لم يبدأ ، إننا نعيش فى محنة مابين الحربين ، لقد كذب هؤلاء الذين قالوا : إن السلام من طبيعة الأشياء ، وإن الحرب مسألة عارضة .. فما هذا الذى نحن فيه ؟ إنه الحرب والسلام معا . إنها المحنة دائما »(2) !!

وماقاله سارتر إنما هو تعميق للإحساس بالمأساة واليأس والمرارة ، عبر عنه الشاعر الألمانى « بروشرت» الذى توفى سنة ١٩٤٧ ، فقال فى قصته « أمام الباب »: نحن جيل بلا رابط ولا عمق ، عمقنا هو الهواية ، نحن جيل بلادين ولا راحة ، شمسنا ضيقة ، حبنا وحشية وشبابنا بلا شباب !!

إننا جيل بلا قيود ولاحماية من أحد (3) .

خدعة الحرية الشخصية وآثارها :

يدعى أنصار الفكر المادى أنهم ربحوا الحرية الشخصية بعد « تحررهم » من الدين والإيمان بعقائده الغيبية ، وأخلاقه القسرية ، فإن كانت الحرية فى نظر هؤلاء العب من الشهوات بلا حساب ، والانطلاق وراء المتع الحسية بلاحياء ، والتحلل من عرى الفضائل والاخلاق والقيم العليا التى هى أغلى ما ورثته الانسانية من تاريخها

---

(1) نقلا عن الإيمان والحياة ص ٣٣٤ .

(2) نقلا عن نفس المصدر ص ٣٣٥ .

(3) نقلا عن نفس المصدر ص ٣٣٦ .

الطويل ، فهذه الحرية ليست مغنما ، بل هى خسارة جسيمة على البشرية ، وهزيمة منكرة للمعانى الانسانية التى بها صار الانسان إنسانا (١) .

إن القيود التى يفرضها الدين على الانسان ، لايريد بها عذابه ولا حرمانه ، إنما يريد بها أن يرتفع به من الحيوانية الهابطة الى الانسانية الصاعدة ، ومن ثم ينتصر الجزء الشفاف الجانب الروحى في الانسان على الجانب المادى الكثيف ، ينتصر العقل والإرادة على الشهوة البهيمية ، أو السبعية .

إن هذا الانتصار على النفس يمنحها لذة أعمق وأبقى من لذة الانطلاق وراء المتع الحسية التى لايدوم التلذذ بها أكثر من لحظات قصار ، ثم ينطفئ أوارها فإذا هى رماد ، على أنه ينبغى معرفة أن الحياة لا تصلح إلا بالقيود التى يفرضها الدين.. إننا نجد السيارات مقيدة بالسير على الجانب الايمن من الطريق ، والتوقف عند كل إشارة حمراء ، والدوران فى مناطق معينة وفق تعليمات المرور ، فهل هذا انتقام من السيارات وأصحابها ؟ كلا ، وإنما هو تنظيم اقتضاه منع الصدام بين السيارات بعضها البعض ، وبين الركبان والمشاة . فتدخل الدين هنا فى حرية الفرد، ووضع الإشارات الحمراء أمامه فى بعض المواقف إنما هو تنظيم « لمرور » الانسان، وسيره فى طريق الحياة إنما هو عمل على منع « الصدام » بينه وبين غيره من الناس ، حماية له من الخطر أن يصيبه هو ، أو يصيب غيره من جراء انطلاقه بلاقيود ولا حدود (٢) .

وكل مجتمع يخرج على هذه القيود ، أو يهون من شأنها ، فإنه يعرض نفسه للخطر ، ويقترب من حافة الهاوية ، وآثار التحلل وأخطاره بارزة للعيان ، ويكفى القاء النظر على الصحف لنقرأ هذه الأنباء :

(١) انظر الإيمان والحياة ص ٣٣٦ .

(٢) انظر نفس المرجع ص ٣٣٧ .

١- أصدرت الجمعية البريطانية لمعالجة الشذوذ الجنسى تقريرا اليوم قالت فيه : إن مليون رجل فى بريطانيا - وربما أكثر - مصابون بالشذوذ الجنسى ، الأهرام القاهرية فى ٧ / ٥ / ١٩٦٥ .

٢- ٧٢ مليون أمريكى يتناولون الخمور ، منهم ٢٠ مليون يكلفون الدولة بليونى دولار كل سنة ، السبب تغيبهم عن العمل . الأهرام القاهرية فى ١٩٦٥/٥/٣ .

٣- خرجت النساء السويدات فى مظاهرة عامة ، تشمل أنحاء السويد ، احتجاجا على إطلاق الحريات الجنسية فى السويد ، اشتركت فى المظاهرات حوالى ١٠٠,٠٠٠ (مائة الف) أمرأة . اخبار اليوم القاهرية فى ٢٤ / ٤ / ١٩٦٥ .

٤- الجريمة فى أمريكا هى وصمة وسبه فى الجبين فسجلات الشرطة تزخر بحوادث النشل من المحلات التجارية أثناء التسوق ، وخطف حقائب السيدات وقاعات المحاكم « موحلة » بجرائم الاغتصاب والقتل والسفك (١) .

والخلاصة أنه بأى مقياس ومن خلال أى زاوية ، فالاحصاءات مرعبة وأثرها باد فى الحياة للويلات المتحدة الأمريكية ، على مختلف مستوياتها الاجتماعية ، فكل ولد من بين تسعة يساق الى محاكم الأحداث لاقترافه جريمة أو جرائم !! سوى جرائم السير ، وذلك قبل ان يبلغ الثامنة عشر من عمره (٢) !! كل هذا بسبب الحرية الشخصية المزعومة .

وفى كثير من مناطق السكنية المأهولة العامرة يلزم أكثر من نصف السكان منازلهم بعد غروب الشمس خوفا من تعرضهم لأى اعتداء أثناء تجوالهم ، أو مرورهم بسياراتهم .

---

(١) انظر المرجع نفسه ص ٣٣٨ .

(٢) انظر نفس المرجع .

والثلث ينخلع رعبا عندما يشاهد وجها غير مألوف فى الحى !! والخمس ملئ خوفا واضطرابا حتى أنهم يفضلون النزوح والهروب ، ولكن لا يدرون أين يجدون الأمن . وترتفع كل سنة وبشكل غير عادى ، نسبة الحاملين لرخص نقل وحيازة الأسلحة النارية والبنادق فى منازلهم وسيارتهم ، وكلاب الحراسة الضخمة الشرسة أصبح وجودها فى المنازل أمراً طبيعيا كوجود القطط والجراء المدللة !! .

وفوق هذا كله يزداد الشعور بأن الحكومة ، على جميع مستوياتها الولائية والفيدرالية ، لاتقدر أو لاتريد ، أو لن تحمى المواطن العادى والحالة فى أنصع صورها تبدو مستحيلة ، ولكن الحقيقة مرعبة تماما !! (١) .

وهذا ما توصلت اليه لجنة الرئيس جونسون المشكلة لمحاربة الجريمة بعد ١٨ شهرا من الدراسات المتتابعة والمقابلات المتعددة وبعد زيارات لا نهاية لها للمحاكم والسجون ومراكز الشرطة ، وببساطة ذكرت أن قصة الجريمة كاملة في أمريكا ، لا يمكن وصفها ، فالإحصاءات التى وضعت إنما تعكس الجرائم الظاهرة ، لأن الجرائم الناجحة بالتعريف هى غير ظاهرة ومغلفة بستار كثيف من السرية لا يقدر على حل رموزها وكشفها أحدا !!

ولكن الملاحظات الجانبية لتقرير اللجنة الذى جاء فى ٣٠٠ صفحة ، مخيفة للغاية فالحالة سوداء قاتمة ، حتى انها تكاد تطيح ببناء المجتمع « الجنوسونى » العظيم الذى يحلم الرئيس جونسون برؤيته !! (٢) .

نسبة الجرائم تزداد سنة بعد أخرى ، ففى عام ١٩٦٦ سجلت أكثر من ٣ ملايين سرقة كبيرة ، أى أن واحدا من بين ٧٠ مواطنا أمريكيا هو لص كبير !! .

---

(١) انظر نفس المرجع ص ٣٣٩ .

(٢) انظر المرجع نفسه

ويبدو للمواطن العادى أن بداية الحل الوحيد يتطلب :

أ- محو جميع المدن الكبيرة ، لأنها تفقس سدس القتلة فى الولايات المتحدة ، وثلث اللصوص والنشالين .

ب- حجز ومنع اختلاط المراهقين من الجنسين لأنهم مجموعة سائبة - من عقالها - فى المجتمع خلقيا وتصرفيا .

جـ- تدمير جميع السيارات ، لأن معدل سرقة السيارات يتجاوز أكثر من نصف مليون سيارة سنويا .

د- إزالة الاعمال التجارية والمالية الكبيرة لأنه بعلم هذه المؤسسات ، أو بدون علمها تشجع الاعمال المالية الاحتيالية ، وتقدم فرصا مغرية للاستثمارات المالية العائدة لملوك الاختلاس والسرقة !!

(الشهاب اللبنانية [1] عن مجلة « تايم » الامريكية فى ٢٤ آذار سنة ١٩٦٧) .

أما العمل والانتاج للحياة ، وترقية الجانب المادى منها ، والسعى لتحقيق حياة طيبة للبشر فى الأرض ، والزعم بأن الايمان بالله والاخرة يعوق ذلك أو يؤخره فالرد عليه بمايلى :-

أولا : الحقيقة الأكيدة أن الايمان أعظم دافع للإنتاج ، فالجو الذى تزداد فيه الأمانة والاخلاص فى العمل يؤدى الى رفع درجة الانتاج ، وقد ورد ذكر العمل فى القرآن الكريم فى أكثر من سبعين آيه مما يدل دلالة أكيدة أن الايمان لا يقلل من شأن العمل أو احتقاره يقول الله تعالي : « وقل اعملو فسيرى الله عملكم ورسوله

---

(١) العدد ١٦ من السنة الأولى فى ١٥ / ٩ / ١٩٦٧ . نقلا عن الإيمان والحياة فى ص ٣٤٠ .

والمؤمنون»[1] ، « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » [2] . « فلا تعلم نفس بما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون» [3] . وفى الأثر : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » [4] .

ثانيا : أبطل الإسلام الدعاوى الكاذبة والأمانى المعسولة التى تقول بأن صنفا من الناس يحسبون الجنة حكرا عليهم ، أو عقارا سيتوارثونه فقال سبحانه : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » [5] .

وبهذا حسم الموقف وجعل طريق الجنة مشروط بشرطين : إسلام الوجه الى الله عز وجل ، وإحسان العمل .

روى المفسرون لكتاب الله عز وجل أن مجلساضم جماعة من اليهود والنصارى والمسلمين ، فزعمت كل طائفة منهم أنهم أولى الناس بدخول الجنة .

اليهود قالوا : نحن أتباع موسى الذى اصطفاه الله برسالاته وبكلامه .

والنصارى قالوا : نحن أتباع عيسى روح الله وكلمته .

والمسلمون قالوا : نحن أتباع محمد خاتم النبيين ، وخير أمة أخرجت للناس ،

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) الزخرف : ٧٢ .
(٣) السجدة : ١٧ .
(٤) رواه ابن النجار والديلمى فى « مسند الفردوس » من حديث أنس ورمز له السيوطى فى «الجامع » بالضعف .
(٥) البقرة : ١١١ ، ١١٢ .

فماذا كان حكم الدين ؟ إنه لم يدع هؤلاء و هؤلاء لدعاواهم وتنازعهم ، فنزلت الآيات حاكمة فاصلة قاضية عادلة ، تخاطب المسلمين فى صراحة وبيان : « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا »[1] .

ثالثا : ليس العمل في الإسلام وقفا على الآخرة وحدها ، كم يتوهم البعض ، كلا ، فإن قوانين الله فى الجزاء واحدة ، ورب الدنيا والآخرة واحد ، تأمل قوله تعالى: « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »[2] .

« فنعم أجر العاملين »[3] .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »[4] .

فقيد الإسلام الأجر بالعمل ، وهى سنة الله عز وجل فى خلقه .

رابعا : اهتمام المؤمن بتجويد العمل واتقانه بقول الرسول ﷺ : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »[5] .

كما فسر النبى ﷺ الإحسان فى جانب العبادة بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[6] .

---

(١) النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ ، وانظر الإيمان والحياة ص ٢٩٥ .

(٢) الكهف : ٣٠ .

(٣) الزمر ٧٤ .

(٤) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٥) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

(٦) جزء من حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان .

فإتقان العمل مطلب إسلامى سواء كان هذا العمل للدنيا أو للآخرة .

والمؤمن يتصف بالأمانة والاخلاص ، بحيث لا يجعل همه فى الكسب المادى فحسب أو ارضاء صاحب العلم ، ولكنه أمين فيما أسند اليه يرعى الله فى عمله محافظا حق أخوته فى الدين والوطن ..

ومن المؤسف حقا مانقرأه فى الصحف والمجلات ، ومانسمع من أحاديث أو نشاهد ... ماتعانيه المؤسسات العامة من أجهزة تتوقف - على جدتها - وأدوات تخرب على متانتها ، ومصالح تعطل ، مع حاجة الناس اليها ، وأعمال يكفيها يوم تستغرق أياما ، ونتيجة ذلك أن مشروعات نافعة تفشل ، وجهود مخلصة تبعثر ، وأموالا طائلة تضيع وأن الانتاج العام بعد ذلك يصيبه التدهور ، وماسبب ذلك إلا لفقدان الأمانة والأخلاص ، وخراب الضمائر عند الذين لايرجون لله وقارا ، ولايعملون للآخرة حسابا (١) ، وهؤلاء لا يريدون أن يعرفوا ، أو يقتنعوا بأن الدين هو صمام الأمان للمجتمعات .

(١) انظر الإيمان والحياة ص ٢٩٧ .

اثر الدين فى وحدة الأمة

يظن بعض الناس أن الدول القوية هى التى تملك عددا ضخما من عدد القتال وآلاته ، وتنتج مقادير هائلة من الصناعات التى تغمر أسواق العالم وحقيقة الأمر أن هذه الدول لاتتاح لها القوة حتى يكون من وراء كل هذه العدة الهائلة وذلك الانتاج الضخم خلق متين يجمع أهلها ويشد بعضهم الى بعض ، ويعطف كل واحد منهم على أخيه ، ويمنع عناصر الفساد وأسباب الفرقة والخلاف ان تتسرب الى صفوفهم وتنخر فى عظامهم ، إن الدول لا تسود ولا تعلو بالحديد والنار ولا بالمال ، ولكنها تسود وتعلو بالخلق المتماسك ، وأعلى مصادر الخلق المتماسك وأعمقها جذورا وأدومها أثرا هو الدين ، فهو الذى يجمع الناس على التواد والتراحم ويقيهم ما طبعت عليه النفس البشرية من الشح ، ويكف بعضهم عن بعض وإليك الدليل :

هذه هى دول الغرب ، يستطيع كل ذى بصر أن يرى - كما رأى المؤرخ الانجليزى توينبى من قبل ، منذ الحرب العالمية الأولى - مظاهر تدهورها وانحلالها وهى فى كامل مجدها الصناعى والآلى ، لم يعوزها المال ولم تنقصها الآلات ولا المعارف الفنية ولا العلوم العقلية ، ولكن أعوزها الخلق والدين ، فسرى الفساد فى جسدها ودب الخلاف فى صفوفها ، إن مظهر هذه الدول الضخم قد يخدع كثيرا من الناس فيظنون أن نهايتها بعيدة ، والحقيقة أن الدول الكبيرة لاتضمر ولاتذوى ولاتتكمش ، ولكنها تنهار كما ينهار عمود الخشب الضخم الذى نخر السوس لبه .

كذلك انتهت كل الدول الكبرى من قبل ، فى أثينا وفى روما وفى بغداد وفى الاندلس وفى الاستانة ، انتهت حين كانت ضخامتها ومظاهر الترف فيها تخدع الناظر عن

السوس الذين ينخر عظامها (١) وكل ماحل بها بسبب تخليها عن الاخلاق التى يغذيها الدين .. أما أمة الإسلام حين كانت متمسكة بدينها فإنها كانت قوية ومع ذلك لم تتخل عن العلم ، أو تقصر فيه ، وإليك الأدلة :

تاريخ الصيدلة (علم الأدوية) عند المسلمين :

لم يمنع دين الإسلام من طلب العلم على اختلاف أشكاله ، وهذا ميدان الصيدلة يقتحمه علماء المسلمين :

كان العرب المسلمون قد جعلوا مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب ، فى بغداد ومصر والأندلس ، وفى كلية طب سالرنو وهى الأولى فى أوربا اللاتينية ، لتدريس الطب والصيدلة ، بالعربية واللاتينية وبقيت نحو تسعمائة عام ، الى أن أصدر نابليون عام ١٨١١ ، قانونا لتنظيم كلية الطب فى سالرنو .

وظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب لأول مرة ، فى أواخر القرن الحادى عشر عندما أمر الأمبراطور « فريدريك » بالمانيا ، بعدم ممارسة الطب لكثير منهم ، ومن غيرهم من علماء أوربا والشرق ، لتدريس العلوم الطبية ، فى كلية طب سالرنو ، وجامعة نابولى التى أنشأها .

ومن الكتب التى كان على الصيادلة دراستها (فى سالرنو) دستور طبى للصيادلة ، به الطرق التى يجب اتباعها فى تحضير العقاقير ، وذكر فيه طريقة استعمال الاسفنجة للتخدير (وهى مزيج من خلاصة الافيون والبنج والبيروح ، ونباتات أخرى ذات تاثير مخدر) تجمع وتجفف فى الشمس ثم تنقع فى ماء ساخن ، وعند الاستعمال (تملا الاسفنجة من السائل) ويقطر المحلول فى فتحتى أنف المريض(٢) .

(١) انظر حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسن ص ١٧ - ١٨ . ط العاشرة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م مؤسسة الرسالة بيروت .

(٢) انظر : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٤١ ، ١٤٢ .

وقد اراد (مجمع الصيدلة فى انكلترا) أن يختار اعظم أثنين ، تدين لهما علوم الصيدلة بالفضل ، فوقع اختياره على (جالت) اليونانى ، و(ابن سينا) الطبيب العالمى الشهير .. وهذا الاقرار بفضل العرب والمسلمين أدلى به :

* السير هيولنستن (رئيس الاتحاد الدولى للصيدلة) فى المؤتمر الصيدلى العربى الذى أقيم فى القاهرة عام ١٩٦٢م .

* والدكتورة شوار تزهب (وزيرة الصحة بجمهورية المانيا الاتحادية) فى افتتاح المؤتمر الدولى - للبلهارسيا - بالقاهرة ، حيث شهدت بذلك فى قولها : « أن الغرب لن ينسى أبدا أنه مدين للعرب بدراسة الطب ، وأن مؤلفات ابن سينا ، والزهراوى ، والرازى ، كانت هى الكتب الوحيدة التى تدرس فى جامعة (بالرمو) التى تضم أشهر مدرسة للطب فى العالم الغربى ، وكانت هذه الكتب ، قد ترجمت الى اللغة اللاتينية [١] .

ويشهد بذلك (الدكتور غريسيب) مدير جامعة برلين ، ورئيس فرع الطب فيها حيث قال فى حفل (أقامه الطلاب المسلمون - بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوى الشريف) :

« أيها الطلاب المسلمون ، والآن قد انعكس الأمر ، فنحن الأوربيين يجب ان نؤدى ماعلينا تجاهكم ، فما هذه العلوم إلا أمتدادا لعلوم أبائكم ، وشرحا لمعارفهم ونظرياتهم ، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر ، طالما ان كتابكم المقدس عنوان نهضتكم ، مازال موجودا بينكم وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم ، فارجعوا الى الماضى لتؤسسوا المستقبل ، ففى قرآنكم علم وثقافة ، ونور ومعرفة ، وسلام عليكم ياطلابنا إن كنا فى الماضى طلابكم » [٢] .

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق .

وعن العلامة جابر بن حيان

يقول الاستاذ (ميرهوف) :

« إن علم الصيدلة العربى استمر فى أوربا حتى منتصف القرن التاسع عشر» .

وكان جابر ابن حيان (المولود في طوس سنة ٧٣٧م - والمتوفى حوالى سنة ٨١٣م) أول من استحضر الحامض الكبريتي ، بتقطيره من الشبة ، وسماه : (زيت الزّاج) كما أنه أول من كشف الصودا الكاوية وأول من استحضر ماء الذهب ، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة ، بالحل بواسطة الحامض ، ولاتزال هذه الطريقة تستخدم حتى الآن ، فى تقدير عيارات الذهب فى السبائك الذهبية وغيرها .

وهو أول من لاحظ مايحدث من رواسب « كلورور الفضة » عند إضافة محلول ملح الطعام الى نترات الفضة ، وينسب اليه استحضار مركبات أخرى ، غير التى مرت ، ككربونات البوتاسيوم ، وكربونات الصوديوم ، واستعمل ثانى أكسيد المنغنيز فى صناعة الزجاج ، ودرس خصائص ومركبات الزئبق واستحضرها ، وقد استعمل بعضها فيما بعد ، فى تحضير الاوكسيجين ، ولايخفى ان جميع هذه المركبات ذات أهمية عظمى في عالم الصناعة ، فبعضها يستعمل فى صنع المفرقعات ، وبعضها الآخر فى السماد الصناعى ، والصابون ، والحرير الصناعى .

وبحث (جابر) فى السموم ، وله فيها كتاب : (السموم ودفع مضارها) ، ولعل من أروع ماكتب فى هذا الموضوع ، وهو من اندر المؤلفات ، ابتاعه (قبل ثلاثين عاما) أحمد باشا تيمور ، وكتب عنه بشئ من التفصيل .

وقد سار (جابر) فى معالجة بحوث الكتاب على طريقة علمية ، لاتختلف فى جوهرها ، عما هو جار الآن ، فأتى فيه على اسرار وأقوال فلاسفة اليونان ، فى

السموم وأفعالها ، كماضمنه أراء جديدة ، وتقسيمات ، لأنواع السموم وأدويتها ، وتاثيرها وأفعالها في أجسام الحيوانات ، مما لم يصل غيره إليه . ولهذا الكتاب أهمية كبرى عند علماء تاريخ العلوم ، وذلك لماله من وثيق العلاقة بالطب والكيمياء [1]، وسنأتي على شئ من اقسامه ومحتوياته ، وهو يبتدئ كمايلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم – قال أبو موسى جابر بن حيان – : قد ارتسمت – أطال الله بقاءك – ما أمرت به ، وأحدثت من الشرح ، ماعلمت أنك من الفهم بحسبه ، وانتهيت الى ارادتك ، واتيت على حاجتك ، وارجو أن تبلغ به رغبتك وتنال به بغيتك ، وتكون به راضيا ، ولأدبك كافيا » ..

قال بعضهم ان السم جسم كوني ذو طبائع غالبة ، مفسدة لمزاج ابدان الحيوان .. وقال آخر : إنه مزاج طبائع غالبة ، لدواب الحيوان بذاته ، وقال بعضهم! بأنه مزاج قوة ، مزاج غالب ، مفسد ومصلح [2] ..

ويتبين كتاب السموم ودفع مضارها أن (جابرا) قسم السموم الى : حيوانية ، ونباتية ، وحجرية ، وذكر من السموم الحيوانية : مرارة الأفاعي ، ومرارة النمر ، ولسان السلحفاة ، والارنب البحرى ، والعقارب .. ومن السموم النباتية : قرون السنبل ، والافيون ، والشيلم ، والحنصل ، والشوكران .

ومن السموم الحجرية : الزئبق ، والزرنيخ ، والزاج ، وبرادة الحديد ، وبرادة الذهب ... وقد اسهب فى وصف كل هذه السموم ، وأتى على عملها وأثرها فى أجسام الحيوانات .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٦ ، ١٧٤ .

(٢) نقلا عن المرجع السابق ص ١٤٨ .

ويمتاز (جابر عن غيره من العلماء ، بكونه في مقدمة الذين عملوا التجارب ، على أساس علمى ، هو الاساس الذى نسير عليه الآن ، فى المعامل والمختبرات .

لقد دعا (جابر) الى الاهتمام بالتجربة ، وحث على إجرائها ، مع دقة الملاحظة ، كما دعى الى التأنى وترك العجلة ، وقال : إن واجب المشتغل بالكيمياء ، هو العمل وإجراء التجرية ، وان المعرفة لا تحصل إلا بها ، وطلب من الذين يعنون بالعلوم الطبيعية ، أن لا يحاولوا عمل شئ مستحيل أو عديم النفع ، وعليهم أن يعرفوا السبب فى إجراء كل عملية ، وأن يفهموا التعليمات جيداً « لأن لكل صنعة أساليبها الفنية »[1] .

لقد وضع (جابر) عددا كبيرا من المؤلفات والرسائل ، وردت فى كتاب «الفهرست » لابن النديم ومن كتبه التى ترجمت الى اللاتينية « كتاب الجمع » و «كتاب الاستتمام » و « كتاب الاستيفاء » و « كتاب التكليس » .

ولقد تركت هذه الكتب الأربعة وغيرها ، أبلغ الأثر عند العلماء والفلاسفة ، حتى أن بعضهم رأى فيها من المعلومات : « ماهو أرقى مايمكن تصوره صادرا عن شخص عاش فى القرن التاسع للميلاد »[2] . مما يدل على قيمة هذه الكتب ونفاستها ، ومن الناحية العلمية والكيماوية . قد أحدث أثرا بعيدا فى تقدم العلوم ، وخاصة الكيمياء ، فأصبح بذلك أحد أعلام العرب ، ومن مفاخر الانسانية ، إذ استطاع ان ينتج ، وأن يبدع فى الانتاج ، مما جعل علماء أوربا يعترفون له بالفضل والسبق والنبوغ .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٩ . ١٥٠ .

وكان المسلمون يطلقون على العقاقير عجائب المخلوقات ، وقد حفظت أمهات الكتب ماألفه علماء المسلمون فى هذا الميدان فقد كان مسلموا القرون الوسطى يطلقون على العقاقير « عجائب المخلوقات » يقصدون بذلك أن الله سبحانه خالق السماوات والأرض قد خلق أيضاً هذه الأشياء كى تعود على الانسان بالنفع والخير، وكانت « عجائب المخلوقات » هبة السماء الى الطبيب الذى يقضى عليه واجبه أن يعرف كيف تشفى الأمراض وكيف تعالج وتتقى .

وقد أخذ عرب العصور الوسطى فنون العقار عن «ديو سقريدس » (ت حوالى ٧٠م) وجالينوس (ت حوالى ٢٠٠ م) ولكنهم مالبثوا أن زادوا عليها واستكملوها بفضل خبراتهم الطبية التي أتوا بها من مملكة مابين النهرين ، والهند والشرق الأقصى ، وشمالى أفريقيا .

صنف ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ - ١٢٤٨م) موسوعته المسماة « الجامع فى الأدوية المفردات » عجائب المخلوقات تضم عقاقير نباتية ومعدنية وحيوانية كانت محط تصرف الطبيب العربى فى القرون الوسطى ، وأشار البحاثة الايرانى الفقيه البيرونى (ت ٤٤٠هـ) فى مقدمة « كتاب الصيدلة » الى ما للعقار من مكانة خاصة بين الأطعمة والسموم ، فقال : « وجميع مايتناول بقصد أو بجهل فمنقسم إلى أطعمة وسموم ، والأدوية واقع فى البين لأنها بالاضافة الى الاغذية مفسدة والى السموم مصلحة لا يظهر فعلها إلا الطبيب الحاذق المشفق لها ، ولهذا توسط بينها وبين الاغذية ماسموه دوائيا ، وبينها وبين السموم ماسموه دواء سميا ، واعتمدها الأطباء بعد اصلاح قواها والاحتيال لدفع غوائلها حتى تم الانتفاع بها » .

ومن الذين ألفوا فى تاريخ الصيدلة على ربان الطبرى: (ت ٢٤٦ هـ - ٨٦٠م) وكتابه : « فردوس الحكمة » .

وللرازى (ت ٣١٣ هـ / ٩٢٥م) كتاب « الحاوى فى الطب » ولابن سينا (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) كتاب (القانون فى الطب) .

وللزهراوى (ت ٤٠١هـ / ١١١٠م) « كتاب التصريف » ، ولابن القفطى (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) « كتاب العمدة فى صناعة الجراحة »

وقد بحث الاطباء فى الكتب المذكورة وأمثالها عن أفضل أنواع العقار بحسب درجة تأثيره ، ثم عن الأمراض التى يعالجها مع إثبات كمية الدواء لكل من هذه الأمراض .. ، ولازالت العلاقة الوثيقة بين الطب والصيدلة قائمة عبر القرون ، أما الصيدلى فكان يحافظ على نوع « عجائب المخلوقات » وكيفيتها ، ويحضر الأدوية المركبة التى يوصى بها الطبيب .

ولا غرو فعندما تطورت الدراسات العربية والإسلامية ، وتعمق المستشرقون الألمان فى تاريخ ثقافة الإسلام تطور كذلك اهتمامهم بتاريخ الطب العربى ، وما يتعلق به من مجالات ، ونذكر من بين هؤلاء العلماء الألمان : أويجن متفرخ (ت ١٩٣٢)، وإرنست البيرت (ت ١٩١١) ، ويوليوس روسكا (ت ١٩٤٩) ، وإيلهارد فيديما(ت ١٩٢٨) ، وإرنست زايدل (ت ١٩٢٢) ، وكذلك العالم الدائب البحث هلموت ريتر ، الذى كشف عن الكثير من المخطوطات الهامة الخاصة بتاريخ الطب والصيدلة عند العرب .

وتجدر بنا الاشارة الى المجهودات المثمرة عن اثار الطب العربى التى قام بها كل من : البرت ديتريش ، وكريستوف برجل ، وبيتر باخمان، وهاينريش شيبرجس ، وهانز لاور ، وإلى أوتوشبيس وتلاميذه الذين انصرفوا للتنقيب عن أثار الطب عند العرب .

ويجدر بالذكر أيضاً الإشارة الى عالمين المانيين اختصا بدراسة تاريخ الطب والصيدلة وهما : إرنست زيكنبرجرات (١٨٩٥) وكاكس مايرهوف (ت ١٩٤٥) إذ أقام كل منهما فى الشرق مدة طويلة أتاحت لهما الفرصة للانكباب على درس منابع العلوم الطبيعية عند العرب ، جاءا الى مصر يطلبان العمل هناك ، وكان الأول صيدليا ، والثانى طبيبا للعيون (١) .

(١) انظر مقال : تاريخ الصيدلة الغربية عند المستشرقين الألمان بقلم : جيزلا كيرشر نقلا عن كتاب المستشرقون الألمان : تراجمهم وماأسهموا به في الدراسات العربية : دراسات جمعها وشارك فيها صلاح الدين المنجد الجزء الأول ص ١٣٧ - ١٣٩ بتصرف واختصار .

أصل الحضارة اليونانية

يرجع أصل الحضارة اليونانية الى مولد الفكر الأوربى فى جزيرة اليونان ، والعلماء مجمعون على القول بأن هذا الفكر قد انطلق من الديانات والبحوث والتأملات التي نشأت فى الشرق الأدنى ، واعترف اليونان بذلك منذ عهد (هيرودوت) المؤرخ ، فالحكماء السبعة الذين سبقوا سقراط ، ومهدوا له السبيل من أصل شرقى [١] .

وعن كهان ومفكرى (مصر ، وكلدة ، وأشور) وبلاد كنعان أخذ (تاليس) وهو من أصل فينيقى مبادئ علم الفلك ونظرته الوحدوية الى الكون (٦٢٣) ق.م [٢] .

وعلى كهان مصر وكلدة وآشور ، وفينيقيا تتلمذ (فيثاغورس) صاحب النظرية القائلة ، بأن كل شئ يعود الى العدد ، وهو واضع قواعد الرياضيات والفيزياء والموسيقى ، وقد سيطرت اتجاهاته على الغرب أجيالا عديدة ونشأ عليها سقراط وأفلاطون[٣] .

ومن ثم انجب الشرف الأدنى أوربا قديما ، وأن ماسماه (أرنست رينان) معجزة اليونان ، تتلخص بقيام اليونان بتدوين ماابتدعته عبقريات الشرق الأدنى من الاثار بشكل منسق [٤] .

ثم انتقلت أوربا من اليونان الى روما (التى جاء سكانها وسكان شبه الجزيرة الإيطالية - هم أيضاً - من اقطارنا) غير أن الرومان سلكوا فى بادئ الأمر سبيلا

(١) انظر أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢١٠.
(٢) انظر المرجع السابق .
(٣) انظر المرجع السابق .
(٤) انظر المرجع السابق ص ٢١١ .

خاصة بهم ، فاستعاضوا عن الفردية (بتأليه الدولة) وآثروا ذبح شخصية الفرد ، تحقيقا لمجد الحكم ، وبنوا المبادئ الحقوقية على المظاهر الخارجية والشكليات بدلا من اعتبار الاعمال بالنيات (١) .

واشتهرت أوربا الأولى (اليونان والرومان) بعبقريات من ابناء بلادنا ، كان لهم أبلغ الأثر فى تكوين هذه القارة الجديدة فى ذلكم الزمن الغابر ، وتطوير حضارتها ، ومنهم : (أبو لودور الدمشقى) أعظم المهندسين المعماريين فى الامبراطورية الرومانية وهو أول من شيد جسرا على (الدانوب) وله فضل السبق فى تخطيط أجمل ساحة عرفتها روما ، وعمود الامبراطور تراجان المرمرى الذى قلده نابليون في ساحة فاندوم فى باريس (٢) .

البرابرة يدمرون أوربا ، والمسلمون يعمرونها :

لم يتح لهذا الازدهار الفكرى ان يعيش طويلا ، إذ جاءت قبائل البربر من أوربا الوسطى ، وأوربا الشرقية والشمالية ، واجتاحت هذه القارة الفتية ، وهدمت معالم الحضارة فيها ، وفى تلك المرحلة من التاريخ شاءت العناية الإلهية أن ينقذ العرب العالم من الدمار والفساد والأضمحلال ، فظهر الإسلام داعيا الي التوحيد والعدل والاخاء ، والسلم والعلم والمساواة آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، محققا اسمى مايصبو اليه الانسان من كرامة وعزة وكمال وسعادة (٣) .

جاء الإسلام الى أوربا حاملا شعلة الحق والحرية ، فحطم فيها الظلم والاصنام ، وقضى على الخرافات والأوهام ، حيث وجدت ، وبسط لواء الأمن ، وشيد

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

المسلمون العرب فى أوربا حضارة ، ستفاخر بها الانسانية الصادقة مادام الانسان على الأرض (١) .

وان نصر الله سبحانه للمسلمين ، والسرعة التى تمت بها فتوحتهم ، قد ضمنا للقيم الانسانية العليا : البقاء وشيد الإسلام أوربا من جديد ، بعد أن دمرها البرابرة، وفرض عليها حرمة حقوق الانسان ، وغير وجه القارة بل وجه العالم أجمع، ودفع بعجلة الانسانية دفعة جبارة الى الامام (٢) .

ولننظر الى ماسطرته صاحبة كتاب شمس الله تسطع على الغرب وهى تقول :

« إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم (٣) لمن اعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشرى ، فسيادة ابناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الانسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التى لانظير لها ، والتى يحار الانسان فى تعليلها وتكييفها ، إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم وبسرعة البرق ، وقبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم ، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون ، كما أن الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية ، كما أن العرب أخصب وأقوى من اليونان » (٤) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٢.

(٢) المرجع السابق .

(٣) لم يحالف الكاتبة التوفيق فى هذه اللفظة حيث ان القرآن الكريم الذى انزله الله سبحانه على قلب رسوله الأمين ﷺ هو صاحب هذه الطفرة العلمية ، والذى أخرج أهل الجزيرة من الظلمات الى النور : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الي صراط العزيز الحميد » ابراهيم : ١ . فالقرآن هو سر نجاحهم وانطلاقهم فى الآفاق .

(٤) د. زيغريد هونكة : شمس الله تسطع على الغرب ص ١٥٧ ومابعدها .

كان العرب المسلمون هم أرقى عنصر فى أوربا ، وكانت بلادهم الأوربية (الاندلس) أكثر المناطق حيوية وعلما وتقدما وازدهارا ، وشأنا فى الدنيا ، وكان سائر الأوربيين ينظرون اليهم نظرة التلميذ الى معلمه ، وكان العرب هم القدوة للأوربيين ، وكانت الثقافة الأوربية بأسمى مظاهرها تنمو فى ظلال القرآن ، وكان العرب مثالا لمستوى الحياة الرفيعة .

والمعلوم أن (قرطبة) كانت أعظم المدن الأوربية ، مساحة ، وسكانا ، ويروى المؤرخون ، أن قرطبة كانت تضم نصف مليون نسمة ، ومائتى ألف بيت ، وستين ألف قصر ، وستمائة جامع ، وسبعمائة صرح للسباحة والرياضة ، وسبعين مكتبة عامة ، منها المكتبة الملكية الكبرى ، الذى كانت تمتلك نيفا وأربعمائة الف مخطوط ، وكانت شوارع قرطبة تشع ليلا بالانوار ، وكان ذلك (قبل سبعمائة سنة) من تفكير سائر الغربيين باضاءة مدنهم ، وحدد العرب فنون عمران المدن ، وانشاء الحدائق ، وتخطيط الشوارع ، وكان العرب هم الذين نشروا فى أوربا مبادئ حفظ الصحة ، وعلموا الغرب بناء المستشفيات وإدارتها وتنظيمها ، ونهضوا بالجراحة ، وكان كبار الغربيين النصارى عندما يحتاجون الى طبيب أو جراح ماهر يلجأون الى العرب ، وان اساليب العرب فى تدريس الطب غدت قاعدة للطب الحديث ، وبفضلهم اشتهرت مدارس (باروفا) و (سالرنو) وبولونيا – فى ايطاليا –و (مونبلييه) فى فرنسا [1] .

ووضع المسلمون العرب فى أوربا قواعد للإدارة الحديثة ، قائمة على المساواة بين المواطنين ، وتقدير العامل فى الدولة على أساس كفائته وانتاجه ، مهما كان أصله أو وضعه الاجتماعى ، وعلى ضوء الشريعة السمحاء ، حطموا الطبقية والعنصرية ، وكانت ادارتهم تجمع بين أبناء العرب الاصليين وبين الصقلبى (أى

(١) انظر المرجع السابق ص ٢١٢ . وانظر الإسلام منقذ للانسانية ص ١٧٩ – ١٨٣ .

الروسى ، أو مواطن أوربا الشرقية) والصقلى والاسبانى والبورتغالى والرومى ، على السواء فى خدمة الشعب تحت راية الإسلام و تحقيقا للعدل الشامل .

التداوى حق من حقوق الانسان عند المسلمين :

كان المسلمون منذ ذلك الزمن يعتبرون التداوى هو حق من حقوق الانسان والمواطن ، فقضوا بذلك فى بلادهم على الأوبئة التى كانت تفتك فتكا فى اقطار المسيحيين .

وكان العرب منذ ذلك الزمن يعتبرون أن توفير العلم للجميع دون استثناء هو واجب من واجبات الدولة و وتحصيل العلم هو فرض على المواطن عملا بأحكام الاسلام ، فكانوا أول شعب في التاريخ قضى على الأمية فى أوربا المسلمة ، كما اعترف لهم بهذا الفضل العظيم المستشرقون النصارى ، وكان العرب هم السابقين فى تنظيم (دبيلوماسية منفتحة – للعالم أجمع) وتنظيم القضاء والبريد والمواصلات والشرطة وجباية الأموال ، قال المستشرق (جاك ريسلر) فى كتابه حضارة العرب :

« إن واردات الدولة في إمارة قرطبة كانت تفوق وحدها واردات جميع أوربا اللاتينية المسيحية . والمعلوم ان الدنانير الذهبية والدراهم الفضية العربية كانت خلال قرون ، أثبت من العملات الأوربية واقواها ، وكانت تطلب وتدخر فى شتى بلاد القارة – من البرتغال الى البلاد الاسكندينافية » .

ومن البدهى التذكير بما للعرب من أثر بليغ فى نضهة الزراعة الأوربية ، إذ كانوا معلمين ومجددين ومبتكرين فى إنشاء شبكات الرى ، والمزارع النموذجية ، ورفع مستوى الفلاحين وتربية المواشى وادخال أنواع جديدة من الفاكهة والخضار إلى أوربا ، ومنها الكرمة (العنب) ، والزيتون والنخيل ، والحمضيات والسفرجل والهيلون .

ومن البدهى أيضاً التذكير بما كان للعرب من أثر بالنهوض فى الصناعة الأوربية ، بما فى ذلك استغلال المعادن وصنعها ، وكل يعلم مثلا ، مابلغته من شهرة (دروع قرطبة) و(سيوف طيطلة) وصناعة الجلود التى لم يزل المغرب العربى يمتاز بها .

ونقل العرب من بلادهم الشرقية الى البلاد الأوربية و، تربية دود القز ، وفنون النسيج ، ونبغوا فى صناعة الحرير والقطن ، والمخمل ، والانسجة الجميلة ، والتى لم تزل حتى الآن تحمل اسماء المدن العربية الكبرى ، وأدخل العرب الى أوربا صناعة الورق ، وصناعة الاسلحة .

ومن البدهى أيضاً التذكير بما للعرب من أثر بليغ على التجارة الأوربية والملاحة ، إذ غذا البحر المتوسط بعد الفتح الإسلامى ، بحيرة عربية كما قيل ، وكانت التجارة فى حوض هذا البحر وفى العالم بيدهم وبيد عملائهم من ابناء (البندقية – وجنوة) وكانت المرافئ المتوسطة وخطوط المواصلات خاضعة لإشراف العرب ، من جبل طارق حتى بحر الصين [1] .

العرب رواد الأدب :

وكان العرب رواد الأدب وعمدته فى أوربا ، إذ كان إنتاجهم الشعرى والخيالى هو الانتاج الفكرى الأول والاسبق فى أوربا ، وكان الكتاب والفلاسفة والمفكرون العرب ، يدرّسون فى مختلف جامعات أوربا المسيحية ، وعنهم يؤخذ الإلهام ، والافكار وفنون الشعر وموضوعاته وكان رجال الفكر العرب أمثال ابن سينا ، وابن خلدون ، وابن الهيثم والفارابى والخوارزمى ، والبيرونى والرازى يعتبرون أقطاب الثقافة الأوربية .

(١) انظر أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

والمعلوم أن اللغة العربية كانت لغة العلم والأدب الرفيع والدبلوماسية ، وكان كل من يريد ان يطلع على أحدث المخترعات وأجمل المصنفات ، يضطر الى تعلم اللغة العربية (١) .

ولابد هنا من التنوية بحركتين لترجمة المؤلفات العربية الى اللاتينية (التى كانت لغة أوربا المسيحية) قام بها الغربيون والنصارى ، وقد تزعم الواحدة منهما الملك الاسبانى العالم (الفونس الحكيم) ١٢٥٢ - ١٢٨٤ ، وكان كريما جدا على العلماء والأدباء ، وقد انفق ثروة طائلة فى سبيل تعميم التراث العربى الاسلامى ، ونشره في أوربا ، وتولى الحركة الثانية الايطالى (جيراردى كريمون) الذى جاء من وطنه (لومبارديا) الى الاندلس ، لينهل من العلوم والفنون (من مصدرها الصافى)، وتعلم العربية ، وشرع ينقل الى لغات الغرب آثار العرب النفيسة الخالدة ، وانضم اليهم المترجمون الاسبان : (دومينيك غودسلفى) ومارك الطليطلى ، وجان الاشبيلى ، والبريطانى (روبيردوشيستر) والالمانى (هرمان دور يشنو) والصقلبى (هرمان دلمان). وبذلك حطمت الثقافة العربية الإسلامية الحدود ، وقضت على التعصب والتفرقة ، ووحدت بين جميع القوميات فى أوربا ، فكانت نبراسا لوحدة أوربية فكرية مثلى .

الاسس التى قامت عليها نهضة أوربا :

يعتقد علماء غربيون منصفون ، أن أوربا وصلت الى ماوصلت اليه من رقى فكرى ، وتطور صاعد بفضل العرب ، فى العصر الإسلامى الزاهر (فى القرون الوسطى) .

لقد بدأت سيطرت أوربا على العالم انطلاقا من عصر النهضة (القرن السادس عشر ، ويدفع العدل الى القول أن أوربا مدينة للمسلمين العرب بالاسس التى قامت عليا نهضتها المذكورة .

(١) المرجع السابق ص ٢١٤ .

ومن هذه الاسس ، مفهوم معتدل للحياة ، يستنكر المغالاة بالتقشف ، والاسراف بالزهد واحتقار الجسد ، إذ جاء فى القرآن الكريم :

* « وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما احسن الله اليك ...» [(١)] .

* « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » [(٢)] « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق ... » [(٣)] .

يقول الستاذ (كريستوفر داوس) :

« عن العرب أخذت التقاليد العلمية فى أوربا الحديثة ، وقد اسهم العرب فى توسيع افاق الأوربيين توسيعا لم يسبق له مثيل ، إذ بفضلهم انتقلت الى أوربا حضارات الصين والهند ، والفرس ، وبفضل العرب أنتقلت علوم الشرق الى أوربا ، لتكون شاهدة بما للأسلام من (عظمة علمية تربوية) وفضل على الانسان والانسانية».

وخلق العرب فى نفوس الأوربيين ، الوعى السياحى ، والملاحة عبر البحار ، والتأمل فى الأفلاك ، وعلموهم استعمال البوصلة وانشاء المراصد ، ولولا العرب لما كان (كبلر) (وكوبرنيك) ، بل لما كان (كولومبس) ، و (فاسكودى غاما) [(٤)] .

---

(١) القصص : ٧٧.

(٢) الأعراف : ٣٢ .

(٣) الأعراف : ٣٣ .

(٤) من مقال للدكتور – أنور حاتم – استاذ بجامعة فريبورغ فى سويسرا ، عن المجلة العربية (الرياضى) العدد الافتتاحى الأول آب ١٩٧٥ ص ١٣٥ ومابعدها .

العلوم الرياضية والطبيعية عند العرب :

الحساب - الجبر - الهندسة - العلوم - البصريات .

لم تقتصر الثقافة الإسلامية على الجوانب النظرية (كعلوم الدين والأدب والفلسفة) وأنما تناولت الجوانب العلمية التجريبية ، وأسهمت فيها اسهاما كبيرا ، واسدت للحضارة الانسانية فكرا علميا ، وثروة من النظريات والآراء والأفكار ، اعترف بقيمتها المؤرخون المنصفون ، وشادوا بدورها الفعال ، فى تنمية الفكر العلمى ، الذي قاد المجتمع البشرى الى حضارته الحالية .

أما علم (الرياضيات) فقد لقى اهتماما خاصا ، وكبيرا من العلماء المسلمين (من أمثال الخوارزمى والبتانى والبيرونى) ويقول : (أ. دوهينولد) : « يجب عد العرب مؤسسين حقيقين للعلوم الطبيعية » . وبالرغم من ضياع كثير من مؤلفات العلماء المسلمين ، فى الفيزياء ، فان القسم الباقى منها ، أثار إعجاب العلماء الغربيين ، وجعلهم يعترفون بأصالة الدور العلمى العظيم ، الذى ساهمت به الحضارة الإسلامية فى العلوم الطبيعية والتجريبية .

ومن اشهر العلماء المسلمين الذين عرفوا فى هذه العلوم « محمد بن الحسن ابن الهيثم » والذى ألف كتبا ، ودبج مقالات متعددة ، شملت موضوعات متنوعة ، فى الرياضيات ، والفلك والطبيعيات والبصريات ، والجبر والهندسة ، إلا أن شهرته تقوم على الجهود التى بذلها والدراسات التى قدمها عن (علم الضوء) والمعروف بالبصريات[1] .

---

(١) انظر أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٥١ .

العرب وعلم الحساب :

عرف العرب الحساب بأنه علم الاعداد ، واشتقوا اسمه ، من كلمة الحساب المصدرية ومعناها العدد . بعد أن أطلعوا على حساب الهنود ، فأخذوا عنه (نظام الترقيم) ، وهذبوه ، وكونوا منه سلسلتين :

* عرفت أحداها بالارقام الهندية – وهى التي تستعمل الآن .

* وعرفت الثانية بأسم الارقام الغبارية – جاءت تسميتها بالغبارية – لأن أهل الهند ، كانوا ياخذون غبارا لطيفا ويبسطونه على لوح ، ويرسمون عليه الأرقام التى يحتاجون اليها فى عملياتهم الحسابية ومعاملاتهم التجارية .

ولقد قسم العرب (الحساب) الى :

* **غبارى :** وهو الذى يحتاج فيه الى استعمال أدوات ! كالقلم والورق .

* **هوائى :** وهو الحساب الذهنى ، الذى لايحتاج فيه الى أدوات ، كما استعمل العرب (الصفر) فى الترقيم ، كما استعملوه فى (المنازل الخالية من الارقام) ، ووضعوا علامة الكسر العشرى ، واستعملوا النظام العشرى (أى القيم الوضعية للأرقام – الاحاد والعشرات والمئات [1]) .

العرب وعلم الجبر :

عرّف – الشيخ بدر الدين المارديني – الجبر ، فى شرحه على (لامية ابن الهائم) بقوله :

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ .

« علم بأصول يتعرف فيها على مقادير مجهولة : مسماة باسماء خاصة ، ويتوصل به ، الى استخراج كمية المطلوب من معلوم مفروض : بينهما صلة » ، وعرفوه أيضاً : بأنه « علم من العلوم الرياضية ، تستخرج به المجهولات ، باستخدام حروف وأرقام وعلامات » .

اشتغل العرب بالجبر ، فجعلوه علما منظما ، وهم أول من اطلق لفظة (الجبر) على العلم المعروف الآن بهذا الاسم ، وعنهم أخذ الافرنج لفظة (الجبر) ، وكذلك هم أول من ألف فيه بصورة علمية منظمة .

لقد وجد المأمون ، فى أوائل القرن التاسع الميلادى ، ميل العلماء الى التوسع فى الجبر ، فكلف أحد الرياضيين المنتمين الى بلاطه ، وأعنى به (محمد بن موسى الخوارزمى) ، أن يضع كتابا فى الجبر والمقابلة ، يكون سهل المنال ، لينهل منه علماء العرب ، وماكاد ينتشر هذا الكتاب ، حتى استفاد منه علماء العرب ، وعلماء أوربا على السواء ، واعتمدوا عليه في بحوثهم ، وأخذوا عنه كثيرا من النظريات .

وقد نشر الكتاب المذكور ، الدكتور علي مصطفى مشرفة (عميد كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول) ، والدكتور محمد موسى أحمد ، عن مخطوط ، محفوظ فى (اكسفورد) فى مكتبة (بودلين) وعلقا عليه .

ولقد سبق الغربيون العرب الى نشر هذا الكتاب ، والتعليق عليه و كان ذلك عام ١٨٣١م . ظهر الخوارزمى فى عصر المأمون ، وكان ذا مقام كبير عنده ، فأحاطه بضروب من الرعاية والعناية ، وولاه منصب (بيت الحكمة) كما جعله على رأس بعثة علمية الى الافغان ، بقصد البحث والتنقيب برز (الخوارزمى) فى الرياضيات والفلك، وكان له أكبر الاثر فى تقدمهما وارتقائهما ، فهو أول من استعمل علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب ، وفى قالب منطقى علمى ، كما انه أول من استعمل كلمة (الجبر) للعلم المعروف بهذا الاسم ، ومن هنا أخذ الافرنج هذه الكلمة واستعملوها فى

لغاتهم ، وكفاه فخرا أنه أول من ألف كتابا فى الجبر ، فى علم يعد من اعظم أوضاع العقل البشرى ، لما يتطلبه من دقة واحكام القياس .

ولهذا الكتاب قيمة تاريخيه وعلمية ، فعليه اعتمد العلماء العرب فى دراستهم عن الجبر ، ومنه عرف الغربيون هذا العلم .

وكذلك لهذا الكتاب شأن عظيم فى عالم الفكر والارتقاء الرياضى ، ولايخفى مالهذا الفرع الجليل من اثر فى الحضارة ، من ناحية الاكتشاف والاختراع ، يعتمدان الى حد كبير على المعادلات والنظريات الرياضية [1] .

ولما نهض العرب نهضتهم العلمية أيام العباسيين اقتبسوا فيما اقتبسوه من الهنود ، الارقام الهندية ، وقد قدروا النظام الترقيمى عند الهنود ، ومن الغريب ، ان في بلاد الهند اشكالا متنوعة ومختلفة للأرقام ، ولكن العرب بعد ان اطلعوا على هذه الاشكال ، كونوا منها سلسلتين عرفت أحداها باسم « الارقام الهندية » وعرفت الثانية باسم « الارقام الغبارية » [2] .

ففى ببغداد والجانب الشرقى من العالم الإسلامى ، عَمّ استعمال الأولى (أى الارقام الهندية) وهى التى لا تزال شائعة ومستعملة فى بلادنا ، وشاع استعمال الثانية (أى الارقام الغبارية) فى القسم الغربى من العالم الإسلامى (فى الاندلس وافريقيا والمغرب الاقصى) وهذه الارقام هى المستعملة الان فى أوربا ، وهى المعروفة بالارقام العربية .

ولم يفطن أحد – قبل الهنود – لاستعمال الصفر ، فى المنازل الخالية من الارقام ، وقد أطلقوا عليه لفظه (سونيا) ومعناها (فراغ) واستعملوا النقطة (٠)

(١) المرجع السابق ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) كما سبق الحديث عنها .

كعلامة للصفر ، وقد اخذها العرب عنهم ، واستعملوها فى معاملاتهم ، ويقال ان الهنود لم يلبثوا ان عدلوا عن استعمال النقطة ، وأخذوا يكتبون الصفر بصورة دائرة (O) [1] .

* علم الهندسة :

قال ابن خلدون (فى المقدمة)[2] : وأعلم ان الهندسة تفيد صاحبها إضاءة فى عقله ، واستقامة في فكره ، لأن براهينها كلها بينة الانتظام ، جلية الترتيب .

ومن فروع الهندسة ، المساحة ، وهو فن تحتاج اليه فى مسح الأرض (قياسها) ويحتاج اليه فى توظيف الخراج (توزيع الضرائب) على المزارع والفدن وبساتين الفراسة ...

* العرب والهندسة :

ان اليونان لم يتركو فى الهندسة (القديمة) زيادة لمستزيد ، ولم يستطع أحد بعد أقليدس ، الذى دون علم الهندسة (٣٣٠ - ٣٢٠ ق . م) ، أن يزيد على هذا العلم شيئا اساسيا .

ولقد كان اهتمام العرب بالناحية العلمية من الهندسة أكبر من اهتمامهم بالناحية النظرية ، تشهد بذلك المبانى والقصور التى نهضت فى المشرق والمغرب .

---

(١) اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص١٥٦ .

(٢) جـ ١ ص ٤٨٦ ط الرابعة . دار احياء التراث العربى بيرون لبنان .

ويعترف « سميث» فى كتابه (تاريخ الرياضيات) أن البيرونى (١) ، كان ألمع علماء زمانه فى الرياضيات ، وأن الغربيين مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم ، وكذلك يعترف الدكتور سارتون بنبوغه وسعة اطلاعه فيقول : كان البيرونى باحثا فيلسوفا رياضيا ، ومن أصحاب الثقافة الواسعة (٢) .

---

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ، أصله من فارس ، ومولده فى بيرون (عاصمة خوارزم) فى التركستان سنة ٩٧٣م وتوفى فيها عام ١٠٤٨ م . وقد رحل البيرونى عن موطنه وهو لايزال شابا يافعا . وتوطدت علاقته بابن سينا ودرس علوما عديدة ولغات مختلفة ، رحل الى الهند فحمل معه الحكمة والفلسفة الإسلامية ، وفى الهند أحاط بكنوز العلم عند الهنود ، وتعرف على آدابهم وفلسفاتهم بعد أن درس اللغة السنسكريتية وأتقنها ، كما درس عقائدهم وعاداتهم وعلومهم وضمنها كتابه العظيم « تحقيق ماللهند فى مقولة مقبولة » ويقول الاستاذ نفيس أحمد الاستاذ بجامعة كلكتاب بالهند :

* يعد البيرونى أحد عظماء العالم فى التاريخ ، وهو يحتل مكانة فريدة بين علماء المسلمين إذ هو عالم ، مؤرخ ، طبيعى جيولوجى ، فلكى ، رياضى ، ويتمتع البيرونى بحاسة جغرافية حاذقة ،
* مؤلفات البيرون : أما عن مؤلفاته ، فقد أدرج البيرونى بيانا بمعظمها ، فى مخطوطة «الفهرس» ومن أهمها : « القانون السعودى » وهو يعد اعظم موسوعة فى علوم الفلك والجغرافيا والهندسة والرياضيات ، وينتهج فيه المنهج النقدى الموضوعى .
* وللبيرونى عدة مخطوطات علمية منها مخطوط « راشيكات الهند » وكلمة (راشيك) معناها (موضع) وكلمة راش معناها (برج) أى برج مراقبة النجوم والكواكب السماوية .. كما كان للبيرونى كتاب : (الرسائل المتفرقة فى علم الهيئة) – وقد قامت دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الدكن بالهند بطبعه سنة ١٩٤٨) .
* ومن أهم كتب البيرونى فى علوم المعارف والفلزات : « الجماهر فى معرفة الجواهر » وقد قام بتحقيق بعض فصوله المستشرق الألمانى « ادوار سخاو » ونشر فى لندن عام ١٨٧٨ .
* أما المستشرف الألمانى « شاخت » فيقول : كان البيرونى يتمتع بشجاعة فكرية فائقة ، وكان مولعا بالاطلاع العلمى أشد الولع بعيدا عن الأوهام محبا للحقيقة ، متسامحا ، مخلصا لأبحاثه العلمية اخلاصا نادرا ... المرجع السابق ص ١٥٨ .

(٢) اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

والبيرونى كتاب « تاريخ الهند » وقد ترجمه « سخاو » الى الانكليزية ، وطبع الاصل فى لندن عام ١٨٨٧م وفيه تناول البيرونى لغة أهل الهند وعاداتهم وعلومهم ، والبيرونى ذو مواهب جديرة بالاعتبار ، فقد كان يحسن السريانية ، والفارسية والعبرية عدا العربية .

وقد احتفلت مؤتمرات عديدة فى العالم الغربى بمناسبة مرور ألف عام على مولده ، فأصدرت اكاديميات العلوم (السوفياتية ، والأوربية ، والهندية) مجلدات دراسية تذكارية ، اعترافا بفضله على العلم والثقافة الانسانية ، كما شاركت فى ذلك (هيئة اليونسكو) فى الامم المتحدة ، فنشرت منذ سنوات عديدة دليلا (بيلوجرافيا) للقيم الثقافية العربية ، حوى بين دفتيه تعريفا بالكثير من أعمال أبى الريحان البيرونى – الخالدة على مر الدهور [(١)] .

العرب وعلم المثلثات :

ويسمى أيضاً – علم الأنساب – وهو فرع من فروع الرياضيات ، يبين النسب بين اضلاع المثلث وزواياه ، وكان القدماء يستخدمون هذا العلم فى قياس المساحات الكبيرة والمسافات الطويلة ، ودراسة الفلك والاهتداء فى الملاحة (السفر فى البحر [(٢)]) .

يقول المسيو شال :

وعلم المثلثات من العلوم الرياضية ، التى عنى بها العرب كثيرا ، لما كان من تطبيقه على علم الفلك ، وعلم المثلثات مدين للعرب بما أدخلوا عليه من تحسينات

(١) المرجع السابق ص ١٦٠ .
(٢) المرجع نفسه .

كثيرة، اكتسب بها شكلا جديدا وصار صالحا لتطبيقات ، كان الاغارقة لا يقدرون عليها إلا بشق الانفس (١) .

والعرب يرجع الفضل الاكبر فى جعل علم المثلثات علما مستقلا بين العلوم الرياضية الاساسية ، ويعتبره الكثيرون علما عربيا صرفا . ولا يخفى مالهذا العلم من أثر فى الاختراعات والاكتشافات ، وفى تسهيل كثير من البحوث الطبيعية والهندسية .

* العرب وعلم الفلك (علم الهيئة) :

شغف الانسان بجمال النجوم ، فتتبع حركاتها ، ثم راقب ازدياد القمر ونقصانه ليلة بعد ليلة ، كما راقب ميل الشمس (اختلاف مطالعها ومغاربها ، وخط سيرها فى السماء) شهرا بعد شهر ، فاتخذ من الشمس والقمر والنجوم دلائل ، لحساب الايام والشهور ، والفصول والسنين ، وعلامات للتنقل بين الاماكن البعيدة وقد اشار القرآن الى هذا فقال : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (٢) .

وقد عرف العرب (علم الهيئة) بأنه العلم الذى يبحث عن الاجرام السماوية ، من حيث الكيفية والوضع والحركة اللازمة لها (٣) .

الجداول الفلكية :

هذه الجداول سميت بـ (الازياج) وهى جداول بنيت على قوانين عددية ، تبين حركة كل كوكب ، ويعرف منها مواقع الكواكب فى افلاكها ، ومنها أيضاً تعرف تواريخ الشهور والايام ، والتقاويم المختلفة ، ومن أشهر الازياج مايلى :

(١) ينظر كتاب مبادئ الثقافة الإسلامية للدكتور محمد فاروق نبهان ص ٥٧ .

(٢) يونس : ٥ ، وقوله سبحانه : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » . النحل : ١٦ .

(٣) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٦٠ .

زيج ابراهيم الفزارى ، زيج الخوارزمى ، زيج الشامى للطوسى ، زيج الشامل لأبى الوفاء ويرجع الفضل – بعد الله سبحانه – الى العرب فى تطهير علم الفلك من أدران التنجيم ، وجعله علما رياضيا مبنيا على الرصد والحساب (١) .

الحضارات القديمة :

لقد كان أمام العرب حضارات ثلاث قديمة هى :

(حضارة الصين) و (حضارة الهند) ثم (حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط) .

* حضارة الصين :

عزيت الى الصينيين القدماء ، أرصاد كثير من الظواهر الفلكية ، لاسيما المذنبات ، والخسوف والكسوف ، وأنهم كانوا يعرفون الدورة الشمسية ، المعروفة بدورة (ميثون) .

* الحضارة الهندية :

أما ما ينسب الى الهنود فى هذا المضمار ، فقد جاء فى كتاب قديم اسمه(السند هانت) الذى اتخذه العرب دستورا فى مستهل نهضتهم العلمية ، فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، وفى خلافة أبى جعفر المنصور (٢) .

* حضارة البحر المتوسط :

يقصد بها تلك الحضارات التى انبثق فجرها فى حوض وادى النيل ، وحوض مابين النهرين (دجلة والفرات) وفى جزر اليونان ، ثم مدن الاغريق

(١) المرجع السابق ص ١٦١ .

(٢) انظر اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٦٢ .

القديمة، وجزر البحر الابيض المتوسط ، وذلك لأن تلك الحضارات كانت معاصرة بعضها لبعض فى نشأتها ، وانتقلت مراكزها من اسيا الصغرى الى اليونان ، ومن اليونان الى مدرسة الاسكندرية .

وفى المرحلة الأخيرة ، بدأ علم الفلك يؤسس على قواعد تجريبية وحسابية .

ثم استكمل ملامحه الواضحة الأولى (كعلم ذى كيان) مالبث أن علا بنيانه شامخا بين العلوم الطبيعية كافة .

ويعد نصير الدين الطوسى ، المولود فى (طوس) عام ١٢٠١ م والمتوفى فى بغداد عام ١٢٧٣ ، من أعلام العرب ، فى الرياضيات والفلك .

لمع (الطوسى) فى الدرس والبحث والابتكار ، وكانت له مكانة عند الخلفاء ، وأولى الأمر من الأمراء والوزراء ، فكان المقدم عندهم ، وصاحب الرأى لديهم ، وقد استطاع الطوسى أن يكسب منزلة عالية عند (هولاكو) وقد عينه (أمينا) على أوقاف الممالك التى استولى عليها [1] .

وللطوسى مؤلفات قيمة فى الرياضيات ، ولعل كتاب (شكل القطاع) أجلها ، ومن يطالع هذا الكتاب ، يجد فيه مالا يجده فى أنفس الكتب الحديثة فى (المثلثات) ولهذا الكتاب أثر كبير فى المثلثات وارتقائها ، وتتجلى لنا عظمة (الطوسى) وأثره فى تاريخ الفكر الرياضى ، إذا علمنا أن المثلثات هى (ملح) كثير من العلوم الرياضية والبحوث الفلكية والهندسية ، وأنه لايمكن لهذه ، أن تستغنى عن المثلثات ومعادلاتها .

وخلاصة القول ان مؤلفات (الطوسى) ورسائله فى الرياضيات والفلك ، تدل على أنه خصب القريحة ، قوى العقل والفكر ، صبور ، ذو روح علمى صحيح ، ورغبة صادقة فى البحث عن الحقيقة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ .

التقويم العربى :

يدخل فى اطار البحث عن تاريخ الرياضيات عند العرب ، البحث عن التقويم العربى .

كان للعرب فى الاحقاب الأولى شهور قمرية هى : المؤتمر ، وناجر ، وخوان ، وصـوان ، وحنين ، ورنى ، والأصم ، وعـادل ، وناتق ، وواغل ، وهواع ، وبرك ، وقـد نجد هذه الاسماء مخالفة لما أوردنا ، ومختلفة الترتيب .

ثم أنه قبل الإسلام بمائتى سنة ، فى زمن (كـلاب بن مـرة بن لؤى) أحـد أجداد الرسـول الكريم ﷺ ، وضـعت لهـا الاسـمـاء المعروفة بين ظهرانينا - الآن - وهى: المحرم ، صفر ، ربيع الأول ، ربيع الأخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، رمضان شوال ، ذوى القعدة ، وذى الحجة [١] .

وقد جاء ذكر عدد الشهور ، فى سورة التوبة - من القرآن الكريم - :

* « إن عـدة الشـهـور عند الله أثنا عـشـر شـهـرا فى كتـاب الله ، يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم » [٢] .

أما الحساب (الهجرى) فوضعه الخليفه (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه ، بالاتفاق مع وجوه الصحابة الكرام وتوافق الهجرة (من مكة الى المدينة) يوم (١٤ أو ١٥) من شهر تموز (يوليو) سنة ٦٢٢ للميلاد . قال الجبرتى : أن أول واضع لعلم التـاريخ فى الإسـلام عـمـر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك حين كتب أبو موسى الاشعرى الى عمر ، أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ، لاندرى على أيها نعمل

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٦٤ .
(٢) آية رقم : ٣٦ .

الاشهر الحرم أربعة – ثلاثة سرد (متتالية) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو (رجب) ، فقد قرأنا صكا محله (شعبان) فما ندرى أى الشعبانين ؟ (الماضى أم الحاضر) .

وقيل رفع لعمر صك محله – شعبان– فقال : أى شعبان هو ؟ أهذا الذى نحن فيه أم الذى هو آت ؟ ... ثم جمع وجوه الصحابة رضى الله عنهم وقال : إن الأموال قد كثرت ، وماقسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل الى مايضبط به ذلك ؟ فقال له الهرمزان : (وهو ملك الأهواز) ، وقد أسر عند فتح فارس ، وحمل الى عمر وأسلم على يديه – : أن للعجم حسابا يسمونه ، (ماه روز) ويسندونه الى من غلب عليهم من الاكاسرة ، فعربوا اللفظ (ماه روز) بـ (مؤرخ) ومصدره – التاريخ – واستعملوه فى وجوه التعريف ، ثم شرح لهم الهرمزان كيفية استعمال ذلك فقال لهم عمر : ضعوا للناس تاريخا يتعاملون به ، وتصير أوقاتهم فيما يتعاطونه من المعاملات مضبوطة ، فاتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام ، من لدن هجرة النبى الكريم ﷺ لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد بخلاف وقت ولادته ، ووقت مبعثه ﷺ (1) .

(1) أثر العلماء والمسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٦٥ .

العلوم العقلية عند العرب - الفلسفة -

امتاز الانسان عن الحيوان ، بموهبة العقل (القوة المفكرة - المتطورة) التى وهبه الله تعالى إياها ، تكريما له ، وتنويها بشأنه ، قال تعالى :

* « ولقد كرمنا بنى آدم » سورة الاسراء : آيه : ٧٠ .

قال ابن عباس : كرمهم سبحانه ، بالعقل .

والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، وهو أيضاً ميزان التعادل (التوازن) فى الانسان ، وسر الله فيه وعلاقته القائمة بينه وبينه ، به تعرفه (أى تدرك حكمته ورحمته وعدالته) وتعرف نفسك (حيث خلقك فسواك فعدلك) وتعرف مبدأك ومنتهاك، وتعرف مكانك فى الوجود الذى أنت فيه .

وعقل الشئ معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه (١) ، العقل قبس من نور الله ، مناط التكريم والتكليف (والمسؤولية) فى الانسان ، أودع الله ، فيه خصائصه المميزة وقوانينه المنظمة (كمركزقيادة فى الذات الانسانية) تمكن الانسان من التلاؤم مع واقعه ، وتنمية مواهبه ومكاسبه ، وتنسيق علاقاته بالآخرين ، تحقيقا لغاية وجوده.

ومن أوضح سمات القرآن الكريم التى لفتت انظار الباحثين والدارسين (الاشادة بالعقل) ، وتوجيه النظر الى استخدامه بما يفيد وينفع ، فدعا القرآن الى تقدير العقل والرجوع اليه ، فيما أختص به من تفكير ، ويحرص القرآن على تاكيد هذا المعنى حتى أنه ليكرر الدعوة بشكل يلفت النظر ويثير الاهتمام .

---

(١) انظر تعريف العقل للشيخ محمد عبده - كتاب اصول التربية الإسلامية للدكتور سعيد اسماعيل على ص ٣٠ .

وقد وردت مادة « عقل » بصيغة المضارع « يعقلون » تعقلون ، فعقل ، فى خمسين آية من آيات القرآن الكريم .

ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة ، مستخدما لذلك كل الالفاظ التى تدل عليه أو تشير اليه ، من قريب أو بعيد : من التفكر ، والنظر ، والتدبر ، والرأى ، والحكمة ، والعلم ، والفقه ، والرشد ، والبصر ، الى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها وظلالها ، مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للانسان .

والقران الكريم ، لايذكر العقل الا فى مقام التعظيم ، والتنبيه الى وجوب العمل بمقتضاه والرجوع اليه ، ولا يأتى تكرار الاشارة الي العقل بمعنى واحد من معانيه (التى يشرحها علماء النفس فى العصر الحديث) بل تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف خصائصها ، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص ، فى مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل (فى العقل الوازع) ولا (فى العقل المدرك) ولا (بالعقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح) ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية ، كل ما يتسع له الذهن الانسانى من خاصة أو وظيفة .

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الانسانى (بكل ما اختواه من هذه الخصائص) فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك ، والعقل الحكيم الرشيد ، تحقيقا لتنمية القوى الواعية لدى الانسان المؤمن ، الذى اتصل تفكيره بشريعة الله ، واتصلت اراداته (سلوكه فى الحياة) بمراد الله (بمقتضى حكمته ورحمته وعدالته) فاذا هو الانسان (المدرك لغاية وجوده) الواعى لمعنى (خلافة الله فى الأرض) يمثل القوى الدافعة للحركة الحضارية ، يسير بالحياة ، ويرقى بها نحو التطور والازدهار والتكافل .

من اعلام العلوم العقلية عند العرب :

(أبو النصر الفارابى) محمد بن محمد بن طرخان ولد فى بلدة (فاراب) فى بلاد الترك ، من ارض خرسان ، وذلك عام ٨٧٢م وتوفى فى دمشق عام ٩٥٠م . وقد جمع الى الفلسفة العربية ، الرياضيات والموسيقى ، وكان يتقن مع (العربية) التركية ، والفارسية ، واليونانية .

كان منتجا أبعد حدود الانتاج ، أخرج الى الناس من المؤلفات والرسائل مايزيد عن المائة أهمها : (أراء أهل المدينة الفاضلة) و (المدخل الى علم الموسيقى) و (احصاء العلوم والتعريف باغراضها) و (المدخل الى علم المنطق) و (تحصيل السعادة) .

وقد سار فى عرض اكثرها على أسلوب ممتاز ، بالقصد فى اللفظ ، والعمق فى المعنى ، مع دقة فى التعبير ، وقوة فى التماسك ، وحسن الانسجام والنظام في التأليف ، وربط المواضيع ربطا محكما منطقيا .

ومن المؤسف حقا أن تضيع اكثر مؤلفاته أثناء الانقلابات والفتن ، وقد سلم منها القليل ، ومن هذا القليل ترجم الأوربيون ماوقع فى أيديهم .

وأثنى (روجر بيكون) على الفارابى وعلى بعض مؤلفاته ، وكان نبراسا لحكماء الشرق والغرب ، وسراجا وهاجا يستضيئون بنوره ، ويسيرون على هداه ، ولايزال رجال العلم والفلسفة فى أوربا وأمريكا يهتمون به الى اليوم .

اشتهر بالمنطق ، واهتم بشرح آراء المعلم الأول (ارسطو) وبيان فلسفته ، وتقريب فهمه الي معاصريه ، مما جعل له عند العرب مكانه مرموقه حتى لقبوه بـ (المعلم الثانى) بعد ارسطو (المعلم الأول) قد جعل الفيلسوفين على قدم واحدة من المساواة ، ومن المؤرخين من سماه : (فيلسوف الإسلام) ، أما (ابن خلكان) فقد ذكر أنه (أكبر فلاسفة المسلمين) (١) .

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

وأطلع المؤرخون فى أوربا وأمريكا على فلسفة الفارابى ، ودرسوها وتأثروا بها ، وخرجوا بالقول ان الفارابى مؤسس الفلسفة العربية وقال : (دى فو) : إن الفارابى شخصية قوية وغريبة حقا وهو عندى أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا ، لأن روحه كانت أكثر تدفقا وجيشانا ، ونفسه أشد تأججا وحماسا ، لفكره وثبات كوثبات الفنان ، وله منطق مرهف بارع ، ولأسلوبه مزية الايجاز والعمق .

وكان للفارابى أثر بليغ فى الإسلام وفلاسفة القرون الوسطى ، يدلنا على ذلك آثاره التى نجدها فى مصنفات هؤلاء ، التى تناولت آراء الفارابى ونظرياته ، بالعناية والاهتمام بها ، (شرحا وتعليقا) .

« المنطق هو العلم الذى نعلم به الطرق التى توصلنا الي تصور الأشياء ، والى تصديق تصورها على حقيقتها »[١] .

ولقد أنصف (ابن صاعد) فى كتابه (طبقات الأمم) الفارابى ، فاعترف بأنه برّ فى صناعة المنطق أقرانه ، وأربى عليهم فى التحقيق بها ، فشرح غامضها وكشف أسرارها ، وقرب تناولها ، وجمع مايحتاج اليه منها ، فى كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، فجاءت كتبه فى ذلك الغاية الكافية والنهاية الفاضلة ...) .

وكان الفارابى يؤمن بالمنطق وبفوائده وأثره البالغ فى الحياة العقلية ، وكيف أنه يمكن بالمنطق معرفة الآراء صحيحها وفاسدها ، سواء أكانت منا أم من غيرنا ، وإدراك الزلل أو الصواب ، وقد قال الفارابى فى هذا الشأن : « فإنا ان جهلنا المنطق لم نقف (من حيث نتيقن) على صواب من أصاب منهم ، كيف أصاب ؟ .. ومن أى جهة أصاب ، وكيف صارت حجته توجب صحة رأيه .. »[٢] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

وله كتاب جدير بالذكر هو كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وضع فيه مذهبه الفلسفى كله ، فيما يتعلق بآرائه فى الإلهيات والنفس الانسانية ، وفى الأخلاق والسياسة ، ويقول الاستاذ العقاد فى صدد هذا الكتاب : « ويمتاز الفارابى من بين فلاسفة الاسلام ، بأنه عالج البحث فى السياسة ، من الناحية الفلسفية الخالصة ، فالتفكير السياسى فى نظام الدولة ، وتصور المثل الأعلى ، للحكم ، ووضع الموازين الخلقية ، والمقاييس السياسية ، وتحديد الغاية من الحكم والمحكوم ، ونقد المجتمع الذى يؤدى الى الشرور والمفاسد ، كل هذه من الوسائل التى انفرد الفارابى بالبحث فيها ، والتى تدل على قوة الشخصية واستقلال الرأى .. الي أن يقول (أى الاستاذ العقاد) والمدنية الفاضلة اسم أطلقه الفارابى على (المثل الأعلى للحكم) ويريد به المدنية التى تحقق لأعضائها السعادة القصوى فى الدارين .. (الدنيا والآخرة) »(١).

كيف تتقدم الدولة فى نظر الفارابى ؟

إن الدولة لا تتقدم ، ولا تسير نحو السعادة قدما ، إذا لم يكن على رأسها الحكماء المعروفون بكمال العقل وقوة الارادة ، وخصوبة الادراك والخيال ، وخصال اخرى سردها (الفارابى) على الوجه التالى :

« ويجب ان يقوم بإدارة المدينة المثالية رئيس عادل ، حائز للخصال الآتية : أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لمايقال له ، جيد الحفظ لمايفهمه ، ولما يراه ويسمعه ، ولما يدركه ، جيد الفطنة ذكيا ، وإذا رأى الشئ بأدنى دليل فطن له ، محبا للتعليم والاستفادة ، منقادا له ، سهل القبول ، لا يؤله تعب التعليم ، ولا يؤذيه الكد الذى يناله منه ، محبا للصدق وأهله ، مبغضا للكذب وذويه ، كبير النفس ، محبا للكرامه ، تكبر نفسه بالطبع عن كل مايشين من الأمور ، وتسمو نفسه بالطبع الى الارفع منها ، ثم ان يكون بالطبع محبا للعدل وأهله ، ومبغضا للجور والظلم وأهلهما ، يعطى النصف (الانصاف) من نفسه وأهله ، ومن غيره ، ويحث عليه عدلا غير صعب

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٢٠٥ .

القياد ، ولا جموحا ولا لجوجا إذا دعى الى العدل ، بل صعب القياد إذا دعى الى الجور ، والى القبيح ، ثم ان يكون قوى العزيمة على الشئ الذى يرى أنه ينبغى أن يفعل ، جسورا مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس ...» .

فاذا لم تجتمع عنده الخصال كلها فى رجل واحد ، بحث عن رجلين أو ثلاثة رجال أو أكثر ، جامعين معا للخصال المطلوبة من الرئيس ، وعهد اليهم (كمجلس قيادة) فى الحكومة .

والفارابى فوق ذلك كله ، أول من عنى بإحصاء العلوم ، يتجلى ذلك فى كتابه « إحصاء العلوم » الذى نشره الدكتور عثمان أمين ، ويرى « مونك » و« فارمر » أن هذا الكتاب يدل على أن الفارابى هو أول من وضع النواة لدوائر المعارف فى العالم، وقد أيد هذا القول ، الاستاذ مصطفى عبد الرزاق فقال : « فليس مجانبا للحق ، قول من يرى أن الفارابى هو أول من وضع دائرة معارف ، ولسنا نعرف من قبل الفارابى ، من قصد الى تدوين جملة المعارف الانسانية فى زمنه ، موطأة مجملة ، يسهل تناولها على المتأدبين .. »[1] .

وكان هذا الكتاب محمل عناية المؤلفين والعلماء فى الغرب ، وقد ترك أبلغ الأثر في نظريات تصنيف العلوم فى القرون الوسطى .

نظرة الإسلام (الشاملة) الى فاعلية العقل ونشاطه :

إذا كان من شأن المنهج الإسلامى ، أن يرشد العقل ، ويقوّم الفكر ، ويسير به فى الطريق المستقيم ، فان الإسلام اتبع ذلك بمبادئ قيمة ، من شأنها أن تصل بالناس الى طريق الحق والهدى والخير والسلام هذه المبادئ منها .

(١) أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

أولاً : إن الناس فى الفهم والتفكير وإدراك حقائق الاشياء لن يكونوا متماثلين ولامتشابهين ، لأن الناس على درجات مختلفة ، ومراتب متباينة ، فهناك فريق من الناس ، قد لاتهيئ له حالاته والظروف المحيطة به ، إلا شذرات من المعرفة.

ثانيا : لم يكتف الإسلام بتوجيه الناس الى النظر والتفكير والتدبر ، بل استنهض العقول ووجه الافهام وايقظ الحواس ، ونبه المشاعر ، بمثل قوله تعالى :

أ- « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ، « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » ، « ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » ، « إنما يتذكر أولوا الألباب » ، « وفى الارض آيات للموقنين . وفى انفسكم أفلا تبصرون » ، « سنريهم اياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. » .

ب- « إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لايات لقوم يعقلون »(١) .

ومن ثم نرى أن الإسلام (كرسالة علمية - تربوية) حرص على طهارة النفس، واعتدال النظر ، واستقامة التفكير ، ليكون مراد الله (حكمته ، رحمته ، عدالته) واضحا فى الذهن ، مشرقا فى القلب والضمير ، حافزا للسير فى فلك العمل الصالح الذى تبنى به الحياة السعيدة .

وطريق الفكر الصحيح قد حدده الإسلام (بالقرآن والسنة) ، فيما يتعلق بالقضايا الاساسية والاعتقادية فى حياة الناس ، أما ماسوى ذلك ، فانه يمكن ان يوجد عن طريق الحواس والتجربة والخبرة ، والنشاط العقلى الذى يزن كل معطيات الحس) .

---

(١) البقرة : ١٦٤ .

ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطريق السوى بقوله تعالى :

* « ولاتقف (أى تتبع) ماليس لك به ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولا . »[1] .

وهذه الآية الكريمة (تنهى عن اتباع) مالم يقم به علم ، يستند الى حجة سمعية أو رؤية بصرية ، أو براهين عقلية (وهى طرق الاستدلال المعهودة) حتى يكون نشاط المسلم العقلى (وهندسة سلوكه) قائما على اساس علمى تربوى صحيح [2] .

---

(١) الاسراء : ٣٦ .

(٢) اثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

من تراث المسلمين العلمى

هضم المسلمون علوم الأولين ، فدفعتهم عقيدة الإسلام الى الاستزادة من شتى صنوف العلم والمعرفة وظلوا كذلك فترة من الزمن ، حتى أخرجوا للعالم فى مدة وجيزة مايشبه المعجزات ، ويبهر الأبصار ، ويأخذ بمجامع الأفئدة تقول الدكتورة زيغريد هونكة (١) .

« إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم ، لمن أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى فسيادة أبناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة من نوعها ، وإن الانسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التى لانظير لها، والتى يحارب الانسان فى تعليلها وتكييفها ، إن هذا الشعب الصحراوى حمل لواء النهضة العلمية الفكرية فى العالم وبسرعة البرق ، وقبض على صولجان السيادة الثقافية فى العالم ، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع ، مدة لاتقل عن ثمانية قرون ، كما أن الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية ، كما ان العرب أخصب وأقوى من اليونان » كما ذكرت الدكتورة زيغريد فى مولفها مايلى :

« لقد عرفت أوربا تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط ، فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية ، والشروح التى وضعها العرب عليها ، والكتب التي ألفها

(١) شمس الله تسطع على الغرب ١٥٧ - ٢٥٩ .

العرب كل هذه كانت العامل القوى فى النهضة العقلية الجرمانية ، وفى تغذيتها ودفعها الى الحركة العلمية دفعا »(1) .

وهذا ما أثبته التاريخ وسطره ، ومازالت هذه الحضارة وتلك الثقافة تحمل الخاتم العقلى والعلمى لأولئك الرواد العمالقة النابهين ، هذا فى الوقت الذى كان غيرهم يحرق تراثه ، أو يخربه (2) « يحكى أن الروم أحرقت من كتب أرشميدس (3) خمسة عشر حملا » (4) فى الوقت الذى كان المسلمون يزنون الكتاب المترجم من كتب هؤلاء بالذهب الخالص ، احتراما للعلم وتقديرا له ، ونفعا للإنسانية ، والاستفادة من كل أثارة أو علم ، وإليك ثبتا من التراث العلمى لأعلام الإسلام ننقلها عن الدكتور توفيق يوسف الواعى (5) .

---

(1) المرجع السابق ص ١٢١ .

(2) الفهرست لابن النديم ص ٣٨٦ .

(3) انظر الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٠٤ .

(4) من أشهر العلماء الرياضيين اليونانيين ، ولد فى مدينة (سيراكيوز) فى يونان ، وقتل عند هجوم الرومان عليها صنف كتبا قيمة عظيمة فى حينها فى علم ميكانيكا ، وتوازن السوائل وضغطها .

راجع أثر الثقافة الإسلامية فى تكوين الانسانية ص ١٢٣ هامش ٣ .

(5) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية ص ٤٠٦ ، ٤٢٧ ط الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ ط دار الوفاء المنصورة .

فى الرياضيات

إبراهيم السوبينى ٨٠٠هـ - ١٣٩٨ م

الكامل فى شرح الشامل فى الجبر والمقابلة

الضوء اللامع للسيوطى ١ / ١٠٠ ، كشف الظنون ١٣٦ .

أحمد بن ابراهيم ٥٥٢ هـ

عالم بالرياضية من آثاره الفصول فى الحساب

بروكلمان ١ / ٤٧١

أحمد الكرابيسى القرن ٦ هـ

الحساب الهندسى ، مساحة الحلقة - حساب الدور

تاريخ الحكماء ٢٧٩ ، الفهرست ٢٨٢

الحسن بن الصباح القرن ٣ هـ

كتبه : الاشكال والمساحات - الكرة والعمل بذات الحلق

تاريخ الحكماء ٥٩ ، الفهرست لابن النديم ١ / ٧٦

جابر بن إبراهيم القرن ٤ هـ - قرن ١٠ م

إيضاح البرهان على حساب الخطين

بروكلمان ١ / ٢١٩ ، ٣٨٦

جمشيد بن مسعود الكاشى ٩١٩هـ

المفتاح فى الحساب - اشكال المتقدمين فى الأبعاد والاجرام -
كيفية صنع الآلات

كشف الظنون ٨٩٥

أبو جعفر الخازن ٥١٥ هـ - ١١٢١ م

المسائل العددية - زيج الصفائح - سر العالمين فى الهيئة -

تفسير المقالة العاشرة من إقليدس ، ميزان الحكمة .

المراجع : الفهرست ١ / ٢٨٢ ، تاريخ الحكماء - ٣٩٦ - كشف الظنون ١٣٨، ٩٨٨.

جعفر بن على بن محمد المكى قرن ٣ هـ ، ٩م

رسالة فى المكعب وكتاب فى الهندسة

المراجع : تراث العرب العلمى لطوقان - الفهرست ٢٨٢ .

تقى الدين بن عز الدين الحنبلى

الحاوى - واللباب فى علم الحساب

المرجع : بروكلمان ١١ / ١٥٦ .

حسن بن محمد النيسابورى ٨١١ هـ

الشمسية فى الحساب - شرح التذكرة للطوسى فى الهيئة

المرجع : كشف الظنون ٣٩١ لولى الدين ١٣٣ .

حسن بن موسى بن شاكر ٢٥٩ هـ

الشكل المدور والمستطيل - حركة الافلاك الأولي

المراجع : تاريخ الحكماء ٣١٥ الفهرست ١ / ٢٧١ .

حسن بن الهيثم

فى الرياضيات والبصريات - تربيع الدائرة - وغيره نشر بالالمانية

المراجع : تاريخ الحكماء ١٦٥ - تراث العرب العلمى لطوقان : ٢٦١ .

عبد الله بن محمد بن موسى الخوارزمى

أقدم الرياضيين العرب الجديرين بالذكر ، عمل فى بيت الحكمة ، له مباحث فى الرياضيات ، وترجم « الكيونى » كتابه الى الفرنسية سنة ١٨٣٨ .

على بن أحمد المجتبى الانطاكى ٣٧٦هـ

التخت الكبير فى الحساب الهندسى ، الحساب على التخت بلا محو – تفسير الارثماطيقى ، شرح إقليدس ، الموازين العددية ، استخراج التراجم

المراجع : تاريخ الحكماء للقفطى ٢٣٤ – تراث العرب العلمى لطوقان : ٢٢٣ .

على بن أحمد النسوى ٤٢١ هـ – ١٠٣٠ م

المقنع فى الحساب الهندسى فى العراقين العربى والفارسى – رسالة فى المدخل الى علم المنطق ، التجريد فى أصول الهندسة تراث العرب العلمى لطوقان ٢٥٧ – ٢٦٠ .

عمر الخيام – ٤١٧هـ

رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات إقليدس

عمر الخيام ٩ / ٣٣ .

يعقوب بن إسحاق الكندى – ٢٥٢ هـ

له ١١ كتاب فى الحساب ، ٢٣ فى الهندسة ، ٨ فى الكريات ، ٨ فى الابعاديات – وشى به الي المتوكل العباسى فضربه وأخذ كتبه. ثم ردها اليه

المراجع : مروج الذهب ٨ / ١٧٦ ، تاريخ الحكاء للقفطى ٣٦٦ ، لسان الميزان ٣٠٥ – معجم المؤلفين ١٣ / ٢٤٤

كوسيار بن لبان الجبلى (أبو الحسن ٤٥٩هـ

مهندس فلكى رياضى ، خالف بعض المهندسين فى تكوين المريخ له كتاب إصلاح تعديل المريخ .

المراجع : كشف الظنون لحاجى خليفة ٩٦٨ ، هدية العارفين للبغدادى ١/٨٣٨

محمد بن يحيى البوزجانى ٣٢٨- ٣٨٨هـ

كتاب فى الجبر والمقابلة - كتاب مطالع العلوم فى علوم الأوائل والحساب - وكتاب مايحتاج اليه العمال والكتاب من صناعة الحساب .

المراجع : ابن العبرى فى مختصر الدور ٣١٥ - تاريخ الحكماء الإسلامى ٨٤ ، وفيات الاعيان لابن خلكان ٢/ ١٠٦ ، وكشف الظنون ١٤٧٢ .

فى الفلك

إبراهيم بن حبيب الفزارى

أول من عمل اسطرلابا - له كتاب القصيدة فى علم النجوم - العمل بالأسطرلاب - القياس للزوال .

المراجع : تاريخ الحكماء ٥٧ ، الفهرست ١ / ٢٧٣ - كشف الظنون ٩٦٤ ، ١٣٤٥ - معجم المصنفين للتونكى ٣ / ٩٩ .

محمد بن أحمد بن رشد (محمد بن أحمد) ٥٢٠ هـ

كتاب إصلاح نظام بطليموس الفلكى - نظرية ابن رشد فى الكواكب

المراجع : عالم الفكر ٩ / ٣٧ - عيون الانباء ٢ / ٧٥ - الوافى ٢/١١٤ .

أبو الريحان البيرونى

التفهيم لأوائل صناعة التنجيم – القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم .

المرجع : عالم الفكر ٩ / ٣٦ .

أبو الوفى محمد اليوزجانى ٣٢٨ هـ

الكامل فى حركات الكواكب – كتاب المجسطى – مطالع العلوم –

المراجع: تاريخ حكماء الإسلام ٨٤ ز مختصر الدول ٣١٥ ، الخالدون العرب٨٩.

أبو القاسم أحمد بن عبد الله الصفار ٤٢٦هـ

العمل بالاسطرلاب – زيج مختصر

المراجع : عيون الأنباء ٢/٤٠ ز ، تراث العرب العلمى ٣٠٣

عالم الفكر٩/٣٥

أبو بكر بن أبى المعالى اليمنى ٧٩٤هـ

فلكى له مدخل التعليم

المرجع : بروكلمان – ١١/٢٥٣

أبو على محمد بن جابر البتانى ٣١٧هـ

الفلك في ٣ مجلدات – معرفة مطالع البروج

المراجع : عيون التواريخ ١٢ / ٢٣ ، وفيات الاعيان ٢ / ١٠٥ –

مرآة الجنان لليفاعى ٢٠ / ٢٧٤ .

أبو جعفر الخازن ٥١٥ هـ

له سر العالمين فى الهيئة – زيج الصفائح المسائل العددية

المراجع : فهرست ١/٢٨٢ ، تاريخ الحكماء للقفطى ٣٩٦ ، كشف الظنون ١٣٨.

أبو معشر بن محمد البلخى – ١٧٢ هـ – ٢٧٣هـ

له في الفلك والنجوم ٣٥ كتابا منها – النكت فى سنى العالم –

هيئة الفلك واختلاف طلوعه – إثبات علم النجوم – المدخل الكبير

المراجع : الفهرست ١/١٧٧ – وفيات الأعيان ١ / ١٤٠ ، تاريخ الحكماء ١٥٣،

كشف الظنون ١٨ ، ٥١ ، ٩٦٥ ، إيضاح المكنون ١ / ٨٨ .

الحسن بن الخطيب

المدخل الى علم الهيئة – تحويل سنى العالم

المرجع : الفهرست ٣٩٩

الحسن بن سهل بن نوبخت

الأنواء

المرجع : الفهرست ٣٩٩

أحمد بن محمد الطيب ٢٨٦ هـ

المدخل الى صناعة النجوم

المرجع : سيرة النبلاء للذهبى ٩ / ١٠٥

أحمد بن محمد الفرغنى ٢١٨هـ

المدخل الى علم الهيئة – الافلاك وحركات النجوم

المرجع : تاريخ الحكماء للقفطى ٧٨ .

الحسن بن الصباح قرن ٣ هـ

الاشكال والسائح – الكره – العمل بذات الخلق

المراجع : الفهرست ٢٧٦ – تاريخ الحكماء ٥٩ .

الحسن بن على المنجم ٣٥٧ هـ

أحكام النجوم والطوالع

المرجع : كشف الظنون ٢١٧ ، ١٦٤٢

العباس بن سعيد الجوهرى

من أصحاب الارصاد - كتاب الاشكال

الفهرست لابن النديم ٣٩٣

الماهانى - أبو عبد الله محمد بن عيسى ٢٦٠ هـ

عروض الكواكب - كتاب فى النسبة - كتاب فى الاشكال

حبيب بن عبد الله

أبعاد الأجرام - الرخائم والمقاييس

المرجع : الفهرست ٣٨٨

حسن بن موسى بن شاكر ٢٥٩ هـ

كتبه الشكل المدور المستطيل ، حركة الافلاك الأولى

المراجع : الفهرست ٢٧١/١ ، تاريخ الحكماء ٣١٥ ، ٣١٦ .

ثابت بن قرة بن مروان ٢٢١ - ٢٨٨ هـ

إبطال الحركة فى فلك البروج - المسائل الهندسية - تحليل مياه البحار

المراجع : الفهرست ٢٧٢/١ ، عيون الأنباء ٢١٥ ، البداية ١١/ ٨٥ .

جابر بن حيان بن عبد الله الكوفى ١٢٠ هـ - ١٩٨ هـ

تأليف عمل الاسطرلاب

المراجع : الفهرست لابن النديم ٣٥٣/١ ، الخالدون العرب ١٥-٢٤ .

حبيش بن عبد الله

أبعاد الأجرام – الرخائم والمقاييس

المرجع : الفهرست ٣٣٨

سند بن على

كتاب المفصلات والمتوسطات – الحساب الهندسى

المرجع : الفهرست ٣٩٧

سهل بن بشر

كتاب الأوقاف – الأمطار – الرياح – والكسوفات

الفهرست٣٩٧

عطارد بن محمد

تركيب الافلاك والمرايا المحرقة

المرجع : الفهرست ٣٩٧ .

على بن إبراهيم بن محمد بن الهمام بن الشاطر (٧٠٤-٧٧٧هـ)

الاشعة اللامعة فى العمل بالآلة الجامعة – نزهة السامع في العمل بالربع الجامع – النفع العام فى العمل بالربع التام لمواقيت الإسلام – الثمار اليانعة من قطوف الالة الجامعة ، وكشف المغيب فى الحساب بالربع المجيب

المراجع : شذرات الذهب ٦/٢٥٢ ، كسف الظنون ١٠٥ ، ٣٦٦ ، ٩٠٧ ، ٩٢٢ ، ٩٦٥ ، ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٨

على بن أبى الرجال ٤٠٦ – ٤٥٤ هـ

من تصانيفه البارع فى أحكام النجوم والطوالع

المرجع : كشف الظنون لحاجى خليفة ٢١٧

على بن على بن عمر المراكشى القرن ٧ هـ

تلخيص العمل فى رؤية الهلال – وجامع المبادئ والغايات فى علم الميقات .

المرجع : تراث العرب العلمى

عمر بن الفرخان

اتفاق الفلاسفة واختلافهم فى خطوط الكواكب

المرجع : الفهرست ٣٩٥.

عمر بن محمد المروروذى

كتاب تعديل الكواكب

المرجع : الفهرست ٤٠٠

عمر بن يوسف بن رسول ٦٩٦هـ

التبصرة فى علم النجوم

المرجع : كشف الظنون ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢

كوسيار بن لبان الجبلى ٤٥٩هـ

خالف بعض المهندسين فى تكوين المريخ – وله كتاب إصلاح تعديل المريخ – المدخل فى صناعة أحكام النجوم – مجمل الأصول فى أحكام النجوم ، واللامع في أمثلة الزيج اللامع

المراجع : كشف الظنون ٩٦٨ ، هداية العارفين للبغدادى ١ / ٨٣٨

محمد بن محمد بن يحيى البوزجانى ٣٢٨ – ٣٨٨هـ

الكامل فى حركات الكواكب

المراجع : ابن العبرى فى مختصر الدرر ٣١٥ – تاريخ الحكماء الإسلامى ٨٤

محمد بن يوسف الخوارزمى

العمل بالاسطرلاب – كتاب الرخان

المرجع : الفهرست ٣٩٧

يحيى بن منصور

كتاب الارصاد

المرجع : الفهرست ٣٩٨

فى الميكانيكا والآلات

ابن خلف المرزوى

صناعة آلات الرصد للمأمون

المرجع : الفهرست ٤١٠

أبو سهل ويحيى بن رستم

كتاب صنعة الاسطرلاب

المرجع : الفهرست ٤١٠

أبو عبد الله محمد الحسن الشلوى

كتاب عمل الرخامة المطبلة وصنعة البنادق

المرجع :الفهرست٤١٠

الحسين بن على

كتاب عمل الساعات

المرجع : الفهرست باب الصناعات ٤٠/٩

ابن موسى بن شاكر

أول من اشتغل بالميكانيكا فى الإسلام

المرجع : الفهرست باب الصناعات

محمد وأحمد والحسن

لهم فى ذلك كتاب الحيل وكتاب معرفة الحيل الهندسية

فى الاحجار والمعادن

ابن زهر الاندلسى

خواص الاشياء

المراجع : عيون الانباء ٦٤ – شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ٧٤ – إيضاح المكنون للبغدادى

أبو القاسم عبد الله بن محمد بن طاهر الكاشانى

عرايس الجواهر وأطايب النفائس

المرجع : عالم الفكر ٩ / ٤١

أبو سعيد بن مضر بن يعقوب الدينورى

له فى الجواهر والمعادن جهود

المرجع : عالم الفكر ٤١/٩

أحمد بن عبد العزيز الجوهرى

رسالة فى الجواهر

المرجع : عالم الفكر ٤١/٩

البيرونى

المجاهر في معرفة الجواهر

مرت مراجعه قبل ذلك وانظر عالم الفكر ٤١/٩

الكندى

الجواهر والاشباه - أنواع الحجارة - الأحجار والمعادن

ذكرت مراجعه قبل ذلك وانظر عالم الفكر ٤١/٩

عطارد بن محمد

منافع الاحجار

المراجع : هداية العارفين للبغدادى ٦٦٥/١ وعالم الفكر ٤١/٩

محمد بن زكريا الرازى

علل المعادن - الجواهر والخواص

ذكرت مراجعة قبل ذلك وانظر عالم الفكر ٤١/٩

هذا وقد اشتهرت بعض البلاد الإسلامية بالصناعات المختلفة فى كل فن

مراكش

سخرَ أهلها الماء فى تسيير الرحى والطواحين

المرجع : البكرى ص ١٦٢

نهاوند

صناعة الطواحين التى تطحن بالريح

المرجع : مروج الذهب للمسعودى ٢٢٧/٤

سمرقند ومصر

صناعة الورق

المراجع : لطائف المعارف ٦٢٦ جغرافيا اليعقوبى ٣٣٨

الاطباء ومؤلفاتهم فى عصر النهضة

إبراهيم الفزارى

ابن الخطيب

كتاب الدفاع عن نظرية العدوى وانتقالها

المرجع : الطب الإسلامى ٩٨

ابن النفيس

مكتشف الدورة الدموية الصغرى

المراجع : الطب الإسلامى ، النجوم الزاهرة ٣٧٧/٧ البداية ٣١٣/٣

ابن زهر ١١١٣ - ١٠٦٢

مكتشف داء الجرب ووصف مكروبه

المرجع : الطب الإسلامى ٩٩ ، ٣٣ ، ٧٦ ، ٧٧

ابن سينا ٩٨٠ - ١٠٣٧ م

القانون فى الطب فى ثلاثة مجلدات

المراجع : القانون مطبوع ط بولاق - الطب الإسلامى ٢١٤ عالم الفكر ٩ / ٢٠

ابن محمود القاسم متوفى سنة ١٥٢٥

زاد المسير فى علاج البواسير

المرجع : الطب الإسلامى ٧٩ .

أبو بكر ربيع بن أحمد الأخوين ٣٧٣ هـ

هداية المتعلم فى الطب

المرجع : الطب الإسلامى - ٧٧ .

أبو زكريا بن ماسوية

الإسهال - علاج الصداع الحوامل - العقم

المرجع : الفهرست ٤٢٥

أبو منصور القمرى

طبيب الجزام - ألف : الغنى والمنى

المرجع : الطب الإسلامى ٩٩

أبو موسى عيس بن قسطنطين

كتاب البواسير عللها وعلاجها

المرجع : الفهرست لابن النديم ٤٢٧

أبو البيان ابن المدور

طبيب صلاح الدين ، له كتاب مجريان فى الطب

المراجع : ابن أبى أصيبعه ، عيون الأنباء ١١٥/٢

أحمد بن إبراهيم الجزار ٣٩٥ هـ

من كتبه زاد المسافر فى علاج الأمراض - الاعتماد فى الأدوية المفردة والمركبة

المراجع : عيون الاخبار لابن شاكر ١٢٥/١٢ ، عيون الانباء ٣٨/٢

أحمد بن عثمان القيسى ٦٥٧هـ

نتيجة الفكر فى علاج البصر

المرجع : كشف الظنون لحاجى خليفة ١٩٢٦

أحمد بن اسعد بن العالمة ٥٩٣ - ٦٥٢هـ

الإرشادات فى الأدوية المفردة كفاية الطبيب

المراجع : عيون الأنباء ٢٦٥/٢ ، كشف الظنون ٩٦/١ - ٣٨٢

أحمد بن محمد الطيب ٢٨٦هـ

المدخل الى الطب

المراجع : سيرة النبلاء للذهبى ١٠٥/٩ - عيو الأنباء ٢١٤/١ - الفهرست١٤٩

أحمد بن يوسف الطيقاشى ٥٨٠ هـ

الوافى فى الطب الشافى

المراجع : الديباج لابن فرحون ٧٥ - كشف الظنون ٧٢ - ٢٢٣ - ٦٢٠.

إسحق بين حنبن ٢١٥ هـ

الأدوية المفردة - تاريخ الأطباء

المراجع : عيون الأنباء ٢٠٠/١ - تاريخ حكماء الإسلامى ١٨ ، ١٩ . البداية ١١ / ١١٦

إسحق بن عمران

ألف ١١ كتابا فى الطب ، منها : كتاب المنخولوليا

المرجع : الطب الإسلامى ١٧١

إسحق بن سليمان ٣٢٠ هـ

كتاب الحميات - الأغذية والأدوية

المراجع : عيون الأنباء ٣٦/٢ ، إيضاح المكنون للبغدادى ٢ / ٢٧٥

أسعد بن إلياس ٥٨٧ هـ

الأدوية المفردة - بستان الأطباء

المراجع : معجم الأطباء ١٣٥ - كشف الظنون ٢٤٣ ، ١٣٨٨

إسماعيل بن الحسن الجرجانى ٥٣١ هـ

زبدة الطب - التذكرة فى الصناعات الطبية - الأجوبة الطبية

المراجع : تاريخ الحكماء ١٧٢ ، إيضاح المكنون ٦١١/١ .

البغدادى

علم التشريح

المرجع : الطب الإسلامى ٤٠

الزهراوى : أبو القاسم بن عباس

كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف

المراجع : عيون الأنباء ٥٢/٢ بغية الملتمس للضبى ٢٧١ ، الصلة ١٦٦/١

القلشندى سنة ٤٠٠ هـ

مكتشف مرض النوم

المرجع : الطب الإسلامى ٣٤

الحسن بن محمد الوزان ٩٠١هـ

القاموس الطبى

المرجع : حياة الوزان لمحمد المهدى

بختيشيوع بن جبريل

فى عهد الرشد - الحجامة على طريق المسألة والجواب

المراجع : عيون الانباء ١٣٨ - تاريخ الحكماء ١٠٢ نجوم الزهرة

ثابت بن قرة بن مروان ٢٢١هـ - ٢٨٨ هـ

الزخيرة فى علم الطب

المراجع : الفهرست لابن النديم ٢٧٢ - عيون الابناء ١ / ٢١٥ - تاريخ الحكماء ١١٥ .

ثابت بن ابراهيم الحرانى ٢٨٣ - ٣٦٩ هـ

جوابات مسائل في الطب

المراجع : تاريخ الحكماء ١١١ - عيون الانباء ٢٧٢ الفهرست ٣٠٣/١

جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع ٣١١ - ٣٩٦ هـ

الكافى فى الطب ٥ مجلدات - رسالة فى عصب العين

المراجع : عيون الانباء ١٤٤/١ - تاريخ الحكماء ١٤٦ .

حبيش بن ابراهيم التفليسى ٦٠٠ هـ

تقويم الأدوية - لباب الاسباب - تحصيل الصحة - كامل التدابير

المرجع : بروكلمان ٨٩٣/١

حبيش بن الحسن الاعسم ٢٦٤ هـ

إصلاح الأدوية المفردة - كتب الاستسقاء - الاغذية

المراجع : عيون الانباء ٢٠٢ - تاريخ الحكماء ١٧٧ ، الفهرست ٢٩٧/١

حسن بن الهيثم

طب العيون

المرجع : الطب الإسلامى – ٦٩

حامد بن سمجون

الأدوية المفردة – الاقربازين

المرجع : عيون الانباء ٢/ ٥١ – ٥٢

حنين بن اسحاق

طب العيون – المسائل فى الطب – تولد الحصوة

المرجع : عيون الانباء ١٩٨

خضر بن على الخطاب

شفاء الاسقام ودواء الآلام

المرجع : الطب الإسلامى ٢٠٨

خلف الطولونى ٣٠٢

النهاية والكفاية فى تركيب العين

المراجع : عيون الأنباء ٢ / ٢٨٥ معجم المولفين ٤ / ١٠٥

على بن أبى الحزم القرشى (ابن النفيس ٦٨٧هـ)

الشامل فى الطب – بغية الطالبين وحجة المتطببين

المراجع : النجوم الزاهرة ٣٧٧/٧ – البداية ١٣ / ٣١٣

على بن أحمد بن باهل ٥١٥ هـ

طبيب – طب المختار فى ٤ مجلدات ، الطب الجمالى

المراجع : ابن أبى أضيبعة ١ / ٣٠٤ – ٣٠٥ ، أنباء الرواة ٢ / ٢٣١

على بن زين الطبرى ٨٥٠ م

كتاب فروس الحكمة – منافع الاطعمة والعقاقير وعلم الاجنة

المراجع : عيون الانباء ١ / ٢٠٩ – تاريخ الحكماء ٢٣١ – الفهرست ١ / ٢٩٦

على بن عباس القرن ٤ هـ

طب العيون – الجدرى – الأمراض الجلدية – الزهرى

المرجع : الطب الإسلامى ٩١

على بن عيسى الكحال ٣٥٠ هـ

تذكرة الكحالين – استعمال التخدير في عمليات العين.

المراجع : عيون الانباء ١ / ٢٤٧ – كشف الظنون ٣٩٠ – بروكلمان ١ / ٨٨٤

عمر بن يوسف بن رسول – ٦٩٦هـ

الجامع فى الطب – الأدوية المفردة

المراجع : كشف الظنون ٢٣٦ ، ٣٣٨ ، معجم الاطباء لأحمد عيسى .

يوحنا بن ماسوية ٢٤٣ هـ

دفع مضار الاغذية – علاج العقم تركيب طبقات العين

المراجع : عيون الانباء ١/ ١٧٥ ، مختصر الدول ٢٢٧ – هدية العارفين٢/٥١٥

فى الصيدلة والعقاقير

إبراهيم بن عباس

كتب في العقاقير والطب

المرجع : الفهرست ٤٥٤

ابن البطريق

كتاب أجناس الحشرات - كتاب السموم

المرجع : الفهرست ٤٥٤

أبو بكر بن البيطار

كتاب الصيدلة الشهير « الجامع لمفردات الأدوية » ، ترجم الى الفرنسية والألمانية فى ٤ مجلدات

نشر فى القاهرة ١٢٩١هـ

ابن بكلاش يونس بن إسحق

كتاب المستعينى فى الأدوية المفردة

المرجع : الطب الإسلامى ١٩١

ابن جميع

كتاب الإرشاد فى العقاقير

المرجع : الطب الإسلامى ١٨٣

ابن داود

كتاب تذكرة ابن داود - البهجة والدرة غاية المرام فى إصلاح الأبدان

المرجع : الفهرست ٤٥٤

أبو الأعلي زهير الأشبيلى

ألف كتب عدة فى الأدوية والعلاجات والاغذية منها « التذكرة»

المرجع : عالم الفكر ٩ / ٢٧

أبو المنى بن أبى نصر

منها الدكان ودستور الأعيان

المرجع : الطب الإسلامى ١٨٣

أبو منصور موفق بن على الهروى

كتاب الأبنية فى العقاقير الطبية

المرجع : الطب الإسلامى

أحمد الغافقى

أكبر عالم فى الصيدلة ، له كتب كثيرة فيها .

طبع منها فى طب القاهرة – الكراسة الأولي والثانية سنة ١٩٣٢م والثالثة سنة ١٩٣٨م – عالم الفكر ٩/٢٧

إسحق بن حنين

الأدوية المفردة – الأدوية المسهلة

المرجع : عيون الأنباء ٢٠١/١

الإدريسى – الرحالة

نظرات فى الصيدلة – كتب عنها ماكس مايرهوت

المرجع : عالم الفكر ٦٩/٩

البيرونى

كتاب الصيدلة

طبع فى باكستان – عالم الفكر ٩ / ٦٩

الرازى

كتاب الصيدلة

المراجع : الفهرست ٤٥٤ – عيون الانباء ١ / ٣٠٩

السديد بن أبى البيان

كتاب الأقربازين فى تركيب الادوية من أقراص وسفوفات وأدهان

المرجع : الطب الإسلامى ١٨٤

الكندى

كتاب السمومات ودفع ضرها

المرجع : الفهرست ٤٥٤

المفضل بن سلمة

كتب فى العطر والعقاقير والمعادن

المرجع : الفهرست ٤٥٤

حبيب العطار

كتاب العطر وأجناسه

المرجع : الفهرست ٤٥٤

رواق الصيدنانى

كتاب الصيدنة

المرجع : الفهرست ٤٥٤

قسطا بن لوقا

كتاب السمومات

المرجع : الفهرست ٤٥٤

موسى بن ميمون

معجم فى شرح أسماء العقاقير وفوائدها

نشر فى القاهرة سنة ١٩٤٠ عالم الفكر ٩ / ٢٨

نطاح

كتاب السمومات وتركيبها

المرجع : الفهرست ٤٥٤

نجم الدين محمد بن إياس الشيرازى

الحاوى في علم التداوى

المرجع : عالم الفكر ٩ / ٢٦

هبة الله بن التلميذ

كتاب الاقربازين ، مخطوط للآن

المرجع : عالم الفكر ٩ / ٢٦

يحيى بن خالد

كتاب في العطر والعقاقير

المرجع : الفهرست ٤٥٤

فى الحيوان والطب البيطرى

أبو بكر البيطار

طبيب بيطرى له كتاب – كشف الويل فى معرفة أمراض الخيل

المرجع : بروكلمان – ١١ / ١٣٦ – ١٦٩

ابن قتيبة

فصول فى كتابه – عيون الاخبار – عَن الحيوان

المرجع نفسه مطبوع – دار الكتب فى القاهرة

أبو حيان التوحيدى

فصول فى كتبه عن الحيوانات

الإمتاع والمؤانسة

إسحق بن على بن سليمان

كتاب فى البيطرة وعلاج الدواب

المرجع : الفهرست ٤٥١

الجاحظ

كتاب فى علم الحيوان

المرجع نفسه مطبوع

الأصمعى

له مؤلفات فى الاحصنة والجمال

المرجع : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٤٤

الدميرى

الحيوان للدميرى – حياة الحيوان

الكتاب مطبوع

المتوكل

الف له كتاب البيطرة كتاب علاج الدواب – كتاب بطرة

الفرس – الخيل

فريز

بيطرة الجمال عند العرب فى العصور الوسطى

كتب طبعت حديثا

دمولرز

دراسة فى تربية الصقور

كتب طبعت حديثا

همر بور جشتال

الجمل

طبع فى فينا

من أسباب بغض أهل الغرب للشرق

تتضح هذه الأسباب بمايلى :

أ- قال غوستاف لوبون : « كان من نتائج اصطراع الشرق والغرب منذ قرون مضت وإلقاء العرب الرعب فى قلوب الأوربيين أن صار الأوربيون يشعرون بمذلة الخضوع للحضارة العربية التى لم يتحرروا من سلطانها إلا منذ زمن قريب ، فأخذوا ينكرون فضل العرب على أوربة وتمدينهم لها ، وأصبح هذا الانكار من تقاليد مؤرخى أوربة وكتابها الذين لم يقروا لغير اليونان والرومان بتمدينها ، وقد ساعدهم على هذا ماعليه العرب والمسلمون من التأخر فى الزمن الأخير ، فلم يشاءوا أن يروا للعرب رُقيا تاريخيا أعظم مما هم عليه الآن غير ناظرين الى أن نجم حضارة العرب أفل منذ أجيال ، وأنه لا يصح اتخاذ الحال دليلا على الماضى » .[1]

« إن الأمم التى كانت لها سيادة العالم ، كالآشوريين والفرس والمصريين والاغارقة والرومان ، توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات ، والعرب ، وإن تواروا أيضاً ، لم تزل عناصر حضارتهم ، وإن شئت فقل دياناتهم ولغتهم وفنونهم ، حية .. » [2]

ب- حضارة العرب الأبدية : لقد « أنشأ العرب بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارة التي ظهرت قبلها ، وتمكنوا من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وحضارتهم الجديدة واتصلت بالعرب أمم قديمة كشعوب مصر والهندوس ، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفن عمارتهم ، واستولت

(١) حضارة العرب ص ١

(٢) حضارة العرب ص ١٨ – ١٩ .

بعد ذلك أمم كثيرة على الاقطار التى فتحها العرب ، وظل نفوذ العرب فيها ثابتا ، ويلوح لنا ان رسوخ هذا النفوذ أبدى فى جميع البقاع الاسيوية والافريقية التى دخلوها والتى تمتد من مراكش الى الهند »(١) .

جـ- وقال لوبون : «لا نرى فى التاريخ أمة ذات أثر بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي اتصل العرب بهم اعتنقت حضارتهم ، ولو حينا من الزمن ، ولما غاب العرب عن مسرح التاريخ انتحل قاهروهم ، كالترك والمغول ، الخ ، تقاليدهم وبدوا للعالم ناشرين لنفوذهم ، أجل لقد ماتت حضارة العرب منذ قرون ولكن العالم لا يعرف اليوم فى البلاد الممتدة من سواحل المحيط الأطلنطى الى الهند ، ومن البحر المتوسط الى الصحراء غير اتباع النبى ﷺ ولغتهم »(٢)

وعندما تكلم العلامة لوبون عن عرب الاندلس قال : « لم يكد العرب يتمون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها ، فاستطاعوا فى أقل من قرن أن يحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا فخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الاخرى ، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التى ظلت وحدها ملجأ للثقافة فى أوربة زمنا طويلا »(٣) .

ثم رأى لوبون ان اسبانية هبطت الى الدرك الاسفل من الانحطاط بعد جلاء العرب عنها ، وذلك بعد قوله : « لا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل كتلك التى اقترفت ضد المسلمين ، ومما

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع نفسه ص ١٩ .
(٣) المرجع نفسه .

يرثى له ان حرمت إسبانية عمدا هؤلاء الملايين الثلاثة الذين كانت لهم إمامة السكان الثقافية والصناعية »[1] .

د- اعتراف لوبون : رأى لوبون ، والحق مارأى ، أن العرب مدنوا أوربة مادة وعلما وأخلاقا ، «فقد كان عرب الاندلس يتصفون بالفروسية المثالية خلا تسامحهم العظيم ، فكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى هذا من الخلال التى اقتبستها الأمم النصرانية بأوربة منهم مؤخرا .. وأثر عرب الاندلس فى اخلاق الناس ، فهم الذين علموا الشعوب النصرانية وان شئت فقل حاولوا ان يعلموها ، التسامح الذي هو أثمن ماتصبو اليه الانسانية .. ويمكن القول بأن التسامح الدينى كان مطلقا فى دور أزدهار العرب .. ومثل هذا التسامح مما لم تصل اليه أوربة بعدما قامت به فى أكثر من الف سنة من الحروب الطاحنة وماعانته من الاحقاد المتأصلة ومامنيت به من المذابح الدامية »[2] .

هـ- تمدين العرب لأوربا : أفاض العلامة لوبون فى ايضاح تمدين العرب لأوربة ، وانتهى الى مايأتى : «إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم ، والعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقى البرابرة الذي قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين فتحوا لأوربة ماكانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون .. وظلت ترجمات كتب العرب ، ولا سيما الكتب العلمية مصدرا وحيدا ، تقريبا و للتدرس فى جامعات

(١) المرجع نفسه .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠

أوربة خمسة قرون أو ستة .. وإذا كانت هناك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة .. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى إنقاذ تلك الكنوز الثمنية اعترافا أبديا ، قال مسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربة الحديثة فى الآداب عدة قرون »[1] .

« فالحق ان اتباع محمد ظلوا أشد ماعرفته أوربة من العداء إرهابا عدة قرون، وانهم عند ماكانوا لا يرعبوننا بأسلحتهم ، كما فى زمن شارل مارتل والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربة بعد فتح القسطنطينية ، كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس [2] » .

« وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة ، وصارت جزاء من مزاجنا ، وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفى أحيانا ، والعميق دائما »[3] .

« وإذا أضفنا الى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مبتسرنا الموروث الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب فى الزمن الماضى ادركنا بسهولة ، سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم فى تاريخ حضارة أوربة .

(١) المرجع نفسه

(٢) المرجع نفسه .

(٣) المرجع نفسه .

« ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار ان يرى أن أوربة النصرانية مدينة فى خروجها من دور التوحش لأولئك الكافرين ، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة »(١) .

و- العرب أرقى الأمم : وضع لوبون العرب فى صف اليونان والرومان ، ورآهم أرقى من جميع أمم الغرب التى عاشت قبل عصر النهضة (٢) ، فكان فى هذا أكثر إنصافا من بعض كتاب العرب المعاصرين الذين استهوتهم الثقافة الأوربية المدرسية فأخذوا يسايرون رجالها متجاهلين مالأمتهم العربية من المقام العريض فى ميدان الحضارة راغبين بالاغارقة والرومان عنها حينما يتكلمون فى تاريخ الحضارة العالمية . متجاهلين الانصاف الذى يجب تقديمه لأمتهم ، لكن الحقيقة يقيض الله سبحانه لها رجالا ويشيدون بها .

قال لوبون أيضاً : « يرى بعض المؤلفين ان لافوازيه هو واضع الكيمياء ، وقد نسوا أننا لاعهد لنا بعلم من العلوم ، ومنها علم الكيمياء ، صار ابتداعه دفعة واحدة، وأنه وجد عند العرب من المختبرات ماوصلوا به الى اكتشافات لم يكن لافوازيه ليستطيع ان ينتهى الى اكتشافاته بغيرها » ، وقال نقلا عن العلامة سيديو :« إن العرب سبقوا كيبلرو كوبرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيض وفى نظرية دوران الأرض » ، وقال : « ترى فى كتب العرب من النصوص ماتعتقد به أن نفوسهم حدثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة » فإذا كانت الحضارة العامة سلسلة حلقات وكانت حضارة العرب من أهم تلك الحلقات كان من المتعذر

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٢) المرجع نفسه .

ظهور نيوتن وليبنتز وغيرهما من اركان حلقة الحضارة الحديثة بدونها ، والفضل للمتقدم »(١) .

نبذة عن جزيرة العرب :

جزيرة العرب هى مهد الإسلام ، وهى منبت الدولة الواسعة التى انشأها خلفاء محمد ﷺ ويتألف القسم الأكبر من جزيرة العرب من صحار ويحيط بها من الغرب البحر الأحمر ، ومن الشرق بحر عمان والخليج الفارسى من الشرق ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، وتتصل من أقصى غربها وشرقها بإفريقية وآسية ، ويحيط بجزيرة العرب من ثلاث جهات ، أى من الغرب والشرق والجنوب ، ثلاثة أبحر كما ذكرنا ، وأما حدها الشمالى فغير واضح ، وهو يمتد تقريبا باتجاه الخط الذى بدأ من مدينة غزة الفلسطينية الواقعة عى ساحل البحر المتوسط مارا بجنوب البحر الميت فدمشق فالفرات وينتهى بخليج فارس .

ويبلغ طول جزير العرب من أقصى شمالها الى اقصى جنوبها نحو ٢٣ درجة أو ٢,٥٠٠ كليو متر ، ويبلغ عرضها من البحر الأحمر الى الخليج الفارسى نحو الف كليو متر .

وتزيد مساحة جزيرة العرب على ٣,٠٠٠,٠٠٠ كليو متر مربع ، أى على مساحة تعدل فرنسا ست مرات (٢) .

عظمة الإسلام

وتتضح عظمة الإسلام فى يسره وسهولته من التوحيد المحض ، وفى هذه السهولة سر قوة الإسلام ، فهو ، خال مما فى الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم ،

(١) المرجع نفسه ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) انظر حضارة العرب ص ٣٩ .

من المتناقضات والغوامض ، ولا شئ أكثر وضوحا وأقل غموضا من أصول الإسلام القائلة بوجود اله واحد وبمساواة جميع الناس أمام الله سبحانه ، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ويدخل النار من يعرض عنها ، وإنك إذا ما اجتمعت بأى مسلم من أية طبقة رأيته يعرف ما يجب عليه ان يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة ، وهو بذلك على عكس النصرانى الذى لا يستطيع حديثا عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير ان يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل .

وساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والاحسان كل المساعدة على انتشاره فى العالم ، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام ، كما نفسر السبب فى عدم تنصر أيه أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينا ، سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة[1] .

سؤال هام :

يسأل نفر الناس – من المستشرقين ومن أنصار المستشرقين عادة – : لماذا نسخ الإسلام جميع الشرائع ؟ ولماذا يكون محمدا آخر الانبياء ؟

إن جواب التاريخ على ذلك واضح فاصل ، وأعنى بالتاريخ ، التاريخ الذى هو فلسفه ووصف لتطور الحضارة .

إن الدين وحى من الله ، وهو بهذا المعنى واحد ، وليس فى العقل ان يوحى الله الى البشر أديانا مختلفة متناقضة كتلك التى نألفها فى العالم اليوم . من أجل

(١) انظر المرجع السابق ص ١٢٥ .

ذلك نقول : ليس ثمة أديان متعددة مختلفة ، ولكن ثمة دينا واحدا أوحى الى البشر مرة بعد مرة .

كان الدين منذ المرة الأولى التى أوحى فيها صحيحا قويما ، ثم مضت فترة جهل الناس فى أثنائها حقائق الحياة لما ركب فى طباع الناس من القصور ولما اعتور أحوالها من الجهل فضلوا عن سواء السبيل عندئذ أوحى الله تعالى هذا الدين مرة ثانية ليرد الناس الى طريق الهدى لا ليلقى اليهم بدين جديد مختلف من الدين الأول . ثم جاءت فترة ثانية أنحرف أهلها عن الدين أيضاً فأرسل الله الى البشر نبيا ثالثا ليردهم مرة ثانية الى الدين الصحيح الصافى . ثم إن ذلك توالى مرارا لا نعلم عددها قال الله تعالى يخاطب محمدا ﷺ : « لقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ، وماكان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون » (١) .

فى تلك الفترات بين الرسل كانت الحضارة الانسانية تتطور ، وكان العقل الانسانى يرجح ، وكان عدد العاقلين فى الناس يزيد ، ولقد كان البشر فى مجموعهم – فى أول الأمر – يحتاجون الى تلقين كثير فنشأ فى تلك الفترات المختلفة طبقات من الكهنة تعلم الناس كل شئ وتفرض عليهم أساليب السلوك فى كل شئ .

ثم لما بدأت الحضارة تتسع كان الدين فى كل مرة يوحى به فيها الى الناس يتسع باتساع الحضارة وباتساع مدارك البشر – أتساعا فى المقدار والتفاصيل لا من حيث الصحة والمبادئ ، وكان أولئك الكهنة فى الاعم الاغلب قد استعلوا على الناس وانزلوا انفسهم منزلة الانبياء ثم حجروا على عقول أتباعهم ، وبدل نفر منهم فى الدين مابدلوا وفسروا فيه بأهوائهم ما فسروا (٢) .

(١) غافر : ٧٨ .

(٢) انظر التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ٦٠ ، ٦١ .

نلاحظ مما سبق ان التفكير فى العصور الوسطى ، فى الغرب خاصة ، قد قام على فلسفة ارسطو ، وكان العقل الأوربى فى العصور الوسطى ، قد خضع لكتابين خضوعا تاما فى كل شئ : للتوراة ولفسلفة ارسطو ، غير أن كتب ارسطو لم تكن تفهم فى الغرب الأوربى إلا من خلال الشروح التى كان ابن رشد العربى المسلم قد وضعها على تلك الكتب ، حتى إن كل شرح على كتاب من كتب ابن رشد كان يطبع مع ذلك الكتاب فى مجلد واحد .

وسادت فلسفة ابن رشد فى أوربة سيادة مطلقة اربعة قرون متوالية عرف التفكير فى أثنائها باسم « المذهب الرشدى » : قرنين كاملين اعتنق المفكرون الغربيون الفلسفة الرشدية ، ثم قرنين كاملين كانت الكنيسة فى أثنائهما تعمل على مقاومة الفلسفة الرشدية لان تلك الفلسفة كانت قد فكت عقال الفكر الأوروبى فأزاحت عنه عبء التوارة الموجودة بأيدى الناس وحررته من الطغيان على الفكر الانسانى ، ثم ان فلسفة ابن رشد قد علمت الفكر الأوروبى أن يحيل الرأى فى فلسفة ارسطو نفسها (١) .

وعنى ابن رشد بالصلة بين العقل والدين وبمكانة الإسلام فى الأديان الموروثة فقال فى كتابة « فصل المقال فى مابين الحكمة والشريعة من الاتصال » :

« إن طباع الناس متفاوتة فى التصديق : فمن الناس من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية ، ومنهم من يصدق بالاقاويل الخطابية ، ولما كانت شريعتنا هذه الإلهية قد دعت الناس من هذه الطرق الثلاث عم التصديق بها كل انسان إلا من حجدها عنادا بلسانه ، واذا كانت هذه الشريعة حقا وداعية الى النظر المؤدى الى معرفة الحق ، فإننا - معشر المسلمين - نعلم على القطع أن النظر

(١) المرجع نفسه ص ٦٢ .

البرهانى لا يؤدى الى مخالفة ماورد فى الشرع فإن الحق لايضاد الحق بل يوافقه ويشهد له » .

وبما أن الإسلام قد قدر في الانسان إنسانيته حق قدرها فقد خاطب العقل الانسانى الذى كان قد بلغ معرجا رفيعا من معارج الرقى يومذاك ثم حثه علي النظر فى كل شئ فى نطاق العالم العقلى . وبهذا النظر اصبح العقل الانسانى مكلفا بمعرفة الحق » [1] وفى هذا الاستشراف السامى يقول ابن رشد فى موقف الإسلام من العقل :

« فاما ان الشرع قد دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به فبين فى غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، مثل قوله تعالى : « فاعتبروا ، يأولى الأبصار» [2] . وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى أو استعمال القياس العقلى والقياس الشرعى معا .

فلما بلغ جانب من البشر هذا المستوى الرفيع من العقل ثم حمل العقلاء تبعاتهم كلها نحو انفسهم ونحو الاخرين فى جميع طبقات البشر انتقل قبس من نور النبوة الي عقلاء النوع الانسانى ، فإذا العلماء ورثة الانبياء ، وإذا هؤلاء العلماء مسؤلون عمن دونهم فى العلم ، ففي الأثر : « إن الله ما أخذ على الجهال أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء ان يعلموا » [3] .

بهذا المعنى من رقى العقل وحمل عقلاء النوع الانسانى للتبعة كلها فى الحياة الانسانية ومن كمال الشريعة الاسلامية فى معالجة قضايا الحياة بجميع

---

(١) نقلا عن المرجع السابق ص ٦٢ .

(٢) الحشر : ٢ .

(٣) نقلا عن التجديد فى المسلمين لا فى الاسلام .

وجوهها لم يبق حاجة الى ان يكون بعد محمد ﷺ نبى آخر ، فكان محمد خاتم الانبياء والمرسلين .

غير أن العقل الانسانى لا يستطيع ان يصل الى الكمال الطلق ، من أجل ذلك أحتاط الإسلام لما يمكن أن ينشأ فى فترات التاريخ التالية للدعوة الإسلامية فجعل على العلماء رقيبا من انفسهم على أنفسهم بين الحين والحين ، ففى الحديث الشريف : « إن الله يبعث الى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »(١) .

ولقد مر أربعة عشر قرنا أو تزيد من التاريخ نهض فى أثنائها مجددون كثيرون ومجتهدون أكثر عددا يقومون بالإصلاح فى شعوبهم وأقطارهم وأزمانهم كيلا يترك البشر بلا راع فى أمور دينهم وأمور دنياهم ، ولقد فرق الأمام الغزالى بين الهداة من الأنبياء والهداة من العلماء حينما تكلم على الفر بين الوحى والإلهام .

إن الانبياء قبل محمد ﷺ كانوا معلمين للناس فقط يأخذون بأيدى أتباعهم فى طريق الحياة من غير أن يستطيع أولئك الاتباع أن يهتدوا بأنفسهم سبيلا ، وهذا بين فى آيات كثيرة من كتاب الله ، قال الله عز رجل :

« وإذا قال الله : ياعيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته : تعلم مافى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، انك انت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به إن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شئ شهيد »(٢) .

(١) أخرجه أبو داود والحاكم .

(٢) المائدة : ١١٦ - ١١٧ .

أما محمد ﷺ فلم يكن معلما فقط ، بل كان معلما ومربيا ومنشئا ، لقد دفع البشر بالإسلام فى سبيل التطور الصاعد حتى يستطيع البشر أنفسهم أن يسيروا بأنفسهم فى طريق الحياة والهدى ، لقد وضع الإسلام فى يد المسلمين الأسس الصحيحة والمبادئ الرئيسية مقاييس لأوجه الحياة الإنسانية ، فعلى الناس أنفسهم أن يستخدموا هذه المقاييس الموضوعة فى أيديهم للسلوك فى سبل الحياة بحسب الأحوال المحيطة بهم والحاجات الطارئة فى بيئاتهم ، من أجل ذلك كان الإسلام صالحا لكل زمان ومكان ! (١) .

غير أنه كان لظهور الإسلام معجزات كبار خارقة للعادة فى المجتمع الانسانى ، منها .

أ- **القرآن الكريم** : وهو كلام الله ، وهو مجموع ما نزل على محمد ﷺ من الوحى . كانت آيات القرآن تدون ساعة نزولها على رسول الله ﷺ ، ولكنها جمعت كلها فى مصحف واحد فى أيام الخليفة أبى بكر بعد وفاة الرسول ﷺ بعام أو بعض عام ، ولقد بقى القرآن الكريم محفوظا الى اليوم سورة سورة وآية آية وكلمة كلمة وحرفا حرفا ، فنحن نقرأ ايات القرآن اليوم كما كان يتلوها رسول الله ﷺ على صحابته بلا اختلاف ولا خلل لفظا وأداء واحكاما . ووقف المستشرقون مشدوهين أمام هذه الحقيقة ، وكان نفر كثيرون منهم يقولون فى الإسلام وفى رسول الإسلام بأهوائهم واحقادهم ، فقال كبيرهم تيودور نولدكه : « لا معدى لنا عن القول بأن القرآن قد وصل الينا كما كان فى أيام محمد نفسه » تلك بلا ريب معجزة إننا اليوم – فى مجال العلم – لانعرف كتابا دينيا سوى القرآن الكريم بقى على الدهر كما جاء يوم جاء (٢) .

---

(١) التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .

ب- وهناك فى الإسلام معجزة ثانية عاشت على الدهر بفضل القرآن الكريم هى اللغة العربية نزل القرآن باللغة العربية ، واللغة العربية يومذاك لغة قوم من البدو فى بقعة معزولة عن العالم المتحضر تحيط بها الصحارى فلم تستطع جيوش الفاتحين ان تنفذ اليها ، ومع ذلك فإن اللغة العربية بفضل القرآن أصبحت لغة عالمية لاتزال تعيش الى اليوم يقرأ بها أهلها كما كان العرب الأولون يقرأون بها ، ونحن إذا قرأنا اليوم قول عنترة يخاطب عبلة :

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهلٌ .·. منّى، وبيض الهند تقطر من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها .·. لمعت كبارق ثغرك المتبسم

لم نجده يختلف فى الفاظه وتراكيبه وقرب معناه مما نألفه اليوم فى كلامنا مع أنه يرجع فى التاريخ خمسة عشر قرنا ، إن القرآن الكريم كان حافظا للغة العربية ، ولم تكن التوراه ولا كان الانجيل حافظين للغات العبرية واليونانية والآرامية واللاتينية ، مع ان اليونانية واللاتينية والارامية كانت لغات حضارات امتدت فى ارجاء العالم ، وكانت اللغة الآرامية مثلا - فى شكل من اشكالها - ممتدة النفوذ من شواطئ البحر الابيض المتوسط الى اطراف الهند ، أما اللغتان اليونانية واللاتينية فكان انتشارهما وأثرهما أوسع واعمق .

واللغة لم تصبح لغة للمسلمين فقط ، بل كانت ولاتزال ايضا لغة لملايين كثيرة من غير المسلمين (١) .

جـ- والمعجز الثالثة كانت فى انتشار الحضارة المادية والثقافية الإسلامية انتشارا عظيما . كانت الدولة الإسلامية تمتد من اطراف الصين الى شواطئ المحيط

(١) التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ٦٨ .

الأطلسى ، وقد زال هذا الحكم عن بلاد كثيرة منها جنوبى إيطالية ومنها اسبانيا ومنها بلاد اليونان وبلاد الهند وسواها ، ولكننا لانزال الى اليوم نرى آثار الحضارة الإسلامية فى هذه البلاد واضحة فى البناء وفى أحوال المعيشة وفى اللغة ، ومع ان الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية قد سبقتا الحضارة العربية الإسلامية فى تلك البلاد وكانتا حضارتين راقيتين ، فانهما لم تخلفا فى بلاد استعمارهما آثارا حية ، إذا كان فى بعلبك مثلا قلعة بعضها رومانى ، فإن فى اسبانية مثلا قصورا حية عامرة يزورها الناس من جميع اقطار العالم ، والاسبان اليوم يعيشون على تلك الاثار الإسلامية فى طليطلة واشبيلية وغرناطة اكثر مما يعيشون على نتاج الزيتون، مع ان الزيتون فى اسبانية أيضا من حضارة العرب وزراعة العرب [1] .

ولا بد فى باب الحضارة الثقافية من ذكر بعض الاحوال الاجتماعية وابرزها اليوم «الطلاق » ، إن الطلاق فى الإسلام حال بغيضة ، وفى الحديث الشريف « أبغض الحلال الى الله الطلاق » ، ولكن الطلاق فى الإسلام ضرورة مؤلمة فلسفتها ان الزواج وسيلة الى بناء اسرة صحيحة سليمة ، فإذا لم يستطع الزواج ان يبنى مثل هذه الاسرة لم يكن له مسوغ .

ولقد وقف الغرب – وأعنى بالغرب هنا النصرانية – قرونا طويلة موقفا شديد العداء من الإسلام باسباب كثيرة منها الطلاق ، ولكن الغرب كله يعمل بالطلاق اليوم أكثر مما يعمل به فى الإسلام ، وكان آخر البلاد التى اقرت الطلاق رسميا روما مركز النصرانية فى العالم ، لقد أوردت هذه المثل شاهدا على أمر واحد هو ان الإسلام ليس دينا ، أى عبادة ، فحسب ، إن الإسلام دين ودولة ونظام اجتماعى ودستور أخلاقى معاً ، وبهذا النظر كان الجانب الاجتماعى جزء مهما من الإسلام ، بخلاف مايعهد فى غيره من الأديان [2] .

---

(١) انظر المرجع السابق .

(٢) المرجع نفسه ص ٦٨ – ٧٠ .

أمـا لماذا نسخ الإسـلام مـاقـبله ؟ فـلأن مـاقـبله لا حـاجـة بـه الان ، لأن دين الإسلام جمع ماأوحى الله سبحانه الى الانبياء السابقين وزاد عليه ، فهو يستغنى به عن غيره ولا يستغنى غيره عنه ، بدليل :

١- « إن الدين عند الله الإسلام »(١) « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الاخرة من الخاسرين»(٢) .

٢- « ما فرطنا فى الكتاب من شئ »(٣) .

٣- إن كل الانبياء السابقين كانوا مسلمين وداعين الى الإسلام.

« ماكان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما »(٤) .

ويوسف عليه السلام يقول : « توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين »(٥) .

وابراهيم عليـه السـلام يقـول : « ربنا واجـعلنا مـسلمين لك ومن ذريتنا أمـة مسلمة »(٦) .

ويعقوب عليه السلام يقول لبنيه : « ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إله واحدا ونحن له مسلمون»(٧) .

---

(١) ال عمران : ١٩ .
(٢) آل عمران : ١٨٥
(٣) الانعام : ٣٨ .
(٤) ال عمران : ١٦٧.
(٥) يوسف : ١٠١ .
(٦) البقرة : ١٢٨ .
(٧) البقرة : ١٣٣ .

أما كون محمد ﷺ خاتم الانبياء فلأن ماجاء به صالح للبشرية فى كل أطوارها المستقبلة ، ومن ثم فلاحاجة لنبى أو رسول جديد فبه ﷺ ختم موكب الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، يقول الله عز وجل : « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين »[(١)] .

والحواريون يعلنون إسلامهم : « وإذ أوحيت الي الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون»[(٢)] .

ونوح عليه السلام يقول : « وأمرت أن أكون من المسلمين »[(٣)] .

وموسى عليه السلام يقول : « ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين»[(٤)] .

حتى فرعون اللعين يقول : « لا إله الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين »[(٥)] .

(٤) الإسلام دين الفطرة ومن ثم فهو صالح لكل زمان ومكان .

(٥) جاء بتشريع شامل يعم كل طبقات البشرية على اختلاف مواقعها واجناسها ، ومن ثم فالإسلام دين الأنبياء جميعاعليهم الصلاة والسلام .

---

(١) الاحزاب : ٤٠ .
(٢) المائدة : ١١١ .
(٣) يونس : ٧٢ .
(٤) يونس : ٨٤ .
(٥) يونس : ٩٠ .

نصيحة ينبغى أن تراعى :

إن الإسلام دين العلم ، وأرى ان كثيرا مما نفعله بعيد عن العلم قريب من الجهل ومن أجل ذلك سمى الإسلام أهل بلاد العرب السابقين أهل جاهلية ، لا لأنهم كانوا لا يعرفون شيئا من العلم بل إنهم كانوا يعرفون وجوها كثيرة من وجوه العلم ، ولكنهم لم يكونوا حلماء : كانوا يسلكون ، الى جانب العلم الذى كان لهم ، سلوكا بعيدا عن المنطق والعقل جملة يتنازعون ويتقاتلون ويأكل القوى منهم الضعيف ويئدون أحيانا أولادهم وأحيانا يشربون الخمر ويلعبون الميسر أو القمار ، من أجل ذلك كانوا أهل جاهلية ، فاذا نحن اليوم فعلنا فعلهم وسلكنا سلوكهم كنا مثلهم أهل جاهلية جديدة .

إن الامم كالافراد تكون صغيرة ثم تكبر ، وتكون جاهلة ثم تتعلم ، وتكون قليلة الثقافة متقهقرة فى الحضارة ثم تتسع ثقافتها وتترقى حضارتها ، وللطفولة والجهل والتقهقر علامات هى الاهتمام بالمظاهر والغفلة عن حقائق الامور ، لما اكتشف الاسبان أميركة الجنوبية وجدوا فيها أمما غنية جاهلة ، كانت تلك الامم قبائل تستخدم فى حياتها اليومية أواني من الذهب أو الفضة لكثرة ماكان فى أرض تلك القبائل من معدن الذهب والفضة ، فلما رأى الأسبان تلك الأوانى جاءوا الى تلك القبائل بأوان من النحاس والحديد وبعقود من الخرز الملونة وبقطع من النسيج المصبوغ فكانت تلك القبائل الفطرية تفرح بالعقود من الزجاج الملون وبالثياب من النسيج وتتخلى فى سبيل الحصول عليها ، عن أوانيها الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة !! (١) .

---

(١) انظر التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ٨٤ .

المسلمون أمة واحدة

لقد أكد الإسلام أن المسلمين أمة واحدة ، فإذا نحن أغفلنا الجامعة الدينية وتمسكنا بالقوميات المفرقة فإننا سنفقد بلادنا قطرا قطرا ، إن العرب قد فقدوا فلسطين بمنازعاتهم الإقليمية ، ولن يعيدها ، أو لن يعيد العرب اليها إلا الإسلام ،. منذ نحو تسعمائة سنة جاء الصليبيون الى بلادنا واستولوا عليها بأسم الدين ، وأخيرا استطاع صلاح الدين الأيوبى رحمه الله تعالى ان ينقذها من أيديهم ، ولكن صلاح الدين لم ينقذ فلسطين لانه كردى الأصل ، ولا لأنه ملك مصر ، بل لأنه مسلم ، وكذلك فلسطين اليوم ، لم يأت اليها اليهود لأنهم أميركيون أو ألمان أو بولونيون أو روس أو عرب جزائريون أو عرب من اليمن أو عرب من سورية ولبنان ، بل جاءوا اليها بإسم صهيون والصهيونية ، وفى صهيون معنى دينى قبل كل شئ . ثم إن هؤلاء قد تناسوا جميع القوميات التى ينتمون اليها والتى يتكلمون لغاتها ليجتمعوا باسم صهيون ، وإذا نحن راجعنا التوارة لم نجد لكلمة صهيون معنى قوميا ولكن لها معنى دينيا ومما لاريب فيه أن فى « اسرائيل » دولة دينية وأن أهلها أهل دين واحد ، واسرائيل حينما صنفت سكانها وفرقت حقوقهم وامتيازاتهم نظرت الى الدين وحده.. فاليهودى دينا مواطن سواء أكان بولنيا أو عربيا مستعربا من اليمن أو الجزائر أومصر أو لبنان ، بينما العربى من أهل فلسطين إذا لم يكن يهودى الدين فانه معدود فى القلة المجردة من جميع امتيازات المواطن .

ليست هذه دعوة للتفريق بين اتباع الدين الواحد ، ولكننى أريد ان افتح العيون على سياسة الخصوم ، من شروط الظفر أن تحارب عدوك بمثل سلاحه على الاقل ، إن اليهود يستظهرون علينا باليهود فى كل مكان ولا يقولون هذا اليهودى أمريكى أو فرنسى لا يجوز لنا الاستعانة به لنظريات دولية ، إنهم يتخطون خطوط

القوميات باسم الدين ، ولقد رأينا بأعيننا أنهم تغلبوا علينا لأننا مزقنا وحدتنا باسم القوميات[1] .

ومن الأمثلة الإسلامية غزوة بدر التى كانت نصرا عظيما للمسلمين على قومهم ، فانتقل بها الإسلام بالمسلمين من جماعة دينية الى دولة قائمة ، لقد كانت معركة بدر من أجل ذلك أم المعارك التى حملت الإسلام الى اقطار الدنيا ونشرت الحضارة العربية النيرة الخيرة في العالم ، وأما معركة بلاط الشهداء فكانت هزيمة للعرب لان القبائل الجرمانية البرابرة ، والتى لم تكن قد اصبحت دولا بعد ، قد اجتمعت كلها وراء الفرنجة لصد الحضارة العربية المادية والثقافية الزاحفة بأعلامها على الجهل والاستبداد .

ويبدو أن جميع المعارك ، سواء أكانت انتصارات أو هزائم لا تتقرر دائما فى الساعات التى تنشب فيها ولا فى الساعات التى تنتهى فيها ، فلا غزوة بدر ختمت بالنصر الجزئى فى السنة الثانية للهجرة ، ولا معركة بلاط الشهداء ختمت بتلك الهزيمة المشهورة فى سنة ١١٤ للهجرة ، فقد كان بعد معركة بدر معارك الخندق وحنين وفتح مكة ، ثم معارك اليرموك والقادسية ونهاوند وفتح الاندلس والزلاقة وحطين وعشرات المعارك الاخر التى زينت صفحات التاريخ وثبتت اعلام الحضارة الثقافية الإسلامية فى العالم .

وكذلك خاض العرب فى تاريخهم ، بعد بلاط الشهداء ، معارك مختلفة ، فمعركة العقاب فى الاندلس ، ومعركتا انطاكية والقدس فى ايام الافرنج الصليبين ، ومعركة عكا على يد نابليون ، ومعركة نوارين فى بلاد اليونان ، ومعركة بئر السبع فى الحرب العالمية الأولى ، ومعركة ميسلون فى عام ١٩٢٠ وكلها حلقات فى سلسلة المعارك التى خاضها العرب صعودا وهبوطا فى التاريخ .

(١) انظر التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ١٠٤ .

غير ان المعرك الحقيقية لا تنشب في الواقع على ميادين القتال ، إن المعارك التى تنشب على ميادين القتال ليست في الحقيقة سوى مظاهر لتلك المعركة التى تدور فى صدر الأمة قبل أن يدور القتال بين الأمة وأعدائها فى السهول والجبال [1]

انطوى القرن الرابع عشر والمسلمين قضايا لاتزال معلقة : الاستعمار الظاهر والخفى ، حركة التنصير ، الجوع ، فلسطين ، الاحزاب المتصارعة ، الحكم السياسى الضعيف وغير ذلك .

والخروج من هذه القضايا مخرجا كريما إنما يكون بالعلم يحسن ان نتعلم الأمور الضرورية النافعة (متى يبدأ القرن ومتى ينتهى ! القرن مائة سنة ، فإذا بدأنا العد من الواحد فالانتهاء يكون حتما بالمائة ..) .

هنالك جملة واحدة ! إن الذين يتولون أمور المسلمين يجب ان يكونوا على قدر وافر من العلم [2] .

فضل الإسلام على الإنسانية :

ما الذى جلبه الإسلام للانسانية منذ أكثر من أربعة عشر قرن من الزمن ؟

ذلك سؤال هام لا تصعب الإجابة عليه بل قد تطول كثيرا ، ماذا نقول فى فضل الإسلام على الانسانية فى الدين والاخلاق والعلم والفلسفة واللغة والادب والتشريع والعلوم الاجتماعية وغيرها ؟ لقد عرض مثل هذا السؤال لأحمد شوقى سيد الشعراء فى العصر الحديث فقال :

ولا أزيدك بالإسلام معرفة .'. كل المروءة فى الإسلام والحسب .

---

(١) انظر التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٣ .

والحسب هو العمل النبيل .

سأتكلم على فضل واحد من فضائل الإسلام ، على فضل لم نجد مثله ولاقريبا منه فى الاديان السابقة ، إن الإسلام قد حفظ للانسان كرامته .

* **المجوسية** : عدت الانسان « غير مهذب » واخترعت التناسخ (تقلب النفس الواحدة فى اجساد مختلفة من البهائم والسباع والبشر) حتى تتهذب النفس.

* **واليهودية ، والنصرانية** : عدتا الانسان مسؤولا عما فعله سابقوه فى الحياة، منذ آدم ، ففى اليهودية أن اللعنة (أو السوء أو الخطا) « يلحق » بالشخص منذ الجيل السابع السابق عليه ، والنصرانية عدت الانسان قذرا مذنبا ، إن المولود يعمد في نهر الاردن (كما كان المجوسى يغتسل في نهر الكنج فى الهند) ليطهر ، والالمان – فى حركة الايمان الجديدة فى إيام هتلر – رأوا ان يستبدلوا بنهر الاردن (لبعده عنهم) نهر الراين ، إن النصارى عموما ، فى اقطارهم المختلفة ، استعاضوا عن النهر بوعاء يغمس الطفل فى مائه ، وكذلك قالت النصرانية ان المسيح قد جاء ليحمل عن البشر خطيئاتهم ، إن الانسان فى النصرانية مسؤول عن الذنب الذى اقترفه آدم فى الجنة لاقترابه من حواء ، وإن الفرد فى النصرانية لايستطيع ان ينجو فى الاخرة من عذاب النار إلا إذا امن بالمسيح على الطريقة التى اقرتها الكنيسة ، ولايستطيع ان ينجو بعمله هو ، إن جميع هذه الاديان جعلت الانسان قذرا ـ يحتاج الى تطهير) ومذنبا (يحتاج الى تعذيب – عن ذنب اقترفه غيره) وعاجزا لايستطيع ان ينجو إلا بآخر يحمل عنه ذنوبه ، ذنوبه التى اقترفها هو والذنوب التى اقترفها من كان قبله (١) .

(١) التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ١٣٥

أما الإسلام فقد جعل للانسان كرامة إن الانسان يولد طاهرا بريئا من الذنوب ولايسأل إلا عن الذنوب التى يرتكبها هو نفسه ، ثم ان الانسان ينجو فى الاخرة بعمله هو ، وفى القرآن الكريم ، وفى الحديث الشريف شواهد كثيرة على ذلك كله !

ففى القرآن الكريم آيات كثار تدل على مكانة الانسان فى الكرامة وفى الحق وفى المسعى خيرا أوشرا ، فنحاول أن نتأمل الايات التالية (بلا تفسير ، لأنها ظاهرة المعنى) :

* (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (١) .

* (تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ماكسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون) (٢) .

* (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ، وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٣) .

* (يا أيها الناس ، اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ..) (٤) .

وفى حديث رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فى هذا الحديث ان كل طفل « مولود فى أمة من الأمم » يولد

(١) الاسراء : ٧ .
(٢) البقرة : ١٤١ .
(٣) الاسراء : ١٥ .
(٤) لقمان : ٣٣ .

على الفطرة (على الدين الخالص الذى لاشوائب فيه) ثم ان العوامل الاجتماعية من التربية (على يد الابوين والمسلمين والرفاق) يستقر فى الفطرة السليمة أو ينحرف الى الحياة المشوهة .

إن الإسلام قد أحل الانسان فى مقام كريم وأنزله منزلة فاضلة . للانسان فى الاسلام سعيه الشخصى إنه يحاسب على مايعمله هو : إذا احسن عملا أثابه الله على ذلك العمل الحسن خيرا ، وان اساء عملا عاقبه الله على ذلك العمل شرا ، ولا يثاب أحد فى الإسلام ولا يعاقب على عمل عمله أحد غيره ، ولوكان ذلك الشخص والده أو ابنه .

إن الاديان الاخرى تجعل الطفل المولود اليوم مستحقا للعقاب على الخطيئة الأصلية التى جاء بها آدم ، بزعمهم ، إن آدم - عندنا - قد عصى الله لان آدم كان انسانا يصيب ويخطئ ، ولم يكن من العدل عند الله سبحانه ان يخطئ ادم فيعاقب الله الناس كلهم بهذه الخطيئة ، ومع ذلك فإن الله تعالى قد قضى فى عصيان آدم قضاءه ، فقال : (٢٠ : ١٢١ - ١٢٢ ، طه) :

(وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) [١] . فإذا كان الله قد تاب على آدم وهداه (وغفر له خطيئته) ، فما المسوغ لمؤاخذة نسل آدم بذلك الذنب.

إن الإسلام قد جاء الى الناس وخاطبهم بالعقل والحق والعدل والرحمة .

أما الأديان القديمة والوثنية وأما الأديان السماوية التى بأيدى الناس والتى قد بدلها رؤساؤها وجهل أتباعها فإنها لاتقوم حجة فى الحياة الدنيا ولا فى الحياة الأخرى ، أما الذى حمل رؤساء الأديان الاخرى على تحميل الناس ذنوب آبائهم

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢.

وأخواتهم ومعاصريهم وسابقيهم فى الزمن ، فذلك لان تلك الاديان المبدلة قد جعلت الآخرة وحدها هى الغاية من الحياة الدنيا أما الإسلام فجعل لهذه الحياة الدنيا قيمتها والحياة الاخرى قيمتها ! « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ولاحاجة الى الكلام على الفضائل الباقية ، فإن جميع الفضائل الدنيوية مشتقة من هذه الكرامة التى منحها الإسلام للانسان) [١] .

(١) انظر التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ١٣٥ – ١٣٨ .

الخاتمة

أسأل الله عز وجل حسن الخاتمة بعد أن طوفت بك أيها القارئ العزيز وأطلعتك على معابر الثقافة الإسلامية (اسبانيا - صقلية - بلاد الشام) التى عبرت عليها الثقافة فى طريقها الى أوربا .

أختم هذا البحث مشيرا إلى أن جهود المسلمين الجبارة الوثابة فى نشر هذه الثقافة فى كل بلد حلوا بها قد حالفها النجاح ، حتى شهد لهم المؤرخون المنصفون، بعظمة آثارهم وعبقريتهم الفذة ، أرانى أطرح سؤالا : هل من عودة بالعقل العربى المسلم إلى ما كان عليه ؟ أو بمعنى أخر هل ثمة من سبيل للعودة بالعقل العربى المسلم الي ماكان عليه فى ماضى زمانه ؟

نعم فإن الأمم كالأفراد تمر أثناء الحياة فى أطوار مختلفة صعودا وهبوطا فتخمل أو تتقهقر ثم تنتبه أو تترقى ، ولقد ادرك الإسلام هذا القانون الحضارى الثابت فجاء فى الحديث الشريف : « إن الله يبعث الى الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »(١) وفى تاريخ الإسلام مجددون كثيرون يؤلف نفر منهم سلسلة متصلة أو كالمتصلة ، من هؤلاء : عمر بن عبد العزيز والشافعى والاشعرى وأبو حامد الاشفرائينى والغزالى والعز بن عبد السلام وابن تيمية وابن حجر العسقلانى ثم محمد بن عبد الوهاب والشيخ محمد الحوت والشيخ محمد عبده وجمال الدين القاسمى وغيرهم ، كل هؤلاء كانوا يحاولون أن يعودوا بالمسلمين الى الطريق السوى الذى كان المسلمون قد انحرفوا عنه فى الفترات المتعاقبة ، فى العقيدة والعبادة الاخلاق والسياسة ، فكانوا ينجحون في مايقصدون اليه . ولكن ربما تأخر أثر احدهم حينا ، إن الغزالى مثلا قد عرف باسم « حجة الإسلام » فى زمانه ، بينما

---

(١) رواه أبو داود والحاكم .

لقى ابن تيمية فى حياته اضطهادا شديدا ، ولكن فضله ظهر وشيكا بعد موته ثم مازال هو يعد فى طليعة المجددين فى الإسلام (١) .

أن الرقى الثقافى الذى وصل إليه المسلمون فى العصور الوسطى كان الدافع له القرآن الكريم ، وبشارة الرسول ﷺ بهذه الفتوح .

وهذان المصدران مازالا بحمد الله تعالى يقرآن بين ظهرانى هذه الأمة ، أما القرآن فيقول سبحانه :

« وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا .. » (٢) .

ذلك وعد الله ووعده حق وواقع ، ولن يخلف وعده أما حقيقة الإيمان فتؤمن بأن الله سبحانه يعلم سرك وعلانيتك ، وأنه سبحانه لا تغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض . « يعبدوننى لايشركون بى شيئا » من أى أنواع الشرك وألوانه .

أما حقيقة الاستخلاف : فهو فى الإصلاح والتعمير والبناء ، وتحقيق العدل والطمأنينة وتمكين الدين بتمكينه فى القلوب .

وإبطاء النصر والاستخلاف ، والتمكن والأمن فى الأرض إنما لتخلف شرط الله فى جانب من جوانبه الفسيحة ، أوفى تكليف من تكاليفه الضخمة .

حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء ، وجازت الابتلاء ، وخافت فطلبت الأمن ، وذلت فطلبت العزة وتخلفت فطلبت الاستخلاف بالوسائل التى شرعها الله سبحانه

(١) التجديد فى المسلمين لا فى الإسلام ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .
(٢) النور : ٥٥ .

وبشروطه التى قررها تعالى ، تحقق وعد الله الذى لا يتخلف ، ولا تقف فى طريقه قوة من قوى الأرض جميعا .

ومن ثم يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة الزكاة والطاعة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير »(1) .

فهذه هى العدة : الاتصال بالله سبحانه ، وتقويم القلب بإقامة الصلاة وعدم الشح وتطهير النفس بإيتاء الزكاة ، وطاعة الرسول ﷺ بحكمه ..

فإذا استقمتم على النهج فلا عليكم من قوة الكافرين وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم فى طريق ...

إن الإسلام حقيقة ضخمة لابد أن يتدبرها من يريد الوصول الى حقيقة وعد الله سبحانه فى هذه الايات ..

إنه مامن مرة سارت هذه الأمة على نهج الله سبحانه وحكمته فى الحياة ، وارتضته فى كل أمورها إلا تحقق وعد الله سبحانه بالاستخلاف والتمكين والأمن في الأرض ، ومامن مرة خالفت هذا النهج إلا تخلفت فى ذيل القافلة واستبدبها الخوف، وتخطفتها يد الأعداء . ألا وإن وعد الله قائم ، ألا وإن شرط الله سبحانه معروف ، فمن شاء الوعد فليقم بالشرط ، ومن أوفي بعده من الله ؟ (2) .

البشارة التى تحققت :

عن ثوبان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلغ مازوى لى منها وأعطيت الكنزين:

---

(1) النور : ٥٦ : ٥٧ .

(2) انظر تفسير الظلال : جـ٢ ص ٢٥٢٨ ومابعدها .

الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكهم بسنة عامة ، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربى قال يامحمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لايرد ، وأنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو أجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبى بعضهم بعضا »[1] .

إن طريق العودة بالعقل المسلم واضح لاخفاء فيه .

وإليك ماقاله أحد علماء الغرب المنصفين عن عظمة الإسلام وهو : (البروفسور ادوار بروى) أستاذ تاريخ الحضارات فى جامعة السربون فى باريس حيث قال :

« ظهر الإسلام كالشهاب الساطع ، فحير العقول بفتوحاته السريعة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التى انشأها ، نحن أمام شعب ، كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فإذا هو يتحد فى بوتقة الإسلام (الدين الجديد) الذى انطلق من الجزيرة العربية ، فاكتسحت جيوشه فى بضع سنوات الدولة الساسانية (الفرس) وهدت منها الاركان ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية فى اسيا وافريقيا ، ولم تلبث جيوشه بعد قليل أن استولت على معظم اسبانيا وصقلية ، وأن تقتطع الأمد من الزمن - يقصر أو يطول - بعض المقاطعات الواقعة فى غربى أوربا وفى جنوبها ، ودقت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربى .

وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربى الإسلامى ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم ، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام - الضاربة بين سيرداريا والسنغال - ذابت كما يذوب الشمع أمام النار ، بعد أن أطل على الدنيا دين جديد ، له من الاتباع ، والمريدين اليوم مايزيد على ثلاثمائة مليون انسان[2] ، وانجلى غبار الفتح عن امبراطورية جديدة ، ولا أوسع ،

---

(١) رواه الإمام مسلم .

(٢) كان هذا العدد فى عصر الكاتب ، والا فعدد المسلمين اليوم يربو على المليار .

وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدنية ولا أروع ، عول عليه الغرب فى تطوره الصاعد ورقيه البناء ، بعد أن نفخ الإسلام فى قسم موات (من التراث الانسانى القديم) روحا جديدة ، عادت معه الحياة فنبض (أى التراث الانسانى) واشع واسرى ، ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لابد وأن يحتل تاريخ العالم الإسلامى محلا مرموقا فى ثقافة رجل العصر ، كما كان لابد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيدا ، ان المدنية لايقتصر مدلولها على شعب ، أو بلد متحيز فى الزمان (فالتراث الحضارى الانسانى ملك للجميع) وعلى رجل العصر ان يعرف جيدا ، أنه قبل (توما الاكوينى) الذى رأى النور فى ايطاليا طلع (ابن سينا) المولود فى إحدى مقاطعات التركستان ، وان مساجد دمشق وبغداد وقرطبة ، ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتردام فى باريس بزمان ، والا ينتقص من شان العالم العربى الإسلامى (من خلال واقعه الراهن) بل لايزال على الرغم من جزئياته وخصائصه ، تاريخ هذه البشرية الجامعة الجمعاء »[1] .

جميل بالانسان ان يرتفع الى مستوى الانصاف ، والوعى الانسانى ، فيدرك ان التراث الثقافى الانسانى ملك للبشرية وان الاعتراف بالفضل لذويه من شيم النفوس الواعية المنصفة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفقير إلى عفو ربه

د. محمود محمد رسلان .

---

(١) يراجع تاريخ الحضارات العام (المجلد الثالث) فجر الإسلام ص ١٠٩ للبروفسور . ادوار بروى - باريس - وينظر ايضا - مختارات - اللواء مصطفى طلاس ص ٤١ ومابعدها طبع دمشق وأثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ص ١٣٠ ، ١٣١ .

ثبت المراجع

القران الكريم

١ – آثار التبشير والاستشراق علي الشباب المسلم د. جابر قميحة

سلسلة دعوة الحق التى تصدرها رابط العالم الإسلامى . مكة المكرمة العدد: ١١٦ فى ١٤١٢ هـ – ١٩٩١ م

٢ – أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الانسانية أ . روبرت بريفالت

ترجمها وعلق عليها السيد أبو النصر أحمد الحسينى . مكتبة دار الكتب الحديثة – القاهرة ، ١٣٧٧ هـ – ١٩٥٧ م

٣– آدم (عليه السلام) فلسفة تقويم الانسان وخلافته للشيخ البهى الخولى ...

مكتبة وهبة – القاهرة – ط الرابعة ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤م .

٤ – الأصول من علم الأصول الشيخ محمد بن صالح العثيمين

ط الرابعة – ط جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية – ١٤١٢ هـ الرياض.

٥– كتاب (الله) الاستاذ عباس محمود العقاد ...

٦– الله واحد أم ثالوث ؟ محمد مجدى مرجان

دار النهضة العربية . القاهرة ش عبد الخالق ثروت ، بدون تاريخ .

٧– أوربا والإسلام د/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر

منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت ، بدون تاريخ .

٨– مبادئ الثقافة الإسلامية د/ محمد فاروق النبهان

ط . الأولى ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م دار البحوث العلمية الكويت

٩- بيت الحكمة في عصر العباسيين د / خضر أحمد عطا الله

دار الفكر العربى القاهرة ط الأولى ١٩٨٩.

١٠- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي د/ حسن ابراهيم حسن

ط العاشرة ١٩٨٣ مكتبة النهضة المصرية .

١١- التاريخ الاندلسي من الفتح الإسلامي حتي سقوط غرناطة

د. عبد الرحمن على الحجى .

دار القلم دمشق ط الرابعة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م

١٢- تفسير الظلال : سيد قطب

ط دار الشروق ، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م

١٣- الثقافة الإسلامية دراسة تأصيلية لمضمون الرسالة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة . د. عبد الواحد محمد الفار

سلسلة الكتاب الجامعى دار الطباعة والنشر . الرياض ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

١٤- جذور البلاء : عبد الله التل

ط الثالثة ، المكتب الإسلامى . دمشق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .

١٥- الحروب الصليبية أرنست باركر

نقله الى العربية د. السيد الباز العرينى كلية الاداب جامعة القاهرة ، دار النهضة العربية بيروت ط. الرابعة ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م .

١٦- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية د. توفيق يوسف الواعى

ط الأولى ط دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع بالمنصورة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٧ – حضارة العرب د/ غوستاف لوبون
نقله الى العربية : عادل زعيتر ، ط بمطبعة عيسى الحلبى بدون تاريخ .
١٨ – أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم . لمؤلف مجهول .
طبع فى مدينة مجريط ، ط ريدنير ١٨٦٧ م مكتبة المثنى ببغداد .
١٩ – دراسات في الثقافة الإسلامية مدخل الي الدين الإسلامي د/ أمير عبد العزيز
دار الكتاب العربى بيروت لبنان ، مكتبة إحياء التراث الإسلامى ، مكة المكرمة بدون تاريخ .
٢٠ – الدعوة الي الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية
تأليف : سير توماس ، و . أرنولد
ترجمه إلى العربية د/ حسن ابراهيم وآخرين ، ط الثالثة القاهرة . ١٩٧٠
٢١ – الدين . د/ محمد عبد الله دراز ، ط دار القلم الكويت .
٢٢ – التربية الإسلامية وفلاسفتها : محمد عطية الابراشى
ط الثالثة ، ط . عيسى الحلبى مصر ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥م
٢٣ – روح المعاني محمود شكرى الألوسى
٢٤ – الاسلام عقيدة وشريعة للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت
ط الشروق ، ط السادسة عشرة ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م القاهرة .
٢٥ – الاسلام في قفص الاتهام : شوقى أبو خليل
ط الرابعة دار الفكر . دمشق ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م
٢٦ – الاسلام والثقافة العربية في أوربا : عبد الفتاح مقلد الغنيمى
عالم الكتب القاهرة ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩م

٢٧- الإسلام منقذ الانسانية : محمد عطية الابراشى

مكتبة مصر ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م

٢٨- الإسلام ومشكلات الحضارة : سيد قطب

دار الشروق ، القاهرة - بدون تاريخ

٢٩- السنة ومكانتها في التشريع د. مصطفى حسنى السباعى

ط الثانية ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

٣٠- شرح العقيدة الطحاوية للقاضي علي محمد الدمشقي

تحقيق وتعليق وتخريج وتقديم د/ عبد الله عبد المحسن التركى ، وشعيب الارنؤوط .

٣١- المستشرقون الألمان تراجمهم وما اسهموا به في الدراسات العربية

دراسات جمعها وشارك فيها : صلاح الدين المنجد جـ١ دار الكتاب الجديد بيروت - لبنان ط الأولى ١٩٧٨ .

٣٢- شمائل الرسول ﷺ للامام أبى الفداء اسماعيل بن كثير

تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، ط الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م ، ط حسان القاهرة

٣٣- صلة الإسلام بإصلاح المسيحية للشيخ أمين الخولى

بحث قدم والقيت خلاصته فى مؤتمر تاريخ الأديان الدولى السادس فى مدينة بروكسل سنة ١٩٣٥م ط الأزهر ١٩٣٩ م.

٣٤- معجم ألفاظ القرآن الكريم للاستاذ فؤاد عبد الباقى رحمه الله تعالى

٣٥- معارج القبول بشرح سلم الوصول الى علم الأصول في التوحيد

للشيخ حافظ بن أحمد حكمى

تصحيح وتعليق الشيخ صلاح محمد عويضة ، وتخريج أحاديثه أحمد بن يوسف القادرى ، ط الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١ م ، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.

٣٦- العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى : الاندلس - صقلى - الشام

د/ حسان حلاق

ط ، الدار الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦ م.

٣٧- معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان

ط الخامسة عشرة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٣٨- التغريب في التعليم في العالم الإسلامي د/ محمد عبد العليم مرسى

ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م .

٣٩- تفسير النسفي للامام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى

دار إحياء الكتب العربية ، عيس الحلبى بدون تاريخ .

٤٠- فضل الإسلام علي الحضارة الغربية : مونتجمرى وات

نقله الى العربية حسين أحمد أمين دار الشروق ، ط الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م القاهرة

٤١- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاسعمار الحديث د/ محمد البهى

ط الثامنة ، مكتبة وهبة القاهرة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

٤٢- المقدمة لابن خلدون

ط الرابعة ، دار احياء التراث العربى بيروت - لبنان بدون تاريخ .

٤٣ – اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم
لشيخ الإسلام / أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية
تحقيق د/ ناصر عبد الكريم العقل ، ط الأولى ١٤٠٠ هـ ، ط شركة العبيكان للطباعة والنشر ، الرياض .
٤٤ – المكتبات في العالم تاريخها وتطورها حتي مطلع القرن العشرين
د/ محمد ماهر حمادة.
دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م
٤٥ – الكامل في التاريخ : الشيخ العلامة عز الدين الشيباني المعروف بابن الأثير
دار صادر بيروت – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م.
٤٦ – من روائع حضارتنا د/ مصطفى حسنى السباعى
ط الثالثة – ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨م دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان
٤٧ – التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامي
الترجمة الكاملة لاعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى مدينة جلين آيرى بولاية كولورادو فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨م ونشرته دار MARC للنشر بعنوان : The Gospel and Islam A 1978 Compenendivm.
٤٨ – نيل السول من تاريخ الأمم وسيرة الرسول ﷺ
نظم الشيخ حافظ بن أحمد الحكمى
مطابع البلاد السعودية مكة المكرمة بدون تاريخ .
٤٩ – كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والاثار المعروف بالخطط المقريزية
للشيخ تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى .
دار صادر بيروت . بدون تاريخ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

إيداع : ٩٥/٥٧٨٩

دولى: I. S. B. N. 977- 05- 1375 - X

كمبيو جرافيك
آرت سنتر
للجمع التصويرى والطباعة المتميزة
أمتداد رمسيس ١- عمارة ١٨- القاهرة - ت : ٢٦٢٠١٧٦